شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

المجلد الأول

مكتبة الطبري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

شرح

القصيدة النونية

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

حقوق الطبع محفوظة للناشر

سنة الطبع : ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

رقم الإيداع : ٧٦٩٧ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى

مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزه

الجوال: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ١٠٦٦٨١٠٧٩

فاكس: ٠٢٢٢٩٩٩٣٦٠ - ٢٢٢٩٩٩٣٨٠

tabari24@gmail.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

وبعد، فإنه مما لا شك فيه أن علم العقيدة من أشرف العلوم حيث إن شرف العلم بشرف المعلوم، وما من علم أشرف وأفضل من علمٍ يعرفك بالله ويقربك منه.

وإن من دواعي اعتزازنا أن نقدم للعالَم الإسلامي عملًا يقرر أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة والمنهج وسلامة المعتقد لا سيما في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل والصحيح بالسقيم، ولم نجد عملًا نعتز به أفضل من شرح العلامة السعدي وكذلك شرح العلامة محمد بن صالح العثيمين على متن القصيدة النونية للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم ومحاربة أهل البدع والفرق الضالة ـ التي ضلت في باب من أبواب العقيدة ـ ذلكم العمل العظيم الذي قام به أجل العلماء في العصر الحالي رحمهما الله تعالى.

ومما أثرى مادة الكتاب أنْ حلَّيْنا هذين الشرحين بتعليقات مهمة ومفيدة، للعلامة محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لتكتمل الفائدة.

ونحن نتقدم بالشكر لكل من أسهم في إثراء هذا العمل المبارك وعلى رأسهم فضيلة الشيخ الدكتور/ **عبد المنعم إبراهيم** الذي قدم لهذا العمل بمقدمة رائعة ذكر فيها الشروحات التي على النونية ومزاياها والمآخذ التي أخذت عليها، وكذلك تحدث عن بعض الفرق التي خالفت منهج أهل السنة والجماعة.

وقد بذل قسم البحث العلمي بدار الطبري جهدًا عظيمًا في خروج هذا العمل بهذا الشكل المبارك ـ الذي نسأل الله أن يكون نافعًا ومقبولًا ـ.

ونحن ـ إن شاء الله ـ نعد القارئ الكريم بأن نقدم الأعمال الجديدة التي تسهم في إثراء المكتبة والتراث الإسلامي ، من كتب العقيدة والفقه والتفاسير التي قام بتأليفها علماء أهل السنة والجماعة، وعلى رأسهم علامة العصر الذي لا نظير له في وقته فيما قدَّم للإسلام والمسلمين من علمٍ نافع مبارك ألا وهو العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

والحمد لله على منته وكرمه، وفضله وإنعامه علينا بخدمة هذا العمل المبارك ونسأله تعالى القبول والسداد والهدى والرشاد، وأن ننال ثوابه يوم البعث والمعاد، إنه خير مسئول وأكرم مأمول.

وكتبه

أشرف بن كمال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذلِّ وما كان معه من إله، إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض لا إله إلا هو، لا خالق غيره ولا رب سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى ألا يُعبدَ إلا إياه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سورة الحج: الآية: ٦٢].

الحمد لله الذي رضي الإسلام للمؤمنين دينًا، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبيينًا: وغرس التوحيد في قلوبهم فأثمرت بإخلاصها فنونًا، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هاديًا ومعينًا.

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبره تكبيرًا.

الحمد لله العلي العظيم، الحليم، الكريم، السميع، البصير، اللطيف، الخبير، ذي النعم السوابغ، والفضل الواسع، والحجج البوالغ، تعالى ربنا عن صفات المحدودين وتقدَّس عن شبه المخلوقين، وتنزه عن مقالة المعطِّلين، علا ربنا فكان فوق سبع سماواته عاليًا، ثم على عرشه استوى، يعلم السرَّ وأخفى، ويسمع الكلام والنجوى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا في لجج البحار ولا في الهواء.

الحمد لله الذي أنزل القرآن بعلمه وأنشأ خلق الإنسان من تراب بيده، ثم كوَّنه بكلمته، واصطفى رسوله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بخلته، ونادى كليمه موسى صلوات الله عليه فقربه نجيًّا وكلَّمه تكليمًا، وأمر نبيه نوحًا ـ صلوات الله عليه ـ بصنعة الفلك على عينه، وأخبرنا أن أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه كما أعلمنا أن كلَّ شيء هالك إلا وجهه، وحذَّر عباده نفسَه التي لا تشبه أنفس المخلوقين.

الحمد لله الذي نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججًا، وحجب العقول والأبصار أن تجد إلى تكييفه منهجًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله إلهًا واحدًا فردًا صمدًا قاهرًا قادرًا رءوفًا رحيمًا لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكًا في ملكه، ولا سميَّ له ولا كفؤ له، العدل في قضائه، الحليم في فعاله، القائم بين

خلقه بالقسط، الممتن على المؤمنين بفضله، بذل لهم الإحسان وزيّن في قلوبهم الإيمان، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأنزل على نبيِّه الفرقان، علَّم القرآن، فتمتْ نعماء ربنا ـ جل وعلا ـ وعظمت آلاؤه على المطيعين له، فربنا ـ جل ثناؤه ـ المعبود موجودًا والمحمود ممجدًا ولا يحصي أحدٌ ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما أثنى عليه خلقه، شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله، وأسمائه وصفاته مبتهجًا، ولم يدع إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجًا.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ المصطفى ونبيُّه المرتضى، اختاره الله لرسالته، ومستودع أمانته، وجعله خاتم النبيين، وخير خلق ربِّ العالمين، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على كلِّ دين، فهدى به إلى أقْومِ الطرق وأوضح السبُل وفرض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلى جنته جميع الطرق فلم يُفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذِّلة والصغار على مَنْ خالف أمره، بعثه بالكتاب المسطور في اللوح المحفوظ فبلَّغ عن الله ـ عز وجل ـ حقائق الرسالة، وأنقَذ به أمته من الردى والضلالة، ففتح برسالته أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا، حيث دعا إلى الله على بصيرة، وسار في الأمة ـ بالعدل والإحسان والخُلق العظيم ـ أحسن سيرة، إلى أن أشرقت الأرض برسالته بعد ظلماتها، وتألفت القلوب بها بعد شتاتها، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار، فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى قبضه إلى كرامته، ومنزلة أهل ولايته، الذين رضي أعمالهم، حميدًا رضيًّا سعيدًا، سبق له منه السعادة في اللوح المحفوظ، والإمام المبين قبل أن ينشئ الله نسمته فعليه صلوات الله وسلامه حيًّا محمودًا وميتًا مفقودًا أفضل صلاة وأنماها وأزكاها وأطيبها صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء وجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء وأبقى في العالمين محبته، وفي المقربين مودته، وجعل في أعلى عليين درجته ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين.

أما بعد:

فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضَّلهم على سائر خليقته فهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح في السماء فلا تزال هذه الشجرة تخرج

ثمرها كلَّ وقت بإذن ربها من طيِّب القول وصالح العمل[1]، من ذلك: هذه المنظومة المباركة المُسمَّاة بـ«الكافية الشافية في الانتصار للفرْقة الناجية»، التي حوت مسائل سَنيَّةً في العقيدة السلفية السُنيَّة، والتي لم يَنْسج ناسجٌ على منوالها، ولم يأتِ آتٍ بمثلها، فهي تُعد بحقٍّ كرامة من كرامات الشيخ الإمام، والعمدة القدوة الهُمام، وتلميذ شيخ الإسلام والمسلمين، الناسك الزاهد شمس الدين، المعروف بـ: (ابن القيم الجوزية)، وهذه المنظومة التي اختار لها ناظمُها (البحرَ الكاملَ)[2]؛ جاء فيها أيضًا الردُّ الكاملُ على المذاهب والآراء المنحرفة، ومعظم البدع والأهواء المختلفة، حيث بلغت أبياتُها زهاءَ ستة آلاف بيتٍ، شملت معظمَ أبوابِ العقائد، مع ما تضمنت في أضعاف ذلك من حكمٍ وزوائدَ فرائد، مع إطالة النَّفس في كثير من المسائل لا سيما الاستواء والكلام، مع حشدٍ هائلٍ من الأدلة والبراهين المستقاة من النقل الصحيح من الكتابِ والسُّنَّة والعقل الصريح، وهي مع اتسامها بالطابع العلمي، إلَّا أنها خلت من الجفاف؛ لما تضمنتها من فصولٍ سهلةٍ ممتعةٍ، بدأها المصنِّفُ بخطبة نثريةٍ كشف فيها عن أهمية معرفة الله ومحبته وذكره، وأنه لا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أسماء الله وصفاته ، ثم ذكر أن القلوب في ذلك نوعان:

١ - قلب مُعظِّمٌ لربه، عالمٌ بأسمائه وصفاته وفي ذكرها قُوته وحياته وقُرة عينه.

٢ - وقلبٌ جاهل مصدودٌ عن معرفة ربِّه؛ لكونه ينكر الأسماء والصفات ويسومها تعطيلًا وتأويلًا.

ثم شرع بعد ذلك في «المنظومة» وسنفرد له فصلًا مستقلًّا في الدراسة موضوع البحث.

وتلقَّى علماء التوحيد من أهل السُّنة بالقبول، تعرَّض كثير لها منهم بالشرح والتعليق، والبعض الآخر استفاد منها في شروحه وحواشيه، كما سيأتي ذلك أيضًا بشيءٍ من التفصيل.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أهمية هذا النظم المبارك، وعلى موضوعة وأسلوب عرضه السهل الممتنع المتلألأ بلاغةً وخِفَّة؛ لذلك ولغيره نشطت أنا وإخواني في قسم التحقيق بمكتبة الطبري للنشر والتوزيع على إخراج شرحٍ جديد لهذه المنظومة لم يُطبع من قبل، وهو للشيخ مجدِّد الدِّين ابن عثيمين رحمه الله تعالى؛ حيث قمنا بتفريغ أشرطته ، والاعتناء بها، وجعلناها الأصل في

(١) يراجع هذه المقدمة في مقدمة كتابي «مغني المريد» ط. نزار.

(٢) تفعيلة بحر الكامل هي: مُتَفَاعِلُنْ متفاعِلُن متفاعِلُنْ مُتَفَاعِلُن مُتَفَاعِلُن مُتَفَاعِلُنْ.

- ويستعمل تامًّا ومجزوءًا، ومنه قوله الشاعر،

وإذا صحوت فما أقصر عن نـدى ... وكما علمت شمائــلي وتكــرُّمي

هذا العمل، وكان المقصد جَمْعَ كل ما وقفنا عليه لها من شروحٍ وضمها مع شرح الشيخ ابن عثيمين، ليخرج العمل كاملًا متكاملًا جامعًا لشروح «النونية»، إلا أنه لضيق الوقت أخرجنا الشرح الأُمَّ لابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ، ثم وضعنا قبلَ كلِّ فصلٍ أو مجموعةٍ من الأبيات شرح الشيخ السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ كتمهيدٍ وشرح مجملٍ لهذا الفصل، ثم تأتي الأبيات وبعدها شرحُ العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، وما لم يتعرض له الشيخُ بالشرح لإيجازه وعدم تطويله وعدم التكلم على كل كلمة وكل بيت كما اشترط ذلك في أول «شرحه» حتى لا يستغرق وقتًا طويلًا في شرح هذا الكتاب وتضيع الفائدة المرجُوَّةُ من دراسته فيه.

الحاصل:

أنه ما لم يتعرض الشيخ لشرحه أتينا به غالبًا من شرح الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ ، وشرح ابن عيسى رَحِمَهُ اللَّهُ.

هذا: بالإضافة «للكافية الشافية» بإشراف الدكتور / بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ .

وكان من جملة ما وضعناه: العناية بشرح الغريب في اللغة ـ ما أمكن ـ.

بالإضافة إلى تراجم الأعلام وغيرهم ممَّن تعرَّض الناظمُ والشرَّاحُ لذكرهم، مع تخريجٍ موجز والعزوِ أحيانًا إلى مواطن التخريج المطوَّلة لمن أراد المزيد.

هذا؛ مع عمل دراسة حول الكتاب وموضوعه، وشُرَّاحه، ومنِ استفاد منه من كتبٍ مطبوعةٍ أو مخطوطةٍ، بالإضافة إلى مسائل أخرى متعلقة بدراسة موضوع الكتاب، من ذلك، وضعُ فصولٍ مهمةٍ حول الفِرَقِ ورءوسها وأئمتها وبداية نشأتها وأهمَّ ما تميَّزت به من مناهج ومسالك خالفت فيها أهل السُّنة، مع عرضٍ مجملٍ لمنهج أهل السُّنَّة وجهودهم للتصدّي لأهل البدع والأهواء على مرِّ التاريخ الإسلامي.

هذا؛ واللهَ أسألُ أن يضع لهذا العملِ القبولَ، ويَجزي كلَّ من شارك فيه وفي إعداده وفي نشره خيرَ الجزاء، فهو خيرُ مسئولٍ وأقربُ مأمولٍ، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

خطة العمل في
شَرْحُ القَصِيدَةِ النُّونِيَّةِ

أولًا: فرَّغنا شرائط الشيخ ابن عثيمين وصِغناها في صورةِ كتابٍ مقروءٍ.

ثانيًا: أوردنا متن القصيدة كاملًا مَشْكُولًا.

ثالثًا: تمهيدٌ ودراسةٌ حول بعض المسائل المتعلقة بـ«النونية» منها:

١- اسم المنظومة.

٢- مجراها.

٣- نسبتها لابن القيم.

٤- منهج ابن القيم فيها.

٥- ثناء العلماء عليها واستفادتهم منها والتعرض لشرحها والتعليق عليها.

٦- الذَّب عنها ضد من حاول الطعن فيها ولمز صاحبها ونحو ذلك من مسائل.

رابعًا: عمل دراسة حول الفرق: أصولها، ونشأتها، ومناهجها، وأسبابها، وتاريخها، ونحو ذلك.

وجاء فيه:

- نبذة مختصرة في تاريخ الفرق والعقائد والمؤلفات في ذلك.
- مباحث حول الفرق والأهواء.
- إخبار النبي ﷺ عن وقوع الافتراق والأهواء وتحذيره من ذلك.
- خوف النبي ﷺ على أمته و تحذيره من أصول البدع.
- إخبار النبي ﷺ عن أول فتنة تقع في الأمة.
- تحذير النبي ﷺ كذلك مما وقع فيه أهل الكلام.
- نهي النبي ﷺ عن الخوض فيما سكت عنه الشرع.
- حتمية وقوع الافتراق.
- ليس كل الفرق الهالكة خارجة عن الملة ولا كافرة.
- دعوى كل فرقة أنها الناجية مردودة بالنصوص.
- أهم أسباب وقوع طوائف من الأمة في الأهواء والفرقة.
- أول أصل افترقت به الفرق الأولى.

- البدع الاعتقادية والقولية أسبق من البدع العملية.
- الفِرَقُ الكبرى (أمهات الفرق).
- الفرق والمذاهب والاتجاهات المعاصرة.
- خصائص الفرق وسماتها.
- جماع أصول الفرق ومناهجها.
- الملامح العامة لمناهج أهل البدع والأهواء وأصولهم وسماتهم.
- أهم الملامح الخاصة لأهل البدع والأهواء المتعلقة بالكتاب.
- أهل الأهواء والافتراق بين الإفراط والتفريط.
- الأصول الكبرى التي يخالف فيها أهل الأهواء السنة.
- الأصل في مناهج أهل الأهواء الباطلة وإن وجد عندهم شيء من الحق.
- أهل البدع والأهواء والافتراق قد ينتسبون للسنة.
- قاعدة في التمييز بين أهل السُّنة وأهل الأهواء.
- مراحل ظهور الأهواء والبدع وتطورها.
- ما من بدعة تظهر إلا يقيض الله من يتصدى لها.

خامسًا: قمنا بعمل تراجم لشرَّاح القصيدة النونية الذين قد أفدنا منهم.

سادسًا: وضع شرح الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كمقدمة وتمهيدٍ لكلِّ فصلٍ تعرَّض له الشيخ السعدي بالشرح في «النونية».

سابعًا: استفدنا أيضًا من شرح ابن عيسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاستكمال لفوائد العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثامنًا: استفدنا أيضًا من كتاب «توحيد المقاصد» والذي أشرف عليه فضيلة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تاسعًا: ترجمنا بتراجم للفِرَقِ المذكورة في القصيدة «النونية» على قدر الإمكان.

عاشرًا: قمنا بتخريج الأحاديث المرفوعة الوارد ذكرُها في الكتاب.

حادي عشر: أفدنا من شرح الدكتور/ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد وضعنا شرحه في حاشية الكتاب.

ثاني عشر: قُمنا بشرح الغريب في اللغة مع العزو للمصادر.

ثالث عشر: قمنا بتوضيح بعض الكلمات الغامضة.

رابع عشر: وقد اعتمدنا في ضبط المتن متن القصيدة النونية على النسخة التي أشرف عليها الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث إنها نسخة جيدة ومُقابلة على عدة نسخ خطية.

خامس عشر: قمنا بعمل فهارسَ لموضوعات الكتاب ومحتوياته.

أخيرًا: خرج الشكل النهائي للكتاب في الصور الآتية:

أ- وضع شرح الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتمهيدٍ بين يدي كلِّ فصلٍ أو مجموعةٍ من الأبيات.

ب- وضع شرح الشيخ ابن عثيمين تحت كلِّ متنٍ يخصُّ الشرح.

جـ- وضع الإفادات من العلامة محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وابن عيسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«توضيح المقاصد»؛ وذلك كله في حاشية الكتاب.

❁ ❁ ❁

تمهيد ومسائل متعلقة بـ«المنظومة النونية».

١ - اسم المنظومة:

قد سمَّاها المؤلف في مقدمتها، وذكرها في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» في معرض بحثه للاستواء فقال: «وقد أَشْبَعْنا الكلام على هذه المسألة واستيفاء الحُجج لها، وبيان ما في ذلك من كتاب: (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية).

وذكرها غيرُه من أهل العلم كذلك بهذا الاسم.

وقد اشتهرت بذلك الاسم وباسم: «النونية» أو «النونية في السُّنة» كما سمَّاها ابنُ رجب[١].

٢- البحر الذي انتظمه والتزمه الناظم في «المنظومة النونية»:

قال ابن عيسى[٢]:

بحر هذه المنظومة المباركة هو الكامل وهو مبني من ستة أجزاء:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

حُكمُ المَحَبَّةِ ثَـابتُ الأركَــانِ	مَــا للصُّدُودِ بِفَسخِ ذَاكَ يَـدَانِ
أنَّى وَقَاضِي الحُسنِ نفَّـذ حُكمَها	فَـلِذَا أَقَـرَّ بِـذَلِـكَ الخَصمـانِ
وَأتَت شُهُودُ الوَصلِ تَشهَـدُ أنـه	حَقًّا جَرَى فـي مَجلِسِ الإحسـانِ
فتأكَّدَ الحُكمُ العزيـزُ فَلَـم تَجِـد	فَسخُ الوُشَـاةِ إلَيهِ مِن سُلطَـانِ
وَلأجلِ ذَا حُكمُ العَذُولِ تَداعت الـ	أركَــانُ مِنـهُ فَخَـرَّ للأذقَــانِ
وأتى الوُشاةُ فَصادَفُوا الحُكمَ الذِي	حَكَمُــوا بِـــه مُتَيَقَّـنَ البُطــلانِ

٣- عدد أبياتها:

ذكر كل من ترجم لابن القيم أنها في نحو ستة آلاف بيتٍ شعريٍّ، وخطَّأ الدكتور/ بكر أبو زيد ما جاء عن الصفدي في «الوافي بالوفيات» وأنها ثلاثة آلاف بيت وقال: تصحَّف على الطابع، بدليل أن ابن تغربيردي ـ تلميذ الصفدي ـ نقل في كتابه «المنهل الصافي» كلام شيخه في «الوافي»، وذكر أنها نحو من ستة آلاف بيت، وعدَّها الدكتور بكر فكانت ستة آلاف إلا واحدًا وخمسين[٣].

---

(١) انظر: كتاب «ابن القيم الجوزية: حياته، آثاره، موارده» (ص ٢٨٧) للدكتور بكر أبو زيد، و«الكافية الشافية» بإشرافه (ص ٩)، وفي هذا الموضع: توثيق لنسبة الكتاب إلى مؤلفه.

(٢) «توضيح المقاصد» (ص ٢٤).

(٣) «ابن القيم الجوزية» حياته وآثاره، وموارده (ص ٢٨٧، ٢٨٨).

٤ - بناءُ الكتاب وعرضٌ إجمالي لبعض مباحثه الهامّة:

* خطبة الكتاب:

افتتح المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بخطبة نثرية كشف فيها عن أهمية معرفة الله سبحانه وتعالى ومحبته وذكره وطلب الزُّلفى عنده، وأنه لا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أسماء الله وصفاته. ثم ذكر أن القلوب في ذلك نوعان: قلب معظم لربّه عالم بأسمائه وصفاته، وفي ذكرها قوته وحياته وقرة عينه، وقلب جاهل مصدود عن معرفة ربه؛ لكونه ينكر الأسماء والصفات ويسومها تعطيلًا وتأويلًا.

ثم حكى مناظرة وقعت بين مثبت للصفات ومعطلٍّ لها، وأظهر الله فيها المثبت على المعطل. فعزم المؤلف على عقد محاكمة منظومة بين المعطل والمثبت، يقف عليها القريب والبعيد، وينتفع بها المسلمون في كل زمان ومكان. وقبل الشروع في المنظومة ضرب عشرة أمثال تبيّن حال المعطل والمشبّه والموحّد في عبارة موجزة محكمة.

* مقدمة المنظومة:

استهل الناظم قصيدته بمقدمة غزلية في الظاهر، ومطلعها:

حكمُ المحبَّةِ ثابتُ الأركـــانِ ما لِلصُّدودِ بفسخِ ذاكَ يـــدانِ

ولكنه عنى بالمحبة محبة الله عز وجل، فإنها هي التي لا تزول أركانها، ولا يتزعزع بنيانها. ثم تخيل - على ما جرت به عادة الشعراء - أن زائرة حسناء قطعت مسافة طويلة من بلاد الشام مارّة بمدينة الرسول ﷺ، حتى وصلت إلى مكة المكرمة، وطرقت محبّها العاني في داره القريبة من الصفا، وحدّثته بلوعتها واشتياقها إليه حديثًا معجبًا ظنّه صدقًا، وفرح به فرحًا. قال:

فعجبتُ منه وقلتُ مِن فرحي بـــه طمعًا، ولكنّ المنـــامَ دَهـــانـــي
إن كنتِ كاذبـــةَ الـــذي حدّثتني فعليكِ إثـــمُ الكاذب الفتّـــانِ
جهم بـن صفوانٍ وشيعته الألـــى جحدوا صفاتِ الخالقِ الـمنـــانِ

وهكذا تخلّص إلى موضوع القصيدة تخلّصًا بارعًا ، ليبيّن عقائد الجهمية بالتفصيل من البيت ٤٠ إلى البيت ١٨٧.

* بداية المحاكمة:

ثم عقد مجلس التحكيم، وقدم بين يديه ذكر الأوصاف والآداب التي ينبغي لطالب الحق أن يتحلى بها عند المناظرة (١٨٨- ٢٦٠)، والحكمان في هذا المجلس: النقل الصحيح، ثم العقل الصريح مع الفطرة السليمة. وقد أَحْضَر في المجلس خمس طوائفٍ وبيَّن عقائدهم وآراءهم وهم:

١ - الاتحادية (٢٦٥ ـ ٣١٢).

٢- الحلولية (٣١٣ـ ٣٢١).
٣- نُظَّار الجهمية والمعتزلة وبعض متأخري الأشاعرة (٣٢٢ـ ٣٥٠).
٤- نظَّار جرّهم مذهبُ الجهم إلى الزندقة (٣٥١- ٥٠٥).
٥- رَكْبُ الإيمان وعسكر القرآن (٥٠٦ـ ٥٩٦).

ولما بيَّن مذهب الطائفة الخامسة ـ وهم أهل الحق ـ في أسماء الله عز وجل وصفاته ردّ على مذاهب المخالفين من الجهمية وغيرهم بالإجمال. ثم تناول صفتين من صفات الله عزَّ وجلَّ بالتفصيل، وهما: صفة الكلام، وصفة العلو، وفيما يلي عرض لهاتين المسألتين:

* مسألة كلام الله تعالى:

كانت مسألة كلام الله من أعظم المسائل التي اشتجرت فيها آراء طوائف المتكلمين، وهي التي نجمت منها فتنة خلق القرآن التي امتُحِنَ بها الإمام أحمد وغيره من علماء السلف رحمهم الله. وقد استغرقت هذه المسألة نحو خمسمائة بيت من هذه القصيدة النونية (٥٥٦ـ ١٠٤٥).

جمع فيها الناظم أقوال الطوائف، ورتّبها، وأحسن غاية الإحسان في عرضها وتفصيلها بما لا يكاد يوجد عند غيره، حتى إنه قال بعدما استوفاها عرضًا وتحليلًا:

هذي مقالاتُ الطوائفِ كلها ... حُمِلَتْ إليك رخيصةَ الأثمانِ
وأظنّ لو فتَّشتَ كتبَ الناس ما ... ألفيتها أبدًا بهذا التبيانِ
زُفَّتْ إليكَ فإن يكن لك ناظرٌ ... أبصرتَ ذاتَ الحسنِ والإحسانِ

وقد شرع رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مسألة كلام الله تعالى بذكر مَنْشَأ الخلاف وهو أن كلام الله بمشيئة أو لا؟ ثم هل كلام الله في ذاته أو خارج ذاته؟ ثم ذكر مذاهب الأشاعرة والكُلَّابية، والاقترانية، والجهمية والمعتزلة، والكَرَّامية. ثم ذكر مذهب أهل الحق والأدلة عليه. وأشار في خلال ذلك إلى الردِّ على المخالفين.

ثم بدأ في الرد المفصَّل على المنكرين لصفة الكلام. فذكر أولًا ما يلزمه نفيهم لهذه الصفة من لوازم تقدح في أصل الشريعة. فعقد فصلًا في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام، وآخر في إلزامهم تشبيه الله سبحانه بالجماد الناقص، وفصلًا في إلزامهم بأن كلام الخلق حقه وباطله عين كلام الله سبحانه.

ثم بَيَّن في معرض ردِّه على منكري كلام الله الفرق بين ما يُضاف إلى الرب تعالى من الأوصاف والأعيان. والفرق بين القراءة والمقروء واللفظ والملفوظ في القرآن، وأورد في أثنائه رأي ابن حزم والفخر الرازي.

ثم عرض مقالة الفلاسفة والقرامطة في كلام الله تعالى، وأشار إلى معتقدهم في الرسالة. ثم

ذكر مقالات طوائف الاتحادية في كلام الله تعالى وحقيقة قولهم.

ثم شرع في مناقشة هذه الطوائف والرد عليها. فبدأ ببيان فساد قول الجهمية ومخالفته للنقل والعقل والفطرة واللغة. وأورد خلال تشنيعه عليهم اعتراض الجهمية على مذاهب غيرهم من الاقترانية والأشاعرة والكلابية.

ثم ذكر الأصلين اللذين قام عليهما نزاع الناس في كلام الله تعالى: أولهما أن فعل الرب هو مفعوله، والثاني أنه غير مفعوله، وذكر القائلين بكل من القولين. ثم بين فساد قول الكرامية في كلام الله وردّ عليهم وعلى غيرهم في أفعال الله. وأشار خلال ذلك إشارة مجملة إلى بطلان قول الفلاسفة بقدم العالم. ثم ذكر خطر المعطلة من الفلاسفة وغيرهم، وحربهم لله وللدِّين وكيدهم للمسلمين، وضرب مثالًا بفعل واحد منهم وهو نصير الدين الطوسي، وما أوقعه على المسلمين في سقوط بغداد من تقتيل وتشريد وسلب ونهب (الأبيات (٩٢٨ ـ ٩٤٦).

ثم بدأ الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد المفصل على قول الفلاسفة بقدم العالم فذكر أربعة أدلة على بطلان قولهم، ثم أبطل اعتراض المتكلمين على القول بدوام فعل الرب تعالى وكلامه أزلًا وأبدًا، وتوسع خلال ذلك ببيان شبهتهم وما لزم كلامهم من الباطل كالقول بفناء الجنة والنار وغير ذلك، ثم ردَّ عليهم من وجوه كثيرة (الأبيات ٩٥٦ ـ ١٠١١) ثم عقد فصلًا في الرد على أهل الكلام في استدلالهم على إثبات الصانع بدليل الجواهر والأعراض المقطوع به عندهم. وبيَّن بطلان هذا الدليل وفساده واستغناء المسلمين بأدلة الكتاب والسنة عنه، وأنه فتح للطاعنين في الدين والمحاربين له بابًا للكيد للإسلام.

* مسألة علو الله تعالى على خلقه:

بعدما انتهى الناظم من إيضاح الحق في مسألة كلام الله تعالى، والردِّ على المخالفين والمبتدعين، انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بحث مسألة أخرى مهمة من مسائل العقيدة، زلَّت فيها أقدام ، وضلَّت فيها أفهام، ولم ينجُ من الانحراف فيها إلَّا من اعتصم بالحبل الوثيق وتمسَّك بالكتاب والسنة، ألا وهي مسألة علو الله تعالى على خلقه.

وصفة العلو من أظهر الصفات التي جاءت بها النصوص متواترة من الكتاب والسنة، وأجمع على إثباتها سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بل أجمعت عليها الرسالات السماوية السابقة. وقد عُني السلف بتقرير مسألة العلو عناية كبيرة، حتى أفردوها بمصنفات مستقلة، وحذا ابن القيم حذوهم وألف فيها كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية». ثم فصَّل القول فيها في هذه القصيدة أيضًا. وزاد عدد الأبيات التي تناول فيها هذه المسالة على سبعمائة بيت (١٠٤٦ ـ ١٧٦٨).

وقد بدأ الكلام فيها بفصل عنوانه: «فصل في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على

العرش إله يُعبد، ولا فوق السموات إله يُصلَّى له ويُسْجَدُ، وبيان فساد قولهم عقلًا ونقلًا ولغةً وفطرةً». ثم شرع في مناقشة منكر العلو نقاشًا عقليًا ألزمه فيه بالقول بعلو الله تعالى على خلقه وإلا وقع في التناقض ومخالفة العقل والنقل واللغة والفطرة، ثم ساق هذا الدليل العقلي على وجه آخر وألزم المعطل بالقول بالعلو (١٠٤٦ ـ ١١١٢).

ثم انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بيان الأدلة النقلية المثبتة لعلو الله على خلقه، وقسَّمها إلى واحد وعشرين نوعًا، أولها: التصريح باستواء الرب فوق العرش. وآخرها: مجيء الرب لفصل القضاء (١١١٣ـ ١٧٦٨) وقد ختم الأدلة بقوله:

وقد اقتصرتُ على يسيرٍ من كثيـ ـرٍ فـائـتٍ للعـدّ والحسبـانِ
ما كلُّ هذا قابلَ التأويــل بالتـْ ـتَحريف فاستحيُــوا مـن الرحمنِ

* قضية التأويل:

بعدما أفاض ابن القيم في إثبات صفة الكلام وصفه العلو، وذكر مذاهب الفرق المختلفة في المسألتين، وبيَّن الحقَّ الذي يدلّ عليه الكتاب والسنة، ورأى أن السلاح الذي يستعمله أهل البدع في رد النصوص هو التأويل توجَّه إلى الكلام عليه[1]، فعقد فصلًا «في جناية التأويل على ما جاء به الرسول، والفرق بين المردود منه والمقبول» وقال:

هذا ، وأصل بليّة الإسلام مـــن تأويــل ذي التحريف والبطـلانِ

وعدَّد جناياته في التاريخ الإسلامي، من نشأة الفرق، ونشوب الحروب بين المسلمين إلى أن جاء نصير الدين الطوسي وجماعته بالتتار الذين غزوا ديار الإسلام وفعلوا ما فعلوا:

فجرى على الإسلام أعظم محنة وخمارهـــا فينـا إلـى ذا الآن
وجميع ما في الكون من بدع وأحـ ـداث تـخالف موجب القرآن
فأساسها التأويل ذو البطلان لا تأويل أهــل العلـم والإيمـــان

ثم فسر معنى التأويل عند السلف وذكر أنه لم يقل أحد منهم إنه صرف عن المعنى الراجح أو نفي الحقيقة أو إن النصوص أدلة لفظية لا تفيد اليقين كما قال أهل التأويل الباطل.

ثم ذكر الأمور التي تلزم مدعي التأويل لصحة دعواه، وطريقة ابن سينا وغيره من الملاحدة في التأويل، وبيَّن سبب غلط أهل التأويل في الألفاظ والحكم عليها باحتمال عدة معانٍ حتى أسقطوا الاستدلال بها، وكَشَفَ عن تناقضهم وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب، وأنهم هم الذين يُشْبِهون اليهود في تأويل النصوص وتحريفها لا أهل السنة المثبتون الذين رماهم المعطلة بمشابهة

(١) وقد تكلم عن التأويل بالتفصيل في أول كتابه «الصواعق المرسلة».

اليهود. وردَّ على عدة تُهم اتهمت المعطلة بها أهل الإثبات ومنها أنهم أخذوا مقالة العلو من فرعون، فأثبت الناظم أن المعطلة أولى بفرعون وهم أشباهه. ومنها رميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج، فقارن بين المعطلة والخوارج من وجوه مختلفة وانتهى إلى أن الشبه بينهم محقق، وأن أهل السنة بريئون من كل ذلك. وهكذا بيَّن الناظم عدوان المعطلة في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسّمة، وعقد فصلًا في تنزيه أهل الحديث وحملة الشريعة عن الألقاب القبيحة والشنيعة.

منجنيق التركيب (٢٩٧٥ـ ٣١٢٣):

من أهم الشبهات التي قادت المعطلة إلى نفي العلو وغيره من صفات الله سبحانه: التركيب والتجسيم. فاعتنى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإبطالها في هذا الكتاب وغيره. وسمى الفصل الذي تكلم فيه على التركيب: «فصل في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلًا بعد جيل». استفصل فيه أهل التعطيل عن مرادهم بهذا الاصطلاح المحدث، إذ التركيب يطلق على ستة معان:

١- تركيب الامتزاج.

٢- تركيب الجوار.

٣- التركيب من الجواهر المفردة، وهذا عند أهل الكلام.

٤- التركيب من الهيولي والصورة، وهذا عند الفلاسفة.

٥- التركيب من الذات والأوصاف.

٦- التركيب من الوجود والماهية.

ثم عقد فصلًا في أحكام هذه التراكيب الستة، وأبان أن حقيقة كل ذلك التركيب تطلق في اللغة على المعنيين الأولين. أما الأربعة الباقية فليس لها مستند من شرع ولا لغة، ولكنها اصطلاحات حادثة جعلها أصحابها جسرًا إلى نفي صفات الباري عز وجل، ثم رد على أصحابها وأبان ضعفها وتناقضها. ثم أثبت أن نفي صفات الله سبحانه بهذا الاصطلاح الحادث أبطل البطلان.

* طاغوت التجسيم (٣٧٧٣ـ ٣٨٢٣):

عقد الناظم فصلًا في بيان أن المصيبة التي حلَّت بأهل التعطيل كانت بسبب استعمالهم أسماء ومصطلحات لا أصل لها في الكتاب والسنة، فهي التي قلبت عليهم أمرهم وأفسدت علمهم وإيمانهم كالتحيز والجهة والتجسيم وحلول الحوادث وغيرها. ثم أفرد فصلًا لكسر «طاغوت التجسيم» الذي نفى به المعطلة صفات الله تعالى، وجعلوه حاكمًا على الكتاب والسنة؛ إذ قالوا: إن إثبات الصفات يلزم منه التجسيم، والتجسيم منفي عن الله تعالى. فعلى هذا يجب نفي الصفات عنه.

وقد أجاب عن إلزامهم هذا بثلاثة أجوبة:

الجواب الأول: منع هذا اللزوم، وأنه مجرد دعوى.

الجواب الثاني: على فرض اللزوم، يقال: أين دليل نفيه؟ فإذا كان ملزوم نص الكتاب والسنة فإنه حق يجب قبوله.

الجواب الثالث: هو الاستفسار عن مرادهم بالتجسيم، فإن كان معناه أن يكون الله تعالى قائمًا بنفسه عاليًا على خلقه مستويًا على عرشه ، فهذا حق ويجب القول به. وإن كان مرادهم تشبيه الله سبحانه بالمخلوقين فهذا يجب نفيه عن الله تعالى.

وقال الناظم في منجنيق التركيب وطاغوت التجسيم:

ذا المنجنيقُ وذلك الطاغوتُ قد هدما ديـاركم إلـى الأركـان

والله ربّي قـد أعـان بكسـر ذا وبقطع ذا سبحان ذي الإحسان

* أقسام التوحيد والفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النفاة المعطلين (٣١٢٤-٣٥٣٣):

بين فصل التركيب وفصل التجسيم عقد الناظم فصولًا عديدة لبيان أقسام التوحيد والكشف عن الفرق بين مفهوم التوحيد عند الفلاسفة وغيرهم والتوحيد الذي جاء به رسل الله وأنبياؤه. وقد ذكر خمسة أقسام للتوحيد، وعقد لكل قسم فصلًا:

القسم الأول: توحيد الفلاسفة أتباع ابن سينا. وحقيقته أن لا يثبت لله إلا الوجود المطلق المسلوب كل معنى. فلا سمع له، ولا بصر ، ولا قدرة، ولا اختيار. ولا علم له بالجزئيات، وأن العالم قديم أزلًا، دائم أبدًا، وأن نوع الناس ما زال موجودًا منذ الأزل.

القسم الثاني: توحيد أهل وحدة الوجود، وهو أن كل ما في هذا الوجود عين ذات البارئ عز وجل.

القسم الثالث: توحيد الجهمية، وهو تعطيل البارئ عز وجل عن أسمائه وصفاته.

القسم الرابع: توحيد الجبرية، وهو أن العبد لا فعل له ولا اختيار، بل إنَّ ما يقوم به من أفعال هو فعل الله سبحانه وتعالى.

القسم الخامس: توحيد الأنبياء والمرسلين.

وقد أفاض القول فيه على هذا الوجه:

- توحيدهم نوعان: ١- قولي ٢- فعلي.
- القولي نوعان: ١- سلبي ٢- ثبوتي.
- السلبي نوعان:

١- سلب النقائص والعيوب، وهو إما سلب لمتصل كسلب الموت والإعياء، أو سلب لمنفصل كسلب الندِّ والزوجة والولد.

٢- تنزيه أوصاف الكمال عن التمثيل والتعطيل.

ثم فصَّل القول في النوع الثبوتي. وعدَّد كثيرًا من أسماء الله وصفاته، وتكلم على معانيها (٣٢٢٣_٣٤٧٠).

ثم عقد فصلًا في بيان النوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو التوحيد الفعلي، وهو توحيد العبادة. وحقيقته أن تُخْلَص العبادة لله وحده، وأن لا يُعبد إلا بما شرع ، وذلك باتباع رسوله ﷺ (٣٤٧١_٣٥٣٣).

* وصف الجنة (٤٩٦٢ _ ٥٦٢٥):

بعد ما فرغ المؤلف من بيان عقيدة الفرقة الناجية والردِّ على أعدائها، بيَّن فضل مَنْ تمسك بالكتاب والسنة لا سيما في وقت الغُرْبَةِ، وما أعدّ الله تعالى له في جنَّات النعيم. وله كتاب حافل في وصف الجنة اسمه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، وقد نظم كثيرًا من مباحثه في هذه القصيدة، وخصص لهذا الوصف ١٨ فصلًا بلغ عدد أبياتها ٦٦٣ بيت.

* خاتمة المنظومة: رغبة ودعاء:

ختم الناظم كتابه بفصل عنوانه «فصل في رغبة قائلها إلى من يقف عليها من أهل العلم والإيمان، أن يتجرد لله ويحكم عليها بما يوجب الدليل والبرهان، فإن رأى حقًّا قبله وحمد الله عليه، وإن رأى باطلًا عرَّفه وأرشد إليه». وبنحوه كان ختم الخطبة النثرية لهذه المنظومة.

وذكر الناظم في هذا الفصل أنه مُمْتَحَنٌ بعداوة أربعة أصناف من الناس: جاهل متعالم، وحاسد شانئ، ومقلد لهما، ورابعهم رذل خسيس الطبع، فضله في الناس لا في العير ولا في النفير. وفي آخر الفصل شكا من ذهاب العلماء الذين يقدرون قدر هذه المنظومة، وسأل ربه أن يرزق بضاعته هذه تاجرًا خبيرًا يميز الذهب من الصفر والزجاج من الدرّ.

وفي الفصل الأخير توجه إلى الله سبحانه متوسلًا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن ينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين. وختمه بحمد الله عز وجل والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله وصحابته والتابعين لهم بإحسان[1].

٥- أهم سمات ومميزات منهج المؤلف في هذه المنظومة المباركة:

أولًا: الاعتماد الكلي على نصوص الكتاب والسُّنة.

ثانيًا: السِّعة والشمول.

ثالثًا: حسن الترتيب والتبويب.

---

(١) انظر «الكافية الشافية» بإشراف الدكتور بكر أبي زيد رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٢ وما بعدها) طبعة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

رابعًا: طول النَّفس في عرض الأقوال والمذاهب.
خامسًا: الأمانة والدقة في نِسْبة الأقوال والمذاهب.
سادسًا: الموضوعية والإنصاف.
سابعًا: قوة الحُجَّة في الردِّ على المخالفين.
ثامنًا: العناية بالأسلوب الأدبي.
تاسعًا: الإكثار من ضرب الأمثال.
عاشرًا: الاستطراد في بعض المواضع.
حادي عشر: تكراره لبعض المسائل.

٦- أهمية «النونية»، والرد على من زعم أنها لم تُقرأ في حياة المصنِّفِ إلَّا سرًّا:

تظهر أهمية هذه «النونية» من عدة جوانب؛ أهمها:

١- عناية العلماء بها: شرحًا، وتدريسًا، سواء كان ذلك في الكُتب، أو في دروس العلم في المساجد وغيرها، وذلك من لدن زمن الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى زمننا هذا.

قال ابن عيسى: ثم قال ابن رجب قرئ على شيخنا الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب وأنا أسمع هذه القصيدة من نظمه في أول كتاب صفة الجنة وذكر بعض الميمية المشهورة[1].

وسيأتيك عدد من تعرَّض لها بالشرح سواء ما كان منها مطبوعًا أو ما كان مخطوطًا أو ما كان مُسجَّلًا على أشرطة.

٢- اعتماد العلماء وطلبة العلم على هذه «النونية» المباركة، والاستفادة منها في شروحهم لكتب التوحيد المختلفة ولغيرها من الكُتب التي تعرضت لذلك.

بل؛ اعتماد الناظم ـ نفسه ـ عليها في بعض كتبه كما تقدَّم عنه ذلك في كتابه: «اجتماع الجيوش الإسلامية» عند كلامه على مسألة الاستواء والعلو.

٣- موضوع الكتاب (أصول الدِّين ومسائل الاعتقاد) وحُسن نظْمِه وعرضه واستيعابه لكل مسائل الاعتقاد مع أدلتها العقلية والنقلية بألفاظٍ متبينة ومعانٍ عميقةٍ؛ جعلت من هذه «المنظومة» جوهرةً بلاغية تجذب القاصي والداني إليها.

٧- المصادر التي اعتمد عليها ابن القيم في هذه القصيدة «النونية»:

وهي على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما نصَّ فيه على عنوان الكتاب واسم مؤلفه، وقد بلغت موارد هذا القسم ٥٥

---

(١) «توحيد المقاصد» (ص ٥).

كتابًا ما عدا نحو ١٥ عنوانًا لمؤلفات شيخه ابن تيمية ذكرها في «فصل في مصارع النفاة المعطلين بأسِنَّة أمراء الإثبات الموحدين» (الأبيات ٣٦٥٣ ـ ٣٦٨١)، منها «القواعد الكبار» التي أشار إليها بقوله:

وكذا قواعده الكبـار وإنَّها أوفَى من المائتين في الحسبان
لم يَتَّسع نظمي لها فأسوقها فأشرتُ بعضَ إشارة لبيان

واعلم أن معظم هذه الموارد التي نصَّ المؤلف على عناوينها جاءت في فصل واحد ذكر فيه الدليل السادس عشر من الأدلة النقلية على أن الله سبحانه فوق سماواته، وهو إجماع علماء السُّنة على إثبات العلو لله (الأبيات ١٣٤٠ ـ ١٤٦٣). وليعرف القارئ طريقة المؤلف في الإحالة على مورده بالنصِّ نذكر من أبياته قوله (١٤٠١ ـ ١٤٠٢).

وكذا عليٌّ الأشعريُّ فإنّه في كتْبه قد جاء بالتبيانِ
من موجزٍ وإبانةٍ ومقالةٍ ورسائل للثغر ذات بيان

فأحال على أربعة كتب لأبي الحسن الأشعري، وهي: «الموجز»، و«الإبانة عن أصول الديانة»، و«مقالات الإسلاميين» و«اختلاف المصلين»، ورسالة إلى أهل الثغر.

القسم الثاني: ما صرح فيه باسم المؤلف أو أشار إليه. وقد بلغت موارد هذا القسم نحو ٣٠ كتابًا. نذكرها هنا مرتبة على أسماء المؤلِّفين مع الإشارة إلى أرقام الأبيات التي تضمنت الإحالة:

(١) ابن تيمية: «بيان تلبيس الجهمية» (١٣١١)، كتاب له في الاستواء على العرش (١١٢٣، ١٩٢٧).

(٢) ابن حزم: «الدرة فيما يجب اعتقاده» (٧٤٨) «الفصل في الملل والنحل» (٧٤٨). (ويجوز أن يكون النقل من كتاب آخر له).

(٣) ابن رشد: «مناهج الأدلة» (١٣١٠).

(٤) ابن الزاغوني: «رسالة في الحرف والصوت» (٦٢٤).

(٥) ابن سينا: «الأضحوية في المعاد» (٩٤، ١٨٠٤، ١٨٠٥، ١٨٥٢، ١٨٥٥) «رسالة في النبوات» (٧٨٦). «النجاة» (١٨٧٤).

(٦) ابن أبي الخير العمراني: «كتاب في السنة» (١٤٥٩).

(٧) أبو عمرو الداني: «عقود الديانة» (١٤٥٦).

(٨) أبو نعيم: «حلية الأولياء» (١٧٣٦).

(٩) الآمدي: «أبكار الأفكار» (٣٠٤٢).

(١٠) أحمد بن حنبل: «الرد على الجهمية» (٨٧٩، ٨٨١).

(١١) الحاكم: «المستدرك» (١٧٣٦)، «معرفة علوم الحديث» (١٣٩٧)، «تاريخ نيسابور» (١٣٩٧).

(١٢) حرب الكرماني: «مسائل حرب» (١٤٠٩).

(١٣) الخلَّال: «السنة» (١٣٨٧).

(١٤) الدارقطني: «الرؤية»، «الصفات»، «النزول» (١٧٦٧)، العلل (٢٩١٥).

(١٥) الشافعي: «المسند»، «الأم» (١٧٤٨).

(١٦) الصرصري: نونيته في مدح النبي ﷺ (٤٢٤٠ ـ ٤٢٤٣).

(١٧) الطحاوي: «رسالته في اعتقاد أهل السنة» (١٤٤٣).

(١٨) الطلمنكي: «الوصول إلى معرفة الأصول» (١٤٢٢).

(١٩) عبد القادر الجيلاني: «غنية الطالبين» (١٣٠٩).

(٢٠) القحطاني: النونية (٧٧٠ ـ ٧٧١، ٤٧١٦ وما بعده).

(٢١) الكرجي: «الفصول في الأصول» (١٤١٣).

من هذه الكتب ما وصل إلينا، ووقفنا على إحالات الناظم فيه، ومنها ما لم يصل إلينا ولكن الناظم (أو شيخه) نقل منه في بعض مؤلَّفاته.

القسم الثالث: من الموارد ما لم ينص المؤلف فيها على عنوان الكتاب ولا أشار إلى المؤلف، بل أحال على الموارد إحالة عامة، كما قال:

ولقد أحلناكم على كتب لهم هي عندنا والله بالكِيمانِ

وهذه المواضع هي التي يورد المؤلف فيها أقوال الفلاسفة أو المعتزلة أو الأشاعرة ولا سيما متأخريهم. وقد أفادنا تتبع النقول من كلام الأشاعرة أن مصدره في الغالب كتب الفخر الرازي ومنها:

(١) أساس التقديس (١٢٤٧، ١٣٠٠، ٢٠٦٦، ٢٢٤٤).

(٢) الأربعين (١٢٨٠، ١٦١٢، ٢٤٩٠ ـ ٢٤٩٨).

(٣) المحصل (٧٥٧، ١٢٨٠).

(٤) المطالب العالية (٧٥٧).

(٥) اعتقادات فرق المشركين (١٩١٩).

(٦) مفاتيح الغيب (١١٢٨، ١١٥٤، ١٢٤٧، ١٥١٢، ١٦١٢، ١٩٣٥، ٢٢٤٥، ٢٢٤٦، ٢٥٨٦ـ٢٥٨٨).

أما مذاهب الفلاسفة فينقل فيها عن كتب ابن سينا، وقد أحال على كتبه بالنص. وفي أقوال المعتزلة أشار إلى شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمذاني (١٣٢٨). ولكن لا تنحصر موارده

في هذه الكتب المعدودة التي ذكرناها، فقد صرَّح نفسه بأنها كانت عنده «بالكيمان»[1].

٨- الشروح والتعليقات على المنظومة:

تنقسم هذه الشروح والتعليقات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المخطوط.

الثاني: المطبوع.

الثالث: المسجَّل على الأشرطة أو الأسطوانات الممغنطة (C.D).

* أما القسم الأول (المخطوط) فنذكر هنا ما عرفنا منه:

(١) شرح الإمام العلَّامة محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) شرح الشيخ العلَّامة عبد القادر بن بدران الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) شرح الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) حاشية الشيخ صالح بن عثمان بن حَمَدٍ بن إبراهيم بن عبد الرحمن القاضي رَحِمَهُ اللهُ.

(٥) حاشية الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد العنقريّ رَحِمَهُ اللهُ.

(٦) شرح الشيخ صالح بن محمد بن خليف بن صالح رَحِمَهُ اللهُ.

(٧) تعليقات الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن بازٍ رَحِمَهُ اللهُ[2].

* وأما القسم الثاني (المطبوع):

ومن الشروح والتعليقات المطبوعة:

١- شرح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى رَحِمَهُ اللهُ.

٢- شرح الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللهُ.

٣- شرحان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ:

أ- «توضيح الكافية الشافية».

ب- «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين» من «الكافية الشافية»[3]

* وأما القسم الثالث: المسجَّل على أشرطة كاسيت أو أسطوانات ممغنطة (C.D)؛ فمنها:

١- شرح الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ، والذي نحن بصدد طبعه الآن.

٢- شرح الشيخ الفوزان، وهو يقع في نحو (٦٠ شريطًا)؛ ونحن أيضًا بصدد تفريغه والعناية بطبعه.

---

(١) «الكافية الشافية» بإشراف د. بكر أبو زيد (ص ٤٦: ص ٥٠) - بتصرفٍ منّا -.

(٢) راجع: «الكافية الشافية» بإشراف د. بكر (ص ٥٢: ٥٥) بتصرفٍ.

(٣) انظر المصدر السابق (ص ٥٦).

٩- بعض مَنْ نقل مِنَ «المنظومة» واستفاد من أبياتها:

* الشيخ عثمان بن قائد النجدي (ت ١٠٩٧) في «نجاة الخلف في اعتقاد السلف» (ص ١٢٧، ١٢٨).

* الشيخ العلامة محمد السَّفَاريني (ت ١١٨٨) في «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٦).

* الشيخ العلامة: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وهو ممن أكثر النقل من النونية في ثنايا كتبه[١].

* ابنة الشيخ: عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[٢].

* الشيخ العلَّامة: عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين[٣].

* الشيخ العلَّامة: حمد بن علي بن عتيق[٤].

* الشيخ العلَّامة: سليمان بن سحمان[٥].

* الشيخ العلَّامة: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم[٦].

* والشيخ العلامة: محمد بن مانع في حاشيته على الطحاوية[٧].

---

(١) انظر: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد: ١/ ١٠٩، ١٧٩، ٢٠٩، ٤٠٦، ٢/ ٦٧٢، ٦٩٥، ٧٤٢.
وانظر: الدرر السنية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم: ٢/ ١٦٠، ١٦٢، ٣/ ١٣٧، ١٤٦.
وانظر: قرة عيون الموحدين (مطبوع ضمن مجموعة التوحيد): ص ١٣، ١١٢، ١٦٤، ١٨٥.
وانظر: عقيدة الموحدين (جمع وترتيب الشيخ عبد الله السعدي) ص ١٩٤، ٢٢٠.

(٢) انظر: الدرر السنية (٣/ ١٨٣).

(٣) انظر: الدرر السنية (٢/ ١٨٦، ١٨٩-١٩٠).
وانظر: عقيدة الموحدين ص ٣٥.

(٤) انظر: سبيل النجاة والفكاك (ص ٤٢): (ط. ضمن مجموعة كتب ورسائل الشيخ حمد ـ جمع وترتيب إسماعيل بن سعد بن عتيق).
وانظر: الدفاع عن أهل السنة والرد على ابن دعيج (ص ١٠، ١٩).
وانظر: الفرق المبين بين مذهب السلف وابن سبعين (ص ٦ـ٧، ص١٢، ص١٣).
- الدرر السنية: (١/ ٣٤٤).
- إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد (ص ١٠٦، ١٢٥، ٢٣٥).

(٥) انظر: الضياء الشارق: (ص ١٧٩، ٢٢٨، ٣٥١ـ ٣٥٢، ٦٣٣ ـ ٦٤٩).

(٦) انظر: السيف المسلول على عابد الرسول (ص ٥٥).
وانظر: حاشية كتاب التوحيد: (ص ١٢، ٢٠، ٢١، ٤٠٦).

(٧) راجع شرح على الطحاوية بحواشي ابن القيم ط. نزار الباز

* الشيخ العلَّامة: محمود شكري الآلوسي[١].
* الشيخ العلَّامة: السيد نعمان خير الدين الآلوسي[٢].
* الشيخ العلَّامة: سليمان بن عبد الرحمن الحمدان[٣].
* الشيخ العلَّامة: حافظ بن أحمد الحكمي[٤].
* الشيخ ابن جبرين في مقدمة شرحه للواسطية.

والعلماء الذين نقلوا واستفادوا من أبيات هذه القصيدة كُثُر ولكن ما ذكرناه هو إشارة ودليل لما قررناه والمقام لا يتسع للإطالة.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٣٧٧ـ٣٧٩، ٢/ ٢٢).
(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص ٣٤٣ـ٣٥١، ٤٣٥).
(٣) انظر : الدر النضيد على أبواب التوحيد: (ص ٨، ٩، ٢٠، ٣٤، ٤٦ ـ ٤٧، ٦١، ١٤٥، ١٧١، ٢١٢، ٢٢٥ـ٢٢٦، ٢٥٤، ٢٩٢ ـ ٢٩٣، ٣١٥).
(٤) انظر: معارج القبول (٢/ ٦٠١، ٧٧٧ـ٧٧٩، ٨٦٩).

نُبْذَةٌ مختصرة في تاريخ الفرق والعقائد والمؤلفات في ذلك(١)

قال ابن جبرين:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على فطرة سليمة وعقيدة صافية؛ لأنهم اقتصروا في تلقِّيها على الأصلين: الكتاب والسنة.

فلم يظهر هناك أي مخالفات أو محدثات إلا ما كان من أحد الأعراب اسمه ذو الخويصرة عندما اعترض على النبي ﷺ في تقسيمه بعض الغنائم على أصحابه(٢).

وفي عهد علي رضي الله عنه خرجت طائفة من الناس وهم الخوارج(٣) وابتدعوا في الدين عدة بدع، منها وهي أهمها: التكفير بالكبائر، واستحلال الدماء والأموال بغير حق.

ومن بدعهم: الاقتصار على ما جاء في القرآن وردُّ ما جاء في السنة، كالمسح على الخفين، وما أشبه ذلك.

وقد وردت أحاديث في التحذير منهم ومن مسلكهم كما جاء في الحديث: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(٤)، وفي رواية: «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(٥) إلى آخر أوصافهم. مما يدل على سوء معتقدهم وانحراف مسلكهم(٦).

* ثم ظهرت بدعة القدرية(٧) في آخر عهد الصحابة - يعني فيما بعد السبعين من الهجرة - فنفوا علم الله السابق الأزلي، وقالوا: إن الأمر أُنُف؛ يعني: مستأنف، فزعموا أن الله لا يعلم الأشياء

---

(١) هذه النبذة من كلام الشيخ عبد الله بن جبرين، وقالها قبل البدء بشرح الواسطية.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠) في المناقب، باب: «علامات النبوة في الإسلام». ومسلم برقم (١٠٦٤)-١٤٨ في الزكاة، باب: «ذكر الخوارج وصفاتهم». من حديث أبي سعبد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سيأتي ترجمة لها كاملة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤)- ١٤٣ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦) الأحاديث الواردة في الخوارج كثيرة جدًّا منها الحديث الذي ذكرناه في الهامش السابق الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه. وانظر للفائدة كتاب (إتحاف الجماعة) للشيخ حمودة التويجري رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٧٤) باب ما جاء في الخوارج، فقد جمع فيه أكثر الأحاديث التي وردت في الخوارج.

(٧) سيأتي التعريف بها.

قبل وقوعها. وقد ظهروا في العراق، وكان رئيسهم مَعْبَد الجهني(١) وغيلان القدري.

وقد أنكر عليهم بعض الصحابة هذه البدعة، كما رُوي عن عبد الله بن عمر وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم وغيرهم(٢).

* ثم ظهرت بدعة الإرجاء، (٣) وكان ذلك في أواخر القرن الأول؛ حيث قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية ، فما دمت مؤمنًا فلا يضرك ارتكاب أي معصية، وأنت كامل الإيمان.

وسُمُّوا بالمرجئة؛ لأنهم أرجؤوا ـ أي أخَّرُوا ـ الأعمال عن الإيمان، حتى قال قائلهم:

فكثِّر ما اسْتَطَعتَ من المعاصي إذا كان القُدومُ على كريمٍ

وقد أنكر عليهم كثير من التابعين.

* ثم ظهرت بدعةُ الاعتزال(٤) ـ في أول القرن الثاني ـ فزعموا أن الذي يرتكب المعاصي ليس بمؤمن ولا كافر؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فهو خالدٌ مخلَّد في النار. والذي تولى ذلك رجل يُقال له واصل بن عطاء(٥)؛ حيث اعتزل مجلس الحسن البصري فسمُّوا بالمعتزلة، وقد سلك طريقته رجل يقال له عمرو بن عبيد(٦).

* ثم ظهرت بدعة نفي الصفات ـ في وسط القرن الثاني ـ فأنكروا صفات الله التي أثبتها لنفسه، فقالوا: إن الله لا يحب ولا يرحم، وليس على العرش استوى .. إلخ.

وكان أول من نُقل عنه ذلك من العرب رجل يُقال له الجعد بن درهم(٧).

---

(١) معبد الجهني هو أول من أظهر القول في القدر، وكان ذلك بعد منتصف القرن الأول وسيأتي ترجمته.
وقال الأوزاعي: أول من نطق في القدر: رجل من أهل العراق يقال له: سوسن، كان نصرانيًا ثم تنصَّر فأخذ عند معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد. رواه اللالكائي في «شرح أصول السنة» برقم (١٣٩٨). والآجري في «الشريعة» (٢٤٢). وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) أخرج مسلم (٨ ـ ١) عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر... إلخ الحديث».

(٣) سيأتي التعريف بها.

(٤) سيأتي التعريف بها.

(٥) سيأتي التعريف به.

(٦) سيأتي التعويف به.

(٧) سيأتي التعريف به.

وقد ذكره ابن القيم في النونية في قوله(١):

ولأجل ذا ضَحَّى بجعدٍ خالد الـ قسري يومَ ذبائحِ القربانِ
إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

لقد أنكر أن الله يحب وأنه اتخذ إبراهيم خليلًا؛ وأنكر أن الله يتكلم، وأنه كلم موسى تكليمًا، ولأجل ذلك قتله خالد بن عبد الله القسري(٢) في عيد الأضحى عندما خطب بالناس، قال في آخر الخطبة: «ضحُّوا تقبَّل الله ضحاياكم، فإني مُضحٍ بالجعد بن درهم».

قال ابن القيم:

شكر الضحيةَ كلُّ صاحبِ سنةٍ لله درُّك من أخي قربانِ

ثم تقلد تلك البدعة رجل يقال له الجهم بن صفوان السمرقندي(٣)، ثم نشرها ودعا إليها فنُسبت إليه، فيقال: الجهمية نسبة إليه. وقد حُفظَ عنه أقوال بشعة، فقد أنكر علوَّ الله على خلقه واستواءه على عرشه؛ حتى إنه تمنى أن يَحُكَّ قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] من مصاحف المسلمين.

وكان السلف يسمُّون كل من بالغ في نفي الصفات أو نفي التشبيه جهميًّا؛ لأن عمدة الجهمية أنهم ينكرون إثبات كل صفة في المخلوق لله تعالى، ويقولون: إن إثباتها تشبيه. ثم قتل الجهم بن صفوان، وجاءت من بعده المعتزلة فانتحلت بدعته.

ولكن الجهم ابتدع ثلاث بدع، وهي:

الأولى: بدعة إنكار الصفات:

وقد كفرهم طوائف من المسلمين بإنكار الصفات. يقول ابن القيم(٤):

ولقد تقلَّد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدانِ
واللالكائي الإمامُ حكاه عنـ ـهم بل حكاه قبله الطبراني

الثانية: بدعة الجبر:

وهو زعمه أن العبد مجبور على المعاصي ومقسور، ليس له اختيار، وأنه بمنزلة من يُقذف به في الماء وهو مُوثَّقٌ، حتى يقول قائلهم:

ألقاه في البحر مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتلَّ بالماء!!

---

(١) انظر «الكافية الشافية» (نونية ابن القيم) الأبيات ٥٠، ٥١ وستأتي وشرحها.
(٢) سيأتي التعريف به.
(٣) ستأتي ترجمته.
(٤) انظر الكافية الشافية (النونية لابن القيم) الأبيات ٦٣٣، ٦٣٤ وسيأتي شرحها.

ويقولون: إن حركته كشجرة تحركها الرياح ليس له اختيار(١).

فالعصاة عندهم معذورون؛ لأنهم مجبورون. وهذه بدعة شنيعة تبطل الشرع، ومعناها أن ليس لله حجة على العباد، وأنه لو عَذَّبَ العصاة لكان ظالمًا لهم.

الثالثة: بدعة الإرجاء:

وهي توسعته في الذنوب وقوله: إنه لا يضر مع التوحيد ذنب، وهذه البدع الثلاث التي ابتدعها الجهم تفرَّقتْ:

* فبدعة الإرجاء تقلَّدها طائفة المرجئة.

* وبدعة الجبر تقلدها طائفة الجبرية.

* وبدعة نفي الصفات تقلدها المعتزلة.

وهذه الأخيرة - أي بدعة الاعتزال - هي التي تمكَّنت وانتشرت.

* ولما كان القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني الهجري اهتم السلف - رحمهم الله - بالردِّ على جميع الفرق المبتدعة.

وقد ظهرت كتب ومقالات في الرد على هؤلاء المبتدعة:

* وأقدم من ذُكر أنه كتب في الرد على نفاة الصفات ابن الماجشون، أحد علماء المدينة في آخر القرن الثاني؛ فقد كتب ورقتين أو ثلاثًا في الرد عليهم، وقد نقلها برمَّتها شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية»، ونقلها الإمام ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» ونقلها أيضًا الذهبي في «العلو».

ثم كُتبت رسائل كثيرة في العقائد لبعض الأئمة؛ منها رسالتان للإمام عثمان بن سعيد الدارمي:

الأولى: كتاب «الردُّ على الجهمية» يذكر فيه صفات الله تعالى مع سرد الأدلة من الكتاب والسنة على كل صفة.

الثانية: رسالة بعنوان: «رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد».

وبشر بن غياث المريسي؛ كان خلْفًا(٢) للجهم بن صفوان، فتبنى بدعته ودعا إليها، وكان ذلك في آخر القرن الثاني.

وكان قد اعتضد ببعض الولاة الذين ساعدوه على نشر بدعته، وقد تتلمذ له - أي بشر المريسي

---

(١) يقول ابن القيم في «النونية» (ص ٣٤):

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرَّجَفَان

وهبوب ريح أو تحرك نائم ... وتحرك الأشجار للميلان

(٢) (خلْفًا) بسكون اللام هو من يخلف غيره في الشر.

ـ فقيه من فقهاء الحنفية يقال له محمد بن شجاع الثلجي[(١)]؛ حيث كان يدرس عليه بالخفاء، فصار تلميذًا خاصًّا للمريسي، وتبنَّى عقيدته وكتبها في رسالة سماها: «هذه عقيدة بشر المريسي»، ولم يصرح باسمه، ولكنه عرف وكشف بعد ذلك.

والحاصل أن الإمام الدارمي قد ردَّ على بشر المريسي وعلى تلميذه ابن الثلجي، وبالغ في إبطال ما جاء به ذلك الخبيث من الشُّبه، وذكر الأدلة على ذلك، ومذهب أهل السنة في كل مسألة.

وممن ألف في ذلك الإمام أحمد فإن له عدة رسائل في العقيدة، منها رسالة عنوانها: «الرد على الجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن». وقد طُبعت مرارًا، وقد حققها عبد الرحمن عميرة. وقد ذكر فيها شيئًا من عقائد الجهمية وأقوالهم، وسبب تشكك الجهم وانحرافه، وسبب انتحاله لهذه العقيدة.

كذلك له أيضًا كتابات كثيرة في العقائد تجدها في تراجم تلاميذه في المجلد الأول من طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى والذي خصه بتراجم لتلاميذ الإمام أحمد.

وكان ابن أبي يعلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ترجم لأحد تلاميذ الإمام أحمد قال: روى عنه مسائل أو رسالة عنوانها كذا في العقيدة أو غيرها، ثم يرويها بالإسناد إليه ثم يسردها أحيانًا.

وهذا يدل على أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانت له رسائل يكتبها لبعض الناس الذين يطلبونها منه، حيث يأتيه أحدهم ـ وقد يكون من تلاميذه ـ فيقول له: إن بلادنا قد كثرت فيها البدع والمبتدعة وأظهروا معتقداتهم، فاكتب لي عقيدة أتشبث بها. فيمليها عليه وهو يكتب، فيأخذها ويحتفظ بها، ثم يرويها، ويقول في مقدمتها: هذه عقيدة أملاها عليّ الإمام أحمد أو كتبها لي.

وقد تتبعها الإمام ابن أبي يعلى بالرغم من بُعْدِ المسافة التي بينهم، ولكنه رواها بأسانيد وأثبتها في تراجمهم ، فالحاصل أن فيها ما يدل عل ثبوت ما يعتقده، وأنه أوصى تلاميذه بما يعتقده مما يتعلق بالصفات، ومما يتعلق بالقرآن وأدلة ذلك.

* وممن أَلَّف في ذلك ـ أيضًا ـ عبد الله ابن الإمام أحمد، فقد ألف كتابًا سماه «السنّة» ذكر فيه الأحاديث المرفوعة والآثار المروية عن الصحابة وعن السلف فيما يتعلق بالصفات والرد على المبتدعة في ذلك؛ كالجهمية ونحوهم.

* وممن ألف في ذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه : «خلق أفعال العباد».

وهكذا ردُّوا عليهم في مؤلفاتهم العلمية كصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وغيرها؛ فقد ذكروا فيها كتبًا في ذلك ككتاب التوحيد أو الإيمان أو السنة ونحو ذلك.

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: ومن العجيب أن الثلجي هذا مقدَّس عند الحنفية، وهو لا يُعرفُ عنه شيء. وقد كتب له بعض المتأخرين مثل: زاهد الكوثري المصري ترجمة مطولة بالغ في الثناء عليه ورفع من قدره.

وبعد ظهور هذه المؤلفات والردود في العقيدة في أواخر القرن الثاني، وفي القرن الثالث ثارت ثائرة المبتدعة، ومنهم المعتزلة، وحاولوا نشر بدعهم، فتغلغلوا في الدولة العباسية بسبب قربهم من بعض الخلفاء وولايتهم الوزارة والتربية لبعض أبناء الملوك مثل الخليفة المأمون؛ حتى قَرَّب بعض أكابرهم وهو أحمد بن أبي دؤاد، فأقنع المأمون بعقيدة المعتزلة، فزين له القول بأن القرآن مخلوق وإنكار الصفات وإنكار العلو وما أشبه ذلك.

فلما تابعهم المأمون على عقيدتهم، قالوا له: لابد وأن تثبت هذه العقيدة في الناس، وأن تلزم الناس بها، وأن تفتن من قال بخلافها، فوافق على ذلك، ومن هنا بدأت الفتنة وعظمت المصيبة؛ حيث امتُحن الأئمة في آخر حياة المأمون، وفي خلافة المعتصم وخلافة الواثق.

ففي زمن هؤلاء الخلفاء الثلاثة قَوِيَتْ بدعة إنكار الصفات وتمكنت، وصار أهل السنة مستضعفين؛ بل صاروا في غاية من الاحتقار والإهانة، وعزَّ المتمسك بتلك العقيدة؛ حيث نُفِّر من عقيدتهم حتى إنهم يستخفون بقولهم لكثرة من هو ضدهم، وحصل لهم من البلاء ما الله به عليم.

وحصلت في ذلك الوقت محنة الإمام أحمد، وهي معروفة ومشهورة.

وكان هناك من المعتزلة من لهم مكانة مرموقة ومنزلة عالية ومذهب قوي في الاعتزال، وكان لهم مؤلفات وكتابات كلها على طريقتهم ونحلتهم، ومن أبرز من ألف في ذلك القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي، فقد ألف عدة كتب في عقيدتهم، منها ـ وهو أشهرها ـ كتاب: «المغني»، ومع الأسف فإنه لقي رواجًا في هذه الأزمنة، قد وُجدت منه نسخ متفرقة أكثرها في البلاد اليمنية. ثم ظهر من اعتنى به وحققه وطبعه طباعة جيدة في بلاد سوريا.

وله كتاب آخر اسمه: «متشابه القرآن». وقد حمل في هذين الكتابين على أهل السنة وهاجم فيه المعتقد الصحيح، وهذا الكتاب وهو: «متشابه القرآن» قد حققه رجل من أهل سوريا اسمه: الدكتور عدنان محمد زرزور، وقد طُبع في مجلدين.

والظاهر أن زرزور هذا على عقيدة القاضي عبد الجبار. وذلك يظهر من خلال تحقيقه للكتاب وتعليقاته عليه وتأييده لتأويلاته، ثم إنه اختصره في مؤلف سمّاه أيضًا «متشابه القرآن»، وطبعه في مجلد صغير، وذكر فيه تأويل آيات الصفات وسماها متشابهًا وخاصة الآيات التي فيها إثبات الصفات. وحمل على أهل السنة، وحمل على ابن تيمية، وذكر من كتبه نقولات شنَّع بها عليه، وذكر أنه مشبه، وأنه مجسم وأنه كذا وكذا إلخ، مما يدل على أن لكلِّ قوم وارثًا.

وحمل هذا الرجل أيضًا على كتاب «السنة» لعبد الله ابن الإمام أحمد، وكذلك على كتاب «التوحيد» لابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ، وابن خزيمة من أَجِلَّاءِ العلماء، صاحب كتاب الصحيح، ومن أهل القرن الثالث والرابع.

وقد شنع زرزور على هذا الكتاب ـ أي كتاب «التوحيد» لابن خزيمة ـ حتى قال: إن بعضهم سماه: كتاب الشرك أو كتاب التشكيك، وتمنى أن يُحرق، وماذا يحتوي عليه كتاب «التوحيد» لابن خزيمة؟!!

إن هذا الكتاب يقتصر على الأحاديث يرويها بالأسانيد وعهدتها على نقّالها، ويحتوي على آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، فهؤلاء المبتدعة يلومون ابن خزيمة على تصنيفه هذا الكتاب، ويقولون: لماذا يكثر من الأدلة في إثبات الصفات؟! فإذا ذكر صفة اليد مثلًا أتى بعشرة أدلة أو عشرين دليلًا لإثبات صفة اليد.

فلو لم يذكر إلا دليلًا واحدًا لأمكننا التأويل، ولكن يصعب تأويل عشرين دليلًا.

لذا شنعوا على هذا الكتاب وسموه: كتاب الشرك أو التشكيك.

والحاصل أنه استمر الأمر على هذه الحال إلى آخر خلافة الواثق.

فلما كان الخليفة الرابع وهو المتوكل، فهداه الله وفرَّج به عن أهل السنة، وأظهرهم به على مخالفيهم، فنصر السنة وقرَّب أهلها، وأذن لهم بإظهار عقيدتهم في دروسهم وفي كتبهم.

فعند ذلك قمع الله المبتدعة وأذلَّهم، وفرق كلمتهم، ومن ثم بادر أهل السنة بالكتابة في العقائد، فألفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك، منها المختصرة والمطوَّلة، وقد ذكر جانبًا منها شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية»، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدَّم، ومن ذلك: كتاب «السنة» للخلال، و«السنة» لابن أبي عاصم، و«اعتقاد أهل السنة» للالكائي، و«الشريعة» للآجري، و«التوحيد» لابن خزيمة، و«التوحيد» لابن مندة، و«الإيمان» له، ولأبي بكر ابن أبي شيبة، ولابن عبيد القاسم بن سلام وهي مطبوعة.

ومن ذلك كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي وهو مطبوع أيضًا، ولكن حققه الكَوْثَرِيُّ[1] وأفسده؛ حيث تأول كل ما فيه وسلَّط عليه التأويلات التي أبطلته، كما أن المبتدعة لما فسَّروا القرآن سلطوا عليه أنواع التأويلات.

وكتب أيضًا في ذلك الطحاوي عقيدته المشهورة ولم يصرح فيها بالمذهب الصحيح في إثبات صفة الاستواء والعلو الحقيقي والصفات الفعلية على قول سلف الأمة الذي تؤيده الأدلة الصريحة؛ لأنه كان في زمن قد كثر فيه المنكرون للصفات.

وإن كان صرح ببقية الصفات، وعلى كُلٍّ فهو قد دخل عليه شيء من شبهات أهل الكلام، فلأجل ذلك تعاطى شيئًا من بدعهم واستعمل شيئًا من عباراتهم، والله يعفو عنه، وعقيدته صالحة لكن لما لم تكن صريحة شرحها أتباع المعتقد الأشعري على طريقتهم، وشرحها أهل السنة

---

(١) قلت: لكنه طبع طبعات أخرى من غير تحقيقه.

على عقيدتهم، وشرحها المعتزلة على عقيدتهم، وكل منهم يقول: إنه على عقيدتنا.

ومن المبتدعة الذين أنكروا بعض الصفات وتأوَّلوها الأشاعرة، فقد كتبوا في العقائد ولهم مؤلفات كثيرة نظمًا ونثرًا، ومن ذلك عقيدة اسمها «العقيدة السنوسية»، و«العقائد النسفية»، و«الجوهرة»، وهي مطبوعة في مجموع المتون ولها عدة شروح نثرًا على طريقة الأشاعرة.

وأيضًا هناك منظومة اسمها: «الخريدة» على عقيدتهم. ومنظومة أخرى اسمها «الشيبانية» وهي أقرب إلى السنة وإن كان فيها بعض التأويلات: وأولها:

سأحمد ربي طاعةً وتفردًا ... وأنظم عقدًا في الشريعة أوحدًا
وأشهد أن الله لا ربَّ غيره ... تعزز قدمًا بالبقا وتفردًا

إلى أن يقول مما هو مستنكر عليه، وإن كان له احتمال صحيح:

فلا جهة تحوي الإله ولا له ... مكان تعالى عنهما وتمجدا
إذ الكون مخلوق وربي خالق ... لقد كان قبل الكون ربًّا وسيدا
ولا حل في شيء تعالى ولم يزل ... غنيًّا حميدًا دائم العز سرمدا

فالأشاعرة كتبوا عقائد كثيرة منها ست أو سبع عقائد مطبوعة في أول «مجموع الفتاوى»، وبه نحو من اثنين وستين متنًا، وشروحها مشهورة عندهم.

فعليك أيها المسلم الموحد بمؤلفات أهل السنة وكتبهم وخاصة كتب السَّلف المتقدمين وبعض كتب المتأخرين مثل: «لمعة الاعتقاد» لأبي محمد بن قدامة المقدسي، صاحب المغني، وله كتب في إثبات العلو وغيره، وقبله القاضي أبو يعلى كتب في الصفات وإبطال التأويلات.

ثم جاء شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ والذي ظهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقت قلَّ فيه واستُغرب مَنْ هو على منهج أهل السنة والجماعة، فضلًا عن وجود من يجهر بذلك، فألهمه الله الحق وصدع به، وتصدى لمن خالف ذلك، وأظهر الأدلة الواضحة التي تدل على ما ذهب إليه. وكتب في ذلك مؤلفات كثيرة مختصرة ومبسوطة.

فلما كتب هذه العقيدة(١) نوظر فيها من قِبَلِ الأشاعرة، وأحضروا هذه النسخة، وطلبوا منه الحضور، ثُم قُرئت عليه في عدة مجالس، ثم حاسبوه عن كل كلمة قالها وناظروه: فبيَّن لهم أنه الصواب بالأدلة الشرعية فحجَّهم وبيَّن لهم البيان الواضح.

وكتب مناظرته أيضًا ـ وهي مطبوعة ـ وكان ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أمهلهم ثلاث سنوات على أن يأتوا بكلمة واحدة في هذه العقيدة تخالف ما كان عليه اعتقاد السلف الصالح فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

---

(١) أي: كتاب «العقيدة الواسطية».

ثم كتب عقيدته التي هي أوسع منها، وهي العقدية الحموية لأهل حماة، وقد كتبها في أواخر القرن السادس الهجري في حدود سنة ستمائة وثمان وتسعين. ولما كتبها أيضًا حصل له بسببها أذى وافْتُتِنَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَحُبِسَ لأجلها ونوظر ولكن لم يقدروا أن يردُّوا عليه، ثم اشتُهِرتْ وانتشرت فكفَّرَه أهل مصر، وقالوا: إنه كافر مشبه ... وأنه ..... وأنه، إلخ، ووشى به علماء السوء والسلطة إلى السلطان آنذاك، فاستدعاه السلطان لمناظرة علمائه.

فلما وصل إلى مصر حضر عند قاضٍ كبير يقال له: ابن مخلوف، حنفي المذهب، وتصدَّى لمناظرته رجل من علماء الشافعية يقال له ابن عدوان.

فلما مَثَلا بين يدي ابن مخلوف، قال ابن عدوان: أنا أدعي على ابن تيمية هذا أنه يقول: إن الله على العرش بذاته، وأنه يقول: إن الله ينزل نزولًا حقيقيًّا إلى السماء الدنيا، وأنه يقول: إن الله يتكلم بحرف وصوت.

عند ذلك قال له ابن مخلوف: ما تقول يا فقيه؟ ـ يخاطب ابن تيمية ـ فابتدأ ابن تيمية بالحمد لله والثناء على الله فقطعوا عليه حمده، وقالوا له: ما أتينا بك لتخطب.

عند ذلك قال: فمن يكون الحَكَمُ؟!، فقال: ابن مخلوف: أنا، فقال شيخ الإسلام: كيف تقضي عليَّ وأنت من جملة الخصوم؟ فغضب وكتب للسلطان بسجنه، فأُدْخِلَ السجن، ومكث فيه عدة سنين، وكان هؤلاء يترددون عليه بين الآونة والأخرى فيناظرونه، ولكن تكون له الغلبة عليهم في كل المرات.

والحاصل أنه بعد ذلك اشتهرت كتبه وخاصة هذا الكتاب المسمى: بـ«العقيدة الواسطية» ورفع الله ذكره وكَثُر أتباعه على الحق[1].

❁ ❁ ❁

(١) نقلًا من «التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية» (ص ٢١: ٣٦).

* مباحث حول أهل الفرق والأهواء، وأهم ملامحهم وسماتهم ومنهجهم، وأسباب نشأتهم وتاريخها وغير ذلك من مباحث وأمور

* إخبار النبي ﷺ عن وقوع الافتراق والأهواء وتحذيره من ذلك:

أما إخبار النبي ﷺ عن وقوع الأمة في الافتراق والأهواء وتحذيره من ذلك: فهو مشهور متواتر، فمن ذلك:

١- ما رُوي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ وذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهُمْ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ « فَمَنْ؟!»[(١)].

٢- وروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِى بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: « وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ ».[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: «أَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمته ظَاهرةً عَلَى الحَقِّ، حَتَّى تَقُوم السَّاعَةُ[(٣)] »[(٤)].

٣- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حَذْو النَّعلِ بِالنَّعلِ، حتى إن كان منهم من أتى أمَّه عَلانيةً، لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملةً، وتفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين ملةً، كلهم في النار إلا ملةً واحدةً». قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه أبو عيسى الترمذي[(٥)] وقال: «هذا حديث غريب مفسر، لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه».

قال شيخ الإسلام: «وهذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ، من حديث أبي هريرة، وسعد،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٢٦٦٩) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٨).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٩٢١) عن المغيرة بن شعبة، وفي الباب عن غيره من الصحابة.
(٤) اقتضاء الصراط (١/ ١٦٩) مع الهوامش.
(٥) في الجامع (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨).

ومعاوية، وعمرو بن عوف، وغيرهم. وإنما ذكرت حديث ابن عمرو لما فيه من ذكر المشابهة»[١].

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «تَفْتَرِقُ اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، وَتفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسبعينَ فِرْقَةً»[٢].

٥- وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افترَقُوا فِي دِينِهِم على اثنتين وسبعين ملَّةً، وإنَّ هذه الأمةَ ستفتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسبعين ملّةً ـ يعني: الأهواء ـ كلّهم في النار إلا واحدة، وهي الجَماعَةُ». وقال: «إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب[٣] بصاحبه، فلا يبقى منه عِرْقٌ ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد لَغَيْرُكُم من الناس أَحْرَى أن لا يقومَ بِهِ»[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو، عن الأزهر بن عبد الله الحرازي، عن أبي عامر عبد الله بن لحي، عن معاوية. رواه عنه غير واحد. منهم: أبو اليمان، وبقية ، وأبو المغيرة. رواه أحمد وأبو داود في سننه»[٥].

وقال: «وقد روى ابن ماجه[٦] هذا المعنى من حديث صفوان بن عمرو، عن سعد، عن عوف بن مالك الأشجعي»[٧].

وقال أيضًا: «وهذا الاختلاف الذي دلَّت عليه هذه الأحاديث هو مما نُهي عنه في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٦- وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه: «أنه أقبل مع رسول الله ﷺ في طائفة من

---

(١) اقتضاء الصراط (١/ ١٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٩٦)، والترمذي في الجامع (٢٦٤٠) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح».

(٣) الكَلَب: داء يصيب الإنسان من عض الكلب المسعور، فيصيبه شبه الجنون، ويلحق به حتى يموت. انظر: لسان العرب (كَلَبَ) (١/ ٧٢٣)، وتتجارى بهم الأهواء: أي يتواقعون فيها ويتداعون ويتهافتون في الأهواء الفاسدة. انظر: لسان العرب (جرا) (١٤/ ١٤١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٢) وأبو داود مختصرًا في السنن وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» (١/ ٧، ٨) من طريقين، ولم يذكر قوله: «والله يا معشر العرب..» إلخ الحديث؛ وصححه الألباني بهما وكذا صححه شيخ الإسلام كما في الشرح فوق.

(٥) اقتضاء الصراط (١/ ١٢٢) وانظر« دراسات في الأهواء والفرق والبدع» (ص ٦٢).

(٦) انظر: سنن ابن ماجه (٣٩٩٢).

(٧) المصدر قبل السابق.

أصحابه، من العالية[١]، حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ودعا ربه طويلًا، ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثًا؛ فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة[٢]، فأعطانيها. وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[٣].

٧- عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَى لي الأرضَ، فرأيتُ مَشَارِقَها وَمَغَارِبَها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكَهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَينِ: الأحمرَ والأبيضَ[٤]، وإني سألت ربي لأمتي: أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم[٥]، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يردُّ، وإني أعطيتُك لأُمتِكَ أنْ لَا أُهْلِكَهُم بسنةٍ بعامة[٦]، وأن لا أسلِّطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويَسْبِي بعضُهم بعضًا»[٧].

قال شيخ الإسلام: «رواه البرقاني في صحيحه. وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيّ من أمتي بالمشركين، وحتى يَعْبدَ فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون؛ كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرُّهم من خَذَلَهم حتى يأتي أمرُ الله ـ تبارك وتعالى ـ»[٨][٩].

وقال شيخ الإسلام: «وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ، من غير وجه؛ يشير إلى أن التفرقة، والاختلاف؛ لابد من وقوعها في الأمة، وكان يحذِّر أمته؛ لينجو مَنْ شاء الله له السلامة، كما روى

---

(١) العالية: مكان من جهة نجد من المدينة. انظر: «معجم البلدان لياقوت» (٥/ ٧١)، حرف العين.

(٢) السَّنَة: الجدب والقحط الذي يعم. انظر: القاموس المحيط، فصل السين، باب الهاء، جزء (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٠)، (٤/ ٢٢١٦) بلفظه.

(٤) الكنزان الأحمر والأبيض هما: الذهب والفضة. وفي ذلك إشارة إلى ملكي كسرى وقيصر؟ لأنهما اشتملا على الذهب والفضة، كما فيه إشارة إلى الشام وتوابعها، والعراق وتوابعها، وفي ذلك معجزة كبرى تحققت من معجزات الرسول (ص).

(٥) بيضتهم: أي أصلهم، وحوزتهم، وعزهم ومنعتهم. انظر: مختار الصحاح (ب ي ض) (ص ٧١).

(٦) بعامة: أي جميعها.

(٧) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) (٤/ ٢٢١٥).

(٨) هذه الزيادة أخرجها أبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في الجامع (٢٢٠٢) عن ثوبان وقال فيها الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٩) اقتضاء الصراط (١/ ١٢٦) و«دراسات في الأهواء والفرق والبدع» (ص ٦٤).

النَّزَّال بن سبرة، عن عبد الله بن مسعود قال: «سمعت رجلًا قرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فأخذتُ بيده، فانطلقتُ به إلى النبي ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فعرفتُ في وجههِ الكراهية، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فَهَلَكُوا»[١].

نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق؛ لأن كلا القارئيْن كان محسنًا فيما قرأه، وعلل ذلك: بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا.

ولهذا قال حذيفة لعثمان: «أدرِكْ هَذِهِ الأمةَ، لا تَخْتَلِفْ في الكتاب كما اختلف فيه الأمم قبلهم»[٢] لما رأى أهلَ الشام والعراق، يختلفون في حروف القرآن، الاختلاف الذي نهى عنه النبي ﷺ.

فأفاد ذلك بشيئين:

أحدهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا.

والثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا، والحذر من مشابهتهم.

واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة، الذي يورث الأهواء؛ تجده من هذا الضرب، وهو: أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبًا فيما يثبته، أو في بعضه، مخطئًا في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئين كل منهما كان مصيبًا في القراءة بالحرف الذي عَلِمَه، مخطئًا في نفي حرف غيره؛ فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه. ولهذا نُهيت هذه الأمة أن تضرب آيات الله بعضها ببعض؛ لأن مضمون الضرب : الإيمان بإحدى الآيتين، والكفر بالأخرى إذا اعتقد أن بينهما تضادًّا ـ إذ الضِّدان لا يجتمعان[٣].

٨- وعن عبد الله بن رباح الأنصاري: أن عبد الله بن عمرو قال: «هَجَّرتُ[٤] إلى رسول الله ﷺ يومًا؛ فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وَجْهِهِ الغَضَبُ، فقال: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم مِنْ الأُمَمِ بِاخْتِلَافِهِم فِي الكِتَابِ»[٥].

٩- وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُم، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم سؤالُهم واخْتِلَافُهم عَلَى أَنْبِيَائِهِم، فَإِذَا نَهَيْتُكم عَنْ شيءٍ فَاجْتَنِبُوه، وَإِذَا أَمَرْتُكُم بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنهُ مَا اسْتَطَعْتُم»[٦].

قال شيخ الإسلام: «لكن هذا الاختلاف على الأنبياء هو ـ والله أعلم ـ مخالفة الأنبياء، كما

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠٢) بنحوه.
(٣) اقتضاء الصراط (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩)، و«دراسات في الأهواء والفرق والبدع» (ص ٦٥).
(٤) أي: ذهبت في الهاجرة، وهي نصف النهار عند اشتداد الحرِّ. «مختار الصحاح» (هـ ج ر) (ص ٦٩٠).
(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٦) (٤/ ٢٠٥٣) بمثله.
(٦) أخرجه البخاري (٦٨٥٨) (١٣٣٧) (٢/ ٩٧٥) واللفظ للبخاري.

يقول: اختلاف الناس على الأمير، إذا خالفوه»[(١)].

١٠- وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه: «أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا! وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج، فكأنما فقئ في وجهه حبُّ الرُّمَان! فقال: «أبهذا أمرتم؟ أو بهذا بُعِثْتُم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلَّت الأمم قبلكم في مثل هذا؛ إنكم لستم مما ههنا في شيء. انظروا الذي أُمِرْتُم به فاعملوا به، والذي نُهيتم عنه فانتهوا عنه»[(٢)].

١١- وأيضًا عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: «لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أُحِبُّ أن لي به حمر النعم: أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة[(٣)]، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا[(٤)] فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغْضَبًا، قد احمرَّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلًا يا قوم. بهذا أُهْلِكَتْ الأممُ من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم، وضَرْبِهِمُ الكتب بعضها ببعض. إن القرآن لم ينزل يكذِّب بعضه بعضًا، وإنما أُنْزِل يصدِّق بعضُه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه[(٥)]»[(٦)].

وكذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر. قال: فكأنما تقفأ في وجهه الرُّمان من الغضب. قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ، لم أشهده، ما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده»[(٧)].

قال شيخ الإسلام: «هذا حديث محفوظ عن عمرو بن شعيب، رواه عنه الناس، ورواه ابن ماجه[(٨)] في سننه من حديث معاوية، كما سُقْنَاه»[(٩)].

وقال: «وقد كتب أحمد في رسالته[(١٠)] إلى المتوكل هذا الحديث، وجعل يقول لهم في مناظرته

---

(١) اقتضاء الصراط (١/ ١٤١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٩٥).

(٣) الحجرة: الناحية.

(٤) تماروا: تجادلوا.

(٥) اقتضاء الصراط (١/ ١٤٤ـ ١٤٥) وانظر «دراسات في الأهواء والفرق والبدع» (ص ٦٧).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٨١) عن معمر، عن الزهري.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه في السنن (٨٥)، واللفظ لأحمد.

(٨) وقال في الزوائد: صحيح الإسناد ورجاله ثقات.

(٩) اقتضاء الصراط (١/ ١٤٦).

(١٠) ذكر هذه الرسالة ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص (٤٦١، ٤٦٢)، تحقيق د. عبد الله التركي. وذكرها

يوم الدَّار[١]: إنَّا قَدْ نُهينا أن نضربَ كتابَ الله بعضَه ببعضٍ». وهذا لعلمه رَحِمَهُ اللَّهُ بما في خلاف هذا الحديث من الفساد العظيم.

وقد روى هذا المعنى الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: «حديث حسن غريب». وقال: «وفي الباب عن عمر، وعائشة، وأنس»[٢]. اهـ.

وحديث أبي هريرة قال: «خَرَجَ عَلَينا رَسُولَ الله ﷺ وَنَحنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَر وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِيْ وَجْنَتَيْهِ الرُّمانُ، فَقَالَ: «أَبِهَذَا أُمِرتُم؟ أَمْ بِهَذَا أُرسِلتُ إِليكُم؟ إِنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم حِيْنَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ؛ عَزَمْتُ عَلَيْكُم، عَزَمْتُ عَلَيْكُم أَلَّا تَنَازَعُوا فِيهِ»[٣].

١٢ - وعن أبي واقدٍ الليثي أنه قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَىْ حُنَيَن، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفر، وَلِلمُشرِكِيْنَ سِدرَةٌ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنوطُونَ[٤] بهَا أَسْلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَمَرَرْنَا بِسدرةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولُ الله! اجعلْ لَنَا ذَاتَ أَنْواطٍ، كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنْواطٍ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللهُ أَكبر! إِنَّهَا السُّننُ[٥]، قُلْتُم - وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوْسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. لَتركبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[٦]. وفي رواية: «لَتركبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»[٧].

١٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لتأخذنَّ أمتي مَأخَذَ القُرُونِ قَبْلَهَا: شِبرًا بِشِبرٍ وذِراعًا بِذِراعٍ»، قالوا: فارس والروم؟ قال: «فَمَن الناس إلا أولئك؟»[٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا كله خرج منه مخرج الخبر عن وقوع ذلك، والذم لمن يفعله، كما كان يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور والمحرمات[٩].

أيضًا أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢١٦ - ٢١٧) في ترجمة الإمام أحمد.

(١) هي دار إسحاق بن إبراهيم، وزير الخلافة العباسية آنذاك.

(٢) اقتضاء الصراط (١/ ١٤٦) و«دراسات في الأهواء والفرق والبدع» (ص ٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع (٢١٣٣) (٤/ ٤٤٣) وقال: حديث غريب؛ لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المريّ، وصالح المري له غرائب ينفرد بها، لا يتابع عليها.

(٤) ينوطون: يُعَلِّقُونَ.

(٥) السنن: الطريقة والوجهة. والمقصود: إنها الطريقة التي سلكها مَنْ قبلكم من الأمم كاليهود والنصارى حين وقعوا في هذه البدع، والحديث يفسره آخره. انظر: مختار الصحاح (س ن ن) ص (٣١٧).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢١٨) والترمذي (٢١٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وصححه ابن حبان (١٥، ٩٤).

(٧) اقتضاء الصراط (١/ ١٤٩ - ١٥١)، ودراسات في الأهواء والفرق والبدع (ص ٦٩).

(٨) سبق تخريجه في أول الباب (ص).

(٩) اقتضاء الصراط (١/ ١٥٢).

١٤- وعن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، حتى بلغ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٧] فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيتمُ الَّذِينَ يَتَّبِعونَ مَا تَشَابهَ مِنْهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُم الله، فَاحْذَرُوهُم»(١).

١٥- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتنقضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةٌ عُرْوة، فكُلَّما انتقَضتْ عُروة تَشبَّثَ الناسُ بالتي تليها، فأولهنَّ نقضًا الحُكم، وآخرهُنّ: الصَّلاة»(٢).

١٦- عن عرفجة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنهُ سَتكُون هنَّات وهنَّات، فَمن أَرادَ أَنْ يُفرقَ هَذهِ الأُمة، وهي جميع، فاضربوهُ بِالسَيفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ»(٣).

فقوله ﷺ: «ستكون هنات وهنات» يعني: البدع، والأهواء، والفتن، والخروج على أئمة المسلمين وجماعتهم، وهو من سمات أهل الأهواء.

١٧- وعن جابر بن عبد الله في خطبة رسول الله ﷺ، أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمَّا بَعد: فَإِنَّ خَيرَ الحَدِيث كِتابُ الله، وَخَيْرَ الهَدِي هَدِي مُحمدٍ ﷺ، وَشَرَ الأُمُورِ مُحدثَاتِهَا، وَكُلُّ بِدعةٍ ضَلَالة»(٤).

١٨- وفي حديث العرباض بن سارية: «إِيَّاكُم وَالمُحدَثَات، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثةٍ ضَلَالَة»(٥).

والمحدثات هي: البدع والأهواء التي أدَّت إلى الافتراق، وترك السنة، وتفريق الأمة إلى: شيع وفرق، وطرق، وأحزاب.

خوف النبي ﷺ على أمته، وتحذيرهم من أصول البدع: كالاستسقاء بالنجوم، والتكذيب بالقدر، فقال: «ثَلاثٌ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي: الاستسقاءُ بِالأنواءِ، وَحَيْفُ السلطانِ، وَتكْذِيبٌ بالقَدرِ»(٦).

فالتعلق بالنجوم من أعظم أبواب الدجل والسحر والشعوذة والكهانة، كما أنه من وسائل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٣) ومسلم (٢٦٦٥) مطولًا.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥١)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨)، وصححه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ١١١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٤)، وقال في المجمع (٧/ ٢٨١): رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧) مطولًا.

(٥) أخرجه ابن أيب عاصم في السنة (١/ ١٧) بهذا اللفظ وهو عند أبي داود في السنن (٤٦٠٧)، وابن ماجة (٤٢) مطولًا.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٨٩) عن جابر بن سمرة؛ قال في المجمع (٥/ ٢٣٧) رواه أبو يعلى وأحمد والبزار والطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن القاسم، وثقه ابن معين، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات. وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٢٧) وصحيح الجامع الصغير (٣٠١٩) (٣/ ٦٠).

الشرك، وأحيانًا يكون شركًا خالصًا.

أما التكذيب بالقدر، فهو أول بدعة كلامية، فتقت الأهواء والخصومات والافتراق في العقيدة، فمنه نشأت القدرية، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة، وغيرها من فرق أهل الأهواء.

إخبار النبي ﷺ عن أول فتنة تقع في الأمة:

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ نَحْنُ سَمِعْنَاهُ . فَقَالَ لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِى أَهْلِهِ وَجَارِهِ قَالُوا أَجَلْ . قَالَ تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِى تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ فَقُلْتُ أَنَا . قَالَ أَنْتَ لله أَبُوكَ . قَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّياً لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ». قَالَ حُذَيْفَةُ وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَاباً مُغْلَقاً يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ . قَالَ عُمَرُ أَكَسْراً لاَ أَبَا لَكَ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ . قُلْتُ لاَ بَلْ يُكْسَرُ . وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ . حَدِيثاً لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ »[١].

هذا لفظ مسلم، وزاد في البخاري: «فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَل حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا، فَسَأَلَه، فقال: البابُ: عُمَرُ».

ويحذر النبي ﷺ كذلك مما وقع فيه أهل الكلام، وهو الخوض في الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشيطانُ أَحدكُم فيقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذا وَكَذَا، حَتَّى يَقُول لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَستَعذْ بالله، وَلْيَنْتَه»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا يَزالُ النَّاسُ يَسألونكُم عَن العِلمِ، حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَلقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟» [٣].

وهذه المقولة الشيطانية حامت حولها مقولات الجهمية والمعتزلة والمتكلمين حتى قالوا: (هل يخلق الله مثله) [٤]، وقالوا في مبدأ الخلق وتكلموا في الخالق سبحانه بما حذر منه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢) ومسلم (١٤٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٠٢)، ومسلم (١٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٤).

(٤) انظر مقالات الإسلاميين (٢/ ٢٤٦).

نهي النبي ﷺ عن الخوض فيما سكت عنه الشرع:

ـ عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ فَرَضَ فَرائِضَ فَلَا تُضيِّعُوهَا، وحدَّ حُدودًا فَلا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْياءَ مِنْ غَيْرِ نِسيانٍ لَهَا، رَحمةً بِكُم، فَلا تَبحثُوا عَنْهَا»[١].

فأين أهل الكلام من هذا التوجيه العظيم المشفق منه ﷺ فإن سائر أصولهم وأكثر كلامهم فيما سكت عنه الشارع، فاعتبروا يا ولي الأبصار.

حتمية وقوع الافتراق:

ومما يدل على حتمية الافتراق وأن وقوعه حق وصدق لا محالة، وأن أهل الحق هم الأقلون، وطائفة من طوائف الأمة، وفرقة من فرقها الكثيرة ـ أحاديث الغربة ـ كقوله ﷺ من حديث ابن عمر: «إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُو يأْرِزُ بَيْنَ المسجدينِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيةُ إِلَى جُحرِهَا»[٢].

وبيَّن ﷺ أن الغرباء: «أُناسٌ صَالِحُون فِي أُناسٍ سُوْء كَثِير، مَن يَعْصِيهِم أَكْثَرَ مِمَّنْ يُطِيْعُهُم»[٣].

والحديث نصل قاطع في أنه يكون أهل الأهواء والافتراق كثيرين، حين يشعر أهل الحق والسنة بالغربة في بعض الأزمان، والله المستعان.

ليس كل الفرق الهالكة خارجة عن الملة ولا كافرة:

والفرق الثنتين والسبعين الهالكة كلهم من أهل الوعيد، لكن ليسوا كلهم كفارًا، وليسوا كلهم خارجين من الملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفّر كلَّ واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات»[٤].

وقال: «وأما من يقول ببعض التجهم: كالمعتزلة، ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطنًا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢٢)، والدارقطني في السنن (٤/ ١٨٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢) مرفوعًا وموقوفًا ونقل ابن رجب في جامع الحكم (٢٧٦) تحسين النووي له وكذا السمعاني وغيرهما، وذكر له علقان، أن متحولًا لم يسمع من أبي ثعلبة، وأنه اختلف في رفعه ووقفه.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٧٧)، (٢/ ٢٢٢) قال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٤): رواته رواة الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٨): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٣٨١٦)؛ وانظر: الغرباء الأولون للشيخ سلمان العودة ص ٤٧ وما بعدها. وانظر دراسات في الأهواء والفرق والبدع (ص ٧١: ٧٤).

(٤) «الفتاوى» (١٧/ ٢١٨).

وظاهرًا، فهؤلاء من أمة محمد ﷺ، بلا ريب، وكذلك من هو خير منهم: كالكلابية والكرامية.

وكذلك الشيعة المفضِّلين لعلي رضي الله عنه، ومن كان منهم يقول: بالنص والعصمة مع اعتقاده بنبوة محمد ﷺ، باطنًا وظاهرًا، وظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام، فهؤلاء أهل ضلال وجهل، ليسوا خارجين عن أمة محمد ﷺ، بل هم من الذين فرَّقوا دينَهم، وكانوا شيعًا»[(١)].

تحديد الفرق الثنتين والسبعين الهالكة وتسميتها غير ممكن:

لقد حاول بعض العلماء ومؤلفو كتب المقالات تسمية الفرق الثنتين والسبعين وتحديدها عدديًّا، وتوزيع ذلك على أصول الفرق الكبرى، وممن فعل ذلك الإمام عبد الله بن المبارك[(٢)]، ويوسف بن أسباط، وأبو حاتم الرازي[(٣)]، والملطي في «التنبيه»[(٤)]، والبغدادي في «الفَرْقِ بين الفِرَق»[(٥)]، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس»[(٦)]، والشهرستاني في «الملل والنحل»[(٧)]، والسكسكي في «البرهان»[(٨)]، والعراقي في «الفِرَقِ المفترقة وأصناف الكفرة»[(٩)]، وفخر الدين الرازي في «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»[(١٠)]، والمقريزي في «خططه»[(١١)]، والجيلاني في «الغنية»[(١٢)]، وكل ذلك اجتهاد من هؤلاء لا يسنده دليل، لا سيما أن المسألة غيبية، فإن النبي ﷺ، حينما أخبر لم يتجاوز ذلك العدد، وقد أطلق المكان والزمان، فيبقى احتمال خروج الفِرَقِ إلى قيام الساعة، وعلى هذا فلا يستطيع أحدٌ أن يحدِّد هذه الفرق على سبيل الجزم، لأن الأمر غيبي، والله أعلم.

دعوى كلِّ فرقة أنها الناجية مردودة بالنصوص:

أما ما تتنازعه الفِرَقُ من أن كل واحدة تدَّعي أنها الناجية، فإنه محسوم برده إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الكتاب فمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمرن:٣١].

---

(١) «الفتاوى» (١٧/ ٤٤٨)

(٢) انظر «الإبانة» (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)

(٣) المصدر السابق (٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٠ ـ ٣٨٦).

(٤) ص ١٨.

(٥) ص ٣٥.

(٦) ص ١٤٥.

(٧) ص٢٢.

(٨) ص ٢١.

(٩) ص ٢٢ رسالة ماجستير تحقيق عبد الله بن سليمان العمر.

(١٠) ص ١١٧.

(١١) ص٢٤٥.

(١٢) (١/ ٣٨٦).

فاتِّباع الرسول ﷺ هو الميزان، أما دعوى أهل الأهواء أنهم مُتَّبِعون للرسول ﷺ، فهي مردودة بعرض أصولهم على السنَّة ومنهج السلف، فمن كان على سبيل السلف ونهجهم فهو الحق، ومن خالف السنَّة وهَدْي السلف ونهجهم فهو صاحب هوىً، ولا تسلَّم له دعواه، بل تُردُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] ومعلوم أن السلف لم يخوضوا في المتشابه ونحو ذلك، ولم يسلكوا التأويل ونُهوا عن ذلك، فهم الناجون، أما أهل الأهواء فقد خاضوا، واتبعوا المتشابه وأوّلوا، فهم أهل الزيغ والفتنة والضلال والأهواء والخصومات.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ومعلوم أن السلف ما فرقوا دينهم، بل كانوا على قول واحد، إنما الذين فرَّقوا دينهم: أهل الأهواء، وهم الفرق المفترقة. أما السُّنة فالميزان قوله ﷺ عن الفرقة الناجية والجماعة: «مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصْحَابِي»(١)، ومعلوم أن الذين كانوا هم السلف أهل السنَّة والجماعة.

وقد حاول الشاطبي ردَّ دعوى أهل الأهواء بأنهم الناجون فقال: «فإذا كان كذلك، فكل فرقة تنازع صاحبتها في فرقة النجاة، ألا ترى أن المبتدع آخذ أبدًا في تحسين حالته شرعًا وتقبيح حالة غيره؟ فالظاهر يدَّعي أنه المتبع للسنَّة.

والغاشُّ يدعي أنه الذي فهم الشريعة، وصاحب نفي الصفات يدعي أنه الموحِّد.

والقائل باستقلال العبد يدعي أنه صاحب العدل، وكذلك سمَّى المعتزلة أنفسهم: أهل العدل والتوحيد، والمشبه يدَّعي: أنه المثبت لذات الباري وصفاته؛ لأن نفي التشبيه عنده نفي محض، وهو العدم. وكذلك كل طائفة من الطوائف التي ثبت لها اتباع الشريعة أو لم يثبت لها.

وإذا رجعنا إلى الاستدلالات القرآنية أو السُّنِّية على الخصوص، فكل طائفة تتعلق بذلك أيضًا: فالخوارج تحتجُّ بقوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ»(٢)، وفي رواية: «لَا يَضُرُّهُم خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُم»(٣)، «وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُم دُوْنَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٥٢) عن أبي الدرداء، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع وأنس بهذه اللفظة، وقد تقدم بنحوه عن عبد الله بن بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٩٢١) عن المغيرة.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧٩) عن أبي هريرة، وصححه ابن حبان (١٥/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٤٨)، ومسلم (١٤١) عن عبد الله بن عمرو وبلفظ: «من قتل دون ماله فهو شهيد».

والقاعد يحتج بقوله: «عَلَيكُم بِالجَمَاعَةِ، فَإِنَّ يَدَ الله مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنقِهِ»[١]. وقوله: «كُنْ عَبدَ الله المَقْتُولَ، وَلَا تَكُنْ عَبدَ الله القَاتِلَ[٢]»[٣].

قال: والمرجئيُّ يحتج بقوله: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[٤]، والمخالف له محتج بقوله: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٥].

والقَدَريُّ يحتج بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، وبحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الفِطْرَةِ» الحديث[٦].

والمفوِّض[٧] يحتج بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وفي الحديث «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٨].

والرافضة تحتج بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «لَيَرِدَنَّ الحَوضَ أَقوَامٌ، ثُمَّ لَيَتخَلَّفُنَّ دُوْنِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي! فَيُقَالَ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[٩]، ثم «لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِم مُنذُ فَارَقْتَهُم»[١٠].

ويحتجون في تقديم عليٍّ رضي الله عنه بـ«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوْسِى، غَيرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَ بَعْدِي»[١١]، «وَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»[١٢]

ومخالفوهم يحتجون في تقديم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بقوله: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[١٣]، «وَيَأْبَى المُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[١٤]، وإلى أشباه ذلك، مما يرجع معناه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) عن الحارث الأشعري مطولًا، وقال: حسن صحيح غريب.، وصححه ابن حبان (١٤/ ١٢٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١١٠).

(٣) «الاعتصام» (٢/ ٢٥٣).

(٤) مسند أحمد (٦/ ٤٤٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٧٦) عن أبي الدرداء وصححه ابن حبان.

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاري (١٣١٩)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة.

(٧) المفوض أي في أن القدر بمعنى الجبر.

(٨) أخرجه البخاري (٤٦٦٦)، ومسلم (٢٦٤٧) عن عليٍّ.

(٩) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٥٠) عن أبي بكرة.

(١٠) أخرجه البخاري (٣١٧١)، ومسلم (٢٨٦٠) عن ابن عباس.

(١١) أخرجه البخاري (٣٥٠٣)، ومسلم (٢٤٠٤) عن سعد بن أبي وقاص، واللفظ لمسلم.

(١٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٤٥) عن بريدة.

(١٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢)، الترمذي (٣٦٦٢).

(١٤) أخرجه مسلم (٢٣٨٧) عن عائشة.

والجميع محومون ـ في زعمهم ـ على الانتظام في سلك الفرقة الناجية، وإذا كان كذلك أشكل على المبتدع في النظر ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ولا يمكن أن يكون مذهبهم مقتضى هذه الظواهر، فإنها متدافعة متناقضة، وإنما يمكن الجمع فيها إذا جُعِلَ بعضها أصلًا، فيردُّ البعض الآخر إلى ذلك الأصل بالتأويل»[1].

أهم أسباب وقوع طوائف من الأمة في الأهواء والفرقة

١ ـ اتباع خطوات الشيطان.

٢ ـ نزعات النفوس الأمّارة بالسوء.

٣ ـ اتباع الهوى.

٤ ـ الجهل.

٥ ـ النفاق.

٦ ـ كيد الأعداء.

٧ ـ الظلم.

٨ ـ التعصب.

٩ ـ التشبه والتقليد.

١٠ ـ الجدال والخصومات في الدين.

١١ ـ الإعراض عن الهدى.

١٢ ـ الحسد.

١٣ ـ الغلو والتنطع في الدين.

وهذه أسباب عامة يدخل تحتها ما لا حصر له من الفروع والجزئيات، كما أنها أصول للضلالة في كل أمة، وعامة من هلك من الأمم هلك بها أو بعضها، واعلم أن الأهواء تبدأ من أمور قد يستصغرها الناس، ثم يتساهلون بها حتى تكون الطوّام، «ومعظم النار من مستصغر الشرر»[2].

أول أصل افترقت به الفِرَقُ الأولى

أول مقولة فرقت بين الأمة ودخلت في أصول سائر الفرق الأولى: الخوارج، والقدرية، والجهمية، والجبرية، والمعتزلة، ومتأخري الشيعة، والزيدية، والمرجئة، وهي مسألة مرتكب

---

(١) «الاعتصام» (٢/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يراجع في ذلك «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٤)، والفرق بين الفرق» (ص٣٠١) «ضحى الإسلام» (١/ ٤٣)، «مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم» (ص٣٢).

الكبيرة أو الفاسق الملِّي[١].

فالخوارج: كفَّروا بالذنوب (مرتكب الكبيرة) في الدنيا، وقالوا: إنه مخلَّد في النار إذا مات على كبيرته، وتفرَّع عن هذا الأصل عندهم أصول خطيرة، منها خروجهم على جماعة المسلمين وإمامهم، وتكفير بعض الصحابة، واستحلال الدماء والأموال، وإنكار الشَّفاعة، وغير ذلك.

والمعتزلة قالوا: إن مرتكب الكبيرة في الدنيا في المنزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وفي الآخرة مخلَّد في النار، وترتَّب على هذا الأصل الفاسد أصول أخرى مثل: إنكار الشفاعة في الآخرة، وإنكار أحاديثها، وتفسيق بعض الصحابة، واستحلال الخروج على الأئمة، ويسمونه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإنكار القَدَر، والقول بأن الإنسان خالق أفعاله، والقول بما يسمونه (العدل) وغير ذلك.

والقدرية قالوا: بإنكار العلم السابق، وأن الأمر أُنُفٌ: أي: مستأنَفٌ وليس بقدر سابق، وأن الله لم يقدر المعاصي.

والجهمية قالوا: إن العاصي مجبور على أفعاله، فهو غير مُحاسَبٍ ولا مؤاخذ، إنما يكفيه من الإيمان مجرد المعرفة، وهو قول الجبرية وغلاة المرجئة.

والشيعة المتأخِّرون والزيدية ذهبوا إلى قول المعتزلة: وهكذا كما سيأتي بيانه في المذاهب الكلامية.

وكل هؤلاء قالوا: بعدم جواز إمامة الفاسق، ولا الصلاة خلفه، ولا الجهاد معه، وأجازوا الخروج عليه.

البدع الاعتقادية والقولية أسبق من البدع العملية

قال شيخ الإسلام: فالبدع الكثيرة التي حصلت في المتأخرين من العُبَّاد والزُّهاد والفقراء[٢] والصوفية، ولم يكن عامتها في زمن التابعين وتابعيهم، بخلاف أقوال أهل البدع القولية، فإنها ظهرت في عصر الصحابة والتابعين، فعلم أن الشبهة فيها أقوى وأهلها أعقل، وأما بدع هؤلاء فأهلها أجهل، وهم أبعد عن متابعة الرسول ﷺ.

ولهذا يوجد في هؤلاء من يدَّعي الإلهية والحلول والاتحاد، ومن يدَّعي أنه أفضل من الرسول ﷺ، وأنه مستغنٍ عن الرسول ﷺ، وأن لهم إلى الله طريقًا غير طريق الرسول ﷺ، وهذا

---

(١) انظر: «الاستقامة» (١/ ١٣١).

(٢) الفقراء: لقب من ألقاب الزهاد والنساك (الصوفية)، لأنهم يتعمدون التظاهر بالفقر وهي أي: ـ كلمة الفقر ـ أسبق من كلمة الصوفية.

ليس من جنس بدع المسلمين، بل من جنس بدع الملاحدة من المتفلسفة ونحوهم، وأولئك قد عَرَفَ الناس أنهم ليسوا مسلمين، وهؤلاء يدَّعون أنهم أولياء الله مع هذه الأقوال التي لا يقولها إلَّا مَنْ هو أكفر من اليهود والنصارى، وكثير منهم أو أكثرهم لا يعرف أن ذلك مخالفة للرسول، بل عند طائفة منهم أن أهل الصُّفة قاتلوا والرسول أَقرَّهم على ذلك! وعند آخرين أن الرسول أُمر أن يذهب ليسلم عليهم، ويطلب الدعاء منهم، وأنهم لم يأذنوا له، وقالوا: اذهب إلى من أُرسلتَ إليهم، وأنه رجع إلى ربه، فأمره أن يتواضع، ويقول: خويدمكم جاء ليسلم عليكم! فجبروا قلبه وأذنوا له بالدخول[1]، الله أكبر ما أعظم حلم الله.

وقال مبينًا أن البدع العملية أكثر انتشارًا من البدع الاعتقادية في الأمة، ولا ريب أن البدع كثرت في باب العبادة والإرادة أعظم مما كثرت في باب الاعتقاد والقول؛ لأن الإرادة يشترك الناس فيها أكثر مما يشتركون في القول، فإن القول لا يكون إلا بعقل، والنطق من خصائص الإنسان، وأما جنس الإرادة فهو مما يتصف به كل الحيوان، فما من حيوان إلا وله إرادة، وهؤلاء اشتركوا في إرادة التأله، لكن افترقوا في المعبود وفي عبادته، ولهذا وصف في القرآن رهبانية النصارى بأنهم ابتدعوا وذم المشركين في القرآن على ما ابتدعوه من العبادات والتحريمات، وذلك أكثر مما ابتدعوه من الاعتقادات، فإن الاعتقادات كانوا فيها جُهَّالًا في الغالب فكانت بدعهم فيها أقل، ولهذا كلما قرب الناس من الرسول ﷺ، كانت بدعهم أخف فكانت في الأقوال، ولم يكن في التابعين وتابعيهم من تعبد بالرَّقص والسماع كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة، وكان فيهم من يكذِّب بالقدر ولم يكن فيهم من يحتج بالقدر[2].

وحاصل ذلك: أن البدع الاعتقادية كانت أسبق ظهورًا وانتشارًا من البدع العملية كالموالد والمقابرية، لكن لما انتشرت الأخيرة عمت بها البلوى، وافْتُتن بها الجُهَّال، وانتفع بها طوائف من المضلين وأهل البدع ورؤوس الضلالة، فاستعرت استعار النار في الهشيم، والتبس أمرها على كثير من الناس، نسأل الله العافية.

الفِرقُ الكُبْرى أو (أمَّهات الفِرق)

بدأ ظهور الفرق في القرن الأول الهجري، وكانت إلى نهايته لا تزيد عن أربع وما يتفرع منها، وهي:

١ - الخوارج بفرقها.

٢ - المعتزلة بفرقها.

---

(١) «الفتاوى» (١٩/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٢) «الفتاوى» (١٩/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

٣ ـ القَدَرِيَّةُ.

٤ ـ المُرْجِئَةُ.

وفي القرن الثاني زادت:

٥ ـ المعتزلة.

٦ ـ الجهمية.

٧ ـ المشبِّهة.

وكان السلف لا يفرقون بين الجهمية والمعتزلة، فيطلقون على جميعهم: (جهمية) وبعض السلف يخرجون الجهمية من فرق المسلمين، وقد حصر الإمام عبد الله بن المبارك المتوفى سنة (١٨١ هـ) أصول الفرق بأربع، هي: (الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والقدرية). ولما قيل له: والجهمية؟ ذكر أنها ليست من فرق المسلمين(١).

وفي القرن الثالث تشعَّبت هذه الفرق، وقد حصر أمهات الفرق الكبرى أبو الحسن الأشعري في «المقالات» في عشر بما فيها أهل السنة، فقال:

اختلف المسلمون عشرة أصناف:

١ـ الشيع، ٢ ـ والخوارج، ٣ـ والمرجئة، ٤ ـ والمعتزلة، ٥ ـ والجهمية، ٦ ـ والضرارية، ٧، والحسينية، ٨ ـ والبَكْرية، ٩ ـ والعامة وأصحاب الحديث، ١٠ ـ والكُلَّابية(٢).

ويُقْصَدُ بأهل الحديث والعامة: السلف أهل السُّنَّة والجماعة، فيخرجون من عداد أهل الافتراق والأهواء.

كما أن الضرارية والحسينية والبكرية من فرق المعتزلة والجهمية، وعلى هذا تنتهي أصول الفِرَقِ الكبرى التي ذكرها الأشعري إلى ست، وهي:

١ ـ الشيعة.

٢ ـ الخوارج.

٣ ـ المرجئة.

٤ ـ المعتزلة.

٥ ـ الجهمية.

٦ ـ الكُلَّابية.

---

(١) «الإبانة لابن بطة» (١/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) «مقالات الإسلاميين» (١/ ٦٥).

والخلاصة :

١ ـ الخوارج، وأشهرهم في ذلك الوقت إلى عصرنا (الإباضية وفرقها).

٢ ـ الشيعة والروافض ـ وهم فِرَقٌ كثيرة.

٣ ـ القدرية، وأكثرهم من المعتزلة.

٤ ـ الجهمية.

٥ ـ المعتزلة.

٦ ـ المرجئة، والغلاة منهم جهمية، وغير الغلاة أكثرهم من الأحناف الماتريدية والأشاعرة.

٧ ـ الجبرية، ومنهم جهمية، ومنهم أهل كلامٍ ومتصوفة وغيرهم.

٨ ـ الباطنية والزنادقة، ومنهم شيعة ورافضة، ومنهم ملاحدة، ومنهم صُوفية، ومنهم فلاسفة، وقد ظهرت الباطنية في زمن الأشعري لكنه لم يذكرها، إما لأنه يرى أنها ليست من فِرَقِ المسلمين، أو لم تتبين له حقيقتها آنذاك، أو أنه يُلْحِقَها بالشيعة. والأول أظهر، والله أعلم.

٩ ـ الكلابية

وفي القرن الرابع وما بعده ظهرت فرق جديدة، انضمت إلى ركب الأهواء، وهي:

١٠ ـ الصوفية: وقد تميزت في القرن الرابع وما بعده بأُصولٍ ومناهجَ بِدْعِيَّة، وبدأت فيها الطُّرق، وصارت في سبيل الأهواء والافتراق، أما قبل ذلك، فإنها لم تبيِّن أمرها، ولم تُظْهِر مخالفة السنَّة علنًا.

١١ ـ الفلاسفة: وإن كانت الفلاسفة بدأت جذورها وأصولها في القرن الثالث، إلا أنها لم تتميز وتشتهر إلا في القرن الرابع على يد ابن سينا الإسماعيلي الباطني، وذويه من العُبيدية والقرامطة ونحوهم.

١٢ ـ أهل الكلام الأشاعرة والماتريدية: وهم امتداد للكُلَّابية، لكنهم مع الزمن تجارت بهم الأهواء الكلامية، حتى أخذوا ببعض أصول التجهُّم.

والأشاعرة هم: المنتسبون لأبي الحسن الأشعري (ت ٢٢٤)، إلا أنهم في النهاية توغلوا في الكلاميات والفلسفات والتصوف والتأويل بما لم يكن عليه الأشعري، بل كان يمقته، لا سيما بعد الجويني ـ أبي المعالي ـ وابن الخطيب الرازي ـ حيث أدخلا بعض أصول الجهمية في المذهب، كما سيأتي تفصيله.

والماتريدية هم: أتباع أبي منصور الماتريدي (ت ٣٣٣)، وهم فرقة كلامية كالأشاعرة في الأصول والمناهج في الجملة، وإن خالفهم في بعض التفصيلات.

الفرق والمذاهب والاتجاهات المعاصرة

أما الفرق التي ظهرت بعد ذلك فهي في الجملة إما مغمورة، وإما لا تخرج عن أصول الفرق الكبرى التي ذكرتها، أو تتكون من خليط منها.

وأغلب الأسماء التي ظهرت حديثًا إنما هي مجرد شعارات تحمل في طياتها أصول الفرق القديمة وأهدافها، أو ترجع إلى الجاهليات القديمة قبل الإسلام. مثل القوميات التي رفعت شعاراتها في القرون الثلاثة الأخيرة، فهي ترجع إلى الجاهلية الأولى العربية أو الفرعونية أو الآشورية، ونحوها كالقومية، أو إلى فرق الباطنية كالقاديانية والبهائية والحداثة ونحوها، أو إلى الخوارج أو الشيعة.

وبعضها معتزلة وجهمية كالتحريريين وأكثر الاتجاهات العصرانية في الحركات الإسلامية المعاصرة.

ومنها ما يجمع بين كل الاتجاهات المنحرفة في سبيل الصدِّ عن الإسلام كالحداثة والعَلْمانية.

والطُّرق الصوفية المعاصرة: منها أوعية لكل بدعة واتجاه، ولا ترد يد لامس إذا التزم طقوسها وقدَّس شيوخها، وتبرَّأ من التوحيد وأهله.

خصائص الفرق وسماتها

المتأمل لحال الفرق يدرك أن كل فرقة تميزت واختصت بأصل من أصول الضلالة والبدعة تختلف فيه عن غيرها.

وكل طائفة أو فرقة تشارك فِرَقَ الضلالة الأُخْرى في أمور، وتفارقها في أمور، لذلك تميزت أكثر الفرق عن غيرها في قادح أو أكثر[1]، وبيان ذلك:

١ ـ الخوارج: تميزت في تكفير علي رضي الله عنه وبعض الصحابة، وتكفير مرتكب الكبيرة، وأن كل كبيرة كفر.

٢ ـ والرافضة: تميزت بالكذب، وتكفير سائر الصحابة إلا بِضْعةً منهم، وبالقول بالرجعة، والتُّقية والعصمة والكيد للمسلمين.

٣ ـ والمعتزلة: تميزت بالقول بالمنزلة بين المنزلتين في أحكام أهل الكبائر، وتعطيل الصفات وتقديم العقل على الشرع.

٤ ـ والجهمية: تميزت بالتعطيل، أي: نفي أسماء الله وصفاته والسَّمعيات، وبالجبر والإرجاء.

٥ ـ والمرجئة: تميزت بتأخير العمل عن الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

---

(١) انظر «منهاج السنة» (٣/ ٤٦٢).

٦ ـ والأشاعرة والماتريدية : تميزت بتأويل الصفات، والقول بالكسب، وتقرير العقيدة بالكلاميات.

٧ ـ والكُلَّابية : تميزت بنفي الصفات الفعلية لله تعالى، وبالقول: إن القرآن وكلام الله تعالى معنى، أو معاني تقوم بذات المتكلم.

٨ ـ وتميزت الكَرَّامية : بالقول بأن الإيمان هو قول اللسان فقط.

٩ ـ وتميزت الباطنية : بقلب الحقائق والغيلة والغدر والكيد والزندقة.

١٠ ـ وتميزت الصوفية : بالسماع وبالبدعيات والمقابرية، والتميع في الدين.

١١ ـ وتميزت الفلاسفة : بالإلحاد وعداوة الأنبياء وشرائعهم، والتعالي على المؤمنين.

١٢ ـ وتميز الأدباء: برقة الدين والانحلال غالبًا.

١٣ ـ وتميز السلاطين: بالفجور والظلم والأثرة غالبًا.

١٤ ـ وتميزت المذاهب المعاصرة: بالعلمنة والإعراض عن الدين ورفض شرع الله والصدِّ عن سبيله.

هذا كله على جهة التغليب والاشتهار، ومع ذلك فإن سائر الفرق تشترك في أكثر هذه الخصائص.

ومما يجدر التنبه له أن الفِرَقَ بعد القرن الثالث اختلطت أصولها وتلاقحت، فأصبحت بقايا الخوارج أقرب للمعتزلة مع التزام أصولها الأولى، والرافضة سلكت سبيل المعتزلة والجهمية في الكلاميات مع التزام أصولها الأولى، والأشاعرة والماتريدية أخذت بكثير من أصول الجهمية والمعتزلة، والتجهم والاعتزال اندمج في أصول المتكلمين الأشاعرة.

والتصوف اختلط بالفلسفة والاتجاهات الباطنية، وهكذا.

أما من حيث السمات، فإن المتأمل لأحوال الفِرَقِ يجد:

١ ـ أن الرافضة اتسمت بالكذب والجهل والحُمْقِ.

٢ ـ والخوارج اتسمت بالتشدد والبغي وقتال المسلمين.

٣ ـ والجهمية والمعتزلة وأهل الكلام اتسموا بالكلام والمراء والجدل في الله وأسمائه وصفاته وسائر الغيبيات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٤ ـ والصوفية اتسمت بالغناء والرقص وكثرة البدع، والتعبد بذلك.

٥ ـ والباطنية اتسمت بالحقد والغدر والتلون.

٦ ـ والمرجئة اتسمت بضعف الولاء والبراء.

٧ ـ وأهل الرأي من المنتسبين لأهل العلم، اتسموا بالحِيَلِ.

٨ ـ والفلاسفة والأدباء اتسموا برقة الدين والانحلال.

قال شيخ الإسلام في وصف الفرق والموازنة بينها: حتى قال الإمام عبد الله ابن المبارك: «الدين

لأهل الحديث، والكذب للرافضة، والكلام للمعتزلة، والحيل لأهل الرأي أصحاب فلان، وسوء التدبير لآل أبي فلان». وهو كما قال؛ فإن الدين هو ما بعث الله به محمدًا ﷺ، وأعلم الناس به أعلمهم بحديثه وسنته. وأما الكلام فأشهر الطوائف به هم المعتزلة، ولهذا كانوا أشهر الطوائف بالبدع[1] عند الخاصة.

وأما الرافضة : فهم المعروفون بالبدعة عند الخاصة والعامة، حتى إن أكثر العامة لا تُعرف في مقابلة السُّني إلا الرافضي، لظهور مناقضتهم لما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند الخاصة والعامة، فهم عين على ما جاء به، حتى الطوائف الذين ليس لهم من الخبرة بدين الرسول ﷺ ما لغيرهم، إذا قالت لهم الرافضة: (نحن مسلمون) يقولون: أنتم جنس آخر»[2].

وقال: وهذا علم عظيم من أعظم علوم الإسلام، ولا ريب أن الرافضة أقل معرفة بهذا الباب، وليس في أهل الأهواء والبدع أجهل منهم به، فإن سائر أهل الأهواء: كالمعتزلة والخوارج مقصرون في معرفة هذا، ولكن المعتزلة أعلم بكثير من الخوارج، والخوارج أعلم بكثير من الرافضة، والخوارج أصدق من الرافضة وأدين وأورع، بل الخوارج لا نعرف عنهم أنهم يتعمدون الكذب، بل هم من أصدق الناس.

والمعتزلة : مثل سائر الطوائف، فيهم من يكذب، وفيهم من يصدق، لكن ليس لهم من العناية بالحديث ومعرفته ما لأهل الحديث والسُّنَّة، فإن هؤلاء يتدينون به فيحتاجون إلى أن يعرفوا ما هو الصدق.

جماع أصول الفرق ومناهجها

تجتمع أصول الأهواء والافتراق والبدع على مختلف مشاربها، وما بينها من اختلاف في عشرة أصول، أجملها الإمام أحمد بقوله[3]:

١ ـ **عقدوا ألوية البدع**، فالابتداع قاسم مشترك بين جمع الأهواء والافتراق.

٢ ـ **وأطلقوا عقال الفتنة**، وأعظمها الفتنة في الدِّين، ومفارقة السُّنَّة.

٣ ـ **فهم مختلفون في الكتاب**، يعني: كتاب الله تعالى، وما جاء عن رسول الهدى ﷺ.

٤ ـ **مخالفون للكتاب**، أي: للقرآن والسنة.

٥ ـ **مجمعون على مفارقة الكتاب**، أي: مخالفة القرآن والسنة ومعارضتها والتلقي عن غيرهما.

---

(١) أي البدع الاعتقادية.

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٤١٣، ٤١٤).

(٣) «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد (ص٨٥) تحقيق عُميرة.

٦ ـ **يقولون على الله بغير علم.**

٧ ـ **وفي الله**، أي: يتكلمون في أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله بغير علم.

٨ ـ **وفي كتاب الله بغير علم**، لأنهم جانبوا مناهج أهل العلم، أئمة الهدى.

٩ ـ **يتكلمون بالمتشابه من الكلام**، في الصفات والقَدَرِ، والغيبيات.

١٠ ـ **ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم**، فيلبسون الحق بالباطل.

وهذه الأصول العشرة: سمات عامة لأهل الأهواء، تجتمع في سائر الفرق ومناهجها.

وكلام الإمام أحمد كلام الخبير بأهل الأهواء والافتراق، فتأمله، واعتبر، نفعني الله وإياك بالعلم النافع، وجنبني وإياك سُبُلَ الغواية[1].

❁ ❁ ❁

(١) يراجع في ذلك كتاب «دراسات في الأهواء والفرق وموقف السلف منها» للدكتور: ناصر عبد الكريم العقل، ط/ مركز الدراسات والإعلام دار أشبيليا الأولى سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

الملامح العامة لمناهج أهل الأهواء وأصولهم وسماتهم

يمكن تلخيص السِّمات العامة والأصول والمناهج لأهل الأهواء بالأمور التالية:

أ ـ ما تتميز به كل فرقة:

رغم أن غالب السمات لأهل الأهواء تشمل سائرهم إلَّا أن المتأمل لحال كل فرقة من الفرق الكبرى يجد لها سمات تميزها عن الفرق الأخرى، على النحو التالي:

١ ـ فالجهمية تتميز بالتعطيل، أي: إنكار أسماء الله وصفاته والسمعيات.

٢ ـ والمعتزلة تتميز بالقدر وإنكار صفات الله تعالى وبعض السمعيات.

٣ ـ والخوارج تتميز بالتكفير والخروج، والتشدد في الدين.

٤ ـ والرافضة تتميز بالكذب وقصب السَّلف ـ أي: سبِّ الصحابة وأئمة الهدى ـ ، والتقية ـ النفاق ـ والشركيات والبدع والمقابرية[(١)].

٥ ـ والصوفية تتميز بالتلوُّن[(٢)] والابتداع، والأوراد البدعية، والقصائد البدعية والغناء والمقابرية.

٦ ـ والباطنية تتميز بالزندقة والإلحاد والغَدْر.

٧ ـ والفلاسفة تتميز بتجهيل الأنبياء وأتباعهم، والإعراض عن الدين.

٨ ـ والفرق الكلامية ـ الأشاعرة والماتريدية ـ تتميز بالتأويل والإرجاء.

٩ ـ والاتجاهات الفكرية والأدبية تتميز برقة الدِّين وقلة الفقه فيه غالبًا.

ب ـ الأصول والمناهج والسمات العامة لسائر أهل الأهواء والافتراق:

وتتمثل في:

١ ـ الخلْطِ في مصادر التلقِّي:

المنهج الحق منهج السلف، أهل السنة والجماعة يقوم على: أن مصادر الدين: الكتاب والسنة، والإجماع وهو مبني عليهما، وما عدا ذلك فهو باطل لأنه بموت النبي ﷺ انقطع الوحي، وقد أكمل الله تعالى الدين قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، والرسول ﷺ قد أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة، وقال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُم شَيْئَينِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ الله وسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ»[(٣)].

---

(١) المقابرية: التعلق ببدع القبور والمشاهد.

(٢) التَّلوّن هو: التقلب والاضطراب في العقيدة وعدم الثبات على أمر في الدين، والتعامل حسب الأحوال والظروف بالهوى، لا بما يوافق الشرع.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم، قال الترمذي حسن غريب، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٩٤٣) ٣/ ٣٩).

والدين الحق يقوم على التسليم والتصديق والاتباع، وهو دين الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ بالوحي وأكمله، فليس لأحدٍ أن يحدِثَ شيئًا زاعمًا أنه من الدين؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١).

أما أهل الأهواء فقد تفرقت بهم السُّبل في مصادر تلقي الدين، فجعلوا من مصادر الدين:

١ ـ العقليات والأوهام والظنون لدى سائر الفرق، وهي من وساوس الشياطين وأوليائهم، ومن اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

٢ ـ الفلسفة لدى سائر الفرق، وتقوم على أفكار الملاحدة والمشركين من الصابئة واليونان والهنود والدهريين ونحوهم.

٣ ـ عقائد الأمم الأخرى ومصادرها لدى سائر الفرق، مثل كتب أهل الكتاب وأقوالهم، والمجوس والصابئة، والديانات الجاهلية.

٤ ـ الوضع والكذب ـ لدى الرافضة والصوفية وغالب الفرق ـ ومصدره الزنادقة ورؤوس أهل البدع، فإنهم يكْذِبون على النبي ﷺ وعلى الصحابة والتابعين وأئمة الهدى وسائر الناس، ومن ناحية أخرى قد يضعون الأحاديث والروايات بأسانيد وهْمية.

٥ ـ الرؤى والأحلام والكشف والذوق ـ لدى الصوفية والرافضة ـ ومصدرها الأهواء وإيحاء الشياطين.

٦ ـ المتشابه والغريب والشاذ من الأدلة الشرعية واللغة وأقوال الناس لدى سائرهم.

٧ ـ الاعتماد على آراء الرجال دون عرضها على الشرع، أو القول بعصمتهم وتقديسهم لدى الرافضة والصوفية وسائر الفرق.

٢ ـ الخللُ فِي مَنْهَجِ الاسْتِدْلَال:

قبل أن أعرض مناهج أهل الأهواء في الاستدلال ينبغي أن أذكر المنهج الشرعي السليم ليكون الميزان وهو:

منهج الاستدلال عند أهل السُّنَّة والجماعة يقوم على الأُسس التالية:

١ ـ حصر الاستدلال في الدليل الشرعي (الوحي) في الدين. أما الدليل العقلي فهو رافد لا يستقلُّ بتقرير الدين.

٢ ـ مراعاة قواعد الاستدلال، فلا يضربون الأدلة الشرعية بعضها ببعض، بل يردُّون المتشابه إلى المُحْكَمِ، والمجْمَل إلى المُبيِّنِ، ويجمعون بين نصوص الوعد والوعيد، والنفي والإثبات،

(١) متفق عليه.

والعموم والخصوص، ويقولون بالنسخ، ونحو ذلك.

٣ - يعملون بكل ما صح من الأدلة الشرعية دون تفريق بين آحاد وغيره.

٤ - يعتمدون تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة والعكس، ويعتمدون معاني لغة العرب ولسانهم، لأنها لغة القرآن والسُّنة، ويردون ما يخالف ذلك.

٥ - يعتمدون تفسير الصحابة وفهمهم للنصوص، وأقوالهم وأعمالهم وآثارهم؛ لأنهم أصحاب رسول الله ﷺ وعاشوا وقت تنزل الوحي، وأعلم باللغة ومقاصد الشرع، ثم آثار السلف الصالح أئمة الهدى الذين هم بهم مقتدون.

٦ - ما بلغهم وعلموه من الدين عملوا به وما اشتبه عليهم علمه - كبعض نصوص الغيبيات والقدر - يُسلِّمون به، ويردُّون علمه إلى الله - سبحانه وتعالى - ولا يخوضون فيه.

٧ - يتجنبون الألفاظ البدعية في العقيدة؛ - كالجوهر والعَرَضِ والجسم - لاحتمالها للخطأ والصواب؛ ولأن في ألفاظ الشرع غنىً وكمال.

٨ - يتجنبون المِرَاءَ والخصومات، ولا يجادلون إلَّا بالتي هي أحسن.

٩ - ينفون التعارض بين العقل السليم والفطرة وبين نصوص الشرع، وبين الحقيقة والشريعة، وما يتوهمه أهل الأهواء من التعارض بين العقل والنقل، فهو من عجز عقولهم وقصورها.

١٠ - يتجنبون التأويل - بغير دليل شرعي صريح -؛ لأنه قول على الله بغير علم.

١١ - يُعنون بالإسناد وثقة الرواة وعدالتهم لحفظ الدين.

أما منهج الاستدلال عند أهل الأهواء والبدع والافتراق إجمالًا، فإنه يقوم على الأسس التالية:

١ - عدم حصر الاستدلال على الدليل الشرعي، حتى في العقائد - وهي توقيفية - فإنهم يستدلون بالظَّنِّيات والأوهام، والفلسفات، ويسمونها العقليات، كما يستدلون بالحكايات والأساطير وما لا أصل له، وبالأحاديث الموضوعة والآثار المكذوبة، وآراء الرجال في الدين، وما يسمونه الكشف والذَّوق والأحلام ونحو ذلك.

٢ - لا يُراعُون قواعد الاستدلال، فيتبعون المتشابه ولا يردونه إلى المحكم ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ويستدلون بالمجمل ولا يردونه إلى المبين، ولا يجمعون بين نصوص الوعد والوعيد، ولا النفي والإثبات، ولا العموم والخصوص.

٣ - يردون ما لا يوافق أصولهم وأهواءهم من نصوص الشرع.

٤ - يفسرون نصوص الشرع بأهوائهم، فلا يعتمدون تفسير بعضها ببعض، ولا يعتمدون معاني اللغة.

٥ - لا يعتمدون تفسير الصحابة والسلف، ولا فهمهم للنصوص، ولا آثارهم وعملهم وهديهم،

بل يجانبونهم، ويتبعون غير سبيل المؤمنين.

٦ ـ يخوضون فيما نهى الله عنه من نصوص القدر والصفات والسمعيات ونحوها: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

٧ ـ يعتمدون الألفاظ البدعية في الصفات وسائر العقيدة (كالجسم والعرض والجوهر).

٨ ـ يقوم منهجهم على المراء والخصومات والجدال بالباطل.

٩ ـ يتوهمون التعارض بين العقل والشرع، وبين الحقيقة والشريعة، وبين أصولهم والشرع، ثم يحكِّمون أهواءهم وأصولهم وعقلياتهم الفاسدة، ويقدمونها على الشرع.

١٠ ـ يعتمدون التأويل في العقيدة، ويقولون على الله بغير علم ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران:٧].

١١ ـ ليس لهم عناية بالإسناد، لتعويلهم على الأهواء، وآراء الرجال، والوضع، وما لا أصل له.

جـ ـ أنواع المناهج عند أهل الأهواء في التلقِّي والاستدلال:

ومن جانب آخر يمكن أن نقسم مناهج أهل الأهواء في التلقي والاستدلال إلى ثلاثة مناهج رئيسة:

المنهج الأول: المنهج الحرفي في الموقف من النصوص وتفسيرها، والاستنباط منها، كما عند الخوارج والظاهرية. فلا يعولون على فقه النصوص والاستنباط منها كما يفعل السلف.

المنهج الثاني: المنهج التأويلي، أي: تأويل النصوص على غير ما هو معروف عند أهلها ـ كالصحابة والتابعين وأئمة الدين واللغة ـ؛ لتسلم أصولهم الفاسدة، كما عند الجهمية والمعتزلة، ثم أهل الكلام من متأخِّري الأشاعرة والماتريدية، وبعض الصوفية والشيعة، ومتأخِّري الخوارج.

المنهج الثالث: المنهج الباطني والإشاري والرمزي، أي: اعتقاد أن النصوص لها تفسير باطني مخالف لمعانيها الظاهرة المفهومة لدى السامعين، توافق أصولهم الفاسدة، كما عند الرافضة، والباطنية، والفلاسفة، وغالب الصوفية، وأهل الحداثة[1].

❁ ❁ ❁

(١) يراجع كتاب «دراسات في الأهواء والفرق والبدع» من (ص ٣٩٤: ٤٠٠).

منهج أهل السنة في النظر والاستدلال بشيء من التفصيل(١)

يقوم منهج أهل السنة والجماعة على أسس وأصول عامة أهمها :

الأول : الاعتصام بالكتاب والسنة، وحصر التلقي لأحكام الدين، أصوله وفروعه، في هذا المصدر، وأن يردَّ الخلاف إليهما عند التنازع، وأن لا يعارضا بشيء من المعارضات، لا بمعقول، ولا رأي، ولا قياس، ولا ذوق، ولا وجد، ولا مكاشفة، ولا منام، ولا غير ذلك(٢).

والكتاب والسنة هما الميزان الذي تُوزن به الأقوال والأعمال والمعتقدات. وهما الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان بين الحق والباطل، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه قُبل، وإلا رُدَّ على صاحبه(٣).

وأهل السنَّة والجماعة يحتجون بالقرآن والسنة، ولا يُفرِّقون بينهما، كما هو حال أهل البدع، فالسنة مُبينة موضحة له، ولا يمكن أن يُستغنى عنها بالقرآن وحده بحال من الأحوال، وهي حجة في العقائد كما أنها حجة في الأحكام.

والحجة إنما تقوم بالسنة الصحيحة الثابتة فقط، لذلك اعتنى أئمة أهل السنة والجماعة بحديث رسول الله ﷺ، فقاموا بتدوينه(٤)، وميزوا بين صحيحه وضعيفه، وأفردوا مصنفات خاصة بالأحاديث الواهية والموضوعة(٥)، وحذروا الناس منها، وألفِّوا الكتب التي تخدم السنة وتشرحها.

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، وهم لا يهملون العقل ولا يقللون من شأنه، ولكن يعلمون أن له حدودًا يجب أن لا يتجاوزها، وأن له مجالًا يجب أن لا يتعدَّاه.

ولذلك فَهُم لا يسلكون في استعماله الطريقة التي سلكها علماء الكلام في الاستدلال به وحده في المطالب الإلهية، كما لا يُقدِّسونه إلى درجة تقديمه على كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، كما هي

---

(١) راجع في ذلك كتابي «كيف الأمر إذا لم تكن جماعة» أو الجماعة والجماعات من (ص ١٩٩ : ٢٠٤).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (ج ١٣/ ٢٨، ٢٩، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٥، ج١٦/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٢، ٢٧٣، ٤٧١، ٤٧٢) وانظر «مقدمة شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم ص٣، طـ دار المعرفة بيروت.

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٨٢)، (١٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٤) انظر حول هذا الموضوع بداية كتاب «تقييد العلم» للخطيب البغدادي، «السنة قبل التدوين» لمحمد عجاج خطيب، «السنة ومكانتها في التشريع» للسباعي، «بحوث في تاريخ السنة المشرقة» للدكتور أكرم ضياء العمري.

(٥) أُلفت في الأحاديث الموضوعة كُتب كثيرة منها: «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» لابن الجوزي، و«اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للسيوطي، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني وغيرها.

حال أهل الكلام[(١)].

الثاني: الأدلة الشرعية قد تكون سمعية، وقد تكون عقلية نبه عليها الشارع[(٢)].

يقول شيخ الإسلام: «ثم الشرعي قد يكون سمعيًّا، وقد يكون عقليًّا، فإن كون الدليل شرعيًّا يُراد به كون الشرع أثبته ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه»[(٣)].

فالدليل الشرعي السمعي هو ما لا يُعلم إلا بمجرد خبر الصادق، وأما الدليل الشرعي العقلي فهو الذي دلَّ عليه الشرع، ونبه عليه[(٤)].

الثالث: التزام النص وطرح التأويل[(٥)]، فالأصل عند أهل السنة هو الأخذ بظاهر الألفاظ، وما دلَّت عليه من الحقيقة[(٦)].

فالقرآن نزل بلغة العرب، ومن أراد تفهُّمه فمن جهة لسانهم يفهم[(٧)].

ومعرفة لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ، يُعين على معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ، بألفاظ الكتاب والسنة وذلك هو أصل العلم وينبوع الهدى.

يقول شيخ الإسلام: فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول وما أرادوه بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة[(٨)].

وأما الألفاظ والأسماء التي بيَّن الرسول ﷺ، ما يُراد بها سواء أكانت من الكتاب أو من السنة، فلا يحتاج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وانظر «الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية» للدكتور محمد أمان الجامي (ص٥٨ ـ ٦٨).

(٢) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٩٨ ـ ٢٠٠)، و«مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٣٧، ١٣٨).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٩٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٩٩).

(٥) المقصود بالتأويل هنا بمعناه الحادث وهو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، انظر كتاب «الإمام ابن تيمية وقضية التأويل» للدكتور الجليند (ص٣٤) ط ـ عكاش للنشر ـ الثالثة سنة ١٤٠٣ هـ ـ وقد تتبع نشأة هذا المعنى الحادث من بدايته.

(٦) انظر «الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ١٣٠ ـ ٣٢٦) تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل.

(٧) انظر «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٢٩٣ ـ ٣٠١)، و«الموافقات» له (٢/ ٦٤ ـ ٩١)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٧/ ١١٦).

(٨) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٥٥)، وانظر (٥/ ٤١٣).

والواجب في هذه الحال هو الرجوع إلى بيان الله ورسوله ﷺ لمعرفة ذلك.

ومن أمثلة ذلك اسم الصَلاة، والصيَّام، والحج، واسم الإيمان، والإسلام، والكفر والنفاق، ونحوها، فالنبي ﷺ؛ قد بيَّن المراد بهذه الألفاظ بيانًا شافيًا كافيًا(١).

ومن فروع هذا الأصل اقتصار أهل السنة والجماعة على استعمال الألفاظ الشرعية في تقرير مسائل الاعتقاد، ونبذهم للألفاظ والمصطلحات الحادثة التي تولَّدت نتيجة إقحام علم الكلام والمنطق، والفلسفة في العلوم الشرعية.

وكذلك لا يستعملون الألفاظ المجملة التي تحتمل أكثر من معنى(٢)، أمَّا إذا استعملها غيرهم من أهل البدع، فإنهم يستفصلون منهم عمَّا أرادوه باستعمالها، فما كان فيها من حق أقرُّوه، وما دلَّت عليه من باطل ردُّوه(٣).

يقول ابن أبي العز الحنفي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة»(٤).

لذلك فإن عرض العقيدة الإسلامية يجب أن يكون بأسلوب الكتاب والسنة، كما فعل سلفنا الصالح، لا بأسلوب غريب عنها، كالأسلوب الفلسفي الذي يستعمله علماء الكلام في عرضها(٥).

الرابع: الرجوع إلى فهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة؛ لأنهم أحق الناس بمعرفة مُرادِ الله، ومُرادِ رسوله ﷺ، فقد عاصروا التنزيل، وتربُّوا على يد الرسول ﷺ، ولازموه وخبروا أقواله وأحواله، وكانوا أصح الناس لسانًا فبلُغَتِهم نزل القرآن الكريم.

وقد أثنى الله عليهم في كتابه الكريم، وشهد لهم رسول الله ﷺ، بالخيرية والأفضلية، فواجب على من جاء بعدهم إلى يوم القيامة الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، والسير على نهجهم(٦).

الخامس: الجمع بين أطراف الأدلة، وذلك بأن يرجع إلى القرآن كله، وإلى السنة كلها، قبل تقرير أي حكم أو مسألة، وأن لا يضرب كتاب الله بعضه ببعض كما حذَّر النبي ﷺ أمته من ذلك.

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، ١٣/ ٢٧).
(٢) مثل لفظة الجهة والحيز، والجسم.
(٣) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٢١٨ ـ ٢٢٣)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، (١٢/ ١١٤).
(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٠٧)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٥٥).
(٥) لابن الوزير كتاب في هذا الموضوع بعنوان «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان».
(٦) انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٣ ـ ٢٧)

ومن أمثلة هذا الأصل الجمعُ بين نصوص الوعد والوعيد، والجمع بين أحاديث الشفاعة، وما ورد في فضل كلمة الإخلاص، وبين الأحاديث التي دلَّت على شروطها[١].

السادس: رد المتشابه إلى المحكم[٢].

هذا ما تسنَّى لي جمعه من الأصول العامة التي تمثِّل منهج أهل السنة والجماعة في النظر والاستدلال[٣] [*]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٧ ـ ٢٧١)، (١١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٩)، (١٦/ ١٩٥، ١٩٦)، و «تحقيق كلمة الإخلاص» لابن رجب (ص٢ ـ ١٥) دار الفتح ـ القاهرة ـ تحقيق أسامة حمزة، و«معارج القبول» لحافظ الحكمي (١/ ٣١٥ ـ ٣٢٠) «وتيسير العزيز الحميد» للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ (ص ٨٥ ـ ٩١ ط المكتب الإسلامي الثالثة.

(٢) انظر كتاب «الردِّ على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد بن حنبل فقد بيَّن فيه تطبيق هذه القاعدة، ولشيخ الإسلام رسالة بعنوان «الإكليل في المتشابه والتأويل» تكلم فيها عن هذا الموضوع. انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٠ ـ ٣١٤)، وانظر «المباحث التمهيدية في كتاب الإسلام»، للشيخ عبد المجيد الشاذلي.

(٣) توجد بعض الكتب والرسائل المعاصرة التي تناولت هذا الموضوع:

أ ـ الدكتور عبد الرحمن المحمود في رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وعنوانه «ابن تيمية وموقفه من الأشاعرة» (١/ ٤١ ـ ٦٧، ٢٤٥ ـ ٣٥٥).

ب ـ محمد العبدة وطارق عبد الحكيم في كتابهما «مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم» (ص ٧١ ـ ٧٧).

جـ ـ الدكتور فاروق أحمد حسن دسوقي في كتابه «قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة».

د ـ عبد المجيد الشاذلي في كتابه «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» (ص ١٨ ـ ٩٤).

(*) انتهى بنصه من لزوم الجماعة (ص٢٦٢ إلى ٢٦٥) جمال بن أحمد بشير بادي.

منهج أهل الأهواء والبدع في النظر والاستدلال بشيء من التفصيل(١)

والآن أشرع في بيان أهم الأصول العامة لمنهج أهل الأهواء والبدع في النظر والاستدلال، والتي خالفوا بها أهل السنة والجماعة، وهي كالتالي:

الأول: اعتمادهم في معظم أبواب الاعتقاد على أصول تناقض الحق، وهي أصول وضعها وابتدعها شيوخهم، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن والسنة احتجوا به، وما خالفها تأولوه(٢)، ولذلك ليس لهم عناية بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، ولا بتحرير دلالتها(٣)، لأنهم لم يتلقوا دينهم من الكتاب والسنة، وإنما مصدر التلقي عندهم، إما من العقل كما هو الحال عند المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، ومن سار على نهجهم، وإما من الأئمة الذين ادعوا فيهم العصمة كالرَّافضة وسائر فرق الباطنية، وإما من الوجدان والكشف والذوق والمنامات(٤) كما هو حال كثير من المتصوفة، وإما من المصادر الدخيلة كالفلسفة والمنطق، وهو حال علماء الكلام، والفلاسفة المنتسبين للإسلام(٥).

الثاني: اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة، والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ وردِّهم للأحاديث التي لا توافق أهواءهم(٦).

الثالث: اتباعهم للمتشابهات(٧) وتخرُّصهم على الكلام في الكتاب والسنة، مع جهلهم باللغة

---

(١) يراجع في ذلك أيضًا كتابي «كيف الأمر إذا لم تكن جماعة» من (ص٢٠٥: ٢٠٨).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣٨ـ٣٣٩، ١٣/ ٢٨ـ٢٩، ٦٠ـ٦٣، ١٦/ ٢٥١ـ٢٥٢، ٢٧٢، ٣٧٣).

(٣) انظر الرد على البكري لشيخ الإسلام (ص ١٢١، ١٣١، ١٣٢، ٣٧٥ ـ ٣٧٦) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥٨، ٦٠، ١٦/ ٤٤٠).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٨ـ٣٣٩، ١٣/ ٢٨ـ٢٩، ٦٠ـ٦٣، ١٦/ ٢٥١ـ٢٥٢، ٢٧٢، ٣٧٣).

(٥) انظر حول استناد المتصوفة إلى المنامات على شرعية كثير من العبادات والأوراد:

١- جواهر المعاني وبلوغ الأماني لعلي حرازم التيجاني (١/ ١٢٩، ١/ ٣٠ـ٣١، ٢/ ٢٢٨) الطبعة الأولى.

٢- بغية المستفيد لمحمد العربي (ص٧٩، ٨٠).

وقد نبه الشاطبي على هذا المأخذ لأهل البدع في الاستدلال في كتابه الاعتصام (١/ ٢٦٢).

(٦) نبه على ذلك الشاطبي في الاعتصام (١/ ٢٢٤ـ ٢٣١)، وانظر أمثلة لذلك من كتب أهل البدع:

أ- الدرر السنية لأحمد بن زيني دجلان (ص ٨، ٩) ط. الحلبي ـ القاهرة ١٤٠٠.

ب- مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي (ص ٤٦، ٥١، ٦٥، ٦٩، ٦٧) طبعة مصرية ١٤٠٥ هـ.

جـ - بغية المستفيد لمحمد العربي التيجاني (ص ١٢٥)ط. الحلبي سنة ١٣٨٠هـ.

(٧) انظر الاعتصام (١/ ٢٣٩).

العربية[١]، وجهلهم بأقوال السلف الصالح، حتى أصبح شعار أهل البدع هو: ترك انتحال أتباع السلف[٢].

الرابع: تحريفهم للأدلة عن مواضعها، بأن يردَّ الدليل على مناط فيصرفونه عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهمين أن المناطين واحد[٣].

الخامس: فَتْحُهم لباب التأويل الفاسد للنصوص الشرعية بدون دليل[٤].

ولقد كان هذا الأمر من أعظم عوامل تفرق الأمة الإسلامية، بل والأمم الأخرى من قبلهم.

يقول ابن القيم: «وبالجملة فافتراق أهل الكتاب، وافتراق هذه الأمة، على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل»[٥].

ويقول ابن أبي العز الحنفي: وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد[٦].

السادس: الغلو والإفراط في مسائل الاعتقاد، كغلو المتصوفة في مسألة المحبة، وكغلوهم في الصالحين، والمشايخ، وكغلو الخوارج والمعتزلة في آيات الوعيد، وغلو الجبرية في إثبات القدر[٧].

السابع: تحكيم العقل في النقل، وتقديمه عليه، واعتبار العقل هو الأصل والأساس فيما يقبل

---

(١) انظر الاعتصام (١/ ٢٣٧).

(٢) انظر مجموع الفتاوى:(٣/ ١٥٥، ٧، ١٧٣، ٢٢٨، ١٢/ ١١٥).

(٣) انظر الاعتصام (١/ ٢٤٩)، وقد ذكر الشاطبي أمثلة لهذا المسلك، ومنها تخصيص الذكر المشروع بكيفية معينة أو هيئة معينة كالذكر الجماعي الذي يفعله بعض أهل البدع.

(٤) انظر حول هذا الموضوع المراجع التالية:

أ- «الصواعق المرسلة» لابن القيم، وقد تكلم عن هذا الموضوع في جل كتابه المذكور، وذكر الأسباب التي تسهل على النفوس الجاهلة قبول التأويل مع مخالفته للبيان (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٥١)، وذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين (٢/ ٦٣٢) ثم أتى عليها جميعًا بالنقص.

ب- الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٥٢).

جـ- شرح العقيدة الطحاوية ص (٢١٢ ـ ٢١٦).

د- مقدمة رسالة «قانون التأويل» لابن عربي (٢٢٩ ـ ٢٥٥) تحقيق الدكتور محمد السليماني. ط ـ دار القبلة ـ جدة ـ الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

هـ- مقدمة كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ٣٨) تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان.

و- وسطية أهل السنة والجماعة للدكتور محمد باكريم ص (٣٣٠).

(٥) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣١٧).

(٦) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ١٨٩).

(٧) انظر «الاعتصام» (١/ ٢٥٨)، ووسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد باكريم (ص ٣٣٠).

ويرد، وفيما يصح أو لا يصح، ويجوز على الله أو لا يجوز[١].

الثامن: استدلالهم بحكايات منقولة، إما مكذوبة عن أحد الأئمة، وإما منقولة عن مجهول من الناس، على جحية عمل من الأعمال التعبدية[٢][٣].

وهكذا تبين لنا كيف أن مخالفة أهل الأهواء والبدع لمنهج أهل السنة والجماعة في النظر والاستدلال كان من أعظم أسباب تفرقهم عنهم ومفارقتهم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر «وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد باكريم (ص ٣٣١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٨٤ ـ ٦٨٧) ومن ذلك الحكاية المكذوبة على الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في أنه جوز التوسل بالرسول ﷺ وقد بين زيفها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص ٦٨ ـ ٨٥) ط. المكتبة العلمية ـ بيروت.

(٣) منقولًا عن لزوم الجماعة ـ لجمال بن أحمد بشير بادي.

* أهم الملامح الخاصة لأهل البدع والأهواء المتعلقة بموضوع الكتاب بشيء من التفصيل

١ - دعواهم أن الرسول ﷺ لم يتكلم بالحقيقة في صفات الله (منهج):

قال شيخ الإسلام: وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك، على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما تخيل لهم، كما يقولون: إنه لو قال: إن ربكم ليس بداخل العالم ولا بخارجه ولا يشار إليه، لا هو فوق العالم ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه وقالوا هذا لا يعرف، قالوا: فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم ربًّا يعبدونه، وإن كان يعرف أن التجسيم باطل، وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخِّرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح، واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول ﷺ من الإثبات كما يوجد في كلام غير واحد[1].

٢ - وضع الدليل في غير ما يدل عليه (منهج):

قال ابن عمر رضي الله عنه في الخوارج: (انطَلَقوا إلى آياتٍ نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين)[2].

وهذا منهج كثير من أهل الأهواء والبدع.

٣ - كراهيتهم لنصوص الصفات والتوحيد وطعنهم في رواتها من الأئمة (سمة):

لَمَّا خالف أهل الكلام السلفَ في الصفات، وسلكوا مسلك التأويل والتعطيل، تعارضت شبهاتهم مع دلالة النصوص المثبتة للصفات، صاروا ينفرون منها، وتطاولوا على رواتها من الصحابة ومن بعدهم، زعمًا منهم أنهم رووا ما لا يوافق المعقول.

يقول ابن القيم: (ولهذا تجد كثيرًا لا يحب تبليغ النصوص النبوية أو إظهارها وإشاعتها، وقد يشترطون في أماكن يقفونها أن لا يقرا فيها أحاديث الصفات ، وكان بعض متأخريهم وهو أفضلهم عندهم كَلِفٌ بإعدام كتب السُّنة المصنفة في الصفات وكتمانها وإخفائها، وبلغني عن كثير منهم أنه كان يهمُّ بالقيام والانصراف عند ختم صحيح البخاري وما فيه من التوحيد، والردِّ على الجهمية، وسُمِعَ منه الطعن في محمد بن إسماعيل، وما ذنب البخاري، وقد بلَّغ ما قاله رسول الله ﷺ، وقال آخر من هؤلاء: (لقد شان البخاري صحيحه بهذا الذي أتى به في آخره). ومعلوم أن هذه مضادة صريحة لما يحبه الله ورسوله من التبلغ عنه، حيث يقول: «لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»[3].

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٣٥٦، ٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ـ استتابة المرتدين ـ باب (٦) الفتح (١٢/ ٢٨٢).

(٣) الصواعق (٣/ ١٠٣٩، ١٠٤٠).

قلت: وهذا ما سلكه بعض المتعصبة المتكلمين المتأخرين كالكوثري(١).

٤- تسميتهم أصولهم الباطلة أصول الدين والتوحيد (منهج):

من أصولهم الباطلة تسميتهم مقولاتهم وتعطيلاتهم وتأويلاتهم: أصول الدين والتوحيد مع أن أصول الدين حقًّا ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ؛ أما أصول أهل الكلام فما هي إلَّا تخرصات وأوهام وخيالات ليست من الدين في شيء؛ لأن ما يقصدونه هم فيه مختلفون مضطربون متناقضون حائرون، فكيف يكون كلامهم وعقلياتهم أصول الدين؟! إنما أصول الدين والتوحيد ما عليه سلف الأمة الأئمة المهتدون وهو ما ثبت في الكتاب والسُّنَّة(٢).

قال شيخ الإسلام: و(اسم التوحيد) اسم مُعَظَّم جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فإذا جعل تلك المعاني التي نفاها من التوحيد، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول ﷺ أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل، ويسمي طائفته الموحدين، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيءٍ من الصفات، ويسمون ذلك توحيدًا وطائفتهم الموحدين ويسمون علمهم علم التوحيد، كما تسمي المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلًا، ويسمون أنفسهم العدلية، وأهل العدل، ومثل هذه البدع كثير جدًّا، يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله بتلك الألفاظ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عزَّ وجلَّ، ورسوله ﷺ بل شُبه حصلت لهم، وأئمة لهم(٣).

فمفهوم التوحيد عند المتكلمين يعني إثبات (الخالق) الصانع، وتوحيد الربوبية، وأن الله ليس بجسم ولا جوهر ولا متحيز ولا داخل العالم ولا خارجه. فهم كالفلاسفة يقفون عند توحيد الربوبية مع سوء فهمهم له، ولا يصلون إلى التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب وهو توحيد الإلهية والعبادة، وتوحيد الإثبات، وهذا بخلاف ما عليه السلف تمامًا، إذ يبدعون هذه الطريقة كما قال أبو العباس بن سُريج (ت ٣٠٦ هـ): (توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتوحيد أهل الباطل الخوض في الأعراض والأجسام، وإنما بعث النبي ﷺ بإنكار ذلك(٤).

فالجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم من متأخِّري الرافضة والخوارج وأهل الكلام حقيقة التوحيد عندهم تنتهي بالتعطيل:

---

(١) راجع التنكيل للمعلمي وتعليق العلَّامة الألباني عليه.

(٢) انظر : درء التعارض (١/ ٤١، ٤٢).

(٣) الفتاوى (١٧/ ٣٥٢).

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٥٩) (اللاحم)؛ ويراجع ذم الكلام (٢٨٧) مخطوط.

قال الذهبيُّ: لما ذكر كلام ابن عبد البر أنَّ الجهمية والمعتزلة والخوارج ينكرون الصفات ولا يحملون منها شيئًا على الحقيقة، ويزعمون أَنَّ مَنْ أقرَّ بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود.

قال الذهبي: صدق والله، إن من تأوَّل سائر الصفات وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أدَّاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب، وأن يشابه المعدوم كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال: مَثَلُ الجهمية كقوم قالوا في دارنا نخلة، قيل: لها سعف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كرب؟ قالوا: لا، قيل: فلها رطب وقنع؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة[1].

قال شيخ الإسلام: والتوحيد عندهم نفي التشبيه والتجسيم. ويقولون: إن الأول يعنون به عدم النظير، والثاني يعنون به أنه لا ينقسم، وهم يفسرون الواحد والتوحيد بما ليس هو معنى الواحد والتوحيد في كتاب الله وسنة رسوله، وليس هو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله، وهذا أصل عظيم تجب معرفته، فقال نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة ونحوهم: الواحد هو الذي لا صفة له ولا قدر. إلخ، وذكر أمثلة أقوال ابن سينا والجهمية والمعتزلة[2].

وهاك أنموذجًا من تعريف التوحيد عند أهل الأهواء:

يقول النَّشَّار: علم التوحيد، أو علم الكلام أو علم أصول الدين، وهو علم الحِجَاجِ عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، ويسمي أصحابه بالمتكلمين، أو متكلمي الإسلام[3].

فقد جعل علم التوحيد مرادفًا لعلم الكلام، مع العلم أن الكلام مناقض للتوحيد، ثم سماه بعلم الحِجَاج، والحجاج هو الجدال، وزعم أن أصحاب التوحيد هم علماء الكلام. وللنَّشَّار موقف من السلف لا يُحْمَدُ، سأذكره فيما بعد. وعلى أية حال فالنشار ما هو إلا واحد من الأشاعرة، لم يخرج عن قولهم، بل نقله عمن سبقوه.

٥- وقوعهم في تقرير التوحيد فيما نهى الله عنه:

فأهل الأهواء والكلام في مسلكهم في تقرير التوحيد وقعوا في نوع ما نهى الله عنه، حيث أنشأوا الإشكالات والتساؤلات حول التوحيد، ثم أجابوا عليها بغير علم، وافترضوا الاعتراضات على نصوص الصفات والسمعيات، فخرجوا عن اليقين والتسليم الشرعي إلى الشك والحيرة والاضطراب، وقد حذَّر النبي ﷺ من هذا المسلك.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسَ يَتَسَاءَلُونَ حَتَى يَقُولُوا: هَذَا الله خَالِقُ

---

(١) العلو للعلي الغفار، للذهبي (١٨٢).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٣٧) (حقي).

(٣) نشأة الفكر الفلسفي (١/ ٣٨).

كُلِّ شيءٍ، فَمَنْ خلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُم ذَلِكَ فَلْيَقُل آمَنْتُ بِاللهِ»[١]. وقد وقع من أهل الكلام في أسماء الله وصفاته وأفعاله ما حذر منه النبي ﷺ.

ومن ذلك مخالفتهم لقول الرسول ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُم..». الحديث[٢].

٦- وكذلك تباينتْ مفاهيمُهُم وتعددت مناهِجُهُم في تقرير التوحيد وإثباته:

أما منهج السلف في تقرير التوحيد وإثباته، فإنه مبني على منهج القرآن والسنة، في تقرير التوحيد بالفطرة والشهادتين والدلائل والبراهين التي تباشر الفطرة والعقل السليم من غير تكلف ولا فلسفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٦].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ١٠].

وقال ﷺ: «أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»[٣]، وقال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ..»[٤]. الحديث.

وقد بوَّب البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، وبدأه بحديث بعْثِ معاذ إلى اليمن تحت باب (ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمَّتَه إلى توحيد الله تبارك وتعالى)، حيث يذكر البدء بالشهادتين، وهذا هو المنهج الحق الذي يناسب الفطرة والعقل السليم[٥]. وهو منهج السلف في تقرير التوحيد.

أما أهل الأهواء فمنهم من يسلك طريقة الفلاسفة الذين خالفوا منهج الأنبياء، ذلك أنهم يبدؤون في تقرير التوحيد بإثبات الصانع وتوحيد الربوبية. أما منهج القرآن والسنة ومنهج السلف في ذلك: البدء بالشهادتين وتوحيد الإلهية، ثم أركان الإسلام والإيمان فلا يعرف في مناهج المتكلمين.

قال شيخ الإسلام في وصف منهج أهل الكلام في إثبات التوحيد:

كما هي الطريقة المشهورة الكلامية للمعتزلة ، والكرامية ، والكلابية، والأشعرية، ومن سلك هذه الطريق في إثبات الصانع أولًا، بناء على حدوث العالم، ثم إثبات صفاته نفيًا وإثباتًا بالقياس

(١) متفق عليه، انظر: صحيح البخاري (٣٢٧٦)؛ ومسلم (٢١٢).
(٢) البخاري، حديث (٧٢٨٨)، ومسلم ، حديث (٣١، ٣٢) فضائل.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.
(٤) البخاري، حديث (١٣٥٨)، كتاب الجنائز؛ فتح الباري (٣/ ٢١٩).
(٥) انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٤٤) وما بعدها.

العقلي ـ على ما بينهم فيه من اتفاق واختلاف، إما في المسائل وإما في الدلائل ـ ثم بعد ذلك يتكلمون في السَّمعيات، من المعاد والثواب والعقاب والخلافة والإيمان بطريق مجمل. وإنما عمدة الكلام ومعظمه هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات وهي أصول دينهم[1] ..»[2].

ومن أهل الأهواء من يسلك في تقرير التوحيد طريقة البرهان، وهم غُلاة الصوفية، حيث يزعمون أن التوحيد يُحقّق بالأحوال، والخروج عن مقام العبودية؛ فيزعمون أن غاية التوحيد الاستغناء عن شرائع الأنبياء، والفناء في الله. وعن هذا المسلك الباطل نتجت المذاهب الإلحادية: القول بالحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود .. ونحوها.

٧- سوء الأدب مع الله تعالى والخوض في أسمائه وصفاته بغير علم (سمة):

من براهين جهل أهل الأهواء كلامهم في صفات الله تعالى بغير علم، بالتعطيل والتأويل والسُّلوب وقلة أدبهم في ذلك، وقد ذكر ابن القيم نموذجًا من توهماتهم في حق الله تعالى، قال:

وقال الآخر: بل هو موصوف بالسلوب والإضافات، فلا سمع له ولا بصر، ولا حياة، ولا إرادة، ولا يتكلم، ولا يكلم أحدًا من خلقه، ولا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق العرش ولا تحته، ولا يمينه ولا يساره، ولا خلفه ولا أمامه، ولا له وجه، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يسخط ولا يضحك، ولا يفرح بتوبة تائب، ولا استوى على عرشه، ولا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا يأتي يوم القيامة، ولا يجيء لفصل القضاء، ولا يراه المؤمنون بأبصارهم، ولا يستمعون كلامه، ولا يقوم به فعل ألبتة، ولا وصف، ولا له حقيقة وماهية غير وجود مطلق، وهو وجه كله، وسمع كله، وبصر كله، ويد كله، علمه ذاته، وسمعه وبصره علمه، ليس له يد غير القدرة، خلق بها آدم، وكتب بها التوراة، وغرس بها جنة عدن يقبض بها السموات، وليس له وجه يراه المؤمنون بأبصارهم، ليس بجوهر، ولا جسم، ولا متحيز ولا متحرك ولا ساكن، ولا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا يقرب منه شيء ولا يحبه أحد ....».

وهكذا ترى حشدًا من الألفاظ والمصطلحات المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وغالبها مبناه على التوهمات والظنون، والعجيب أن أهل الكلام الذين يخوضون في الله تعالى

---

(١) انظر على سبيل المثال الكتب التالية: (التوحيد) للماتريدي؛ و(الإنصاف) للباقلاني؛ و(تمهيد الأوائل) للباقلاني؛ و(الإرشاد) للجويني؛ و(أصول الدين) للبغدادي؛ و(الأربعين) للغزالي؛ و(المواقف) للأيجي؛ و(شرح المقاصد) للتفتازاني ونحوها . تجدها ـ رغم أنها من كتب أجلة المتكلمين ـ تقرر التوحيد على منهج الفلاسفة من حيث المقدمات العقلية والمصطلحات الفلسفية، والمحارات العقلية بعيدًا عن منهج القرآن والسنة ودلالة الفطرة، وغاية ما يرومونه (توحيد الربوبية) وإثبات الخالق، وهو أمرٌ بدهي لا ينكره الكفار ولا المشركون ، لكن توحيد الإلهية والعبادة والقصد والطلب والإثبات لا يعرجون عليه.

(٢) «الفتاوى» (٢/ ٧).

وصفاته وأفعاله على هذا النحو الذي ذكره ابن القيم توقفوا في كثير مما جاء في القرآن والسنة في ذلك، وعدلوا عن كثير مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ (١).

٨- وتسميتهم مذهب السلف في إثبات الصفات (تشبيهًا)، وأنواع أخرى من الأوصاف والألقاب الشائنة تلبيسًا وتمويهًا:

يقول شيخ الإسلام: (وهؤلاء نفاة الأسماء من هؤلاء الغالية من الجهمية الباطنية والفلاسفة، وإنما استطالوا على المعتزلة بنفي الصفات وأخذوا لفظ «التشبيه» بالاشتراك والإجمال، كما أن المعتزلة فعلت كذلك بأهل السنة والجماعة مثبتة الصفات، فلما جعلوا إثبات الصفات من التشبيه الباطل، ألزمهم أولئك بطرد قولهم، فألزموهم نفي الأسماء الحسنى) (٢).

ومن تلبيسات أهل الأهواء عمومًا:

تسميتهم السلف: حشوية ومشبهة، ومجسمة، ورعاع وأوباش، ونابتة، ووصف أئمة السلف (بالسذاجة) و(الغفلة) (٣).

وإطلاقهم على التدين (ثقالة)، وترك الفلسفة والكلام (حجر وجهل) (٤).

وتسميتهم الأمر والنهي (فتنة وشرًّا) (٥).

وتسميتهم إثبات صفات الله (تجسيمًا وتشبيهًا) (٦).

وقالوا في اليد والوجه والعين لله تعالى (جوارح وأدوات) (٧) لينكروها أو يؤولوها.

وسموا الاستواء (حركة وتحيزًا) (٨) لينكروه أو يؤولوه.

---

(١) «دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها» (٤٤٣، ٤٤٤) للدكتور / ناصر بن عبد الكريم العقل ـ ط. دار إشبيليا.

(٢) الصفدية: (١/ ١٠٣).

(٣) راجع الصواعق المرسلة (٢/ ٤٤١)، وكتاب تبديد الظلام للكوثري (٥، ١٥، ٤٥، ٥٥، ١٥١، ١٥٤، ١٥٧، ١٧١).

(٤) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٨ ـ ١٤١، ٤، ١٢١٣). وراجع على سبيل المثال: تأويل مشكل الحديث لابن فورك، والإرشاد للجويني، والفرق بين الفرق للبغدادي، والملل والنحل للشهرستاني، وأساس التقديس للرازي، ومقالات الكوثري، وتعليقاته على كتاب التنبيه والرد للملطي، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي ، ودفع شبه التشبيه لابن الجوزي، ومقدمة الكوثري على الرسائل السبكية، ونشأة الفكر الفلسفي للنشار. وأي كتاب من كتب المتكلمين ـ قديمًا أو حديثًا ـ فهو على هذا المنوال.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) نفس المصدر السابق.

وسموا العلو والفوقية (جهة ومكانًا) [(١)] لينكروه أو يؤولوه.

وسموا النزول والمجيء (حركة وانتقالًا) [(٢)] لينكروه أو يؤولوه.

وتسمية أفعال الله وحكمته ومشيئته (أعراضًا وحوادث) [(٣)] لينكروها أو يؤولوها.

ومن تلبيساتهم: الانتهاء إلى أئمة أجلاء والزعم بأنهم على مذهبهم لترويج مقالاتهم كانتساب الرافضة لآل البيت، وانتساب أهل الكلام لعلي والحسن البصري، وانتساب الصوفية لأهل الصُّفة، وهذا من التلبيس.

ومنه تزيين مقالاتهم وعباراتهم بالألفاظ والمحسنات والأغراب لجذب النفوس واستهواء العقول إليهم.

ومن التلبيس ما فعلته كل فرقة:

فالخوارج يسمون أنفسهم (المؤمنين) وبلدهم (دار الإسلام) و(الهجرة) ويسمون المخالفين (كفَّارًا) ودارهم (دار حرب).

والرافضة تسمي أهلَ السنة (الجمهور) ويسمون أنفسهم (المؤمنين) و(أولياء الله) ناهيك عن تفسيراتهم لألفاظ كلام الله تعالى بما هو أشد لبسًا وتضليلًا، مثل قولهم في : (مرج البحرين) علي وفاطمة.

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (الحسن والحسين).

الجبت والطاغوت (أبو بكر وعمر) .

الشجرة الملعونة في القرآن (بنو أمية).

والبقرة (عائشة).

والقدرية والمعتزلة تسمي إنكار القدر (عدلًا).

ونفي الصفات (توحيدًا) وإثباتها (تشبيهًا).

والخروج على الأئمة (أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر).

والجهمية يسمون التعطيل (توحيدًا)، والإثبات (تجسيمًا).

وأهل الكلام يسمون الفلسفة والعقليات والأوهام (توحيدًا).

وتأويل الصفات (تنزيهًا)، وإثباتها (حشوًا)، و(تجسيمًا)، وقد ذكرنا كثيرًا من تلبيسات أهل الكلام قبل قليل.

والصوفية تسمي الحلول، والاتحاد والشركيات (حقيقة) و(توحيدًا).

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

وتسمي أهل البدع (أولياء) و(أهل الله).

والفلاسفة والباطنية تسمي إلحادها وضلالها (حكمة) و(معرفة) والوحي والشرائع (ظواهر) و(تخييلات) و(جهالات).

وزعمت الباطنية أن (آيات الله) أئمتهم.

والحلال (ما يجب إظهاره)، والحرام (ما يجب ستره).

والصلاة (صلاة الداعي).

والزكاة (إيصال الحكمة).

والصوم (ستر عقائدهم).

والحج (زيارة شيوخهم)[(١)].

ومما يجب التنبه له هنا أن تلبيسات أهل الكلام تأتي في معارضة القرآن والسنة وطريقة السلف، فإن سائر أصول المتكلمين لا يدل عليها القرآن، بل هو على نقيضها لكنهم يلبسون على الناس بألفاظ مشتبهات فمثلًا:

قولهم بأن الله تعالى «ليس على العرش، وليس في العلو ولا فوق، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا يشار إليه، ولا يقرب منه شيء، ولا هو يقرب من شيء، ولا ينزل ولا يجيء، ولا يحتجب، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينزل منه شيء...»[(٢)]. إلخ، يصادم ما جاء به القرآن وجاءت به السنة من أن الله تعالى على عرشه فوق عباده، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه، الآية: ٥]، قريب منهم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، يجيء ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وينزل للحديث «ينزل ربنا تبارك وتعالى ..» ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ونحو ذلك، لكن أهل الكلام يردون ذلك ويصرفونه باعتراضات وتوهمات يزعمونها عقلية فيزعمون أن ذلك انتقال وحركة، وأنه يعني حلول الحوادث بالله تعالى على نحو ما هو معروف في المخلوقات، مع أن الاستواء والعلو والفوقية لله تعالى ثابتة بنص القرآن وصحيح السنة لكنهم سمَّوا صفات الله وأفعاله بغير اسمها الشرعي ليكون ذلك ذريعة لتأويلها ونفيها.

وقال ابن القيم: «وأما لبس الحق بالباطل: فأنتم تسمُّون ما أثبته الله لنفسه من الصفات والكلام والعلو والاستواء (تركيبًا وتجسيمًا وتشبيهًا).

وتسمون عرشه (حيزًا) واستواءه عليه (تحيزًا).

وتسمون صفاته (أعراضًا)، وتنزهونه عنها، وأفعاله (حوادث) وتنفونها عنه، وحكمته

---

(١) انظر: الحركات الباطنية للخطيب ١٣٠ وما بعدها.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٦٠) (الطيار).

(أعراضًا) وتبطلونها، ووجهه الكريم ويديه (جوارح) وتنكرونها.

ويسمون نفيهم وتعطيلهم (تنزيهًا) (وتقديسًا وتوحيدًا)، فيلتبس الحق بالباطل على من لم يعرف مرادهم من هذا التنزيه والتوحيد والتقديس ولا من ذلك التجسيم والتشبيه والتمثيل»[(١)].

واعلم يا أخي المسلم ـ حماني الله وإياك ـ أن أسلم طريقة في أسماء الله وصفاته، طريقة القرآن والسُّنَّة، وهي ما عليه السلف الصالح إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال كما يليق بجلال الله تعالى وعظيم سلطانه. وأن كل ما زاد عن ألفاظ الشرع فهو قول على الله بغير علم، ورجم بالغيب، ينافي التسليم لله تعالى، فاستمسك بالقرآن والسنة ونهج سلف الأمة وحسبك ، وإياك أن تستهويك الأهواء، ويستهويك الشيطان فيضلك عن سبيل الله، أو يلبِّس عليك دينك، واحفظ الله يحفظك.

٩- الجمع بين المتناقضات في الاعتقادات:

قال شيخ الإسلام: «بل تجد أحدهم يجمع بين النقيضين أو بين رفع النقيضين، والنقيضان اللذان هما الإثبات والنفي لا يجتمعان ولا يرتفعان، بل هذا يفيد صاحبه الشك والوقف، فيتردد بين الاعتقادين المتناقضين الإثبات والنفي، كما يتردد بين الإرادتين المتناقضتين.

وهذا هو حال حذَّاق هؤلاء، كأبي المعالي وأبي حامد، والشهرستاني، والرازي، والآمدي. وأما ابن سينا وأمثاله فأعظم تناقضًا واضطرابًا، والمعتزلة بين هؤلاء وهؤلاء في التناقض والاضطراب.

وسبب ذلك جعل ما ليس بمعقول معقولًا لاشتباه الأمر ودقة المسائل، وإلا فالمعقولات الصريحة لا تتناقض، والمنقولات الصحيحة عن المعصوم لا تتناقض.

وقد اعتبرت هذا في عامة ما خاض الناس فيه من هذه الأمور، دقيقها وجليلها، فوجدت الأمر كذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقد يشكل الشيء ويشتبه أمره في الابتداء، فإذا حصل الاستعانة بالله واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه، أو سلوك الطريق الذي أمر بسلوكها هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم»[(٢)].

١٠- أهل الأهواء والافتراق بين الإفراط والتفريط

كما تميز أهل السنة بالوسطية والاعتدال، تميزت كل الفرق بالإفراط أو التفريط، وبالغلو أو التقصير، وبالتباين والتناقض فيما بينها. فإن أصول الفرق متعاكسة تمامًا، وإليك بيان ذلك:

١- التكفير (ويقابله الإرجاء)، ومنه نتجت: مذاهب الخوارج قديمًا وحديثًا.

٢- التشيع (ويقابله النصب)، ومنه نتجت: مذاهب الرافضة، والزيدية، والباطنية.

---

(١) الصواعق (٤/ ١٢١٣، ١٢١٤).

(٢) الصفدية (١/ ٢٩٤، ٢٩٥).

٣- القدر (ويقابله الجبر)، ومنه نتجت: القدرية، والمعتزلة.

٤- الإرجاء (ويقابله التكفير)، ومنه نتجت: مرجئة الجهمية، ومرجئة الفقهاء، ومرجئة الأشاعرة، والماتريدية.

٥- الجبر (ويقابله القدر)، ومنه نتجت: جبرية الجهمية، وجبرية الأشاعرة، والماتريدية.

٦- النصب (ويقابله التشيع)، ومنه نتجت: النواصب المبغِضُون لعلي كالخوارج.

٧- التعطيل (ويقابله التشبيه)، ومنه نتجت: الجهمية، والمعتزلة، وطوائف من أهل الكلام.

٨- التشبيه (ويقابله التعطيل)، ومنه نتجت: المشهبة الرافضة الأولى، ثم الكرامية.

٩- التأويل (ويقابله التفويض)، ومنه نتجت: الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية.

١٠- التفويض (ويقابله التأويل)، ومنه نتجت: المفوضة[1]، والواقفة.

١١- التصوف (ويقابله الجفاء)، ومنه نتجت: الطرق الصوفية وبدعها.

١٢- الابتداع (ويقابله الإعراض عن الشرع)، ومنه نتجت: البدع في العبادات، وغيرها كالمشاهد، والمزارات، والمقابرية، والتبرك البدعي.

١٣- الإعراض عن الشرع (ويقابله الابتداع في الدين)، ومنه نتجت: الزندقة، والإلحاد والعلمنة، والحداثة، والشعارات، والحزبيات، والقوميات، والقوانين الوضعية.

❁ ❁ ❁

(١) كثيرون من أهل الكلام (الأشاعرة والماتريدية) إذا عدلوا عن علم الكلام ينتهي بهم الأمر إلى التفويض، لذلك يزعم بعضهم أن هذا هو مذهب السلف، ويحكي بعضهم مذهب السلف على أنه هو التفويض.

* الأصول الكبرى التي خالف فيها أهل الأهواء السُّنَّة

مقالات أهل الأهواء والبدع والافتراق كثيرة، وتفصيلاتها لا تتسع لها المجلدات، لكن يمكن بالاستقراء أن يحصر الباحث أصولهم الكبرى، التي خالفوا فيها عقيدة السلف على وجه التقريب.

وفي هذه العجالة سأحاول ذكر ما يحضرني في أصول الأهواء التي خالفوا فيها أهل السنة والجماعة على النحو التالي:

١ـ إنكار ذات الله تعالى وعلوه ـ سبحانه ـ على خلقه، وفوقيته، واستوائه على عرشه، أو تأويل ذلك.

٢ـ إنكار أسماء الله تعالى، أو بعضها، أو تأويلها، والزيادة فيها والنقص.

٣ـ إنكار صفات الله تعالى، أو بعضها، أو تأويلها، والزيادة فيها والنقص.

٤ـ إنكار أفعال الله تعالى، (كالمجيء والنزول) أو تأويلها.

٥ـ إنكار الرؤية، أو بعضها، أو تأويلها.

٦ـ تشبيه الله بخلقه، أو تشبيه الخلق بالله ـ تعالى ـ. ومنه قياس أحوال الخالق بأحوال المخلوق، والعكس كما يفعل أهل الكلام والممثلة.

٧ ـ إنكار الشفاعة الواردة في النصوص الثابتة أو بعضها، أو إثبات شفاعات لم تثبت بالشرع.

٨ ـ إنكار السمعيات، أو بعضها، أو تأويلها: كالصراط، والميزان، والحوض، وعذاب القبر ونعيمه، والملائكة، وأشراط الساعة، ونحو ذلك.

٩ ـ إنكار كلام الله تعالى أو تأويله.

١٠ ـ القول بأن القرآن مخلوق، وما يتفرع عن ذلك.

١١ ـ تعريف الإيمان بالتصديق أو قول اللسان فقط.

١٢ ـ إنكار دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

١٣ ـ إنكار أن الإيمان يزيد وينقص.

١٤ ـ إنكار الاستثناء في الإيمان.

١٥ ـ الخوض في القدر، وعدم التسليم به بالإنكار أو التشكيك، أو الجدال والمراء فيه وفي نصوصه، ومنه القول بالجبر، وإنكار العلم السابق والكتاب، أو أن الإنسان خالق أفعاله أو بعضها، ومنه إنكار الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى.

١٦ ـ الإخلال بالتوحيد أو بعضه، كصرف نوع أو أكثر من أنواع العبادة لغير الله تعالى، كالدعاء، والذبح، والطواف، والسجود.

١٧ ـ القول على الله بغير علم، والكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ.

١٨ - المراء في القرآن، والكلام فيه بغير علم، واتباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وضرب آيات الله بعضها ببعض، ومثله أحاديث رسول الله ﷺ.

١٩ - إنكار السنة أو بعضها، أو ردها، أو رد بعضها، أو إنكار حجيتها، أودلالتها أو بعضها التي اتفق السلف عليها.

٢٠ - تفسير نصوص الشرع على غير أصولها الشرعية، وعلى غير مقتضيات اللغة وفهم السلف.

٢١ - التشدد في الدين والغلو فيه، ومنه التكفير، والحكم على القلوب، واتهام النيات، والحكم بالظن، وتصنيف الناس بغير بينات.

٢٢ - الغلو في الأشخاص، وتقديسهم، والقول بعصمتهم، أو علمهم الغيب، ونحو ذلك.

٢٣ - تقديس الأشياء، والموروثات، والآثار، والأحجار، ونحوها.

٢٤ - الابتداع في الدين، في العبادات والأعياد، والتعبد بالعوائد، ونحو ذلك كالتوسل البدعي، والتبرك البدعي، والاحتفالات البدعية.

٢٥ - التلقي عن غير الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح.

٢٦ - سب الصحابة أو بعضهم، أو لمزهم، أو التنقص منهم، أو التعريض بذلك.

٢٧ - سب السلف - أهل الحديث والسنة - ولمزهم، أو بعضهم، أو تنقص طريقتهم، أو تفضيل مناهج غيرهم بأي وجه من الوجوه على طريقتهم ومناهجهم.

٢٨ - لمز المتمسكين بالسنة من المؤمنين، واحتقارهم لذلك.

٢٩ - الاعتراض على دين الله وشرعه، أو بعضه، أو تبديله أو بعضه، أو الاستغناء عنه أو شيء منه أو تفضيله عليه.

٣٠ - رفع شعار، أو راية، أو حزب، أو جماعة، أو دعوة غير الإسلام والسنة، أو الانتماء إليه، والتعصب له.

٣١ - الانحياز إلى الكافرين وأهل الأهواء، بأي وجه من الوجوه.

٣٢ - الخلل في عقيدة الولاء والبراء.

٣٣ - الخروج على الأئمة وترك مناصحتهم، وعدم الدعاء لهم، وعدم الصبر على الظلم والجور والأثرة.

٣٤ - الخلل في فهم نصوص الوعد، ونصوص الوعيد، وتطبيقاتها وأحكامها.

٣٥ - تغليب الهوى على الشرع، والدليل، والحق.

❁ ❁ ❁

الأصل في مناهج أهل الأهواء الباطل وإن وجد عندهم شيء من الحق

والأصل في أهل البدع والافتراق والأهواء: الباطل والشر والابتداع، وإن وجد بين أفرادهم من هو على الاستقامة، لكنه قليل ولا يعد قدوة فيهم.

وكل من سوى أهل السنة فلا ينفرد عنهم بحق ولا قول صحيح، فكل حق أو قول صحيح، هم - أي أهل السنة - فيه أفضل وأسبق.

قال شيخ الإسلام: وكل من سوى أهل السنة والحديث من الفرق فلا ينفرد عن أئمة الحديث بقول صحيح، بل لابد أن يكون معه من دين الإسلام ما هو حق، وبسبب ذلك وقعت الشبهة، وإلا فالباطل المحض لا يشتبه على أحد، ولهذا سمي أهل البدع أهل الشبهات، وقيل فيهم: إنهم يلبسون الحق بالباطل [(١)].

❁ ❁ ❁

أهل البدع والأهواء والافتراق قد ينتسبون للسنة

قد ينتسب بعض أهل الأهواء لأهل السنة والجماعة، أفرادًا أو فريقًا، لأن السنة هي الأصل وهي هدي الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم، وكل منتم للإسلام يتشرف بالانتساب للسنة، لكن الدعوى تبقى معلقة على اتباع الكتاب والسنة وهدي الرسول ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وسبيل المؤمنين.

وبالمقابل ليس من أهل السنة من ينتسب لغير السنة إلا نادرًا في حالات يلتبس فيها الأمر، كما حدث في انتساب بعض أهل الحديث للأشاعرة بعد تحولهم إلى التأويل والكلاميات. وغالبًا تجد هذا الصنف من المضطربين بين منهج أهل الكلام ومنهج السلف، كما حصل من البيهقي والنووي وابن حجر وابن الجوزي وابن عقيل وأمثالهم، على تفاوت بينهم أيضًا.

وقد يكون الانتساب للسنة من قبل أهل الكلام والبدع مقابل الشيعة، إذا اعتبرنا أن المسلمين انقسموا عند ظهور التشيع إلى شيعة وسنة - غير شيعة - وهم الذين على الأصل والسنة.

وهذا التقسيم لا يصح إلا من هذا الوجه، وفي ذلك الزمان قبل ظهور الفرق وكثرتها، فلما كثر الافتراق لم يعد الناس شيعة وسنة فحسب بل صارت كل الفرق قسيمة لأهل السنة.

فيقال: أهل السنة قسم، وأهل الأهواء بأصنافهم قسم آخر، وفرق المفترقة، يجمعها الهوى والافتراق والهلاك، أعاذنا الله من ذلك.

---

(١) «منهاج السنة» (٥/ ١٦٧).

قاعدة في التمييز بين أهل السنة وأهل الأهواء

تتلخص أصول الأهواء والافتراق في:

١ ـ الخوارج.

٢ ـ الشيعة.

٣ ـ القدرية.

٤ ـ المرجئة.

٥ ـ أهل الكلام[١].

٦ ـ الباطنية.

٧ ـ الصوفية.

٨ ـ أهل البدع.

٩ ـ الفلاسفة.

ولكل طائفة شعار وأصل جامع يخالفون به أهل السنة ـ السلف ـ فالفرقة الأولى في القرن الأول يجمعها أربعة أصول:

١ ـ التكفير.

٢ ـ التشيع.

٣ ـ القدر.

٤ ـ الإرجاء.

قال عبد الله بن المبارك : أصل اثنين وسبعين هوى أربعة أهواء، فمن هذه الأربعة تشعبت الاثنتان وسبعون هوى: القدرية، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، فمن قدم أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا على أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في الباقين إلَّا بخير ودعا لهم، فقد برئ من التشيع أوله وآخره.

ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء أوله وآخره.

ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد مع كل خليفة ولم يرى الخروج على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره.

---

(١) يدخل في عموم أهل الكلام: المعتزلة، والجهمية، والكلابية، والمشبهة، والأشعرية، والماتريدية، والمرجئة، والجبرية وهي صنفان: الغالية وهم جهمية، وغير غالية وهم أهل الكلام من الأشاعرة والماتريدية والمتصوفة ونحوهم.

ومن قال: المقادير كلها من الله عز وجل خيرها وشرها، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فقد خرج من قول القدرية أوله وآخره، وهو صاحب سنة[(١)].

قلت: ومن أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل، وسلَّم بما جاءت به الأخبار الصحيحة وأنها حق على حقيقتها على مراد الله تعالى، فقد برئ من الكلام أوله وآخره.

ومن سلَّم بالنصوص الشرعية، ولم يزعم بأن لها باطنًا يخالف ظاهرها ـ اعتقادًا وعملًا ـ فقد برئ من الباطنية أولها وآخرها.

ومن عبد الله تعالى على ما شرعه وسنَّه رسوله ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان، والتزم نهج السلف في الاعتقاد، والقول، والعمل، فقد سلم من البدع أولها وآخرها.

وفي القرن الثاني أو بعده حدثت أصول أخرى للبدع هي بالإضافة إلى الأربعة الأولى:

٥ ـ التعطيل والتأويل.

٦ ـ الجبر.

٧ ـ التشبيه.

٨ ـ التصوف البدعي.

٩ ـ الباطنية.

١٠ ـ الفلسفة المحضة.

والخلاصة:

أن أهل الأهواء: هم كل من ابتدع بدعة ـ اعتقادية أو عملية ـ يخرج بها عن السنة والجماعة ويصر عليها.

وسواء كان ذلك من اختراعه ونظره، كرءوس البدع من أمثال: ابن السوداء، ومعبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وواصل بن عطاء، أو عمرو بن عبيد. أو من تقليده لغيره: كالعامة، والدهماء، وأشباههم الذين يتبعون الرءوس ودعاة الضلالة.

جماعة المسلمين أسماؤها وسماتها عند السلف[(٢)]

كان المسلمون، أعني الصحابة رضي الله عنهم، قبل بزوغ بذرة التفرق والانشقاق ليس لهم اسم يتميزون به لأنهم كما ذكر يمثلون الإسلام، والامتداد الطبيعي له، لكن لما حصلت تلك الفرق

(١) «شرح السنة للبربهاري» (٥٨).

(٢) يراجع في ذلك كتابنا «كيف الأمر إذا لم يكن جماعة» من (ص٦٣ ـ ٧٧) أو الجماعة والجماعات.

الضالة التي يشملها لفظ ـ أهل الأهواء ... ولفظ ـ أهل البدع ـ .... وأهل الشبهات ـ ..... ظهرت ألقابهم الشرعية المميزة لجماعة المسلمين، لنفي الفرق والأهواء عنهم، سواء ما كان من الأسماء ثابتًا لهم بأصل الشرع:

ـ الجماعة.

ـ جماعة المسلمين.

ـ الفرقة الناجية.

ـ الطائفة المنصورة.

أو بواسطة التزامهم بالسنن أمام أهل البدع، ولهذا حصل الربط لهم بالصدر الأول فقيل لهم:

ـ السلف.

ـ أهل الحديث.

ـ أهل الأثر.

ـ أهل السنة والجماعة.

وهذه الألقاب الشريفة تخالف أي لقب كان لأي فرقة كانت(١).

وهذه الألقاب أو الأسماء وإن كانت تدل جميعها على مسمى واحد هو جماعة المسلمين، إلا أن كل لقب أو اسم منها إنما يدل بالأخص على طائفة من طوائف المسلمين يعرفون بهذا الاسم الخاص أكثر من غيرهم، فكل اسم من هذه الأسماء إنما يركز على معنى من معاني الجماعة قد تتميز طائفة من الطوائف بالتمسك والظهور به أكثر من غيرها، وإن كانت جميع طوائف الجماعة المسلمة لها فيه نصيب وذلك كمصطلح أهل الحديث أو أهل الأثر فإن أول ما ينصرف إليه الذهن عند سماعه، هم العاملون بالحديث المحققون له المميزون بين صحيحه وسقيمه، وإن كان يدخل فيه لزامًا كل من عمل بسنة النبي ﷺ واتبع الآثار.

وكذلك لفظ الفرقة الناجية، ولفظ الطائفة المنصورة فكلاهما لقب للجماعة المسلمة فالجماعة هي الفرقة الناجية كما جاء ذلك في حديث افتراق الأمة، وقول النبي ﷺ لما سئل عن تعيين الفرقة الناجية فقال: «**هِيَ الجَمَاعَةُ**»(٢). والجماعة كذلك هي الطائفة الظاهرة أو الطائفة المنصورة التي أخبرت بها الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

إلا أن أهل الطائفة الظاهرة القائمون بالحق علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا وظهورًا وصبرًا على الأذى والتبعة.

---

(١) بكر أبو زيد «حكم الانتماء» مكتبة التوعية (ص ٣٠ ـ ٣١).

(٢) سبق تخريجه.

وعلى ذلك تكون الفرقة الناجية هم كل من عمهم سلامة الاعتقاد وصحة النهج وتجريد المتابعة وملازمة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه(١).

يقول الشيخ سلمان العودة ـ حفظه الله: «فالدائرة الواسعة دائرة الإسلام، التي تشمل كل من نطق بالشهادتين وأقام الصلاة، ولم يأت مكفرًا يحكم له بموجبه بالخروج من الملة، مهما ارتكب من المعاصي، ومهما تلبس به من البدع(٢).

وأهل هذه الدائرة هم أهل الجنة الذين يدخلونها، وإن عُذِّبوا بما اقترفوا من المعاصي، أو وقعوا فيه من البدع.

ومن لم يكن من أهلها، فالجنة عليه حرام:

لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي حَرَّمْتُ الجنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ**»(٣)، وقال ﷺ: «**إِنَّ الجنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مسلِمَةٌ**»(٤).

والدائرة الثانية : دائرة الفرقة الناجية داخل الأمة المسلمة، وهي تشمل من سلموا من مقارفة البدع الغليظة التي يخرجون بها عن السمت والهدي الأول الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وسلموا من الارتكاس في الشهوات المهلكة المردية التي يخرجون فيها عن دائرة العدالة والاستقامة إلى دائرة الفسق والانحراف، بحيث يجتمعون على ذلك، ويوالون فيه، ويعادون فيه، بل ولاؤهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

والدائرة الثالثة : وهي أضيق الدوائر، هي دائرة الطائفة المنصورة داخل الفرقة الناجية، والتي حملت على كاهلها عبء الذود عن الحياض، وحماية البيضة، ورفع الحق، والقتال دونها.

وهؤلاء هم خير الأمة وأفضلها، وأثقلها حملًا، وأعظمها منزلة، وبهم يندفع عنها العذاب والنقم، وبزوالهم ينتهي الإسلام، وتقوم الساعة(٥).

---

(١) راجع لزامًا في بيان معنى كل من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة والعلاقة بينهما بحثًا نفيسًا جيدًا للشيخ المحقق سلمان بن فهد العودة ـ حفظه الله ـ في كتابه «صفة الغرباء» نشر دار ابن الجوزي السعودية، وخاصة المبحث الخاص بذلك من (ص ٢٣٨ إلى ص ٢٥٢)

(٢) علق فضيلة أ.د/ مصطفى حلمي على تعريف الشيخ سلمان العودة السابق بقوله: «إنه يضع عينيه على أحوال المسلمين المعاصرة إذ تعرضوا لعمليات غزو ثقافي ـ ومسح مخ ـ لم يتعرض له المسلمين من قبل في تاريخهم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) الشيخ سلمان العودة ـ السابق.

وهذا ينسجم مع القسمة الثلاثية في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٢ ـ ٣٥].

قال ابن عباس: «هم أمة محمد ﷺ، ورَّثهم الله كل كتابٍ أنزل، فظالمهم مغفورٌ له، ومقتصدهم يحاسَب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»[١].

وجاء نحو ذلك عن عائشة، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والبراء بن عازب، وكعب الأحبار، وعبيد بن عمير، وغيرهم من علماء الصحابة والتابعين[٢].

فالظالم لنفسه يدخل فيه المسرف بالمعاصي كما يدخل فيه المبتدع الذي لم تخرجه بدعته عن دائرة الإسلام.

هذا، وإذا كانت قد نقلت آنفًا كلام كل من الطبري والشاطبي في أن الجماعة الواجب لزومها هم أهل العلم، ولما كانت الطائفة الظاهرة هم خيرة الجماعة ولباب الفرقة الناجية، لذا فقد تواترت أقوال العلماء في وصفهم بأنهم هم أهل العلم وحملة حديث النبي ﷺ والمتبعون لهديه وسنته.

فقد بوب البخاري في صحيحه: باب قول النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ» وهم أهل العلم[٣].

كما بوب كذلك بابًا آخر بين فيه أن الجماعة هم أهل العلم فقال: باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم[٤].

فظهر بذلك أن الجماعة لديه ـ أي البخاري ـ هم أهل العلم، وأن الطائفة المنصورة هم أولى الناس بهذا الوصف، ولذلك قال الإمام أحمد عن الطائفة المنصورة: «إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم».

ومما يؤيد هذا كلام النووي في صفة هذه الطائفة إذ يقول: يحتمل أن تكون هذه الطائفة جماعة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله تعالى من مجاهد ومحدث وفقيه وزاهد وآمر بالمعروف وغير ذلك ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين، ثم قال: يجوز اجتماعهم في

---

(١) رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي. انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٢٣).
(٢) انظر تفصيل رواياتهم في «الدر المنثور»، الموضع السابق.
(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٣٠٦).
(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٣٢٨).

قطر واحد أو افتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولًا فأول إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلدة واحدة، فإذا انقرضوا جاء أمر الله»(١).

فمن ثم يمكن القول بأن الطائفة المنصورة هي التي تلتزم بأمر الدين كله من علم ودعوة وعبادة وزهد وورع وجهاد وغير ذلك، وإن توزع ذلك على أفرادها بغير تفرق أو اختلاف، بل يقوم كل منهم بما برع فيه بغير تنكر للحق الذي عليه الآخرون، بل يقربه ويدعو إليه غيره، كما يدعوا إلى الحق الذي معه متابعين في ذلك كله لأهل العلم المتابعين لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وبهذا يتضح لنا وجه تفسير الإمام أحمد وأئمة السلف للطائفة بأنهم هم أهل الحديث أو أهل العلم، وذلك لأن سائر طوائف الأمة من مجاهدين وعباد وزهاد ودعاة وغيرهم إن لم يكونوا متابعين لأهل العلم مؤتمرين بأمرهم، فهم خارجون عن الجماعة كما بين ذلك الإمام الشاطبي وغيره، وقد سبق نقل بعضه.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا كذلك هو أن هذه الطائفة ـ على الراجح ـ لا تختص في عموم الأزمان بمكان بعينه ـ اللهم إلا إذا كان آخر الزمان كان آخر هذه الطائفة بالشام حتى تقاتل الدجال كما أخبر النبي ﷺ وبهذا جمع المحققون بين الأحاديث التي حددت مكان الطائفة بأنهم في الشام والأحاديث التي أطلقت ذلك أو تركت بيانه فقال بعضهم: «والتحقيق في المسألة إن شاء الله تعالى المبني على دلالة النصوص وكلام العلماء أن هذه الطائفة ليست محصورة في فئة معينة من الناس كما أنها ليست محددة ببلد معين، وإن كان آخرهم يكون بالشام وتقاتل الدجال كما أخبر النبي ﷺ»(٢).

قلت: وقد مر كلام الإمام النووي، وتأييد ابن حجر له في «الفتح» ومفاده عدم اختصاص الطائفة بمكان بعينه كما هو ظاهر من كلامهم، والله تعالى أعلم.

أهم سمات جماعة المسلمين

بما سبق نكون قد حددنا الملامح والسمات العامة لجماعة المسلمين، أما ملامحها وسماتها التفصيلية فهي معروفة مدونة في كثير من الكتب التي اعتنت ببيان عقيدة ومنهج وسمات أهل السنة قديمًا وحديثًا؛ فمن المؤلفات القديمة في ذلك عامة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم خاصة، ومن المؤلفات المعاصرة الجيدة والنافعة في ذلك كتاب «أهل السنة والجماعة ـ معالم الانطلاقة الكبرى» جمع وإعداد: محمد عبد الهادي المصري ـ دار طيبة، فقد بذل

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٦٧).
(٢) جمال بن أحمد بن بشير بادي ـ «وجوب لزوم جماعة المسلمين» (ص ١٣٠).

فيه جهدًا مشكورًا ـ نسأل الله أن يجزيه عليه خير الجزاء ـ حيث لخص ورتب كثيرًا من أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان عقيدة وسمات وملامح منهج أهل السنة والجماعة، ومن الكتب الجيدة النافعة في ذلك أيضًا، كتاب «صفة الغرباء» لفضيلة الشيخ: سلمان بن فهد العودة ـ حفظه الله ـ وهو كتاب قيم في بابه بذل فيه جهدًا طيبًا وتحقيقًا نافعًا في بيان سمات كل من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، فجزاه الله خير الجزاء.

وقد اكتفيت بالعزو على هذين الكتابين عن إعادة جهد سابق لا يعز الحصول عليه، هذا، وأنبه هنا إلى أن الغرض من ذكر سمات أهل السنة والجماعة هنا وكذلك سمات الفرق عمومًا بعد ذلك.

الاستغناء بذلك عن الخوض في ذكر سمات الفرق المعاصرة ومخالفاتهم وهتك سترهم، ومنابذتهم بالعدواة راجين أن يعودوا إلى حظيرة الجماعة، فضلًا عن أن عدَّ مخالفاتهم لا يجدي؛ لأن المحدثات كثيرة وتزداد يومًا بعد يوم ولا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها لأنها تكون حسبما يَعِنُّ لمحدثها، أما سمات أهل الحق فقد حددها الكتاب والسنة وبيَّنها أهل العلم أحسن بيان، وبمعرفة سمات أهل الحق يعرف أهل الباطل.

ويمكن أن نذكر هنا ملخصًا لما ذكره الشيخ: محمد عبد الهادي المصري في كتابه القيم «أهل السنة والجماعة ـ معالم الانطلاقة الكبرى» نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية وهو من خير من يؤخذ عنه في ذلك، وسوف نقتصر في ذلك على ذكر أهم السمات.

أولًا: منهج التلقي:

يتفق سلفنا الصالح على أن مصادر الهدى تتمثل في الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة، ولذلك فهم يَزِنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين، فما كان منها موافقًا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان مخالفًا أبطلوه، ولا يدينون بالعصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، فكل الناس من بعده ﷺ يؤخذ من قوله ويترك، ولا يعارضون القرآن والسنة بعقل أو رأي أو قياس أو ذوق وكشف ونحوه.

ثانيًا: في باب الصفات:

يؤمنون بجميع ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ في الكتاب والسنة الصحيحة تفصيلًا وإجمالًا، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل. ويدينون في القرآن بأنه كلام الله منزل غير مخلوق، وفي رؤية الله عز وجل بأن أحدًا لن يرى ربه بعينه في هذه الحياة الدنيا حتى يموت، وأن المؤمنين سيرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة.

ثالثًا: في باب الإيمان:

يتفقون على أن حقيقة الإيمان تصديق الخبر والانقياد للأمر، وأن من لم يكن في قلبه التصديق

والانقياد فهو كافر.

كما يتفقون كذلك على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وأنه أصل وفروع، وأنه لا يزول إلا بزوال أصله، كما يتفقون على ألا يكفروا أحدًا إلا إذا ارتكب ما حكم الله ورسوله على مرتكبه بالكفر مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع، فهم لا يكفرون أحدًا بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، ولا يسلبون العصاة اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونهم في النار كما تقوله المعتزلة، بل يقولون هم في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

كما اتفقوا كذلك على جواز اجتماع الثواب والعذاب في حق كثير من الناس، ولا يشهدون لمعين بالجنة أو بالنار إلا بدليل خاص يدل على ذلك.

رابعًا: في باب الإيمان بالرسل:

يؤمنون بجميع ما سمى الله في كتبه من الأنبياء والمرسلين، وبجميع من بعثهم وأرسل إليهم ممن سواهم ممن لا يعلم أسماءهم ولا يحصي عددهم إلا الله عز وجل، كما يؤمنون بأن كلًا من النبوة والرسالة قد ختم بمحمد ﷺ، وأن من قال بنبي بعده فقد كفر، وأن من زعم اليوم دينًا مقبولًا عند الله سوى دين الإسلام من اليهودية أو النصرانية أو غيرهما فهو كافر بإجماع المسلمين كما يؤمنون بأن الأنبياء والمرسلين هم أفضل الخلق أجمعين، وأن من فضل على أحد منهم أحدًا ممن سواهم فقد كفر بإجماع المسلمين.

خامسًا: في باب الإيمان باليوم الآخر:

يؤمنون بجميع ما صحَّ به الخبر عن النبي ﷺ من علامات الساعة وأشراطها، ومما يكون بعد الموت من فتنة القبر، والبعث، وصحائف الأعمال، والموازين، والشفاعة بأنواعها، والحوض، والصراط، والجنة، والنار، ونحوه.

سادسًا: في باب القدر:

يؤمنون بالقدر بجميع درجاته من العلم والكتابة والمشيئة والخلق.

سابعًا: في باب الصحابة:

يجمع السلف الصالح على سلامة قلوب وألسنة أصحاب رسول الله ﷺ، وأزواجه وأهل بيته، ويتولونهم جميعًا، ويعتقدون أنهم خير هذه الأمة، وأن قرْنهم هو خير القرون، وأن أفضلهم الخلفاء الراشدون، ويمسكون عما شجر بينهم، ويعتقدون أنهم فيه بين رجلين: مجتهد مصيب أو مجتهد مخطئ، فيترضَّون عنهم جميعًا دون أن يعتقدوا بعصمة أحد منهم.

ثامنًا: باب الخوارق:

يؤمنون بكرامات الأولياء[1] وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات.

تاسعًا: باب القتال:

يجمعون على الغزو مع كل بر وفاجر، لأن من أصولهم أن مبنى الشريعة تحقيق أكمل المصلحتين، ودفع أعظم المفسدتين، وفي الغزو مع الفجار من الولاة دفع لأعظم الضررين، وإقامة لأكثر شرائع الإسلام، لأنه لابد من أحد أمرين: إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضررًا في الدين والدنيا، وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين، وإقامة أكثر شرائع الإسلام وإن لم يكن إقامة جميعها.

وهم مع ذلك يجتنبون إعانة من يغزون معه على شيء من معصية الله، فهذه طريقة خيار الأمة قديمًا وحديثًا، وهي متوسطة بين طريقة الحرورية وأمثالهم ممن يسلكون مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يلتزمون طاعة ولاة الأمور مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا، كما يجمع السلف الصالح كذلك على قتال من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين، وأنه يقاتل دفعًا وطلبًا متى قدر على ذلك.

عاشرًا: باب التعامل مع المخالف:

قبول الخلاف في موارد الاجتهاد التي أثر الخلاف فيها عن السلف الصالح دون أن يحكموا بتضليل المخالف فيها أو بتبديعه وذلك كنزاعهم في المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما وفي رؤية نبينا ﷺ ربه ليلة المعراج، وفي تكفير تارك الأركان الأربعة وفي كثير من مسائل العبادات.

وإنهم لا يقرنون بين الخطأ وبين الإثم في التعامل مع المخالف، فليس كل من خالفهم في شيء من مسائل الاعتقاد بالضرورة أن يكون عندهم آثمًا أو هالكًا، فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به على مثله الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته، أو يشفع فيه يوم القيامة شفيع مطاع، أو نحو ذلك من الأسباب الرافعة للإثم أو المسقطة للعقوبة، وتتفاوت معاملتهم مع المخالف من أهل البدع من الهجر والمجافاة إلى التأليف والمداراة بحسب المصلحة أو المفسدة المترتبة على هذا أو ذاك. فقد يكون الهجر لبعض الناس أنفع من التأليف، وقد يكون التأليف أنفع من الهجر؛ لأن المقصود هو زجر المتلبس بالبدعة وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله وهذا يختلف باختلاف الأحوال، وإذا عُرِف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه.

---

(١) علق فضيلة أ.د/ مصطفى حلمي هنا بقوله: «الأحياء لا الموتى» بشرط تقيدهم والتزامهم بأوامر الشرع ونواهيه، وينظر كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية. اهـ.بنصه.

تفريقهم في معاملة أهل البدع بين الرءوس وبين العامة، وبين المستتر ببدعته وبين المجاهر بها أو الداعي إليها، فرءوس أهل البدع والمجاهرون بها يهجرون وينكر عليهم، والآخرون توكل سرائرهم إلى الله جل وعلا، ومنهم من لا يفسق بذلك ولا يبدع لكونه ممن قال الله فيهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٨] وهو الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له.

السمات الخلقية والعملية للجماعة في إطارها العلمي:

وبالإضافة إلى ما تقدم من الأصول والقواعد الكلية هناك عدد من السمات الخلقية والعملية للجماعة في هذا الإطار نوجز بيانها فيما يلي:

- محبتهم لسنة النبي ﷺ، واعتنائهم بها، والعمل بما علموه من موجبها، فهم أعلم الناس بأقواله وأحواله ﷺ وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأحرصهم على اتباع هديه ﷺ ظاهرًا وباطنًا.
- حرصهم على تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، وأهل هذا الأصل ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة[١].
ولذلك فهم لا يتميزون عن الأمة باسم ولا رسم سوى السنة والجماعة.
- إنهم يوالون ويعادون على أساس الإيمان، فمن كان مؤمنًا وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان، ومن كان فيه إيمان وفجور أعطى من الموالاة بحسب إيمانه ومن البغض بحسب فجوره، ولا يعلقون الموالاة والمعاداة والحب والبغض بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك فهم لا يوالون ولا يعادون على أسماء القبائل والمدائن والمذاهب والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ ونحو ذلك.
- ومنها أنهم أهل التوسط والاعتدال فهم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم في باب الصفات وسط بين المعطلة والمشبهة، وفي أفعاله تعالى وسط بين القدرية والجبرية، وفي باب الأسماء والأحكام وسط بين الحرورية والمعتزلة من جانب، وبين المرجئة والجهمية من جانب آخر، وفي أصحاب رسول الله ﷺ وسط بين الروافض والخوارج.
- ومنها أنهم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة من اعتبار المآلات والمحافظة على الجماعة.
- ومنها أنهم خير الناس للناس، يبذلون الإحسان إليهم والرحمة لهم بلا عوض، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون على الأذى[٢].

---

(١) راجع: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٤/ ١٧٠، ٢٨/ ٥٠ ـ ٥٧).
(٢) يراجع في هذه الأصول والسمات بالإضافة إلى المراجع السلفية المعتمدة.

وبعد: فهذه جملة من الأصول والقواعد الكلية التي انعقد عليها إجماع أهل السنة والجماعة، بالإضافة إلى عدد من السمات العملية التي تحلوا بها عبر التاريخ، وتوارثتها أجيالهم جيلًا بعد جيل، وهي على الجملة تمثل الإطار العلمي والعملي لجماعة المسلمين من لزمها فقد لزم الجماعة في هذا الإطار، ومن نازع في شيء منها فقد نقص من لزومه للجماعة بقدر هذه المنازعة.

ما من بدعة تظهر إلا يقيض الله من يتصدى لها

ما من بدعة ظهرت إلا يقيض الله لها من يردها، وهذا تحقيق ما تكفَّل الله به ووعد، من حفظ الدين، وبقاء السنَّة، وظهور طائفة على الحق إلى قيام الساعة.

ومن نماذج ذلك:

١- لما حدثت الردَّة بعد موت الرسول ﷺ، قيض الله لها أبا بكر رضي الله عنه فوقف وقفته الحازمة المشهورة، التي كسر الله بها موجة الردة، وأعز الله بها الدين.

٢- لما ظهرت نزعات الابتداع الأولى في عهد عمر رضي الله عنه: كالكلام في القدر، والاحتجاج على المعاصي، ومتشابه الآيات، قيض الله لها عمر رضي الله عنه فأقام معوجها بِدُرَّتِهِ المشهورة، فأدَّب صبيغًا لخوضه في الآيات المتشابهات[1]، وأدب الأمة كلها بقطع شجرة الحديبية لقطع دابر البدع[2]، ونهى الذين كانوا يرتادون مواطن محددة للتعبد عندها مما لم يرد به الشرع[3].

ونَهَرَ كعب الأحبار، وقال له: «لقد ضاهيت اليهودية» حينما أشار كعب أن يصلي عمر إلى الصخرة في بيت المقدس[4] ..... وهكذا.

٣- وحسم عثمان رضي الله عنه دابر الاختلاف حول القرآن بجمعه وتدوينه.

كتاب: «أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى» لمحمد عبد الهادي المصري فقد تناول هذه المسائل فأفاد وأجاد، وكلامنا في هذا الموضع إنما هو ملخص واختصار قد أورده د/ صلاح الصاوي في كتابه «جماعة المسلمين» ومن أراد الوقوف على عقيدة أهل السنة والجماعة بالتفصيل فليراجع بالإضافة إلى «معالم الانطلاقة الكبرى» كتب العقيدة المصنفة في ذلك ككتاب «معارج القبول»، و«العقيدة الطحاوية»، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وخاصة في قصيدته النونية، وكذا كتاب «الإبانة» لابن بطة، و«الشريعة» للآجري، و«شرح أصول الاعتقاد» للالكائي، وغير ذلك من كتب العقيدة المعروفة، وقد كتبت في ذلك رسالة مختصرة عن مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة، وقد استغنيت بها عن أن أعيد هنا ما سبق أن كتبته فيها، وهي بعنوان: «العقيدة السلفية للمسلم المعاصر» يطلب من مكتبة التوعية الإسلامية بالهرم، ومطبعة الفاروق بشبرا مصر.

(١) انظر: «سنن الدارمي» (١/ ٥٥، ٥٦) و«الشريعة» للآجري (٧٣).

(٢) انظر «البدع والنهي عنها» (ص٤٢).

(٣) انظر «البدع والنهي عنها» (ص٤٢).

(٤) انظر: «مسند أحمد» (١/ ٣٨)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٥٨).

٤ - وأدب علي رضي الله عنه الشيعة الغلاة وحرقهم في النار حينما علم أنهم يقدسونه[١]، وأمر بجلد المغتربة من الشيعة الذين فضَّلوه على أبي بكر وعمر[٢]، ومنع القصَّاص - الوعاظ - حينما أخذوا يحدثون بالحكايات وما لا أصل له، وما لا تدركه العامة[٣]، خوف الفتنة والقول على الله بغير علم.

٥ - ولما ظهرت الخوارج قيض الله لها سائر الصحابة وعلى رأسهم علي رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما فأقاموا عليهم الحجة، وبينوا لهم المحجة حتى رجع منهم من كان يريد الحق، وأصر أهل الأهواء على بدعتهم، فقاتلهم الصحابة احتسابًا وامتثالًا لأمر رسول الله ﷺ وقمعًا لبدعتهم.

٦ - لما ظهرت القدرية في النصف الثاني من القرن الأول وتصدى لها متأخرو الصحابة: كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم وكان من أشدهم على القدرية ابن عمر الذي حذر منها وأنذر، وكشف عوارها، وحذر من معبد الجهني رأس القدرية وأصحابه، ونهى عن مجالستهم ومخالطتهم والتلقي عنهم، وكذلك ابن عباس، وكذلك لمَّا أعلن غيلان الدمشقي بدعة القول بالقدر، تصدي لها التابعون وعلى رأسهم مجاهد، والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وريحانة الشام الأوزاعي، لكنه أصر على بدعته حتى قتله هشام بن عبد الملك.

٧ - ثم ظهر رأس الجهمية - الجعد بن درهم - وداعية الضلالة، وأعلن بدعه، فقيض الله جماعة من أئمة التابعين وتابعيهم، أمثال الأوزاعي، والزهري، وخالد بن عبد الله القسري - قصَّاب الزنادقة - الذي ضحى به يوم عيد الأضحى.

٨ - ثم اعتزلت المعتزلة الأولى وعلى رأسهم واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، فقيض الله لهم أئمة السنة أمثال: الحسن البصري، وأيوب السختياني، وابن عون، وثابت البناني، وابن سيرين، وحماد بن زيد، ومالك بن أنس، وأبي حنيفة، وابن المبارك، وهكذا كلما كثرت حشود البدعة تصدت لها جحافل السُّنة.

٩ - ولما كثرت الرافضة قيض الله لها أمثال: الشعبي، والشافعي، وعبد الله بن إدريس الأودي أبو محمد.

١٠ - ولما برز رأس الجهمية الجهم بن صفوان، تصدى له سائر أئمة السلف، كالزهري، ومالك، وأبي حنيفة، ثم عبد الله بن المبارك، وأمثالهم.

١١ - ثم نبغ بشر المريسي رأس الجهمية في زمانه، فقيض الله له أمثال عثمان بن سعيد الدارمي،

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (١/ ١١).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (١/ ١١).

(٣) انظر: «تحذير الخواص» للسيوطي (٢١٣).

والشافعي، والكناني.

١٢ ـ ولما احتشدت حشود الأهواء زمن المأمون، وبعدها مِن الجهمية والمعتزلة، ومن سار على نهجهم، وعلى رأسهم ابن أبي دؤاد، قيض الله لهم إمام السنة وقامع البدعة أحمد بن حنبل، فكسرهم كسرة لم ينهضوا بعدها إلا متعثرين بحمد الله.

١٣ ـ ولما تجمعت فلول الجهمية المعتزلة في آخر القرن الثالث، وصالت صولتها، قيض الله لها أبا الحسن الأشعري، وكان الخبير بعوارها، لأنه كان معتزليًّا، فهداه الله للسنة، فحشر المعتزلة في قمع السمسمة ـ كما قيل ـ وكسرهم، فانهزموا هزيمة منكرة.

١٤ ـ ولما نبغت نابغة الكلام وريثة الجهمية والمعتزلة، وبدأ أهل الكلام يخوضون في صفات الله تعالى والإيمان والقدر، تصدى لهم أئمة السلف في القرن الرابع والخامس، كالبربهاري، وابن خزيمة، وابن بطة، والهروي، واللالكائي، وابن منده، والملطي، والصابوني، والآجري، وابن وضاح، والبغوي، وابن عبد البر، وأمثالهم.

١٥ ـ وفي القرون السادس والسابع والثامن: عمت البلوى بالبدع والأهواء والافتراق، وهيمنت الفرق في سائر البلاد الإسلامية، واستحكمت الصوفية ببدعها، وساد الكلام والفلسفة والباطنية والدجل، وتسلط الكفار على كثير من بلاد المسلمين في الشام وغيرها.

فقيض الله أمثال: الشاطبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلاميذه، الذي تصدى لجحافل البدع وعساكر الضلالة، وجاهد في كل ميدان بلسانه وقلمه ويده، فقد تصدى لأهل الكلام، والفلاسفة، والباطنية، والصوفية، والرافضة، واليهود، والنصارى، والصابئة.

كما كان مجاهدًا بعلمه ولسانه وسيفه للكفار التتار، والنصارى الصليبيين والبغاة، وكان يشجع المسلمين على الجهاد في كل ميدان، وله في ذلك إسهامات مشهورة مشهودة.

وكان ناصحًا لولاة المسلمين وأئمتهم، يذكرهم، ويعظهم، ويحثهم على الجهاد، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر بحكمة وقوة، كما كان ناصحًا لعامة المسلمين وعلمائهم، وكان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، هو وأتباعه يصدع بذلك، ولا يخاف في الله لومة لائم، حتى أبان الله به السنة، ونصر الله به راية السلف، وكشف الله به أهل البدع، وعقائدهم ومناهجهم، وحتى أقام الحجة، وأبان المحجة، ونصر الملة، ولا تزال آثاره ومؤلفاته مرجعًا لكل صاحب سنة، وقذىً في عين كل صاحب بدعة، وفيها فرقان بين الحق وأهله، وبين الباطل وأهله رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

❁ ❁ ❁

موقف أهل البدع من الكتاب

موقف السُّبكي والكوثري من خلال: «السيف الصقيل وتكملته»:

ومن خلال قراءة الكتاب يمكن أن نخرج بالآتي:

أولًا: الضعف العلمي في هذا الرد:

إن الناظر في حُجَج ابن القيم واستدلاله ليعجب من كثرة الأدلة التي يوردها رَحِمَهُ اللَّهُ عند تقريره لأي مسألة، وكلام أهل العلم حولها، وبالمقابل انظر لِما سطّره السبكي والكوثري في ردّيهما فتجد أكثر الرد: لعل وعسى وأظنه ... إلخ، والاكتفاء بالسب والشتم والسخرية، وإليك الأمثلة:

* قال السبكي[١]: «وأما رابعًا فما ذكره عن أبي جهل وغيره أنه لم يكن فيهم منكر للخالق، يكفي في الرد عليه أن كل من سمعه يتخذه ضُحكَةً» أ.هـ.

ـ ونقول للسبكي هذا ليس قولًا لابن القيم بل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرُف: ٨٧].

وقد تابعه الكوثري[٢] وخلّطَ ولبَّس ولم يذكر هذه الآية وأمثالها الصريحة بأن المشركين كانوا مُقرين بتوحيد الربوبية، وإنما الخلاف بينهم وبين الرسول كان في توحيد العبادة.

* قال ابن القيم:

فهناك لا خلقٌ ولا أمرٌ ولا   وحيٌ ولا تكليفُ عبدٍ فانِ

ـ قال السبكي[٣] مُعقبًا: «ما هذه إلا قِحَة[٤] وبلادة يأخذ ما توهمه لازمًا فيستنتج وينكر على الناس إلزام التجسيم».

ـ فانظر: أين الرد العلمي ومقابلة الحجة بالحجة.

* قال السُّبكي[٥]: «أما كونه لم يزل مُتكلمًا، وقوله[٦] مع ذلك إنه لفظ وإنه غير مخلوق فكلام من لا يدري ما يقول».

ولم يذكر أي حجة على بطلان كلام الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) انظر: (ص ٢٧).
(٢) انظر: (ص ٢٧ - ٢٨).
(٣) انظر: (ص ٣١).
(٤) «القِحَة»: من الوقاحة وهي: قلة الحياء، انظر «القاموس» (ص ٣١٦).
(٥) (ص ٦١).
(٦) يعني: ابن القيم.

* وقال السبكي[1] مُعقبًا على قول الناظم: - «وثامنها رفيع الدرجات»: «ما بقي من تخلف هذا النحس إلا أن يُجعل لله سُلَّمًا يصعد وينزل في درجاته تعالى الله عما يقول ...».

ولم يذكر أي رد علمي على هذا الاستدلال.

* لما ذكر ابن القيم الدليل التاسع عشر من أدلة العلوّ وفيه إلزام للمعطل بإلزامات كثيرة قال السبكي مُعلقًا[2]: «ثم استمر هذا السفيه في سفهه».

ولم يذكر أي رد على هذا الإلزام.

* ومن الأمثلة في الحيدة عن الجواب عن الدليل المعارض لهم:

- لما ذكر ابن القيم أدلة السُّنة على علو الله ذكر منها حديث: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا بِيَدِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ» فقال رَحِمَهُ اللهُ[3]:

واذكر حديثًا في الصحيح تضمنت ... كلماتُــه تكـذيبَ ذي البُهْتَــانِ
لمـا قَضَى اللـــهُ الـخليقةَ ربُّنـا ... كتبتْ يَداهُ كِتاب ذي الإحْسَـــانِ
وكتابُه هــو عنـده وضـع على الـــ ... ـعرش الـمجيد الثابت الأركـــان
إني أنـــا الــرحمن تسبـق رحـمتي ... غضبي وذاك لــرأفتـي وحـنـــاني

قال السبكي[4] مُعلقًا: «أين لفظ كتبت يداه؟».

- وهذه والله حيدة عن الجواب عن الدليل لأمرين:

الأول: هبْ أن هذه اللفظة لم تثبت ولم تصح، فالدليل بغير هذه اللفظة ثابت في الصحيحين، ووجه الاستدلال أن الرسول ﷺ ذكر أن الكتاب عند الله فوق العرش وهذا تصريح بالعلو ولهذا لم يتعرض السبكي ولا الكوثري[5] لهذا الحديث بأي رد علمي.

الثاني: أن هذه اللفظة في الحديث هي عند ابن ماجه وغيره، وقد صححها أهل العلم كالبوصيري وغيره. وسيأتي الكلام عليها في موضعها[6].

---

(١) (ص ٩١).
(٢) (ص ١١٩).
(٣) انظر: الأبيات رقم (١٦٩٤ - ١٦٩٧).
(٤) (ص ١٢١).
(٥) تكلم الكوثري (ص ١٢٢) حول ثبوت زيادة «كتبت يداه». ولم يتعرض لأصل الدليل كما ذكرنا.
(٦) سوف نتكلم على الحديث ومن أخرج هذه الزيادة من أهل العلم ونذكر تصحيحهم لها.

ـ هذا الذي ذكرنا فيما يخص السبكي والضعف العلمي في رده، أما بالنسبة للكوثري فإليك بعض الأمثلة:

* قال الكوثري[١] مُعلقًا على حديث الجارية[٢]: «... فلفظ «أين الله» تغيير بعض الرواة على حسب فهمه، والرواية بالمعنى شائعة في الطبقات كلها، وإذا وقعت الرواية بالمعنى من غير فقيه فهناك الطامة الكبرى، وصاحب هذه القصة[٣] لم يكن من فقهاء الصحابة ولا له سوى هذا الحديث في التحقيق بل كان أعرابيًّا يتكلم في الصلاة».

فانظر إلى هذا الضعف في الرد. فمن أين للكوثري أن بعض الرواة غيَّرها على حسب فهمه؟

ـ وقوله: «وإذا وقعت الرواية بالمعنى من غير فقيه كانت الطامة الكبرى» فهل كل أئمة السُّنة كالإمام مسلم الذي أخرج هذا الحديث في صحيحه وغيره من جهابذة الحفاظ غير فقهاء عندما رووا هذا الحديث، ولم يتنبه لهذا الخطأ إلا الكوثري؟

ـ وأخيرًا؛ لم يكتف الكوثري بهذا الرد الضعيف المتهافت بل قدح في خيار الأمة في هذا الصحابي الجليل راوي هذا الحديث، وسوف يأتي الكلام عن هذا الأمر لاحقًا[٤]:

* ومن أمثلة الضعف في الرد على الأدلة الواضحة الصريحة الدالة على علو الله ما قاله الكوثري[٥] عند حديث «كان الذي في السماء ساخطًا عليها»[٦].

قال: «ولفظ مسلم: ثم ذكر الحديث ... وليس في هذا اللفظ التصريح بما يرمي إليه الناظم، ومثل هذا الحديث من أخبار الآحاد يحمل على المحكمات وليس في الحديث ذكر الرب سبحانه، وحمله عليه تقول ...».

فنقول:

أولًا: ما اللفظ الذي سوف يكون أصرح من قوله: «كان الذي في السماء ساخطًا عليها»؟

ثانيًا: ومن هو الذي يسخط ويرضى عن العباد، والذي يخاف العباد من سخطه؟ إنه الله

---

(١) (ص ٩٥).

(٢) وهو الحديث الذي فيه أنَّ النبي ﷺ سألها: «أين الله» فقالت: في السماء، فقال: أعتقها فإنها مؤمنة. وسوف يأتي تخريجه عندما يشير الناظم إليه عند البيت (رقم ١٢٩٦).

(٣) هو الصحابي الجليل: معاوية بن الحكم السلمي.

(٤) عندما نشير إلى قدح الكوثري في بعض أئمة السُّنة.

(٥) (ص ١٢٦).

(٦) الحديث في مسلم وسيأتي تخريجه والكلام عليه عند البيتين (١٧٤١ - ١٧٤٢).

سبحانه وهو في السماء بنص الحديث.

ثالثًا: احتج الكوثري على إبطال الدليل بالطاغوت الذي اعتمد عليه أسلافه من أهل البدع، ألا وهو رد خبر الآحاد، وهذه حجتهم عندما تنقطع بهم السُبل(١).

ثانيًا: التناقض الواضح من السبكي والكوثري:

أ – فأما السبكي فإليك الأمثلة:

قال السبكي(٢): «والمتبع للقرآن لا يُغيره، ولا يُغير لفظه بل يتمسك به من غير زيادة ولا نُقصان، وكذلك الأحاديث الصحيحة يقف عند ألفاظها ولا يزيد في معناها ولا ينقص».

- وهذا الكلام جيد وصحيح، وليته التزم به! ولكن أين التزام السبكي بهذا الكلام، وهو يؤول الصفات ويُحرف النصوص ويصرفها عن ظاهر المُراد منها، فانظر:

١ - تأويله للاستواء بالاستيلاء(٣):

حيث قال(٤): «فالمقدم على هذا التأويل لم يرتكب محذورًا، ولا وصف الله تعالى بما لا يجوز عليه ...».

٢ - لما انتهى من نقل نصوص العلو التي أشار إليها ابن القيم قال مُعلقًا(٥): «هذه الأحاديث كلها قد ذكرها الأئمة وذكروا تأويلاتها من قديم الزمان وإلى الآن».

- فأين الوقوف عند ألفاظ الحديث وعدم الزيادة عليها أو النقصان؟

ب – وأما تناقض الكوثري: فحدث ولا حرج، وإليك بعض الأمثلة:

* انتقد الكوثري الذهبي في أحد المواضع فقال(٦): «... وترى الذهبي كثيرًا ما يقول في رد ما أخرجه الحاكم في مُستدركه في فضائله ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام: «أظنه باطلًا» بدون ذكر أي حُجة ...».

- ونسي الكوثري أو تناسى أنه قال أكثر من هذا في عدة مواضع من كتابه، منها على سبيل

---

(١) انظر في الرد على مُنكري حجية خبر الآحاد: مختصر الصواعق المُرسلة (ص ٤٣٨ - ٥١٠).
وانظر المواضع التي لم يرد عليها السبكي أو الكوثري في السيف الصقيل: (ص ٩٠، ٩١، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٥، ١٧٠، ١٧٥).

(٢) (ص ٦٥).

(٣) (ص ٨٦ - ٨٧)، وهذا هو مذهب الأشاعرة ومن وافقهم في تأويل الصفات والاستواء.

(٤) (ص ٨٧).

(٥) (ص ١٢٨).

(٦) (ص ١٨١).

المثال:

ـ قوله[١] على حديث الجارية: «... فلعل لفظ (أين الله) من تغيير بعض الرواة ...».

* ومن الأمثلة على تناقض الكوثري:

ـ قال[٢] مُعقبًا على كلام السبكي في ابن القيم: «فهو الملحد لعنه الله»: «فالأولى كف اللسان الآن عن اللعن، وأما استنزال المؤلف اللعنة عليه فكان في حياة الناظم وهو يمضي في زيغه وإضلاله ـ عامله الله بعدله ...».

ـ وانظر إلى هذا الورع البارد حينما يقول[٣] مُعقبًا على قول السبكي: «ما لمن يعتقد في المسلمين هذا إلا السيف»:

«لأن ذلك زندقة مكشوفة، ومروق ظاهر وإصرار على اعتقاد الإيمان كفرًا ـ قبحه الله ـ ... ولينظر القارئ، ... إنه إن فكر قليلًا علم العلم القاطع أن هذا الناظم بلغ في كفره مبلغًا لا يجوز السكوت عليه، ولا يَحسُن للمؤمن أن يغضي عنه ولا أن يتساهل فيه».

فسبحان الله كيف يتورع في النص الأول، ثم تجده لم يكتف باللعن بل صرح بكفر ابن القيم ـ والعياذ بالله ـ فهل بعد هذا التناقض تناقض!.

* وأخيرًا من الأمثلة:

ـ عاب الكوثري[٤] على ابن القيم إطلاقه لفظة «القَلُّوط»[٥] وقال إنها من الألفاظ القبيحة وأنها لفظة عامية لا ينطق بها إلا العوام.

ـ ثم تجده يقول[٦]: «وأما من تعوَّد أن يقول: «عنزة وإن طارت» فليس خطابي معه ...».

أليس هذا كلام العامة؟ فلماذا تعيب على ابن القيم مع أنّ لفظة ابن القيم ذكرها الزبيدي في تاج العروس[٧].

ثالثًا: التدليس، والتلبيس، والغش، والخداع، وعدم الأمانة في النقل:

---

(١) (ص ٩٥)، وانظر: (ص ١٢٦) عند كلامه على حديث صعود الروح إلى السماء.
(٢) (ص ٣٧).
(٣) (ص ١٨٢).
(٤) (ص ١٤٧).
(٥) انظر تفسيرها في حاشية البيت (رقم ٢٣٣٤).
(٦) (ص ١٩٢).
(٧) «تاج العروس» (٤/ ٤٣٨، ٥/ ٢١١)، وانظر: «شرح ابن عيسى» (٢/ ٨٦).

ـ وهذه مما يظهر للقارئ حينما يتصفح هذا الرد من غير رجوع إلى مراجع ومن غير بحث في بعض المواضع، وإليك من الأمثلة على ذلك:

قال الكوثري[١] مُعقبًا على استدلال الناظم بقول ابن رواحة:

وأن العرش فوق المـاء طافٍ وفوق العـرش ربُ العالمينـا

ـ قال الكوثري: «وهذه قصة تُذكر في كتب المحاضرات والمسامرات دون كتب الحديث المعتمدة، ولم ترد في كتب أهل الحديث بسند مُتصل ولو في وجه واحد، وأما ما وقع في الاستيعاب من قول ابن عبد البر (رويناه من وجوهٍ صحاح) فسهوٌ واضح من الناسخ وأصل الكلام (من وجوهٍ غير صحاح) فسقط لفظ (غير) فتتابعت النسخ على السهو ...».

ـ ويتبين التلبيس من عدة أوجه:

١ ـ قوله إنها لم ترد في كتب الحديث المُعتمدة: كذب.

فقد أخرجها[٢]: الدارمي في الرد على الجهمية، والمقدسي في إثبات صفة العلو، والذهبي في العلو وفي السير له.

وكذلك ممن أخرجها ابن عساكر في تاريخه، وابن السبكي في طبقات الشافعية.

٢ ـ قوله إنها لم تذكر في كتب الحديث المُعتمدة غير دقيق، ولعل كلام السُبكي في الطبقات أدق من قول الكوثري حيث قال[٣]: «ولم يخرج هذا الأثر في شيء من الكتب الستة».

فلعل الكوثري نقل كلام السبكي فزاد فيه ونقص[٤].

٣ ـ وأما قوله عن قول ابن عبد البر: «رويناه من وجوهٍ صحاح» إنه سهو واضح من الناسخ وأن أصل الكلام «من وجوهٍ غير صحاح» وأن النسخ تتابعت عليه – كذب واضح.

لأن الكوثري لم يأت بدليل على ما قاله، بل هو اختلاق من عند نفسه، لأن الكلام لم يوافق هواه ومشربه.

وكذلك هذا الكلام نقله الأئمة عن ابن عبد البر بهذا اللفظ.

فابن قُدامة يقول[٥]: «وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: رويناه من وجوهٍ

---

(١) (ص ٢٥).

(٢) سيأتي تخريجها كاملًا عندما يُشير إليها الناظم في الأبيات (١٧٢٧ – ١٧٢٩).

(٣) «طبقات الشافعية» (١/ ٢٦٥).

(٤) وهذا ليس بغريب عليه وسوف ترى من الأمثلة ما يدل على هذا.

(٥) «إثبات صفة العلو» لابن قدامة (ص ٩٩).

صحاح ...».

ـ والكوثري يدعي أن الأمة على مرِّ هذه القرون قد غفلوا عن هذا السقط ولم يعرفه إلا الكوثري.

ـ فهل بعد هذا التدليس تدليس؟

مثال آخر:

قال الكوثري[١] مُعلقًا على حديث جابر: «يحشر الله العباد فيُناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب»[٢] ما نصه:

فهو حديث ضعيف علَّقه البخاري بقوله: «ويذكر عن جابر» دلالة على أنه ليس من شرطه. ومداره على «عبد الله بن محمد بن عقيل» وهو ضعيف باتفاق. وقد انفرد عنه «القاسم بن عبد الواحد»، وعنه قالوا: إنه ممن لا يُحتج به.

وهذا والله هو التدليس بعينه، وعدم الأمانة في النقل، وهذا يتبين من وجوه:

١ ـ احتجاجه بضعف الحديث بأن البخاري علَّقه في صحيحه، ولا شك أن هذه حجة باطلة إذ إن البخاري لم يروِ كلَّ الصحيح بل بعضه، وسبب عدم تخريجه لهذا الحديث أنه ليس على شرطه لا أنَّه ضعيف وفي هذا يقول العراقي[٣]:

ولم يعمَّاه، ولكن قَلَّما ... عند ابن الأخرم منه قد فاتهما
وردّ لكن قال يحيى البرُّ ... لم يفت الخمسة إلَّا النزر

قال السخاوي[٤] في شرحه لهذه الأبيات:

«(ولم يعمّاه): أي لم يستوعبا كل الصحيح في كتابيهما، بل لو قيل: إنهما لم يستوعبا مشروطهما لكان موجهًا، وقد صرح كل منهما بعدم الاستيعاب، فقال البخاري فيما رويناه من طريق إبراهيم بن معقل عنه: «ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح، وتركت من الصحاح خشية أن يطول الكتاب ...».

٢ ـ قوله «ومداره على عبد الله بن محمد بن عقيل»:

---

(١) (ص ٦٣).
(٢) سيأتي تخريجه حينما يشير إليه الناظم في البيت رقم (٤٤٢).
(٣) «فتح المغيث شرح ألفية الحديث» (١/ ٢٧).
(٤) «فتح المغيث» (١/ ٣٣).

وهذا فيه تلبيس فإن الحديث ورد من غير طريق عبد الله بن محمد بن عقيل.

* الطريق الأول:

ـ أخرجه الطبراني في مُسند الشاميين، وتمام في فوائده من طريق الحجاج بن دينار عن محمد بن المنكدر عن جابر به. نص عليه الحافظ في الفتح[١] وقال: «إسناده صالح».

* الطريق الثانية:

ـ أخرجه الخطيب في الرحلة[٢] برقم (٣٣) من طريق أبي الجارود العنسي – بالنون الساكنة – عن جابر به.

قال الحافظ في «الفتح»[٣]: «وفي إسناده ضعف».

٣ ـ وهي ثالثة الأثافي: قوله عن عبد الله بن محمد بن عقيل: «إنه ضعيف باتفاق» فهذا كذب صراح لم يقله أحد من الأئمة، وكأن الكوثري أخذ هذه الحجة وتلقاها من أسلافه في المعتقد، وفي هذا يقول ابن القيم[٤]:

«ولا التفات إلى ما أعلّه به بعض الجهمية ظلمًا منه وهضمًا للحق، حيث ذكر كلام المضعفين لعبد الله بن محمد بن عقيل والقاسم بن عبد الله دون من وثقهما وأثنى عليهما، فيوهم الغِرَّ أنهما مجمع على ضعفهما لا يحتج بحديثهما ...».

ـ وعبد الله بن محمد بن عقيل، قال فيه الأئمة ما يلي:

ـ قال الحافظ في التقريب[٥]: «صدوق في حديث لين، يُقال تغير بأَخَرة».

ـ وقال الترمذي[٦]: «صدوق، سمعت محمدًا (يعني البخاري) يقول: كأن أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديثه».

ـ وقال العجلي[٧]: «مدني تابعي ثقة جائز الحديث».

ـ وقال ابن عدي[٨]: «روى عنه جماعة من المعروفين الثقات وهو خير من ابن سمعان يكتب

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٠٩).
(٢) (ص ١١٥).
(٣) «فتح الباري» (١/ ٢٠٩).
(٤) «مختصر الصواعق» (ص ٤٠٤).
(٥) «التقريب» (ص ٣٢١).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٠٥).
(٧) «الثقات» للعجلي (٢/ ٥٨).
(٨) «الكامل» لابن عدي (٤/ ١٢٩).

حديثه».

- وقال ابن عبد البر[١]: «هو أوثق من كل من تكلم فيه».

- وقال ابن القيم[٢]: «صدوق حسن الحديث. وقد احتج به غير واحد من الأئمة».

* فأين الإجماع على ضعفه؟

مثال آخر:

- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]:

وروى ابن ماجة أن أولهم يُصا ... فحه إلـه العرش ذو الإحسان
ويكون أولهم دخولًا جنة الـ ... ـفردوس ذلك قامع الكفران
فاروق دين الله ناصر قوله ... ورسوله وشرائع الإيمان

قال الكوثري[٤] مُعقبًا:

«قاتله الله، حديث موضوع يستدل به، وشأن هذا الخبر في السقوط فوق أن يُقال بين رجاله ضعيف ...».

* وهذا كما سترى جرأة من الكوثري وعدم تورع عن الكذب والتدليس في النقل، وذلك يتضح بالآتي:

١- صرح الناظم عقب هذه الأبيات بتضعيفه لهذا الحديث وعدم قبوله له فقال[٥]:

لكنه أثر ضعيف فيه مجـ ... ـروح يُسمَّى خالدًا ببيان
لو صح كان عمومه المخصوص بالصـ ... ـديق قطعًا غير ذي نُكران

فهذا نص من الناظم بتضعيف هذا الأثر، فكيف يفتري الكوثري عليه ويقول إنه يستدل به؟

٢ - صرح الناظم بتضعيف هذا الحديث وردِّه وعدم قبوله والاحتجاج به في حادي الأرواح حيث قال[٦]:

«وأما الحديث الذي رواه ابن ماجه في سُننه (وساق مُسنده) عن أُبي بن كعب قال: قال رسول

---

(١) «تهذيب التهذيب» (٦/ ١٤).
(٢) «مختصر الصواعق» (ص ٤٠٣).
(٣) الأبيات برقم (٥٠٥٧ - ٥٠٥٩).
(٤) (ص ١٨٣).
(٥) «توضيح المقاصد» (٢/ ٤٩٣).
(٦) «حادي الأرواح» (ص ١٤٨).

الله ﷺ: «أول من يُصافحه الحق عمر، وأول من يُسلم عليه وأول من يأخذ بيده فيُدخله الجنة» فهو حديث مُنكر جدًا، قال الإمام أحمد: «داود بن عطاء ليس بشيء، وقال البخاري: مُنكر الحديث»».

فأين احتجاج الناظم واستدلاله بالحديث كما يزعم الكوثري؟

٣ ـ قوله: «حديث موضوع» فيه مبالغة وتهويل. فلم ينص أحد من الأئمة على وضعه سوى الكوثري:

ـ قال البوصيري[١]: «هذا إسناد ضعيف فيه داود بن عطاء، وقد اتفقوا على ضعفه، وباقي رجاله ثقات».

ـ وقال الذهبي[٢]: «هذا حديث مُنكر جدًّا».

ـ وضعفه الألباني[٣].

* وكذلك فإن داود بن عطاء المدني: غاية ما قالوا فيه إنه ضعيف أو مُنكر الحديث، ولم يصفه أحد بالوضع أو الكذب حتى يحكم على حديثه بأنه موضوع كما فعل الكوثري.

ـ قال البخاري[٤]: «مُنكر الحديث، قال أحمد: رأيته ليس بشيء».

ـ قال ابن حبان[٥]: «كثير الوهم لا يحتج به بحال لكثرة خطئه وغلبته على صوابه» (ومعلوم تشدد ابن حبان في الجرح ومع ذلك لم يصفه بالوضع).

ـ وقال الذهبي[٦]: «ضعيف».

ـ وقال الحافظ[٧]: «ضعيف».

رابعًا: مما يمكن ملاحظته على هذا الرد:

ـ امتلاء الكتاب بالقدح في أئمة أهل السُّنة والطعن فيهم بكل قبيح من القول، وهذا إذا ما قالوا ما يُخالف هوى الكوثري ومشربه. وإليك الأمثلة:

أ ـ قدحه في صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم:

---

(١) «مصباح الزجاجة» (١/ ٥٦) برقم (٣٩).
(٢) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٠٢).
(٣) «ضعيف الجامع» برقم (٢١٤٨).
(٤) «الضعفاء الصغير» (ص ٤٣١/ برقم: ١٠٩) (مطبوع ضمن مجموع).
(٥) «المجروحون» (١/ ٢٨٥).
(٦) «الكاشف» (١/ ٢٩٠).
(٧) «التقريب» (ص ١٩٩).

* قال[١] عن «معاوية بن الحكم السلمي[٢]» راوي حديث الجارية[٣] الذي فيه إثبات العلو لله سبحانه ما نصه:

«وصاحب القصة لم يكن من فقهاء الصحابة، ولا له سوى هذا الحديث في التحقيق[٤]، بل كان أعرابيًّا يتكلم في الصلاة»[٥].

* وقال[٦] عن «حصين والد عمران»[٧]:

«وإسلام حصين - صاحب القصة - مُختلف فيه[٨]، ووصفهُ بالثقة الرضا مُطلقًا مُجازفة، وأقل ما يقال فيه: إنه لم يكن ثقة ولا رضا حين المحادثة على تقدير ثبوت الخبر ...».

ب ـ قدحه في أئمة الحديث من أهل السُّنة رحمهم الله:

وهذا الأمر ليس بغريب على الكوثري وأمثاله ممن كُتُبهم طافحة بالطعن في أئمة الدين وعلماء الإسلام، وكان على رأسهم أهل الحديث الذين حفظ الله بهم السُّنة[٩].

وقد كان هذا الرد المتهافت قد حاز قصب السبق في هذا المضمار الدنس ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ وإليك الأمثلة:

طعنه[١٠] في:

ـ الذهبي.

---

(١) (ص ٩٥).
(٢) انظر ترجمته في: «الإصابة» (٣/ ٤٣٢).
(٣) ستأتي إشارة الناظم إليه في القصيدة عند البيت رقم (١٢٩٦).
(٤) وهذا تلبيس من الكوثري فقد أورد له الحافظ في الإصابة بضعة أحاديث (٣/ ٤٣٢).
(٥) يشير إلى الحديث الذي في مسلم في كتاب المساجد برقم (٥٣٧) وجاء فيه: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم. فقلت: «يرحمك الله» فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليّ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ... الحديث».
(٦) (ص ١٢٣).
(٧) انظر: «الإصابة» (١/ ٣٣٧)، «أسد الغابة» (٢/ ٢٥).
(٨) أورد الحافظ في «الإصابة» (١/ ٣٣٧) طرقًا بأسانيد صحيحة لقصة إسلام حُصين ونقل عن الطبراني تصحيحه لبعضها فليرجع إليه.
(٩) قال الشيخ المعلمي في «التنكيل» (١/ ١٢): «القسم الثاني في تراجم الأئمة الذين طعن فيهم (يعني: الكوثري) وهم نحو ثلاثمائة منهم: أنس بن مالك، وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام، والأئمة الثلاثة وفيهم الخطيب ...».
(١٠) انظر: حسب ترتيب التراجم المذكورة: (٩٥، ١٧٦، ١٧٨)، (٩٧)، (١٨٤)، (١٥١)، (١٢٣)، (١٠٨، ١٠٩)، (١١٠)، (١١٠)، (١٢٩، ١٣٠)، (٢٠)، (٢٠)، (٢٠).

- ابن عدي.
- ابن أبي داود.
- ابن بطة.
- الدارمي.
- ابن خزيمة.
- ابن أبي حاتم.
- عبد الله بن الإمام أحمد.
- أبي يعلى.
- السجزي.
- السعد الزنجاني.
- الآجري (صاحب الشريعة).

* وكذلك[1]:

- الكرجي.
- محمد بن أبي شيبة (صاحب كتاب «العرش»).
- الهروي.
- الطبراني.
- البرهان الكوراني.
- محمد المنبجي (صاحب الفرج بعد الشدة) الحنبلي.
- خشيش بن أصرم.
- ابن موهب المالكي (شارح رسالة ابن أبي زيد القيرواني).

وغيرهم كثير[2].

---

(١) (١٠٩، ١٢٨)، (١٢٨)، (١٢٨)، (١٣٥)، (٨٧)، (١٠٩).

(٢) انظر «التنكيل» (١/ ١٢)، (٢/ ٢٢٤).

وانظر: «ذيول التذكرة»: (٩٥، ٨٥، ١٩٥، ١٦١، ١٨١، ٢٠٨، ٢٦٣).

وانظر: «تعليقه على الأسماء والصفات» للبيهقي: (٢٦٧، ٢٦٩، ٢٩١، ٣٠١، ٣٢٦، ٣٧٢).

* وأما شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: فلا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته، ولا تعليق من تعليقاته إلا ويكيل له أقبح السب والشتم. والله المُستعان.

خامسًا: احتواء هذا الرد المتهافت على القبيح من القول والفاحش من الألفاظ:

ومن أمثلة ذلك:

أ- السبكي:

- قال[٢]: «وأما هذا النحس المتشبع بما لم يُعط ...».

- قال[٣]: «أبصر هذا الفدم البليد الفهم، ساء سمعًا فساء إجابة ...».

- وقال[٤]: «ما هذه إلا قِحَة وبلادة ...».

- وقال[٥]: «وأطال في أقوالهم لعنه الله ولعنهم».

- وقال[٦]: «وبالغ هذا الخبيث في الإقذاع والسفاهة بما هو صفته ...».

ب- وأما الكوثري: فحدث ولا حرج:

- قال[٧]: «... فيدور أمر القائل بما يستلزم الكفر لزومًا بينًا بين أن يكون كافرًا أو حمارًا».

- وقال[٨]: «... لكن الناظم بالغ الجهل، ظاهر البلادة حتى في مثل هذه المسائل الظاهرة لصغار المتعلمين، وحق مثله أن يقرع إيقافًا له عند حده فالمصنف معذور إذا ما قال عنه إنه: «تيس أو حمار» ...».

- وقال[٩]: «لم يفهم الناظم كلام القوم فشنع كما شاء، قاتل الله البلادة ما أفتكها».

- وقال[١٠]: «والناظم من أتبع الناس لابن تيمية في سخافاته ... فيدور أمره بين أن يكون مُصابًا

---

(١) انظر: (ص ٦٣، ١٢٠، ١٣٩، ١٦٧، ١٦٨).
وانظر: «ذيول التذكرة»: ص (١٨٦ - ١٨٨)، ٢٥٢، ٣١٦، ٣٢٠، ٣٣٨).
وانظر: «تعليقه على كتاب الأسماء والصفات» للبيهقي: (ص ٣٠١).
(٢) (ص ٢٣).
(٣) (ص ٢٦).
(٤) (ص ٣١).
(٥) (ص ٣٤).
(٦) (ص ١١٦)، وانظر كذلك: (ص ٩١، ٩٢، ١١٩، ١٤٠، ١٤٧).
(٧) (ص ٢٨).
(٨) (ص ٥٩).
(٩) (ص ٦٢).
(١٠) (ص ٦٣). وانظر كذلك: (ص ١٩، ٦٥، ١٤٧، ٢٥).

في عقله أو دينه، فتبًّا لمن يتخذ مثله قدوة».

سادسًا: لقد تجاسر كل من السبكي والكوثري ورميا ابن القيم بُهتانًا وعدوانًا وظلمًا بالكفر والزندقة والإلحاد:

- وإليك نص كلامهما حتى لا نتقول عليهما ما لم يقولا:

أ - فأما السبكي:

- فيقول(١): «فهو الملحد لعنه الله، وما أوقحه، وما أكثر تجرؤه أخزاه الله».

- ويقول(٢): «... انتهى كلام هذا الملحد تبًّا له، وقطع الله دابر كلامه ...».

ب - وأما الكوثري:

- فيقول(٣) - مُعلقًا على كلام للسبكي -: «لأن ذلك زندقة مكشوفة، ومروق ظاهر ... أن هذا الناظم بلغ في كفره مبلغًا لا يجوز السكوت عليه ولا يحسن لمؤمن أن يغضي عنه، ولا أن يتساهل فيه».

سابعًا: احتواء هذا الردِّ على أصول البدع، وكثير من المعتقدات الفاسدة مثل:

* شُبهات الأشاعرة في نفي العلو والصفات مثل: التجسيم والتشبيه(٤) والتركيب(٥).

* رد خبر الواحد وعدم قبوله في العقائد(٦).

* القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه(٧).

* جواز التوسل بالأنبياء والصالحين بعد وفاتهم(٨).

* جواز التبرك بالأضرحة والقبور(٩).

---

(١) (ص ٣٧).
(٢) (ص ٥٥).
(٣) (ص ١٨٢). وانظر: (ص ٢٤، ٢٨، ١٧٠). يُراجع في ذلك كله: «الكافية الشافية» بإشراف: د/ بكر بن عبد الله أبو زيد.
(٤) انظر: (ص ٤٥).
(٥) (ص ١٦٣ - ١٦٤).
(٦) انظر: (ص ١٤، ٤٨، ١٢٢، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٣).
(٧) انظر: (ص ٣٥).
(٨) انظر: (ص ١٤٣، ١٥٥ - ١٥٦، ١٥٨).
(٩) انظر: (ص ١٦٢).

ولا يتسع المقام هنا للرد على كل هذه الضلالات ولكن أحببنا أن نُشير ونُبرز للقارئ قيمة هذا الرد في ميزان العلم.

* وأخيرًا: فإن هذا الموقف من هذا الكتاب ليس بغريب من أهل البدع لا سيما المتأخرون منهم، لأنهم شعروا بقوة تأثير مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى. ولذلك كثرت الكتب التي نالت منهم ومن مؤلفاتهم، ولكن الله غالبٌ على أمره، والحمد لله رب العالمين [١][٢].

❁ ❁ ❁

(١) انظر ثبتًا بأسماء أعداء شيخ الإسلام في (أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام للشيباني (ص ١٦٩). وفي قسم العقيدة بجامعة الإمام رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة بعنوان «دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية».

(٢) «الكافية الشافية» بإشراف د/ بكر أبو زيد (ص ١٤٤) بتصرف؛ ولذلك لئن أراد الاستزادة من الأمثلة فليرجع إلى المواضع المشار إليها؛ ففيها عظيم فائدة.

* بيان لمنهج الشُّرَّاح الذين أفدنا منهم في هذا العمل وترجمة لكل واحدٍ منهم:

أولًا: شرح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى - عرض وتقويم -

التعريف بالمؤلف

هو: الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى من أهالي المجمعة (بوزن المنفعة) من بلاد سد بنجد، ولد في شقراء وتلقى العلم عن أكابر مشايخ عصره كالعلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وابنه الشيخ عبد اللطيف، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين. ثم ارتحل إلى الحجاز وسكن مكة المكرمة. وله عدد من المؤلفات منها: «شرح نونية ابن القيم»، والرد على زيني دحلان فيما كتبه في تاريخه خلاصة الكلام عن الوهابية – مخطوط ـ، و «الرد على شبهات المستعينين بغير الله»، توفي في المجمعة سنة ١٣٢٩هـ(١).

التعريف بالكتاب

اسمه: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

وصفه: يقع في مُجلدين ضخمين الأول في ٥٤٨ صفحة والآخر في ٦٤٠ صفحة.

وفي الحواشي تعليقات قليلة جدًّا للشيخ محمد بن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتخريجات لأحاديث معدودة من صنع الناشر زهير الشاويش.

دار النشر: طبع الكتاب عدة طبعات من آخرها الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ طبعها المكتب الإسلامي ـ بيروت.

طريقة المؤلف في الكتاب

قدم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرحه بمقدمة موجزة تكلم فيها عن أهمية القصيدة ومكانتها بين كتب أهل العلم ثم ترجم للناظم ترجمة موجزة، ثم بدأ في شرح المقدمة النثرية ثم شرح الأبيات.

وطريقته في شرح الأبيات أنه يورد الأبيات التي تحتوي على موضوع واحد ثم يبدأ في الكلام

---

(١) انظر: «مشاهير علماء نجد» لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ص١٨٥ – ١٨٨، «علماء نجد خلال ستة قرون» لعبد الله بن بسام ١/ ١٥٥ – ١٦٢، «الأعلام» (١/ ٨٩)، «مقدمة محمد بن مانع لكتاب شرح القصيدة النونية» لابن عيسى (١/ ١٧).

عليها، وأحيانًا تزيد الأبيات على عشرين وثلاثين بيتًا متتابعة، مما جعله رَحِمَهُ اللَّهُ يقع في بعض الخلل الذي سيأتي التنبيه عليه عند تقويم الكتاب.

ومن نظر في الكتاب علم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ له باع طويل في معرفة الكتب والمُصنفات وبالأخص كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وذلك لكثرة مراجعه وتنوعها، وتوثيقه لنقولاته حتى من كتب أهل البدع.

مميزات الكتاب وعرض منهج المؤلف فيه

يمكن تلخيص منهج المؤلف ومميزات كتابه في النقاط الآتية:

١ - يكثر النقولات والاستشهاد بأقوال أهل العلم ونصوصهم على المسائل التي يذكرها الناظم، فلا تكاد تجد الشارح يتفرد بتوضيح مسألة، بل يورد من أقوال أهل العلم ما يوضحها ويجلي معانيها.

وأكثر الكتب التي ينقل منها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ويطول هذا النقل أحيانًا.

وقد ينقل عن شيخ الإسلام من غير توثيق (لا يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه).

كما في (ج١/ ٣٥٥ - ٣٥٨) حيث نقل كلامًا لشيخ الإسلام في مسألة الفعل والحدوث، ولم يذكر اسم الكتاب الذي نقل عنه.

وهو يكثر النقل أيضًا عن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد تطول نقوله أيضًا، كما في (ج١/ ٢٠٩ - ٢٢٤) حيث نقل كلامًا طويلًا من «مختصر الصواعق المُرسلة» لابن القيم عن حجية أخبار الآحاد.

وقد ينقل عن ابن القيم من غير توثيق (لا يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه)، كما في (ج١/ ٤٨٩ - ٤٩٠) نقل كلامًا في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. ولم يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه.

٢ - إذا نقل رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا من كتاب عليه مآخذ رد عليه في موضعه، ولا يسكت عنه، كما في (ج١/ ٢٧٩ - ٢٨٢) حيث نقل كلامًا للدواني في شرحه لـ «العقائد العضدية» عليه مآخذ فردَّ عليه ردًّا مُفصلًا.

٣ - يورد بعض الاعتراضات والملاحظات المفيدة على الناظم مما يدل على تجرده وعدله كما في (ج١/ ١٩٣) حيث ذكر الناظم شيئًا من مذهب إمام الحرمين الجويني فلاحظه الشارح وعقب عليه.

٤ - يهتم بشرح الألفاظ الغريبة، فلا تكاد تمر كلمة تحتاج إلى توضيح إلا بينها، ومرجعه في ذلك

دائمًا – إلا ما ندر – القاموس المحيط للفيروزابادي.

كما في (ج١/ ٣٦) حيث شرح كلمات [قمش – آجن ـ الوطيس].

٥ ـ يحرص الشارح على ربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض بالإحالة أحيانًا إلى موضع ورود المسألة إذا تكررت في النظم:

كما في (ج٢/ ٢٠٨) حيث كرر الناظم مذهب الجهمية، فلم يعد الشارح شرحه وإنما أحال على ما تقدم.

٦ ـ يفصل الشارح في بعض المواضع التي يكثر فيها الخلاف.

كما في (ج١/ ٩٨ – ١٠٦) حيث فصل تفصيلًا طويلًا في مسألة أرواح الشهداء ومستقرها والخلاف فيها.

٧ ـ يهتم بشرح المصطلحات الفلسفية والعقدية.

كما في (ج١/ ٣٦٩) حيث عرف التسلسل بنوعيه. وفي (ج٢/ ٧٦ – ٧٧) تكلم بتوسع عن لفظ «الحشوية».

٨ ـ يهتم بترجمة الأعلام الواردين في النظم، ولا يكاد يمر علم إلا ويُترجم له بتوسع، ويذكر أحيانًا المصدر الذي نقل منه الترجمة، وقد يُطيل أحيانًا في الترجمة.

كما في (ج١/ ٢٤٥ – ٢٤٨) حيث أطال في ترجمة النصير الطوسي، وقد يختصر كما في (ج١/ ٣٧٠) في ترجمة أبي الحسن الأشعري.

وإن كان رَحِمَهُ اللَّهُ فاته عدد لا بأس به من الأعلام لم يترجم لهم.

٩ ـ يهتم بإيراد نصوص الآيات التي يشير إليها الناظم.

كما في (ج١/ ٣٠٦ – ٣٠٧) حيث قال الناظم:

وأتى الندا في تسع آيات له ... وصفًا فراجعها من القرآن

فأورد الشارح الآيات المُشار إليها.

١٠ـ يهتم بإيراد نصوص الأحاديث التي يشير إليها الناظم أو يستدل بها.

كما في (ج١/ ٣٠٧، ٤٠٩).

١١ـ لا يورد الحديث إلا ويذكر من أخرجه من أهل العلم إلا ما ندر.

كما في (ج١/ ٤١٣، ٤٢٠).

(ج٢/ ٤٣٤، ٤٦٨، ٤٧٧).

١٢- وقد يتكلم أحيانًا ويفصل في الحكم على الحديث.
كما في (ج١/ ٤٢٦، ٤٢٩).
(ج٢/ ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٩، ٤٩٣).

١٣- يعتني بإيراد أقوال العلماء التي يشير إليها الناظم.
كما في (ج١/ ٤٠٦) حيث أشار الناظم إلى كلام للإمام البغوي فوثقه الشارح وساقه بنصه.

١٤- يهتم بنسبة الأقوال التي يوردها الناظم إلى أهلها وإن لم ينسبها الناظم.
كما في (ج١/ ٨٦) حيث ذكر الناظم قولًا لم ينسبه لأحد فنسبه الشارح إلى القائلين به وسماهم.

١٥- يعتني بإيراد الحوادث التاريخية التي يشير إليها الناظم.
كما في (ج١/ ٣٦٢) حيث فصل في حادثة غزو المغول لبغداد.

١٦- يهتم بإيراد القصص التي يشير إليها الناظم ويوثقها من أصولها.
كما في (ج٢/ ٨٨) حيث أشار الناظم إلى حادثة للجهم بن صفوان في استهزائه بالقرآن، فساقها الشارح بتمامها موثقة.

١٧- يعرف غالبًا بالفرق والمذاهب إما من خلال شرح الأبيات أو يسوق تعريفها مجملًا في موضعه.
كما في (ج١/ ٥٠٧) حيث عرف بمذهب الحاكمية وهم أتباع الحاكم العبيدي.

١٨- يصرح الشارح أحيانًا بعجزه عن فهم بعض الأبيات ولا يتكلف - قدس الله روحه - الكلام عليها بغير علم، وهذا من ورعه وأمانته.
كما في (ج١/ ٤٥٧) حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ما ساق الأبيات: «البيت الثاني فيه قلق، ولم يظهر المراد منه».

١٩- يورد أحيانًاأقوال المخالفين لأهل السُّنة وإن لم يوردهم الناظم، ثم يرد عليهم.
كما في (ج١/ ٤١٤) حيث أشار الناظم إلى أن المُعطلة يُنكرون نزول الرب جل جلاله في ثلث الليل الآخر مع ثبوته في الحديث، ففصل الشارح قولهم وأورد تأويلات المخالفين وتحريفاتهم للحديث مُفصلة ثم رد عليها.

٢٠- يتميز الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ بسعة اطلاعه ومعرفته بالكتب والمراجع، وهذا واضح من خلال مراجعه في الشرح، فنجده ينقل مرة عن «الميزان» للذهبي (كما في ج١/ ٤٥)، ومرة عن «شرح الشواهد الكبرى» للعيني (كما في ج١/ ٤٣) وعن تاريخ الطبري (كما في ج١/ ٤٦)،

وعن «طبقات الحنابلة» لابن رجب (كما في ج٢/ ١٥٣)[1].

٢١ـ للشارح رَحِمَهُ اللَّهُ عناية بالشعر والأدب فتجد أنه يورد من العبارات البلاغية ما يُملح به كلامه وأحيانًا يورد أبياتًا تُحاكي أبيات الناظم.

كما في (ج٢/ ٢٩) قال رَحِمَهُ اللَّهُ عندما تكلم عن مذهب المُعطلة وقولهم: «إن القول بالعلو هو مذهب فرعون»: «فلقد استعظم – يعني الناظم – نسبتهم مذهب العلو إلى فرعون، فلو دفع إلى زمن من زاد في الطنبور نغمة وصنف مُصنفًا في إيمان فرعون ...».

الملحوظات على الكتاب

هذا الكتاب كأي عمل بشري لا يخلو من خلل ونقص، ويكفي مؤلفه فخرًا أنه صبر وصابر حتى أتم شرح هذه القصيدة العظيمة التي أحجم الكثيرون عن شرحها وبيان معانيها.

وكون القارئ للشرح يلاحظ عليه بعض الملحوظات لا يعني أبدًا الحط من قدر الكتاب أو عيبه.

فمن ذا الذي تُحصى مزايـــاه كلها   كفى المرء نُبلًا أن تعـــد معايبـــه

وهذه الملحوظات التي سأوردها لعل أكثرها لا يمس أصل الكتاب وجوهره، وإنما هي أمور لا يكاد يسلم منها مُصنف. ومن ذلك:

١ ـ يكتفي الشارح أحيانًا بنقل كلام العلماء في مسألة معينة ولا يشرح الأبيات أو يبين معانيها، فتجده يسرد عشرين أو ثلاثين بيتًا ثم يقول: قال فلان (من العلماء) ويسوق كلامه دون أن يزيد عليه كلمة واحدة تشرح الأبيات.

كما في (ج٢/ ١٢ – ١٥) حيث ساق [٢٧ بيتًا] ثم نقل كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية من كتاب «التدمرية» واكتفى به عن الشرح دون أن يُحلل معاني الأبيات ويوضحها.

٢ ـ عند نقله نصوص العلماء يدخل أحيانًا كلام بعضهم في بعض فلا يدري القارئ أين انتهاء كلام الأول وبداية كلام الثاني، وبالجملة فهو غالبًا لا يضع في نهاية الكلام ما يدل على انتهائه

(١) وانظر (ج١/ ٤٩) (الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية)، (ج١/ ٥١) (منازل السائرين لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري)، (ج١/ ٥٧): (خلق أفعال العباد للبخاري)، ج١/ ١٢٠ (الخطط للمقريزي)، (ج١/ ١٩١) (العلو للذهبي)، ج١/ ١٩٠ (التذكرة للقرطبي)، (ج١/ ٢٣٥) (السنة لابن أبي عاصم)، وانظر (ج١/ ٣٤٧، ٣٥١، ٣٦١، ٣٨٨، ٣٩٢، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢)، و (ج٢/ ٢٤٣) (العقائد للنسفي)، (ج٢/ ١٣٥) (السُّنة للخلال)، (ج٢/ ١٤١) (الغريب لأبي عبيد)، (ج٢/ ١٣٩) (الأم) للشافعي، (ج٢/ ٣٩٧) (المعالم) للرازي، (ج٢/ ٣٣٧) (العقيدة الوسطى) لابن العربي، وانظر (ج٢/ ٣٨٥، ٣٩٧) وغيرها.

ولكن يُفهم ذلك من السياق، وأحيانًا لا يُفهم.

كما في (ج١/ ٤١٣) حيث قال رَحِمَهُ اللهُ: «قال الحافظ الذهبي: وقد ألفت أحاديث النزول في جزء وذلك متواتر أقطع به، قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في شرح الموطأ ...» فلا يدري القارئ هل قوله: «قال الحافظ أبو عمر» من كلام الذهبي، أو نقل جديد من الشارح؟

٣ - في مواضع كثيرة من الشرح لا يوثق نقولاته عن العلماء فتجده يقول قال العالم فلان، ثم لا يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه.

كما في (ج١/ ٢٦٦) حيث نقل عن الإمام البيهقي دون أن يذكر اسم الكتاب الذي نقل منه.

وأكثر من ينقل عنه من غير توثيق شيخ الإسلام ابن تيمية كما في:

(ج١/ ٢٢٥) [حول مسألة كلام الله تعالى]، (ج١/ ٣١٨) [حول ما يُضاف إلى الله تعالى من الأوصاف والأعيان].

ويكثُر النقل أيضًا عن الإمام ابن القيم من غير توثيق كما في:

(ج١/ ٤١٠ - ٤١١) حول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

٤ - ينقل - أحيانًا - بعض الأقوال ولا ينسبها لأحد.

كما في (ج١/ ٢٧٦) حيث بحث مسألة إنزال القرآن، ومسألة اللفظ والمعنى ثم نقل أقوالًا ولم ينسبها لأهلها.

٥ - يسرد الأبيات الكثيرة متتابعة ثم يبدأ في شرحها فيفوت عليه بعضها دون شرح أو توضيح، فتبقى مُبهمة.

كما في (ج١/ ٢٣٢) حيث ساق [٤٣ بيتًا] ثم شرحها ففات عليه بعضها دون شرح.

٦ - وإضافةً إلى النقطة السابقة فإن الشارح كثيرًا ما يكون كلامه على الأبيات عامًّا مُجملًا ليس تحليليًّا، فيفهم القارئ المعنى العام للأبيات، أما معاني الأبيات وعباراتها التفصيلية فتبقى غير مفهومة.

كما في (ج١/ ٣٩٠) حيث ساق [٨ أبيات] ثم شرحها شرحًا مُجملًا دون توضيح تحليلي لمعاني الأبيات.

٧ - وإضافةً إلى ما سبق، فإن الشارح يسرد أحيانًا الأبيات الكثيرة ثم لا يشرحها بحرف واحد.

كما في (ج٢/ ٥٢ - ٥٤) حيث ساق [٣٧ بيتًا] ولم يشرحها بحرف واحد، مع أن فيها كلامًا على صفات الرؤية والعلو والكلام.

٨ ـ يترك الشارح كثيرًا من النقاشات العقلية والأجوبة المنطقية التي يعرضها الناظم دون شرح.

كما في (ج١/ ٣٦٨ – ٣٧٢) حيث ساق [٢٠ بيتًا] فيها إلزامات من الناظم للمُعطلة ونقاش مسألة التسلسل، فانشغل الشارح بترجمة ثلاثة من الأعلام وشرح الأبيات شرحًا عامًّا موجزًا لم يبين فيه هذه المعاني العقلية.

٩ ـ يفوت عليه بعض الأعلام دون ترجمة.

كما في (ج١/ ٤٦٢) (ابن أسباط لم يبين حتى اسمه، سفيان بن عُيينة لم يُترجم له).

وقد يكتفي ببيان الاسم من غير ترجمة كما في (ج١/ ٤٥٦) (العبسي)، (ج١/ ٤٥٨) (الأثرم).

وأحيانًا قد يُترجم للعلم مرتين مع أنه كان يمكنه أن يحيل إلى ما سبق ويستغني عن التكرار.

كما في (ج٢/ ٢٧٤) ترجم للفارابي مع أنه قد ترجم له في (ج١/ ٢٤٩).

١٠ـ يهمل الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ بعض المسائل المهمة دون تفصيل مع أنه قد يفصل فيما هو أقل منها أهمية.

كما في (ج٢/ ٤٦٢ – ٤٦٣) حيث لم يوضح مسألة: هل يكون بعض المتمسكين بالشريعة في آخر الزمان أفضل من بعض الصحابة؟

بينما قد يتوسع في بعض التراجم وهي أقل أهمية من هذه المسائل، كما تقدم في النقطة السابقة.

١١ـ يسرد أحيانًا عددًا من الأبيات ثم يتوسع في تفصيل مسألة جزئية ويغفل عن شرح بقية الأبيات.

كما في (ج١/ ٢٣٩ – ٢٤٢) سرد [١٢ بيتًا] ثم توسع في ترجمة علم ولم يشرح الأبيات بحرف واحد.

١٢ـ أحيانًا لا يورد الأحاديث والآثار التي يشير إليها الناظم – وهذا قليل.

كما في (ج١/ ٢٣٧) حيث أورد الناظم أثرًا قال عنه: رواه الطبراني، ولم يذكره الشارح.

١٣ـ تفوت عليه بعض الأحاديث دون تخريج وكأنه كتبها من حفظه.

كما في (ج١/ ١٣٠، ١٤٦، ٢٠١، ٢٩١، ٣٧٣، ٣٨٧).

١٤ـ أحيانًا لا يورد الآيات التي يشير إليها الناظم.

كما في (ج١/ ٢٥٤) ذكر الناظم أبياتًا في سعة علم الله تعالى واطلاعه ويدل عليها آيات صريحة في كتاب الله تعالى ولم يُشر إليها الشارح.

١٥ـ يشير الناظم إلى بعض أقوال العلماء وقد يُسمي الكتب التي وردت فيها هذه الأقوال ولا

يوردها الشارح، وهذا قليل.

كما في (ج١/ ٢٥٧) حيث أشار الناظم إلى قول للإمام أحمد ولم يسقه الشارح أو يخرجه.

١٦- يورد الناظم بعض الكتب ولا يتكلم عنها الشارح أو يعرف بها.

كما في (ج١/ ٤٥٨) حيث قال الناظم: واقرأ لمسند عمه ومُصنف ... البيت.

وقال: واقرأ كتاب الاستقامة ... البيت ولم يعرف الشارح بالكتابين.

١٧- يسرد الشارح عددًا من الأبيات ثم يبدأ في شرحها ولا يُراعي الترتيب في الشرح فتجده يشرح البيت الأخير قبل الأول، وهذا قليل.

كما في (ج١/ ٣٩٢) بدأ بشرح قوله: أولًا فأعط القوس باريها .... البيت.

قبل قوله: (فكِلاكُما ينفي الإله حقيقةً) مع أنه قبله في الترتيب.

١٨- ملحوظات على إحالات الشارح أثناء شرحه، وهي على خمسة أنواع:

أ- قد يكرر الناظم مسألة أثناء نظمه ويشير إلى أنها قد سبقت في النظم ولا يبين الشارح الموضع مُطلقًا لا عنوان الفصل ولا الموضوع الذي سبقت فيه ولا غير ذلك، فيبقى القارئ محتارًا في البحث عنها.

كما في (ج٢/ ١٩٥) حيث قال الناظم:

وهم أقاويل ثلاث قد حكيـ ـناها وبينا أتم بيان

ولم يوضح الشارح موضع كلامه الأول.

ب- وقد يكرر الناظم المسألة ولا يشير الشارح مُطلقًا إلى أنها قد سبقت فضلًا عن أن يحيل إلى موضعها.

كما في (ج٢/ ٤٤١) حيث أعاد الناظم ذكر قولي الأشاعرة والكلابية في كلام الله – مختصرًا – مع أنه قد عرضهما بالتفصيل فيما سبق، ولم يبين الشارح أنه تم عرضهما فضلًا عن أن يحيل إلى موضعهما، وهما قد مرًا في كلام الناظم (ج١/ ٢٦٤).

جـ- وأحيانًا قد يُكرر الناظم المسألة فيشير الشارح إلى أنها قد سبقت لكنه لا يبين موضعها.

كما في (ج٢/ ٤٤٦) حيث ساق الشارح بيتًا فيها الكلام على المعراج وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] ثم قال بعد سياقه الأبيات: تقدم الحديث في ذلك. ولم يبين أين سبق، (وهو قد سبق في ج١/ ٤١٠).

د- وقد يذكر الناظم المسألة مختصرة وهو سيعيدها مُفصلة في موضع قادم، فيشير الشارح إلى

أن هذه المسألة ستأتي مُفصلة في كلام الناظم لكنه لا يبين الموضع الذي ستأتي فيه.

كما في (ج٢/ ٨٠) حيث قال أثناء شرحه لأبيات: قوله «ووردتم القلوط ... البيت»: سيأتي بيان القلوط في الفصل المعقود له» ولم يبين الشارح أين سيأتي بل ولم يذكر عنوان الفصل.

هـ- أحيانًا تكون المسألة واردة في الشرح ولا يبين الشارح أنه قد شرحها من قبل فضلًا عن أن يشير إلى موضعها.

كما في (ج٢/ ٣٧١) حيث ذكر الناظم أحد الأعلام وهو (جنكسخان) وقد ترجمه الشارح ترجمة موسعة فيما سبق (ج١/ ٢٤٠) ولم يشر إلى ذلك، فيبقى هذا العلم مجهولًا عند القارئ.

و- وقد يحيل الشارح إلى شرحه السابق إحالة غير واضحة، فلا يُستفاد منها.

كما في (ج٢/ ٤٥٣) حيث ساق [١٢ بيتًا] ثم قال: تقدم بسط الكلام في معاني هذه الأبيات بما أغنى عن الإعادة، ولم يبين الموضع.

وفي (ج٢/ ٤٨٦) ساق أبياتًا ثم قال: تقدمت الأحاديث في طول أهل الجنة، ولم يبين أين تقدمت.

ز- وأحيانًا يكون من المفروض أن يحيل لكنه لا يفعل وذلك أنه يشرح المسألة مرتين في موضعين إذا تكررت مع أنه كان يمكنه أن يستغني عن التكرار بالإحالة إلى ما سبق من شرحه.

كما في (ج١/ ٥٢٣) حيث ذكر الناظم حديث أطيط العرش فتكلم عليه الشارح ونقل كلام الذهبي في الحكم عليه مع أنه قد ذكر ذلك موسعًا في (ج١/ ٢٣٤ - ٢٣٥)، فلو أنه أحال لاستغنى عن الإعادة.

١٩- تقطيع الشارح وتقسيمه للأبيات عند الشرح - أحيانًا - لا يكون دقيقًا، فتجد أنه يفصل بين الأبيات المرتبطة المعاني في مقطعين ويربط بين أبيات منفصلة المعاني في مقطع واحد.

كما في (ج١/ ٢٠١) ذكر في أول المقطع بيتين كان الأولى أن يكونا في المقطع الذي قبله (ج١/ ١٩٤) لأنها مرتبطة به ومُكملة لمعناه.[1]

ثانيًا: شرح الشيخ محمد خليل هراس - عرض وتقويم-

التعريف بالمؤلف

هو العلامة الشيخ الدكتور محمد خليل هراس، من محافظة الغربية بجمهورية مصر العربية، ولد بطنطا عام ١٩١٦م، وتخرج في الأزهر، وعمل أستاذًا بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر،

---

(١) «الكافية الشافية» بإشراف د/ بكر أبو زيد (ص ٦٢ : ص ٨٣) بتصرفٍ.

وأعير إلى المملكة العربية السعودية، ودرَّس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ثم في جامعة أم القرى، ثم عاد إلى مصر ورأس جماعة أنصار السُّنة المُحمدية بالقاهرة، وفي عام ١٩٧٣م اشترك مع الدكتور عبد الفتاح سلامة في تأسيس جماعة الدعوة الإسلامية في محافظة الغربية وكان أول رئيس لها. توفي عام ١٩٧٥م عن عمر يُناهز الستين. له مؤلفات عدة منها: تحقيق كتاب «المُغني» لابن قُدامة، وتحقيق وتعليق على كتاب «التوحيد» لابن خزيمة، وتحقيق وتعليق على كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام، و «شرح القصيدة النونية لابن القيم»، و «شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية» وغيرها[1].

التعريف بالكتاب

اسمه: «شرح القصيدة النونية المُسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية».

وصفه: يقع في مجلدين، الأول في (٤٣٥ صفحة)، والثاني في (٢٧٤ صفحة).

دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

طريقة المؤلف في الكتاب

قدم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ شرحه بمقدمة موجزة جدًّا تكلم فيها عن أهمية القصيدة في بابها.

وطريقته في شرح الأبيات: أنه يورد مجموعة من الأبيات المحتوية على موضوع واحد ثم يبدأ في الكلام عليها وتوضيح معانيها، ولا يزيد كل مقطع من الأبيات على عشرة أبيات على الأغلب.

مميزات الكتاب وعرض منهج المؤلف فيه

يمكن تلخيص منهج المؤلف ومميزات كتابه في النقاط الآتية.

١ ـ تميز الكتاب في أوله بترتيب جيد لمادته، فالمؤلف يذكر الأبيات، ثم يشرح المفردات والألفاظ الغريبة، ثم يشرح الأبيات شرحًا تحليليًا، لكنه لم يستمر على هذه الطريقة إلا في أول خمس صفحات من الكتاب (ج١/ ١٦ـ ٢٠) ثم بدأ يسوق الأبيات ويتبعها بالشرح مباشرة ويوضح المفردات أثناء شرح للأبيات، وقد لا يشرحها كما سيأتي عند تقويم الكتاب.

وقد عاود المؤلف هذه الطريقة في (ج٢/ ١٥٧، ١٥٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٧٧).

٢ ـ يؤيد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ شرحه للمسائل ـ أحيانًا قليلة بالنقل من كتب أهل العلم، ولكن نقله

---

(١) نقلت ترجمته من مقدمة علوي السقاف مُحَقِّق كتاب «شرح العقيدة الواسطية» (ص ٤١ – ٤٢)، وقد استفادها من الشيخين: عبد الرزاق عفيفي وعبد الفتاح سلامة عفا الله عنهما.

مختصر جدًّا لا يتجاوز الأسطر المعدودة.

كما في (ج١/ ٢٢) حيث نقل من كتاب «خلق أفعال العباد» للإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣ ـ إذا نقل عن أحد من أهل العلم حرص على تمييز النص المنقول فيضعه بين قوسين ويشير إلى انتهائه بوضح رمز ا.هـ في نهايته، ولا يدخله في كلامه أو كلام غيره.

٤ ـ يشير الشارح ـ أحيانًا قليلة ـ إلى المسألة ثم يذكر المرجع الذي استقى منه الشرح ليستفيد من أراد الاستزادة.

كما في (ج٢/ ٢٧) حيث شرح أبياتًا للناظم حول مسألة التركيب، ونقل بعض المذاهب فيها ثم أحال للتوسع إلى كتاب «مقالات الإسلاميين» للأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥ ـ يستوعب الشارح جميع الأبيات ولا يكاد يفوت عليه شيء منها دون شح وتوضيح، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ لا يكتفي بالشرح الإجمالي وإنما يحلل الأبيات ويفصل الكلام على عبارتها.

٦ ـ يهتم الشارح بتوضيح الأدلة العقلية التي يوردها الناظم محتجًا بها على الخصوم من المتكلمين وغيرهم، ولا يكاد يغفل شيئًا منها، كما في (ج١/ ١٢٦، ١٧٥، ١٩٠)، و(ج٢/ ٢٥، ٢٦، ١٧٩، ١٨٣).

٧ ـ يحرص الشارح على ترتيب شرحه للأبيات، فلا يقدم شيئًا منها على آخر، وأحيانًا يقسم الشرح إلى نقاط متتابعة يكون بها الكلام أكثر وضوحًا وبيانًا، كما في (ج٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢).

٨ ـ مما يدل على ورع الشارح وأمانته فيما يكتب أنه إذا مر به شيء من كلام الناظم لم يفهمه، لم يتكلف الكلام عليه من غير علم بل يصرح بعجزه عن شرحه.

كما في (ج١/ ٢٥٢) حيث قال بعد أبيات «وأعتذر للقارئ عن شرح البيت الأخير .. فإني لم أفهمه والله تعالى أعلم».

٩ ـ يورد الشارح بعض الاعتراضات والملحوظات على بعض المسائل أو الألفاظ التي ترد في أبيات الناظم، مما يدل على حرصه على التأمل والبحث والنظر ونصرة ما يراه صوابًا وعدم التبعية والتقليد من غير فكر وتمحيص.

ـ وإن كان قد لا يوافق على بعض اعتراضاته ـ كما في (ج٢/ ١٨ـ ٢١) حيث أورد الناظم بعض الآثار في حياة بعض الناس في القبور وعلم الميت ببعض عمل الحي .. وغيرها فقال الشارح: «واعلم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد تساهل في قبوله لهذه الآثار، وكان الأولى به أن ينبه على ضعفها وأنها لا يمكن أن تقوم به حجة، حتى لا يفتح الباب كما فعل المتصوفة بالنسبة إلى

مشايخهم المقبورين[1]. وفي (ج٢/ ١٤٥) تكلم الناظم على الصحابة ومن بعدهم ممن سلك طريقتهم في الزهد والعبادة والجهاد، ثم قال في ختام أبياته:

صوفيــــة سنيــــة نبويــــة ليسوا أولي شطح ولا هذيان

فقال الشارح: «وأما قول المؤلف في أول البيت الأخير: «صوفية»، فنحن لا نوافقه على إطلاق هذا اللقب على أهل الحق والجماعة فإنه لفظ سماهم الله به المسلمين المؤمنين عباد الله»[2][3].

١٠ـ للشارح تعليقات مفيدة في الحواشي وهي قليلة جدًّا، كما في (ج٢/ ١٤٩) حيث ترجم لثلاثة من الأعلام، و(ج٢/ ١٨٥) ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ [النساء:٦٠] وإن كانت حواشيه رَحِمَهُ اللَّهُ لا تخلوا من مآخذ ستأتي في تقويم الكتاب.

١١ـ يوضح أحيانًا الألفاظ الغريبة.

كما في أول الكتاب (ج١/ ١٦ – ٢١) حيث كان يفصل في توضيح المفردات.

وكذلك في (ج١/ ٧٩) حيث وضع أثناء الشرح معنى قول الناظم (آذنت بحران) وغيرها، وإن كان لا يشرح الألفاظ شرحًا علميًّا موثقًا، كما سيأتي عند تقويم الكتاب.

١٢ـ يورد – أحيانًا – الآيات التي يشير إليها الناظم.

كما في (ج١/ ٣٧، ٤٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧) و (ج٢/ ٨، ١٤، ١٧٢، ٣٨٧).

١٣ـ يورد ـ أحيانًا الأحاديث التي يشير إليها الناظم، ويسوقها بنصها أو بمعناها. كما في (ج١/ ٣٧، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩) و (ج٢/ ١٣، ٢٦٤).

١٤ـ يورد ـ أحيانًا ـ الآثار التي يشير إليها الناظم.

---

(١) كان الأجدر بالشارح رحمه الله أن لا يكتفي بهذا الاعتراض بل يخرج هذه الآثار ويحققها تحقيقًا علميًا ويحكم عليها، ثم يذكر ضوابط الأخذ بها إن صحت، مع العلم أن الناظم إمام من الأئمة ولم يجزم خلال نظمه بكل ما أورده من آثار بل عرض بتضعيف بعضها كما هو واضح من أسلوب النظم كقوله مثلًا: (وأتى به أثر فإن صح الحديث به ....) البيت.

(٢) انتقاد الشارح هنا على غير وجهه ـ أيضًا ـ وإنما يستقيم لو لم يبين الناظم مراده ويقيد إطلاقه، فإنه أطلق عليهم أنهم صوفية لكنه قيدها بأنها سنية نبوية ليس فيها شطح ولا هذيان، وهذا الضابط يخرج أهل التصوف المبتدع من الخرافيين وغيرهم، فإن الصوفية أقسام ومراتب، وإن كان أكثرهم على الضلال والبدعة، ولا يمنع المتكلم من استخدام الألفاظ المجملة إذا فصلها وبين مراده منها، ومراد الناظم رحمه الله أنهم زهاد عباد، وانظر تعريف التصوف في التعليق على البيت (٨٠٦).

(٣) وانظر (ج٢/ ١١٨، ٢٤٢).

(ج٢/ ٣٦٩ – ٣٧٠) حيث أشار الناظم إلى أثر لابن عباس رضي الله عنهما فساقه الشارح بنصه. ونحوه في (ج٢/ ٣٧١).

١٥- قد يورد الناظم الحديث ويسكت عن الحكم عليه، فيحكم عليه الشارح، وهذا قليل جدًّا.

كما في (ج٢/ ١٩) حيث ذكر الناظم حديث عرض أعمال العباد على النبي ﷺ بعد موته، فحكم عليه الشارح.

١٦- يخرج الحديث أحيانًا بذكر من رواه من الأئمة، خاصة إذا كان في الصحيحين.

كما في (ج١/ ٧١، ١٧٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٩) و (ج٢/ ٧، ١٨، ٥٩، ٧٢، ٩١، ١٣٦، ١٧٢، ١٩٧، ٢٠١، ٢١٦، ٣٢٣).

وإن كان تفوت عليه أحاديث كثيرة جدًّا من غير تخريج، كما سيأتي عند تقويم الكتاب.

١٧- قد يترجم الشارح لبعض الأعلام الواردين في النظم.

كما في (ج٢/ ١٤٩) حيث عرف ببعض الأعلام باختصار في الحواشي.

(ج١/ ٩٣) عرف بإجمال بأرسطو، وجنكيز خان، والنمرود.

وقد يكتفي بذكر الاسم وسنة الوفاة كما في (ج١/ ١٤٠) حيث ذكر ابن حزم وسنة وفاته.

١٨- يورد الحوادث والقصص التي يشير إليها الناظم، وهذا قليل جدًّا.

كما في (ج١/ ١٢١) حيث أشار الناظم إلى حادثة اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري رحمه الله، فساقها الشارح كاملة واضحة ولكن من غير توثيق، وسيأتي الكلام على ذلك في تقويم الكتاب.

الملحوظات على الكتاب

تقدم أن إبداء الملحوظات والمآخذ على كتاب مثل هذا الشرح المبارك لا يعني أننا نعيبه أو نذم صنيع مؤلفه، لا والله، بل المؤلف رحمه الله عالم من العلماء الذين خدموا عقيدة السلف ونافحوا عنها، وكتبه خير شاهد على ذلك، وهذه الملحوظات التي سأوردها لا تمس أصل الكتاب وجوهره وإنما هي أمور لا يكاد يخلو منها مُصنف.

فمن الملحوظات على الكتاب:

١ - ساق الشارح رحمه الله مقدمة الناظم النثرية في أول الكتاب واستغرقت منه إحدى عشرة صفحة ومع ذلك لم يشرحها بحرف واحد، بالرغم مما فيها من المسائل والأمثلة والألفاظ الغامضة التي تحتاج إلى توضيح وبيان.

٢ ـ ينقل الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ نصوص بعض العلماء عند عرضه لبعض المسائل ولكنه لا يوثق نقله.

كما في (ج١/ ٢٢٠) حيث نقل في الحاشية كلامًا طويلًا للإمام ابن القيم ولم يسم مرجعه الذي نقل منه.

وفي (ج٢/ ٦٣) نقل عن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ولم يذكر مرجعه[(١)].

٣ ـ عند نقله عن أحد من العلماء قد يذكر اسم الكتاب لكنه لا يذكر عنوان الفصل أو المبحث فضلًا عن أن يورد رقم الجزء والصفحة[(٢)].

٤ ـ يمر الشارح ببعض المسائل والمواضع الهامة التي ينبغي أن يفصل القول فيها أكثر من غيرها لأهميتها والتباس أمرها على بعض الناس، لكنه يشرحها شرحًا مُختصرًا كغيرها دون أن يميزها بزيادة بيان وتوضيح.

كما في (ج١/ ٦٢) حيث ذكر الناظم كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، ولم يتكلم الشارح عن خطر هذا الكتاب وما فيه، مع انتشاره في العالم الإسلامي وتأثر كثير من الجُهَّال به، بل ذكر الناظم في الأبيات نفسها ابن سبعين والتلمساني وهما من رؤوس الاتحادية ولم يُبين الشارح بيانًا كافيًا ما هم عليه من الضلال والزندقة.

٥ ـ مع حرص الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ على استيعاب كل ما في الأبيات بالشرح إلا أنه تفوت عليه أحيانًا مسائل مهمة.

كما في (ج١/ ٨٨) حيث قال الناظم:

وزعمت أن الناس يوم مزيدهم كلّ يحاضر ربّه ويُداني
بالحاء مع ضادٍ وجا مَـعْ صادها وجهان في ذا اللفظ محفوظان

ولم يبين الشارح ما الوجهان وهما يُحاضر (بالضاد المُعجمة) ويحاصر (بالصاد المُهملة) ولم يبين معناهما أو الفرق بينهما[(٣)].

٦ ـ يذكر الشارح أحيانًا معلومات خاطئة أثناء شرحه للأبيات، ولعل ذلك لعدم رجوعه إلى أصول المسائل في مظانها.

---

(١) وانظر (ج١/ ٢٨، ٢٧٧)، (ج٢/ ٦٧، ٧٠، ٧٧).

(٢) انظر ج١/ ٢١، ٦١، ١٢٣، ١٤٦، ٢٠٦.
(ج٢/ ٦٩، ٧١، ٧٥، ٩١، ٩٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ١٧٣، ١٩١، ٢٥٠، ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٧٥، ٤٣٢).

(٣) سيأتي بيانه في التعليق على (البيت ٤٥٥).

كما في (ج١/ ٩٤ – ٩٥) حيث ذكر الناظم آل سنان فقال الشارح: «آل سنان وهي أسرة قوية من أهل فارس كانت تحكم في خراسان وفي كنفها تربى ابن سينا وعلى كتبهم تخرج ...». وعلى كلامه ملحوظتان:

الأولى: أن أسرة آل سنان كانت تحكم في الشام وليس في خراسان[١].

الثانية: قوله: إن ابن سينا تربى في كنفهم، فيه مغالطة للتاريخ فإن ابن سينا توفي (سنة ٤٢٨ هـ) وسنان بن سلمان مُنشئ مذهب آل سنان ولد (سنة ٥٢٨ هـ) وتوفي (سنة ٥٨٨ هـ)، فكيف يكون ابن سينا تربى في كنفهم؟! بل كيف يكون تخرج على كتبهم وهم ما أتوا إلا بعده !!

٧ ـ أحيانًا يكون الشارح غير دقيق في عباراته، فيقول عن رجل إنه جهمي وهو ليس جهميًا وإنما هو أشعري.

كما في (ج١/ ٧٠ – ٧١) حيث أشار الناظم إلى قول لأبي المعالي الجويني (الأشعري) في العلو، فقال الشارح «أورد الشيخ – يعني الناظم – هذه الحكاية التي تدل على جهل ذلك الجهمي ... فانظر إلى حال الجهمي الجاهل الذي يتجرأ على الناس بسخافة حمقاء ...»[٢].

ولكن قد يعتذر عن الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه لم يعلم من المقصود بكلام الناظم لأن الناظم لم يُسمّه، أو أطلق عليه أنه جهمي لأن قوله وافق قول الجهمية في هذه المسألة.

٨ ـ له رَحِمَهُ اللَّهُ بعض التشبيهات التي تؤخذ على مثله ولا يصح له إطلاقها.

كما في (ج١/ ١٨ – ١٩) لما قال الناظم:

«لله زائرة بليل لم تخف ...»[٣] البيت.

قال الشارح أثناء كلامه على الأبيات: «ما أشبه زائرة الشيخ هذه بما كان يُسميه بعض الصحفيين هنا في مصر «بالجاسوسة الحسناء» التي تأتيه بالأخبار وتوافيه بالأسرار ...».

والجاسوسة الحسناء في اصطلاح العصر هي: امرأة بغي (تعمل في الاستخبارات ونحوها) ترسل إلى صاحب منصب ورئاسة لتبيت معه وتحاول معرفة ما عنده من أسرار ومعلومات.

٩ ـ يهمل الشارح غالبًا توضيح المصطلحات العقدية والعبارات الكلامية.

كما في (ج١/ ٩١) حيث أهمل تعريف التنزيه والتجسيم.

(١) انظر ترجمتهم في التعليق على البيت (رقم ٤٩٠).
(٢) انظر قصة الجويني في التعليق على البيت (رقم ٣٣٠) وما بعده.
(٣) انظر الكلام على المعنى في التعليق على البيت (رقم ٢٠).

وفي (ج٢/ ٢٨ – ٢٩) أهمل تعريف الهيولى والصورة والجوهر الفرد.

١٠- الناظر في الكتاب يجد أن الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ يشرح أحيانًا شرحًا مُبهمًا.

كما في (ج١/ ٨١ – ٨٢) حيث أورد قول الناظم أثناء كلامه عن سمع الله تعالى ورؤيته لعباده: (ويراهم من فوق سبع ثمان) فقال الشارح «ويراهم من فوق سبع سماوات بل من فوق ثمان بحيث لا يمتنع على رؤيته أصغر ذرة ...» ولم يبين المراد بالثمان[1].

١١- يجزم الشارح أحيانًا ببعض الأقوال من غير ذكر دليل.

كما في (ج١/ ١٣٢) حيث تكلم عن أنواع الوحي وذكر النوع الثاني وهو أن يأتي الملك إلى الرسول على حالته الملكية ثم قال: «وهذا لم يقع إلا لنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله، وقع له مرتين ...» أ.هـ وهذا الجزم يحتاج إلى دليل يُعضده.

١٢- كثيرًا ما يورد المسائل أثناء شرحه دون أن يسوق الأدلة عليها.

كما في (ج٢/ ٢١١) حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتكلم عن حرصه ﷺ على حماية جناب التوحيد: «وذلك كنهيه عن اتخاذ القبور مساجد ونهيه عن رفعها وتشييدها وإيقاد السرج عليها ونهيه عن اتخاذ قبره عيدًا ونهيه عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ... إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة من صحيح السُّنة المُطهرة».

ولو ساق الأدلة الصريحة الصحيحة على ما ذكر لكان كلامه أكمل وأفضل.

١٣- يهمل الشارح في كثير من المواضع شرح الألفاظ الغريبة.

كما في (ج١/ ١٢٤) ذكر الناظم ألفاظ جعاجع، فراقع، قعاقع. فقال الشارح: «هذه أسماء أصوات»، ولم يذكر معانيها والفرق بينها ولو راجع كتب اللغة لوجدها محررة[2].

١٤- لا يورد الشارح – غالبًا – أقوال العلماء التي يشير إليها الناظم.

كما في (ج١/ ١٤٠) حيث أشار الناظم إلى قول الإمام ابن حزم في القرآن فلم يورده الشارح بنصه ولم يخرجه من كتب ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٥- يهمل الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ الإحالات وهي مهمة لربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض، وله في الإحالات صورتان:

الأولى: قد يكرر الناظم أحيانًا المسألة فلا يحيل الشارح إلى ما سبق بل لا يشير إلى أنها قد سبقت.

---

(١) انظر الكلام على المعنى في التعليق على البيت (رقم ٤١٢).

(٢) انظر معانيها في التعليق على البيت (رقم ٦٤٨).

الثانية: أحيانًا قد يحيل لكنها إحالة غير واضحة.

كما في (ج١/ ١٥١) حيث أعاد الناظم الكلام على مذهب الاتحادية فقال الشارح: «سبق الكلام على مذاهب الاتحادية» ولم يذكر أين الموضع – ثم أعاد شرحه مع أنه قد سبق وكان يمكنه أن يستغني بالإحالة عن التكرار.

١٦ـ يوافق الشارح الناظم في أمور كان الأولى به أن يُنبه على ما فيها.

كما في (ج١/ ٧٤) حيث قال الناظم:

وإليه قد عرج الرسول فقدرت   من قربه من ربه قوسان

فوافقه الشارح على ذلك وقال: «وتناهى – أي الرسول ﷺ ـ في القرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى».

ولم يخالف الشارح ذلك أو يعلق عليه أو ينظر في كتب الناظم الأخرى، مع أن الناظم وافق الجمهور في كتبه الأخرى على أن القرب كان من جبريل وليس من الله عز وجل[1].

وقد أعاد الشارح العبارة نفسها في (ج١/ ٨٣) دون تعليق.

١٧ـ يستعمل الشارح ـ أحيانًا ـ في شرحه بعض الألفاظ المجملة التي لم يذكرها السلف لاحتمالها معاني صحيحة وباطلة، فكان الأولى به العدول عنها. كما في (ج١/ ٨٧) حيث قال عن نزول الله تعالى في ثلث الليل الآخر: «فيجب الإيمان بها مع اعتقاد أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوقين فلا يقتضي هبوطًا ولا انتقالًا ولا شغل مكان وخلو آخر، كما أن استواءه ليس كاستواء المخلوق، فلا يقتضي مماسة ولا محايثة ولا اتكاء ... الخ». أهـ.

فكان الأولى به رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتجنب هذا التفصيل في نزول الرب تعالى واستوائه لأنه لم تأت به أدلة شرعية تثبته ولا تنفيه.

١٨ـ للشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ حواش مفيدة على الشرح لكنها غير موثقة.

كما في (ج٢/ ١٨٥) حيث ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ [النساء: ٦٠] ولم يذكر مرجعه في ذلك.

١٩ـ لا يعرف غالبًا بالفرق والمذاهب.

كما في (ج١/ ٨٩) ذكر الناظم فرقة «الديصانية» ولم يعرف بها الشارح.

وفي (ج١/ ١٦٠) أشار الناظم إلى «الماتريدية» فقال الشارح: «هم أتباع الشيخ أبي منصور

---

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في التعليق على البيت (رقم ٣٦٢).

الماتريدي» ولم يعرف بهم.

٢٠- كثيرًا ما يغفل الشارح إيراد نصوص الآثار التي يشير إليها الناظم، بل يحولها من نظم إلى نثر ويكتفي بذلك.

كما في (ج١/ ١٦١ – ١٦٢) حيث أشار الناظم إلى آثار لابن عباس رضي الله عنهما وجعفر الصادق وأحمد بن حنبل والدارمي رحمهم الله، ولم يسقها الشارح، وإنما ساق معانيها المُستقاة من النظم.

٢١- يشير الناظم إلى بعض الآيات ولا يوردها الشارح بنصوصها.

كما في (ج١/ ٣٨) حيث أشار الناظم إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] وقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]. ولم يوردهما الشارح.

٢٢- وقد يذكر الشارح معنى الآية التي يشير إليها الناظم، ولو ساقها بنصها لكان أولى.

كما في (ج١/ ٨٣) حيث قال الناظم وهو يحكي مقالة المُلحد:

وزعمت أن الله أبدى بعضه ... للطور حتى عاد كالكثبان

لما تجلى يوم تكليم الرضا ... موسى الكليم مكلم الرحمن

فقال الشارح: «وزعمت أنه سبحانه تجلى للجبل المسمى بالطور عندما سأله موسى عليه السلام الرؤية فقال له: لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى سبحانه للجبل وظهر له من نوره مقدار أُنملة إصبع كما ورد في الحديث، لم يُطق الجبل ذلك وصار كثيبًا مهيلًا، وخر موسى صعقًا من هول الموقف، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ...». ا.هـ.

ولو أن الشارح ساق قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] لكان أفضل وأكمل من أن يتكلم بمعناها.

٢٣- يسوق الشارح الأحاديث دائمًا من غير أن يحكم عليها صحةً وضعفًا، إلا ما ندر.

٢٤- يذكر الشارح أحيانًا من أخرج الحديث ولكن الغالب عليه أن لا يذكر من أخرجه.

كما في (ج١/ ١٦٦، ٢٠٩، ٢٧٠، ٢٧٧ وغيرها) و(ج٢/ ٧، ٩، ١١، ١٦، ٢٠، ٣٧، ... وغيرها).

٢٥- وكذلك يورد الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من غير تخريج، إلا ما ندر جدًّا.

كما في (ج١/ ٣٧ – ٣٨) حيث ساق أثرين عن علي وابن عباس رضي الله عنهم ولم يخرجهما أو يذكر مرجعه الذي نقل منه.

٢٦- الشارح لا يسوق الأحاديث التي يستشهد بها بنصوصها، وإنما بمعانيها وكأنه يكتبها من حفظه، وهذا يظهر لمن تتبع أحاديث الكتاب، إلا ما ندر.

كما في (ج١/ ١٢٧، ١٢٩، ٢١٨، ٢٣٥، وغيرها) وفي (ج٢/ ١٣، ١٦، ٣٨، ٦٤، ٢٩٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، وغيرها).

٢٧- الأحاديث التي يشير إليها الناظم لا يسوقها الشارح بنصوصها من مظانها وإنما قد يشير إلى معناها.

كما في (ج٢/ ١١) حيث أشار الناظم إلى ما ورد في الحديث من أن أعمال العباد تعرض على الرسول ﷺ بعد وفاته، ولم يورد الشارح الحديث الذي أراده الناظم، فضلًا عن أن يحكم عليه صحةً أو ضعفًا.

٢٨- الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ قد لا يسوق الأحاديث التي يشير إليها الناظم بنصها ولا بمعناها وإنما يشير إشارة إلى أنه قد ورد حديث في المسألة.

كما في (ج١/ ٧٥) حيث ذكر الناظم أدلة العلو ومما قال:

وإليه يصعد روح كل مصدق ... عند الممات فينثني بأمان

فقال الشارح: «وكذلك ورد الحديث بأن أرواح المؤمنين تعرج بها ملائكة الرحمة حتى تمثل بين يدي الله عز وجل فيبشرها بما أعد لها من نعيم فترجع آمنة مُطمئنة». ولم يذكر الحديث بنصه ولا بمعناه[١].

٢٩- يمر الشارح بكثير من الأعلام ولا يترجم لهم، وإن عرف ببعضهم فهو تعريف عام مُجمل يستشف منه أنه أملاه من ذاكرته من غير توثيق من المراجع.

كما في (ج١/ ٦٢) ذكر الناظم «العفيف التلمساني»، وفي (ج١/ ١٢١) ذكر اللالكائي، وفي (ج١/ ١٤٠) ذكر الرازي، وفي (ج١/ ١٦٨) ذكر ابن سينا، وفي (ج١/ ١٦٩) ذكر الطوسي، وفي (ج١/ ٢٠٦) ذكر مجاهدًا وابن إسحاق ... إلخ) وكل هؤلاء لم يترجم لهم الشارح.

٣٠- قد يذكر الناظم العلم ولا يبين الشارح من المراد به، فضلًا عن أن يترجم له، فيبقى العلم مُبهمًا عند القارئ لا يدري من هو.

---

(١) انظر الحديث بنصه في التعليق على البيت (رقم ٣٦٤).

كما في (ج١/ ٤٨) حيث قال الناظم: (وبراءة المولود من عمران)[1]
ولم يُبين الشارح من المراد به.

٣١- لا يذكر الشارح القصص التي يشير إليها الناظم.

كما في (ج١/ ٧٠) حيث أشار الناظم إلى قصة مقام الجويني ومقالته في العلو، ولم يسقها الشارح أو يُبين المقصود بالأبيات[2].

٣٢- لا يعرف بالكتب التي يذكرها الناظم.

كما في (ج١/ ٦٢) حيث ذكر الناظم كتاب «فصوص الحكم» (لابن عربي) وفي (ج١/ ٩٤) ذكر الناظم كتب: الشفاء والإشارات (وكلاهما لابن سينا) و «رسائل إخوان الصفا» ولم يعرف الشارح بشيء منها أو يذكر ما فيها من الضلال[3].

وفي (ج١/ ٢٣٧) وما بعدها ذكر الناظم كثيرًا من الكتب وفات على الشارح أكثرها من غير تعريف أو توضيح[4].

ثالثًا: شرحان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي

وهو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي، من قبيلة تميم. ولد في بلدة عنيزة بالقصيم في الثاني عشر من محرم عام ١٣٠٧هـ. وتربّى يتيمًا، وحفظ القرآن، وعمره إحدى عشرة سنة، واجتهد في طلب العلم، ولما بلغ ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتعليم. أخذ العلم عن مشايخ عصره كالشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل والشيخ صالح بن عثمان القاضي وغيرهم. توفي سنة ١٣٧٦هـ. من مؤلفاته: تفسير للقرآن الكريم، وحاشية على الفقه الحنبلي، والخطب العصرية القيمة.

وله رَحِمَهُ اللَّهُ شرحان على هذه القصيدة النونية:

الأول: توضيح الكافية الشافية، وهو كتاب من الحجم المتوسط ويقع في ١٧٦ صفحة. وقد نشرته دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع بالأحساء سنة ١٤٠٧هـ.

والشرح الثاني: الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.

---

(١) انظر البيت (١٨٦).
(٢) انظر البيت (٣٣٠).
(٣) انظر الكلام عليها في البيتين (٢٨٠، ٤٩٠)*.
(٤) «الكافية الشافية» بإشراف د/ بكر أبو زيد (ص ٨٤: ١٠٦) بتصرف.

اقتصر فيه المؤلف على شرح الأبيات التي ذكر فيها الناظم أسماء الله تعالى ودلالاتها، وعددها نحو ٣٦ بيتًا. وقد طبع هذا الشرح مفردًا في ٦٢ صفحة، وهو مطبوع أيضًا ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ج٣/ ٢٠٥). ونشره مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة سنة ١٤١٢هـ.

وفي الصفحات الآتية عرض مفصل لثلاثة من شروح النونية، يشتمل على ترجمة موجزة للشارح، وذكر منهجه في الشرح، وبيان مميزات كتابه وحسناته، ثم التنبيه على المآخذ عليه.

وهو ما استفدنا منه في عملنا هذا؛ حيث وضعناه كما أشرنا سابقًا - في مقدمة كل باب أو كل فصل أو مجموعة آيات كتمهيدٍ ومعنىً إجماليٍّ لها.

ومن الواضح أن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تأثر بشيخه، قد شرحها شرحًا مُجملًا؛ ولم يتعرض لكل لفظةٍ فيها:

رابعًا: شرح الشيخ ابن عثيمين وبيان شيءٍ من منهجه فيه وترجمته[1]

ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين[2]

التعريف به:

اسمه ونسبه: هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة، بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جده من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وزكاء، وهمة عالية، وحرصًا على التحصيل العلمي في مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي،

---

(١) توفي سماحة الشيخ بعد انتهائنا من جمع الكتاب وخلال مراجعته ٢٤ محرم ١٤٢٠هـ.

(٢) نقلًا عن كتاب شرح العقيدة الواسطية بقلم تلميذه وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيري رئيس تحرير مجلة الحكمة.

والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و «منهاج السالكين في الفقه» للشيخ السعدي أيضًا، و «الآجرومية»، و «الألفية» في النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض، حيث فتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢هـ فالتحق بها.

وبعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدي، الذي توفي في عنيزة عام ١٣٧٦ هـ، عن عمر يناهز التاسعة والستين، رشح بعض المشايخ لإمامة الجامع الكبير، إلا أنهم لم يستمروا على ذلك إلا مدة قصيرة جدًا، فرشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير، عندها تصدى للتدريس مكان شيخه، ولم يتصدَّ للتأليف إلا عام ١٣٨٢هـ، حين ألف أول كتاب له، وهو «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الحموية في العقيدة».

واستغل الشيخ وجوده في الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن باز، فقرأ عليه من «صحيح البخاري» وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية.

وقد عرض على الشيخ تولي القضاء من قبل مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي ألح على فضيلته بتولي القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمع بإعفائه من منصب القضاء.

مشايخه: استفاد الشيخ أبو عبد الله في طلبه للعلم من عدة شيوخ منهم:

١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى عام ١٣٧٦هـ المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» في ثمان مجلدات.

٢ ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المفتي العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء.

٣ ـ الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المتوفى عام ١٣٩٣هـ، المفسر واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن».

٤ ـ الشيخ علي بن حمد الصالحي، ولا يزال على قيد الحياة، أطال الله عمره، وأحسن عمله.

٥ ـ الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ ـ الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان، رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧ ـ الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ اللَّهُ. جد الشيخ من جهة أمه.

تلاميذه:

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ، لأنهم ازدحموا في مجلسه ـ لا سيما في السنوات الأخيرة ـ بما يزيد على الخمسمائة طالب في بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم، وقد ذكرت مجموعة من طلابه البارزين في ترجمته المفصلة في «مجلة الحكمة» العدد الثاني لا على سبيل الحصر فارجع إليها.

منهجه العلمي:

لقد أوضح الشيخ رحمه الله منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيرًا بشيخي عبد الرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

والمنهج الذي سلكه الشيخ عبد الرحمن السعدي هو منهج خرج به عن المنهج الذي يسير عليه علماء الجزيرة – علماء نجد – عامتهم أو غالبتهم، حيث اعتماد المذهب الحنبلي في الفروع من مسائل الأحكام الفقهية، والاعتماد على كتاب «زاد المستقنع» في فقه الإمام أحمد بن حنبل، فكان الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي معروفًا بخروجه عن المذهب الحنبلي، وعدم التقيد به في مسائل كثيرة.

ومنهج الشيخ السعدي هو أنه كثيرًا ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويرجحها على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجردًا للحق، وقد انطبعت فيه هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولا بأس في أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التي خالف شيخنا أبو عبد الله العثيمين فيها شيخ الإسلام ابن تيمية منها:

١ ـ يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنها واجبة.

٢ ـ يرى شيخ الإسلام أن المتمتع في الحج يكفيه سعي العمرة عن سعي الحج، ويرى شيخنا أن سعي العمرة لا يكفي عن سعي الحج.

٣ ـ يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جواز سفر المرأة

بلا محرم مُطلقًا.

٤ ـ يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحريم لعموم حديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

٥ ـ يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة في قضاء دين الميت الذي لم يخلف وفاء، ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦ ـ يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذللًا لله تعالى – ذكرها في الاختيارات – ويرى شيخنا ضعف هذا القول، لأن الأصل في العبادات المنع والحظر، حتى يقوم دليل على المشروعية.

٧ ـ يرى شيخ الإسلام أن للأم الثلث مع الإخوة المحجوبين بالأب، ويرى شيخنا أن للأم السدس، أي إن الأخوة، وإن كانوا محجوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأم يظل باقيًا، فيحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨ ـ يرى شيخ الإسلام جواز الزيادة بين الربوبين من جنسٍ واحد في مقابل الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لا بد فيه من التساوي وزنًا بوزن، سواء بسواء، يدًا بيد.

٩ ـ يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه في الصلاة الجهرية، وهو المذهب ويرى شيخنا وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الجهرية.

طبيعة الدرس عند الشيخ:

إن طبيعة الدرس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، ذلك أن الشيخ يركز كثيرًا على حفظ المتون، ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ في كل درس. بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ، وقد حفظنا على الشيخ كثيرًا من المتون المنثورة والمنظومة.

ومن آثاره العلمية:

ذكرت من آثاره العلمية خمسة وخمسين مؤلفًا، وأكثرها عبارة عن رسائل صغيرة، فارجع إلى التفصيل في ذكرها إلى مجلتنا «مجلة الحكمة» في عددها الثاني، في ترجمة الشيخ حفظه الله. فقد أطلنا في ترجمته إلى ثلاثين صفحة فارجع إليها.

هذا ما تيسر كتابته وتدوينه باختصار عن ترجمة المؤلف، والله أسأل أن يَمُدَّ في عمره، ويحسن

عمله، وينفع به الأمة إنه سميع قريب مُجيب والحمد لله رب العالمين.

* منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه

١ - الإيجاز وعدم التطويل:

حيث صرح بذلك في شرحه، فقال: «إنه سيشرحه بإيجاز وعدم تطويل وعدم التكلم على كل كلمة وفي كل بيت، لكن كلما أخذنا قطعة بيَّنا المُراد منها؛ لئلا نبقى طويلًا في هذا الكتاب وتضيع الفائدة المقصودة من دراستنا فيه»أ.هـ.

٢ - شرح الغريب:

تعرض الشيخ أيضًا لشرح الغريب، إلا أنه لم يستوعب كل الغريب.

٣ ـ التدليل على الشرح بالكتاب والسُّنة وفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين.

٤ ـ الاستفادة من الشروح السابقة له، لا سيما: شرح ابن عيسى وشرح هراس: وقد صرَّح بذلك في بعض المواضع.

٥ ـ تأثره بمنهج شيخه ناصر السعدي: وذلك بشرحه المُجمل لـ «النونية».

٦ ـ التراجم:

كلف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعض تلاميذه بتحضير التراجم للأعلام والأشخاص الذين ذكرهم الناظم في «النونية»، واستفاد منها في الشرح.

٧ ـ الاستفادة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في تأصيله لكثير من مسائل الاعتقاد هنا، وكذلك تلميذه ابن القيم.

❁ ❁ ❁

* كلمة الشيخ السعدي رحمه الله.

* مقدمة المصنف وشرحها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضل له، ومن يُضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فهذا توضيح لمعاني (الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية) لشمس الدين ابن القيم قدّس الله روحه، لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين، والرد على الجهمية والمعطلة والملحدين. بالنقول الصحيحة، والأصول السلفية، والقواعد والعقول الصريحة، وفيه من الفوائد الفرائد، وما تصح وتكمل به العقائد، ما لا يوجد في كتاب سواه. ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال، أحببت أن أقرّبه للقارئين، بحله إلى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ما دل عليه، إلاّ إذا اقتضت الحال الزيادة أو كان المعنى يتوقف عليها، ولم أشتغل بشرح لها كالشروح المعتادة لتيسر حل ألفاظها على الراغب من كتب اللغة العربية، لكون الشرح العادي يقتضي بسطًا وتطويلًا.

واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام «للكافية الشافية»، حيث اختير فيه أسهل العبارات وأوضحها، فأغنى عن شرح كبير وعمل كثير، وتضمن من البراهين النقلية والعقلية والرد على أصناف المبتدعين وسياق المذاهب والرد عليها بأسلوب واضح. ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بما يقابله من هذا التعليق يحصل

لك المقصود، وتحظى بالمطلوب، واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك رحمهم الله. وأرجو الله أن يعينني على ما قصدت وينفعني وإخواني بما أوردت، ويجعل عملنا خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، وأن ينزل علينا من لطفه وتوفيقه ما تصلح به أمورنا، وييسر لنا الطريق الموصل إلى رحمته، إنه جواد كريم.

عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل

أما مقصود هذا الكتاب فهو معرفة الله تعالى بإثبات ما لله من صفات الكمال ونعو الجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة المخلوقات. وتفريع هذا الأصل العظي وتقريره والتنبيه على أصول العقائد كلها وعلى أدلة ذلك من الكتاب والسنة والعق والفطرة. وتقرير توحيد العبادة وعبودية الله ومحبته وحده والإنابة إليه، ودفع ما يعارض هذه الأصول، والرد على المبتدعين المعارضين، وذم الغافلين المعرضين، ومدح أهل السن القائمين بهذه الأصول علمًا وعملًا وحالًا ودعوة، وبيان ما لهم عند ربهم من الكرام بتفصيل أصناف النعيم.

ولا ريب أن هذه المواضيع الجليلة أصل العلوم كلها وأشرفها وأفرضها وأفضله وأنفعها.

❁ ❁ ❁

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الحمد[١] لله الذي شهدَت له بربوبيته[٢] جميعُ مخلوقاته[٣]، وأقرَّت له بالعبودية[٤] جميعُ مصنوعاته، وأدَّتْ له الشهادةَ جميعُ الكائنات أنَّه الله الذي لا إله إلا هو بما أودعها من لطيف صنعه وبديع آياته، وسبحان الله[٥] وبحمده عدد خلقه[٦] ورضاء نفسه[٧] وزنة عرشه[٨] ومداد كلماته[٩]، ولا إله إلا الله الأحد الصمد[١٠] الذي لا شريك له في ربوبيته ولا

---

(١) الحمد لغة: هو: الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل وعرفًا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم على الحامد وغيره. توضيح المقاصد (١/ ١٦) انظر «شرح البيقونية» لابن عثيمين (ص ١٤، ١٥).

(٢) توحيد الربوبية: هو إفراد الله تعالى بالخلق، والملك، والتدبير. فتاوى العقيدة (١/ ١٨).

(٣) المخلوق هو المصنوع ومعنى شهادة المخلوقات بربوبيته سبحانه أن العقل الصريح يقطع بأن المخلوق لا بد له من خالق والمصنوع لا بد له من صانع والحادث لا بد له من محدث لاستحالة حدوث الحادث بنفسه. توضيح المقاصد (١/ ١٧).

(٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩): (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

(٥) سبحان اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه. توضيح المقاصد (١/ ١٨).

(٦) أي قدر عدد خلقه. تحفة الأحوذي (٩/ ٣٨١).

(٧) أي أسبحه قدر ما يرضاه. تحفة الأحوذي (٩/ ٣٨١).

(٨) أي أسبحه بمقدار وزن عرشه ولا يعلم وزنه إلا الله تبارك وتعالى. تحفة الأحوذي (٩/ ٣٨١).

(٩) أي مثل عددها. انظر النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٠٧)، والحديث بتمامه رواه مسلم (٢٧٢٦) ابن عباس عن جويرية أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال ما زلت على الحال التي فارقتك عليها قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدَك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته».

(١٠) قيل: إن الصمد: هو الكامل، في علمه، في قدرته، في حكمته، في عزته، في سؤدده، في كل صفاته. وقيل: الصمد: الذي لا جوف له، يعني لا أمعاء ولا بطن، ولهذا قيل: الملائكة صمد، لأنهم ليس لهم أجواف، لا يأكلون ولا يشربون. هذا المعنى روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ولا ينافي المعنى الأول، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه، وقيل: الصمد بمعنى المفعول، أي: المصمود إليه، أي الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، بمعنى: تميل إليه وتنتهي إليه وترفع إليه حوائجها، فهو بمعنى الذي يحتاج إليه كل أحد، هذه الأقاويل لا ينافي بعضها بعضًا فيما يتعلق بالله عز وجل، ولهذا نقول: إن المعاني كلها ثابتة، لعدم المنافاة فيما بينها، ونفسره بتفسير جامع فنقول: الصمد: هو الكامل في صفاته

شبيه له في أفعاله، ولا في صفاته، ولا في ذاته).

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه ثلاثة أشياء لا شبيه لله تعالى فيها، وهي: أفعاله، وصفاته، وذاته؛ فمثلًا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فعل، لكن هل يشبه استواؤُه استواءَنا نحن على السرير وعلى البعير؟ لا، وهل معنى قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إلى السَّماء الدنيا»[(١)]، يشبهه نزولنا نحن إلى الأرض من السطح ؟ لا، هذا الفعل.

أما الصفات: العلم، والسمع، والقدرة، والعزة، أيضًا لا تشبهه صفاتنا نحن، نحن عندنا علمٌ، وقدرة، وسمع، وبصر، وعزة، وحكمة، لكن لا تشبه ما لله تعالى من ذلك.

ثالثًا: ولا في ذاته، فذوات المخلوقين لا تشبه ذات الخالق عز وجل.

واعلم أنَّ كلمة ذات تُطلق على عين الشيء، لكن هذا الإطلاق هل هو لغوي أو مُحدَث؟ بعضهم قال: إنه مُحدَث، وأنَّها في اللغة لا تُطلق على ذات الشيء، وإنما تُطلق على الجهة، وعلى الحال، وأن تكون بمعنى صاحبة، فتقول مثلًا: هذه امرأةٌ ذات مال؛ أي: صاحبة مال، وقال الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]؛ أي: الحال التي بينكم أصلحوها، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنَّ إِبْرَاهِيمَ كَذَبَ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ كُلُّهُنَّ فِي ذَاتِ الله»[(٢)]؛ أي: في جانبه وجهته، وقال خُبَيْبٌ: وذلك في ذات الإله[(٣)]؛ أي: في جانبه وجهته.

الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فهي صامدة إليه، وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم في كلمة الصمد: أنه مستغن عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه. فتاوى العقيدة (٨/ ١٣٠).

(١) روى البخاري (١١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له».

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤٥)، وفيه قصة خبيب رضي الله عنه كاملة.

لكن استُعمِلت استعمالًا شائعًا عند العلماء حتى صارت حقيقةً عُرفيَّة، استُعمِلَت في مُقابِل الصفة، فاستعملوها بمعنى: نفس الشيء، وعين الشيء، كما تقول العرب: هذا زيدٌ عينُه، وهذا زيدٌ نفسُه، يقولون: هذا زيدٌ ذاتُه، وصار الآن استعمالًا شائعًا لا يُنكَر.

ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في صفاته وذاته).

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والله أكبر عدد ما أحاط به علمه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه من جميع برياته[1]، ولا حول ولا قوة الا بالله[2] تفويض[3] عبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل هو بالله وإلى الله في مبادئ أمره ونهاياته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ولا والد له، ولا كفؤ له الذي هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه أحد من جميع بريَّاته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته من بريته، وسفيره بينه وبين عباده وحجته على خلقه، أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة[4] بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله على حين فترة من الرسل[5] وطموس من السبل، ودروس من الكتب، والكفر قد اضطرمت[6] ناره

---

(١) أي مخلوقاته.

(٢) أي لا تحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله. وقيل لا حول عن معصية الله إلا بمعونة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله والمعنى الأول أجمع وأشمل. توضيح المقاصد (١/ ١٨).

(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٤٤].
أي: أتوكل على الله وأستيعنه. «ابن كثير» (١٢/ ١٩٣ ـ ط. أولاد الشيخ) وأصل التفويض هو رد الأمر لله وجعله الحاكم والقاضي فيه.

(٤) (ذلك لأن وجوده الشريف العلامة الأولى للساعة فبعدها علامات أخر وليس بينه وبين الساعة أمة سوى أمته فإذا هلكت أمته قامت القيامة). شرح سنن ابن ماجه (١/ ٦).

(٥) قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩]، والفترة: المدة تقع بين نبيين. «المعجم الوسيط» (٢/ ٦٧٢).

(٦) أي هاجت واشتدت. المعجم الوسيط (١/ ٥٣٩).

تطايرت في الآفاق شراره، وقد استوجب أهل الأرض أن يحل بهم العقاب، وقد نظر الجبار تبارك وتعالى إليهم فمقتهم[(١)]، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب[(٢)].

وقد استند كل قوم إلى ظلم آرائهم وحكموا على الله سبحانه وتعالى بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم، وليل الكفر مدلهم ظلامه[(٣)]، شديد قتامه[(٤)]، وسبل الحق عافية آثارها مطموسة أعلامها، ففلق الله سبحانه بمحمد ﷺ صبح الإيمان، فأضاء حتى ملأ الآفاق نورًا، وأطلع به شمس الرسالة في حنادس[(٥)] الظلم سراجًا منيرًا، فهدى الله به من الضلالة، وعَلَّمَ به مِنَ الجهالة، وبَصَّر به من العمى وأرشد به من الغيّ، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة[(٦)]، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غُلفًا[(٧)]، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمّة وجاهد في الله حق جهاده وَعَبَدَ الله حتى أتاه اليقينُ من ربه وشرح الله له صدره، ورفع له ذكره ووضع عنه وزره[(٨)]، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره[(٩)]، وأقسم بحياته في كتابه المبين[(١٠)]، وقرن اسمه

---

(١) المقت: أشد البغض، والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل. شرح النووى على مسلم (١٧/ ١٩٧).

(٢) وهذا معنى حديث جاء فيه: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»، الحديث بتمامه رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أى شديد الظلام.

(٤) القتام: هو الغبار الأسود، يقال: ارتفع القتام حتى خفيت الأعلام. المعجم الوسيط (٢/ ٧١٥).

(٥) الحندس: الظلمة و الليل الشديد الظلمة و أسود حندس شديد السواد والجمع حنادس و الحنادس ثلاث ليال في آخر الشهر. المعجم الوسيط (١/ ٢٠٢).

(٦) الفقر والحاجة لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

(٧) يقال غلف قلبه لم يع الرشد كأن على قلبه غلافا فهو أغلف وهي غلفاء ج غلف وفي التنزيل العزيز ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾. المعجم الوسيط (٢/ ٦٥٩).

(٨) يشير رحمه الله إلى سورة الانشراح، وما جاء فيها من هذه المعاني؛ وفي تفسير سورة الانشراح قال المفسرون: «لا أذكر إلا ذكرت».

(٩) صحيح: رواه البيهقى في شعب الإيمان (٢/ ٧)، وصححه الألبانى رحمه الله في تخريج مشكلة الفقر (٢٤) والحديث في «المسند» أيضا (٤/ ٢٩) من حديث عبد الله بن عمر؛ وأوله: «بعثت بالسيف» وفيه معنى ما جاء من كلام ابن القيم.

(١٠) مثل قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

باسمه (١) فإذا ذُكِر ذكِر معه كما في الخطب والتشهد والتأذين).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قَرَنَ اسمَه باسمه) ليس دائمًا، بل في بعض الأحيان، ولهذا كرِه العلماء أن يقول الإنسان عند الذبح: بسم الله، وصلى الله على محمد؛ لأنَّ المقام مقام إخلاصٍ وعبادة، إنما في بعض الأشياء قَرَنَ الله تعالى اسمَ رسوله باسمه سبحانه وتعالى.

وقوله: (فلا يصح لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان ولا صلاة حتى يشهد أنه عَبْدُه ورسُولُه شهادة اليقين، وصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع خلقه عليه(٢)، كما عرفنا بالله وهدانا إليه، وسلم تسليمًا كثيرًا).

من نعمة الله على العبد أن يكون قلمه سيَّالًا، ويكون كلامُه منتظمًا ومتآلفًا؛ لأنَّ بعض الناس لو أراد أن يُصلح الخطبة ممكن أن يقعد شهرًا ما صلَّحها إن صلَّحها، وبعض الناس يمُنُّ الله عليه فيكون عنده انطلاق في القول والكتابة، وبعض الناس تجِده قويًّا في كتابته عيِيًّا(٣) في خطابه، وبعض الناس بالعكس.

حدَّثني شيخنا محمد بن عبد الله المُطوّع رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنني سمعتُ السيد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ — صاحب المنار — وهو يتكلم في المسجد الحرام، لكنَّه يقول: إنَّ كلامه رديء في خطابه، مع أنَّ كتاباته من أعلى أنواع الكتابات، ولكن الله يؤتي نعمه من يشاء، الناس يختلفون.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(كشَفَ الغُمَّة) معناها: غُمَّة الدين، ليس هذا الغم الذي يُصيب الإنسان؛ الغُمَّة التي

---

(١) قال حسان رضي الله عنه:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

ديوان حسان بن ثابت (١/ ٤٨).

(٢) الصلاة من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم التضرع والدعاء بخير، هذا هوالمشهور والجاري على ألسنة الجمهور. «توضيح المقاصد» (١/ ٢٠).

(٣) فلان كان عييًّا بطيء الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه. «المعجم الوسيط» (/ ٨٣٣).

غطَّاها أهلُ الكتاب على الدين، وقالوا: ﴿ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ (١) [المائدة: ٧٣] وما أشبه ذلك، الرسول ﷺ كشفها وبيَّنَها.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أما بعد(٢): فإن الله جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبدًا بمعرفته ويجمع قلبه على محبته شَرَحَ صدره لقبول صفاته العلى(٣) وتلقيها من مشكاة الوحي(٤)، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول وتلقاه بالرضا والتسليم وأذعن له بالانقياد فاستنار به قلبه واتسع له صدره وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى تعرف به إليه على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء، أعظم ما كان إليه فاقة(٥) ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحُه، وعظُم بها غناؤه، وقويَت بها معرفتُه، واطمأنَّت إليها نفسُه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام(٦) عين بصيرته في رياضها وبساتينها).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا لا شكَّ فيه؛ أنَّ الله عز وجل إذا أراد أن يُكرِم عبده شرح الله صدرَه لقَبول ما

---

(١) وهم النصارى الذين يقولون: إن الله ثالث أقانيم ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(٢) «أما بعد»: قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]: فصل الخطاب: «أما بعد» ، وداود عليه السلام أول من قال: «أما بعد، وقال أبو العباس: معنى «أما بعد» أما بعد ما معنى من الكلام فهو كذا وكذا. «لسان العرب» (١/ ٣٦١- باب: خطب).

(٣) لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ...﴾ الآية.
وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وأيضًا بالضد يُتبين الضد، فقال تعالى في شأن الكافرين: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

(٤) القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

(٥) وفي الحديث: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تمد فاقته..» الحديث.

(٦) (مراد المصنف رحمه الله: أن هذا الناظر أرعى عين بصيرته في هذه الرياض والبساتين حتى استفاد منها واقتبس معرفة وعلما). الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص (٨).

وصف الله به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فتلقَّاها بالتسليم والفرح والسرور، وازداد إيمانًا بالله عز وجل وتعظيمًا له؛ لأنَّه كلما ازدادت معرفة الإنسان بالله في صفاته وآياته لا شكَّ أنه يزداد محبةً وتعظيمًا لربه، عكس أهل الباطل - والعياذ بالله - الذين إذا جاءتهم مثل هذه الصفات ذهبوا يمينًا وشمالًا للتعطيل والتحريف حتى يبقوا وهم على شكٍّ فيما وصف الله به نفسه، وفرقٌ كبير بين هذا وهذا.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذه المقدمة كاستهلالٍ لما يُريد أن يبدأ به، وهذه تُسمَّى عند أهل البلاغة: براعة الاستهلال، أن يأتي الإنسان بمقدمة تُشير إلى موضوع البحث، كما أنَّ هناك براعة اختتام أن يأتي بكلامٍ بما يُشعِر أنَّه سوف يختتم، لما كانت هذه القصيدة في الصفات بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه المقدمة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى [1] عنده).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

إذًا هاتان قاعدتان مُفيدتان:

العلم يشرُف بشرف المعلوم، ومعلومٌ أنَّ أشرف شيءٍ وأعلى شيءٍ هو معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ولهذا كان علم التوحيد هو الفقه الأكبر، يُسمِّيه العلماء الفقه الأكبر [2]، علم معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته هو الفقه الأكبر، أما علم أحكامه المتعلقة بأفعال عباده

(١) القربى والمنزلة. «المعجم الوسيط» (١/ ٣٩٨) وفي هذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

(٢) يقال: إن الإمام أباحنيفة رحمه الله تعالى هو أول من سماه بهذا الاسم.

فهو فقهٌ أصغر بالنسبة إلى هذا الفقه.

يشرُف العلم أيضًا بشرفٍ آخر؛ وهي: حاجة الناس إليه، فكلما احتاج الناس إلى العلم كان طلبه أشرف من طلب غيره؛ لأنَّ العلم الذي لا يُحتاج إليه مضيعة، تتعلَّم شيئًا لا يحتاج الناس إليه، هذا ضياع وقت، ولا شرف في هذا العلم.

المؤلف الآن أفادنا رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّ العلم يشرُف بأمرَين: شرف المعلوم، وحاجة الناس إليه.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا، وعنها نافرًا منفرًا، فالله له أشد بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا(١)، حتى تعود القلوب إلى قلبين:

قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ونعيمه وقرة عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك(٢)، فلسان حاله يقول:

يُــرادُ مِـن الْقَلْـبِ نَسِيانُكُـم ... وَتَأْبَى الطِّبَـاعُ عَلَـى النَّاقِـلِ(٣)

ويقول:

وَإِذَا تَقَاضَيْتُ الفُــؤادَ تَنَاسِيَــا ... أَلْفَيْتُ أَحْشَائِي بِذَاكَ شِحَاحَا(٤)

---

(١) لقاعدة: (الجزاء من جنس العمل)، وهي قاعدة عليها أدلة كثيرة.
منها: قوله تعالى في الحديث القدسي: «من تقرَّب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا» الحديث، وهو في «الصحيح» (ح ٦٥٠٢) (كتاب الرقاق).
ومنها: في «الصحيح» أيضًا: «أما أحدهم فآوى فأواه الله إليه، وأما الثاني فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه».

(٢) وفي الحديث: «لا ومقلبِ القلوب» وكان هذا أكثر ما يدعو به النبي ﷺ. «البخاري» (٦٦١٧).

(٣) هذا البيت للمتنبى، انظر محاضرات الأدباء (٢/ ١١١)، وقال الواحدى في شرحه على ديوان المتنبى: (العاذل يريد من قلبي أن ينساكم ويسلو عنكم وأنا مطبوع على حبكم فكيف انتقل عن شيء طبعت عليه والطبع لا يقبل النقل وإن نقل إلى شيء آخر لم يصبر عليه).

(٤) هذا البيت لابن الفارض. انظر ديوانه (١/ ١١٦)، ويقصد الشاعر أن وفائه لمحبوبه جعل قلبه يأبى

ويقول:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُم ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِس [1]

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته نافر عن سماعها معرض بكليّته عنها زاعم أن السلامة في ذلك [2].

هذه مُشكِلة تقع لبعض الناس يقول: لا فائدة من البحث في أسماء الله وصفاته، اتركونا من هذا البحث، هذا شيءٌ فرَغَ الناس منه.

وفي الحقيقة لا يقول ذلك إلا إنسانٌ - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ -: على خطرٍ عظيم؛ لأنَّ معرفة أسماء الله وصفاته هي قُوتُ القلب وروحه، ولا يمكن للإنسان أن يحبَّ الله غاية المحبة، ويُعظِّمَه غاية التعظيم إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، وقد حثَّ النبي ﷺ على ذلك حتى قال: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» [3]، وهذا عِوَضٌ عظيم، الجنة ليست بالأمر الهيِّنِ، ما تكون إلا لشيءٍ هو أعظم الأشياء، ثم إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام ما عيَّنَ هذه الأسماء، لو عيَّنَها لنا لسقط عنا كثيرٌ من المؤونة ولم نتعب في تفصيلها، ولكن جعل ذلك للبحث والنظر واستخلاصها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حتى يُعرَف مَن هو حريصٌ عليها مما ليس بحريص.

ونظيرُ هذا: إخفاء ليلة القدر، ولو شاء الله عز وجل لبيَّنَها لعباده بعينها، ولكنَّه سبحانه وتعالى أراد من عباده أن يعلم من هو حريص ممن ليس بحريص، هذا من وجه.

من وجهٍ آخر: لأجل أن يكثُر ثوابهم في الأعمال في جميع الليالي العشر، كذلك أيضًا في

نسيانه حتى لو أراد هو ذلك.

(١) هذا البيت لعمر بن محمد البكري اليافي، مولده بيافا، في فلسطين. أقام مدة في غزة، وتوفي بدمشق سنة (١٢٣٣هـ)، المقصود: دواؤنا في ذكركم، وداؤنا في الغفلة عنكم، فذكركم حياة لقلوبنا.

(٢) في ذلك إشارة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فيستحيل أن يكون من هذا حاله ذاكرًا لله - عز وجل - وهو مشمئز من كثير من أسمائه وصفاته التي سمَّى الله نفسه بها، ووصف نفسه بها، ووصفه بها رسوله ﷺ، بشبهات وتعريفات تسوغ له هذا الاشمئزاز وهذا النفي - كما سيأتي.

(٣) رواه البخاري (٦٤١٠، ٧٣٩٢)، وانظر تمام تخريجه في «القواعد المثلى» لابن عثيمين - بتخرجنا له - طبعة نزار - ومسلم (٢٦٧٧).

ساعة الإجابة في ليلةٍ من الليالي؛ لأن في السنة ليلة فيها ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ يدعو الله إلا أعطاه إياها، هذا بقطع النظر عن الذي يكون وقت النزول الإلهي، كذلك ساعة الجمعة، ما بيَّنها، لكن أرجاها مُبيَّنة.

هكذا أيضًا بالنسبة لأسماء الله عز وجل، يقول بعض الناس: دعونا من الأسماء، دعونا من الصفات، هذا شيءٌ انقضى، وما يوجد جهمية ولا معتزلة.

هذا ليس بصحيح؛ فيه الآن جهمية، وفيه معتزلة، وفيه أشعرية، وفيه ماتريدية (١)، كل هذا موجود، وأيضًا وإن لم يكن ذلك موجودًا؛ فلماذا نترك البحث في أسماء الله وصفاته ؟ حتى نكون جاهلين!!!

أيضًا البحث مع الجهمية والمعتزلة مُفيدٌ في البحث مع الشيوعيين (٢) والمُلحدين (٣)

---

(١) الماتريدية أصحاب أبي منصور الماتريدى ، ومصدر التلقى الأول عند الماتريدية هو العقل وجعلوا النقل فرعًا، ولكنهم أبقوا نصوص المعاد على ظواهرها، وكذلك بنوا مذهبهم في الأسماء والصفات على التأويل والتفويض. معجم ألفاظ العقيدة (ص ٣٥٣).

(٢) الشيوعية حركة فكرية اقتصادية يهودية إباحية وضعها كارل ماركس، تقوم على الإلحاد وإلغاء الملكية الفردية وإلغاء التوارث وإشراك الناس كلهم في الإنتاج على حد سواء، ومن مبادئها: إن المادة هى أصل الحياة وليس لها خالق ولا مبدع ولا متصرف فهى بهذا المبدأ تحارب جميع الأديان، وكذلك محاربتها للرأسمالية ومحاربة الحشمة والفضيلة والتماسك الاجتماعى والبناء الأسرى. معجم ألفاظ العقيدة (ص ٢٣٥) وسيأتي المزيد من التعريفات لبعض هذه الفرق من كلام هراس في أصل الشرح.

(٣)الإلحاد في اللغة: هو الميل، ومنه قول الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ومنه اللحد في القبر فإنه سمي لحدا لميله إلى جانب منه، ولا يعرف الإلحاد إلا بمعرفة الاستقامة، لأنه كما قيل: بضدها تتبين الأشياء. فالاستقامة في باب أسماء الله وصفاته أن نجري هذه الأسماء والصفات على حقيقتها اللائقة بالله عز وجل من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، على القاعدة التي يمشي عليها أهل السنة والجماعة في هذا الباب، فإذا عرفنا الاستقامة في هذا الباب فإن خلاف الاستقامة هو الإلحاد، وقد ذكر أهل العلم للإلحاد في أسماء الله تعالى أنواعا يجمعها أن نقول: هو الميل بها عما يجب اعتقاده فيها. وهو على أنواع:

النوع الأول: إنكار شيء من الأسماء، أو ما دلت عليه من الصفات، ومثاله: من ينكر أن اسم الرحمن من أسماء الله تعالى كما فعل أهل الجاهلية، أو يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات كما يقول: بعض المبتدعة: أن الله تعالى رحيم بلا رحمة، وسميع بلا سمع، النوع الثاني: أن يسمي الله – سبحانه وتعالى – بما لم يسم به نفسه. ووجه كونه إلحادا أن أسماء الله سبحانه وتعالى توقيفية، فلا يحل لأحد أن يسمي الله تعالى باسم لم يسم به نفسه؛ لأن هذا من القول على الله بلا علم ومن العدوان في حق الله عز وجل وذلك كما صنع

والزنادقة(١) لأن هناك مقدِّمات مذكورة في مناظرة هؤلاء تفيد طالب العلم في مناظرة الشيوعيين والزنادقة والملحدين.

وعلى كل حال؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المقدمة لا ينبغي لنا أن ندَعَ البحث في أسماء الله وصفاته؛ بل إننا ينبغي أن نبحث، ولكن لا على سبيل أهل التحريف، ولكن على سبيل السلف وأئمة الأمة، نتلقاها بالقبول والتسليم مع اعتقادنا أن كل ما وصف الله به نفسه فإنه لا يُشبه شيئًا من أوصاف المخلوقين أبدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(كلا والله إن هو إلا الجهالة والخذلان(٢)، والإعراض عن العزيز الرحيم، فليس القلب

الفلاسفة فسموا الإله بالعلة الفاعلة، وكما صنع النصارى فسموا الله تعالى باسم الأب ونحو ذلك، النوع الثالث: أن يعتقد أن هذه الأسماء دالة على أوصاف المخلوقين، فيجعلها دالة على التمثيل، ووجه كونه إلحادا: أن من اعتقد أن أسماء الله سبحانه وتعالى دالة على تمثيل الله بخلقه فقد أخرجها عن مدلولها ومال بها عن الاستقامة، وجعل كلام الله وكلام رسوله ﷺ دالا على الكفر؛ لأن تمثيل الله بخلقه كفر لكونه تكذيبا لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ولقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٣٥]. قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمهما الله: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه»، النوع الرابع: أن يشتق من أسماء الله - تعالى - أسماء للأصنام، كاشتقاق اللات من الآلهة، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، ووجه كونه إلحادا: أن أسماء الله تعالى خاصة به، فلا يجوز أن تنقل المعاني الدالة عليها هذه الأسماء إلى أحد من المخلوقين ليعطى من العبادة ما لا يستحقه إلا الله عز وجل. هذه أنواع الإلحاد في أسماء الله تعالى.
«فتاوى العقيدة» (١/ ١٥٦ و ١٥٧).

(١) الزندقة كما في القاموس المحيط هى من الوثنية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر و يظهر الإيمان. معجم ألفاظ العقيدة (٢٠٧).

(٢) والخذلان: ترك النصرة والعون، قال تعالى عن إبليس وشأنه دائمًا مع الإنسان: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].
وذلك: بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء ـ «كلمات القرآن إيضاح وتبين من الجلالين» (لأبي عائش ـ ط. أولاد الشيخ).

الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك وكفى بالعبد عمى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق(١) الإعراض عنها والنفرة(٢) والتنفير والاشتغال بما لو كان حقًّا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والإيمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، قد قمش(٣) شبهًا من الكلام الباطل وارتوى من ماء آجن(٤) غير طائل تعج(٥) منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا بما يسومها تحريفًا(٦) وتعطيلًا(٧) ويؤول(٨) معانيها تغييرًا وتبديلًا، وقد أعد لدفعها أنواعًا من العدد وهيأ لردها ضروبًا من القوانين وإذا دعي إلى تحكيمها أبى واستكبر وقال: تلك أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، قد أعد التأويل جنة(٩)

---

(١) السرادق كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب والفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما. «المعجم الوسيط» (١/ ٤٢٦) وفي سورة الكهف: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] أي: ما أحاط بها.

(٢) التفرق، انظر «لسان العرب» (٥/ ٢٢٤) «كلمات القرآن» (ص: ٢١٠).

(٣) القمش: الرديء من كل شيء والجمع قماش ونظيرها عرق وعراق، لسان العرب (٦/ ٣٣٨).

(٤) الماء الآجن هو الذى تغير طعمه ولونه ورائحته. انظر «المعجم الوسيط» (١/ ٧).

(٥) العجُّ: رفع الصوت بالذكر، قال طيي في السنن: «خيرُ الحجِّ: العجُّ والثجُّ»، والثج: إراقة الدماء بالنحر.

(٦) (التحريف لغة: التغيير، واصطلاحًا: تغيير لفظ النص أو معناه، مثال تغيير اللفظ: تغيير قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] من رفع الجلالة إلى نصبها ليكون التكليم من موسى لا من الله، ومثال تغيير المعنى: تغيير معنى استواء الله على عرشه من العلو والاستقرار إلى الاستيلاء والملك لينتفي عنه معنى الاستواء الحقيقي). فتاوى العقيدة (٤/ ٢٦١).

(٧) التعطيل لغة: الترك والتخلية، واصطلاحًا: إنكار ما يجب لله من الأسماء والصفات، إما كليًا كتعطيل الجهمية، وإما جزئيًا كتعطيل الأشعرية الذين لم يثبتوا من صفات الله إلا سبع صفات. مجموعة في قوله: حي عليم قدير والكلام له... إرادة وكذاك السمع والبصر. «فتاوى العقيدة» (٤/ ٢٦١).

(٨) (ينبغي أن نعلم أن التأويل عند أهل السنة ليس مذموما كله، بل المذموم منه ما لم يدل عليه دليل، وما دل عليه الدليل يسمى تفسيرًا، سواء كان الدليل متصلًا بالنص، أو منفصلًا عنه، فصرف الدليل عن ظاهره ليس مذمومًا على الإطلاق). فتاوى العقيدة (١/ ١٦٨).

(٩) والجُنَّة: هي من الوقاية، لقوله ﷺ في «الصحيح»: «الصوم جُنة». وأصلها: ما وراك من السلاح واستترت به منه. «اللسان» (١٣/ ٩٤- مادة: جنن).

يتترس[١] بها من مواقع سهام السنة والقرآن وجعل إثبات صفات ذي الجلال تجسيمًا[٢] وتشبيهًا[٣] يصد به القلوب عن طريق العلم والإيمان، مزجى البضاعة[٤] من العلم النافع الموروث عن خاتم الرسل والأنبياء ولكنه مليء بالشكوك والشبه، والجدال والمراء، خلع عليه كلام الباطل خلعة الجهل والتجهيل، فهو يتعثر بأذيال التفكير لأهل الحديث، والتبديع لهم والتضليل، قد طاف على أبواب الآراء والمذاهب يتكفف[٥] أربابها[٦] فانثنى[٧] بأخسر المواهب[٨] والمطالب، عدل عن الأبواب العالية الكفيلة بنهاية المراد وغاية الإحسان، فابتلي بالوقوف على الأبواب السافلة الملآنة بالخيبة والحرمان، وقد لبس جُبَّة منسوجة من الجهل والتقليد والشبهة والعناد، فإذا بذلت له النصيحة ودعي إلى الحق

---

(١) أي يحتمي بها.

(٢) (هذه الكلمة كلمة «التجسيم» لو قرأت القرآن من أوله إلى آخره، ومررت على ما جاء عن النبي ﷺ من السنة من أولها إلى آخرها، لم تجد لفظ «الجسم» مثبتا لله ولا منفيا عنه في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، فما بالنا نتعب أذهاننا وأفكارنا، ونظهر ذلك بمظهر سوء بالنسبة لمن أثبت لله صفات الكمال على الوجه الذي أراد الله، وإذا كانت كلمة « الجسم » غير واردة في الكتاب، ولا في السنة، فإن أهل السنة والجماعة يمشون فيها على طريقتهم، يقفون فيها موقف الساكت فيقولون: لا نثبت الجسم ولا ننكره من حيث اللفظ، ولكننا قد نستفصل في المعنى فنقول للقائل: ماذا تريد بالجسم؟ إن أردت الذات الحقيقية المتصفة بالصفات الكاملة اللائقة بها، فإن الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال حيا عليما قادرا متصفا بصفات الكمال اللائقة به، وإن أردت شيئا آخر كجسمية الإنسان التي يفتقر كل جزء من البدن إلى الجزء الآخر منه، ويحتاج إلى ما يمده حتى يبقى فهذا معنى لا يليق بالله عز وجل، وبهذا نكون أعطينا المعنى حقه.
أما اللفظ: فلا يجوز لنا أبدا أن نثبته أو ننفيه، ولكننا نتوقف فيه؛ لأننا إن أثبتنا قيل لنا: ما الدليل؟ وإن نفينا قيل لنا: ما الدليل؟ وعلى هذا فيجب السكوت من حيث اللفظ، أما من حيث المعنى فعلى التفصيل الذي بيناه.

(٣) التجسيم هو القول بأن الله جسم من الأجسام، وهو والتشبيه شيء واحد على قول كثير من أهل العلم. «الكافية الشافية» ص (١٤).

(٤) قال في «القاموس» وبضاعة مزجاة أي قليلة من العلم النافع الموروث عن خاتم الرسل والأنبياء لكنه مليء بالشكوك والشبه والجدال والمراء. توضيح المقاصد (١/ ٢٥).

(٥) يتكفف الناس ويتكففون الناس أي يسألونهم أن يعطوهم في أكفهم. مشارق الأنوار (/ ٣٤٦) ومنه قوله ﷺ: «خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس».

(٦) أصحابها.

(٧) «انثنى» أي: رجع وانعطف القاموس مادة [ث ن ي] ص ١١٤١ ط. دار الفكر.

(٨) المواهب: جمع الموهبة وهي العطية . «القاموس ص ١٣١».

أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد[(١)].

فما أعظم المصيبة بهذا وأمثاله على الإيمان، وما أشد الجناية به على السنة والقرآن، وما أحب جهاده بالقلب واليد واللسان إلى الرحمن، وما أثقل أجر ذلك الجهاد في الميزان، والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان ولهذا أمر الله به في السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارًا وتعذيرًا، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين في المقام والمسير، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق، «ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[(٢)]، وكفى بالعبد عمىً وخذلانًا أن يرى عساكر الإيمان وجنود السنة والقرآن وقد لبسوا للحرب لأمَتَه[(٣)]، وأعدوا له عدته، وأخذوا مصافَّهم ووقفوا مواقفهم، وقد حمي الوطيس[(٤)] ودارت رحى الحرب واشتد القتال وتنادت الأقران النزالَ النزالَ[(٥)]، وهو في الملجأ[(٦)] والمغارات[(٧)]، والمُدَّخل[(٨)] مع الخوالف[(٩)] كمين[(١٠)] وإذا ساعد القدر وعزم على

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦].

(٢) رواه مسلم (١٩١٠) وغيره وتمام تخريجه في «رياض الصالحين» (ح١٣٤٤) بتخريجنا ط. نزار و«الشعبة»: الخصلة.

(٣) اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع والجمع: لأم ولؤم. «المعجم الوسيط» (٢/ ٨١١) وقد ورد ذكر اللأمة بمعنى السلاح في صحيح البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

(٤) أي اشتدت الحرب. المعجم الوسيط (١/ ٢٠٠).

(٥) «النِّزال» بالكسر: أي ينزل الفريقان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربوا وقد تنازلوا. «القاموس المحيط» (ص ٩٥٧). مادة (نزل).

(٦) ملجأ: يلجأون إليه.

(٧) مغارات: سراديب.

(٨) مُدَّخلًا: موضعًا يدخلونه وذلك كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التوبة: ٥٧]. «كلمات القرآن» لأبي عائش (ص ١٣٢ ـ ط. أولاد الشيخ).

(٩) جمع «خالفة»، أي: النساء اللائي تخلفن في البيوت. «كلمات القرآن» (ص ١٣٦). تهذيب اللغة (١/ ١٧٤).

(١٠) «الكمين» كـ«أمين»: القوم يَكْشُفون في الحرب، والداخل في الأمر لا يُفطن له. «القاموس المحيط» (ص ١١٠٦).

الخروج قعد فوق التل مع الناظرين، ينظر لمن الدائرة ليكون إليهم من المتحيزين، ثم يأتيهم وهو يقسم بالله جهد أيمانه إني معكم وكنت أتمنى أن تكونوا أنتم الغالبين)[1].

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله:

كلام المؤلف هنا من قوله: (القلب الثاني) كله ينصبُّ على أهل التعطيل من المعتزلة[2] والجهمية[3] والأشعرية[4] وغيرهم، وكلٌّ منهم يناله من هذه الأوصاف بقدر تعطيله جزاءً وفاقًا، المُعطِّل تعطيلًا محضًا يستحق جميع هذه الأوصاف، والمُعطِّل تعطيلًا دون ذلك يستحق ما يستحق من هذه الأوصاف.

ولا شكَّ أنَّ هذا جناية على النصوص، وعلى رب العالمين أن يُحرَّف كتابُه وكلامُ رسوله ﷺ إلى معانٍ لم يوجِدها الله ورسوله، لمجرد اتباع الهوى للمجتهدين منهم، والتقليد الأعمى للمُقلِّدين منهم، والمؤلف رحمه الله لا تقول إنه قد بالغ وأسرف؛ لأنه قد عاصرهم

(١) وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

(٢) المعتزلة: أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وقرر أن الفاسق في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر، وهو مخلد في النار، وتابعه في ذلك عمرو بن عبيد، ومذهبهم في الصفات التعطيل كالجهمية، وفي القدر قدرية ينكرون تعلق قضاء الله وقدره بأفعال العبد، وفي فاعل الكبيرة أنه مخلد في النار وخارج من الإيمان في منزلة بين منزلتين الإيمان والكفر، وهم عكس الجهمية في هذين الأصلين. فتاوى العقيدة (٥/ ٩٢).

(٣) الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قتله سالم أو سلم بن أحوز سنة ١٢١هـ، مذهبهم في الصفات التعطيل، والنفي، وفي القدر القول بالجبر، وفي الإيمان القول بالإرجاء وهو أن الإيمان مجرد الإقرار بالقلب وليس القول والعمل من الإيمان ففاعل الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان فهم معطلة، جبرية، مرجئة وهم فرق كثيرة. فتاوى العقيدة (٥/ ٩١).

(٤) فرقة كلامية تنسب إلى أبي الحسن الأشعري، وكان أبو الحسن في أول أمره معتزليًّا، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة، توفي سنة ٣٢٤هـ. راجع دائرة معارف القرن العشرين (٥/ ٤٠٠).

وناظرهم وأتعبوه وأتعبهم، فليس عندنا الآن من يُجادلنا في هذا أو يُناظِرُنا فيه شيخه رَحِمَهُ اللَّهُ صار لهم مجالات عظيمة مع هؤلاء المُعطِّلة المبتدعة، فكانوا يستحقون أن يوصفوا بهذه الأوصاف؛ لأنهم في الحقيقة قد أتعبوه، ولكن الحمد لله بما أعطاهم الله عز وجل من العلم والإيمان والعقل والفهم، استطاعوا أن يسيطروا على الموقف، وأن يجعلوا أولئك تحت أقدامهم، كما كان أهل السنة في الأوَّل تحت أقدام أولئك، كما سيشير إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه القصيدة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فحقيق[1] بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يبيعها[2] بأبخس الأثمان، وأن لا يعرضها غدًا بين يدي الله ورسوله لمواقف الخزي والهوان).

الشَّـرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما قوله: (بين يدي الله) فالأمر ظاهر؛ لأننا سنقف بين يدي الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] سوف تُلاقي ربك، وسوف يحاسبك حسابًا يسيرًا إن كنت ممن أوتي كتابه بيمينه.

أما قوله: (ورسوله) أي: بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فهذا يُحمل على أن المعنى: أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيشهد بأنه بلَّغ أمته البلاغ المبين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وإذا شهِدَ أنه بلَّغ البلاغ المبين على أمته، فإن مَن خالف مقتضى هذه الشهادة فهو في خزيٍ وعارٍ، نسأل الله العافية.

❁ ❁ ❁

---

(١) أيْ: جديرٌ. «كلمات القرآن» (ص ١١٢)، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

(٢) وهذا في معنى ما جاء عن الرسول ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وأن يثبت قدميه في صفوف أهل العلم والإيمان، وأن لا يتحيز إلى مقالة سوى ما جاء في السنة والقرآن، فكأن قد كشف الغطاء وانجلى الغبار وأبان عن وجوه أهل السنة مسفرة ضاحكة مستبشرة(١)، وعن وجوه أهل البدعة عليها غبرة(٢) ترهقها(٣) قترة(٤)، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه(٥).

قال ابن عباس: (تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة والضلالة)(٦)، فوالله لمفارقة أهل الأهواء والبدع في هذه الدار أسهل من مرافقتهم إذا قيل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبعده الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم(٧)، وقد قال تعالى:﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، قالوا: فيجعل صاحب الحق مع نظيره في درجته، وصاحب الباطل مع نظيره في درجته، هنالك والله؛ يعض الظالم على يديه إذا حصلت له حقيقة ما كان في هذه الدار عليه، ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) مسفرة: مضيئة . وذلك في تفسير قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. «كلمات القرآن» (ص ٤٤٥).

(٢) «غبرة» : غبار.

(٣) تغشاها «كلمات القرآن» (ص ٤٤٥).

(٤) ظلمة وسوادًا «كلمات القرآن» (٤٤٥)، وذلك في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١].

(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩١) إلى ابن أبي حاتم ، واللالكائي في السنة، وأبي نصر في الإبانة، والخطيب في تاريخه.

(٧) رواه الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٦٧) برقم (٣٦٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

فصل

وكان من قدر الله وقضائه أن جمع مجلس المذاكرة بين مثبت للصفات والعلو وبين معطل لذلك).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه يحتمل أن تكون حقيقة، ويحتمل أن تكون على سبيل التمثيل؛ لأنه يجوز أن يُضرب المثل بمثل هذا، كما كان الله تعالى في القرآن يضرب الأمثال في مثل ذلك ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فاستطعم[١] المعطل المثبت الحديث استطعام غير جائع إليه، ولكن غرضه عرض بضاعته عليه، فقال له: ما تقول في القرآن ومسألة الاستواء؟ فقال المثبت: نقول فيها ما قاله ربنا تبارك وتعالى وما قاله نبينا ﷺ: نصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله[٢] من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه[٣] ولا تمثيل[٤]، بل نثبت له سبحانه ما

---

(١) «استطعم» : أي: طلب الطعام، و«استطعم الحديث» يعني: طلب الحديث، وفي الأثر: «إذا استطعمكم الإمام فأطعموه» . رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢١١: ٢١٣) عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه موقوفًا.

(٢) قال ابن عثيمين في «القواعد المثلى» في القاعدة السابعة (ص ٥٦): «فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته.
قال الإمام أحمد رحمه الله: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث) . [ط. نزار ـ تحقيق: أبي عائش].

(٣) التشبيه: إثبات مشابه له، والتشبيه كالتمثيل، وقد يُفرّق بينهما بأن التمثيل التسوية في كل الصّفات، والتشبيه التسوية في أكثر الصّفات، لكن التعبير بنفي التمثيل أولى لموافقة القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾. فتاوى العقيدة (٣/ ٢٨٩).

(٤) التمثيل: هو اعتقاد المثبت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين، وهذا اعتقاد

أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

فمن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه، أو ما وصفه به رسوله تشبيهًا(١)، فالمشبّه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحِّد يعبد إلهًا واحدًا صمدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والكلام في الصفات كالكلام في الذات، فكما أنا نثبت ذاتًا لا تشبه الذوات، فكذلك نقول في صفاته: إنها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا نشبه صفات الله بصفات المخلوقين، ولا نزيل عنه سبحانه صفة من صفاته لأجل تشنيع المشنعين وتلقيب المفترين(٢)، كما أنا لا نبغض أصحاب رسول الله ﷺ لتسمية الروافض (٣) لنا نواصب(٤)، ولا نكذب بقدر الله ولا نجحد كمال مشيئته وقدرته لتسمية

باطل، بدليل السمع والعقل. فتاوى العقيدة (٣/ ٢٨٨)، و«القواعد المثلى» (ص ٥٢).

(١) وهذا كلام «نعيم بن حماد» شيخ البخاري بنصِّه، أخرجه الذهبي في «العلو» (رقم ٢١٧)، وقال الألباني في «مختصره» (ص ١٨٤): وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات معروفون؛ وانظر «القواعد المثلى» (ص ٧٠ ـ بتحقيقنا، طبعة نزار).

(٢) ومن هذا ما شنَّع به الزمخشري المعتزلي على أهل السنة في هذا الباب بقوله في «كشافه»:

لجماعةٌ سموا هواهـــم سنَّةً ... لجماعةٌ حُمُرٌ لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

أي: اعتبر إثبات أهل السنة للأسماء والصفات المثبتة بالكتاب والسُّنة تشبيهًا، وحين خافوا من إلصاق هذه التهمة بهم تستروا بقولهم: «بلا كيف»، ولقبَّهم لذلك ـ عليه من الله ما يستحق ـ بالحمُر المربوطة.

(٣) الروافض: وهم الذين يغالون في آل البيت ويكفرون من عداهم من الصحابة، أو يفسقونهم، وهم فرق شتى فمنهم الغلاة الذين ادعوا أن عليًّا إله ومنهم دون ذلك، وأول ما ظهرت بدعتهم في خلافة علي بن أبي طالب حين قال له عبد الله بن سبأ: أنت الإله فأمر علي رضي الله عنه بإحراقهم وهرب زعيمهم عبد الله بن سبأ إلى المدائن.

ومذهبهم في الصفات مختلف: فمنهم المشبه، ومنهم المعطل، ومنهم المعتدل، وسموا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فترحم عليهما فرفضوه وأبعدوا عنه، وسموا أنفسهم شيعة لأنهم يزعمون أنهم يتشيعون لآل البيت وينتصرون لهم ويطالبون بحقهم في الإمامة. فتاوى العقيدة (٥/ ٩١).

(٤) النواصب: وهم الخوارج الذين نصبوا العداوة لآل البيت وآذوهم بالقول وبالفعل. فتاوى العقيدة (٤/ ٣٠٧)

القدرية[1] لنا مجبرة[2]، ولا نجحد صفات ربنا تبارك وتعالى لتسمية الجهمية والمعتزلة لنا مجسمة مشبهة حشوية[3][4]، ورحمة الله على القائل:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَهَا مُثْبِتُ

إلى:

فَإِنْ كَانَ تَجْسِيمًا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ ... لَدَيْكُم فَإِنِّي اليَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمُ

---

(١) القدرية: وهم الذين يقولون بنفي القدر عن أفعال العبد، وأن للعبد إرادة وقدرة مستقلتين عن إرادة الله وقدرته، وأول من أظهر القول به معبد الجهني في أواخر عصر الصحابة تلقاه عن رجل مجوسي في البصرة، وهم فرقتان غلاة، وغير غلاة، فالغلاة ينكرون علم الله، وإرادته، وقدرته، وخلقه لأفعال العبد وهؤلاء انقرضوا أو كادوا. وغير الغلاة يؤمنون بأن الله عالم بأفعال العباد، لكن ينكرون وقوعها بإرادة الله، وقدرته، وخلقه، وهو الذي استقر عليه مذهبهم.

(٢) وهم الجبرية حيث زعموا أن العبد مجبور على فعله ليس له فيه إرادة ولا قدرة. فتاوى العقيدة (٤/ ٣٠١).

(٣) الحشوية: فرقة من المعتزلة تمسكوا بظواهر القرآن ووقعوا في التجسيم ، وهم منسوبون إلى الحشو أي أراذل الناس. دائرة معارف القرن العشرين (٣/ ٤٤٧).

(٤) الأصول التي كان أهل السنة وسطًا فيها بين فرق الأمة هي خمسة:

الأول: أسماء الله وصفاته. أهل السنة وسط فيها بين أهل التعطيل وأهل التمثيل لأن أهل التعطيل ينكرون صفات الله وأهل التمثيل يثبتونها مع التمثيل وأهل السنة يثبتونها بلا تمثيل.

الثاني: القضاء والقدر الذي عبر عنه المؤلف بأفعال الله فأهل السنة وسط فيه بين الجبرية والقدرية لأن الجبرية يثبتون قضاء الله في أفعال العبد ويقولون: إنه مجبر لا قدرة له ولا اختيار والقدرية ينكرون قضاء الله في أفعال العبد ويقولون: إن العبد قادر مختار لا يتعلق فعله بقضاء الله وأهل السنة يثبتون قضاء الله في أفعال العبد ويقولون: إن له قدرة واختيارًا أودعهما الله فيه متعلقين بقضاء الله.

الثالث: الوعيد بالعذاب فأهل السنة وسط فيه بين الوعيدية وبين المرجئة لأن الوعيدية يقولون: فاعل الكبيرة مخلد في النار والمرجئة يقولون: لا يدخل النار ولا يستحق ذلك وأهل السنة يقولون: مستحق لدخول النار دون الخلود فيها.

الرابع: أسماء الإيمان والدين: فأهل السنة وسط فيه بين المرجئة من جهة وبين المعتزلة والحرورية من جهة لأن المرجئة يسمون فاعل الكبيرة مؤمنًا كامل الإيمان والمعتزلة والحرورية يسمونه غير مؤمن لكن المعتزلة يقولون: لا مؤمن ولا كافر في منزلة بين منزلتين والحرورية يقولون: إنه كافر وأهل السنة يقولون: إنه مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

الخامس: أصحاب النبي ﷺ فأهل السنة وسط فيه بين الروافض والخوارج لأن الروافض بالغوا في حب آل النبي ﷺ وغلوا فيهم حتى أنزلوهم فوق منزلتهم والخوارج يبغضونهم ويسبونهم وأهل السنة يحبون الصحابة جميعهم وينزلون كل واحد منزلته التي يستحقها من غير غلو ولا تقصير.

فتاوى العقيدة (٤/ ١٩١ و ١٩٢).

ورضي الله عن الشافعي حيث يقول:

إِن كانَ رَفضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَليَشهَدِ الثَّقلانِ أَنّي رافِضي [(١)]

وقدس الله روح القائل وهو شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول:

إِنْ كَانَ نَصْبًا حُبُّ صَحْبِ مُحَمَّد فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أَنّي ناصِبِي [(٢)]

❁ ❁ ❁

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٩٩).

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٢١٦).

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

وأما القرآن فإني أقول: إنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود، تكلم الله به صدقًا، وسمعه جبريل حقًّا، وبلغه محمدًا ﷺ وحيًا، وإن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١، ٢]، و﴿الٓر﴾ [يوسف: ١]، و﴿قٓ﴾ [ق: ١]، و﴿نٓ﴾ [القلم: ١]، عين[١] كلام الله حقيقة، وإن الله تعالى تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة من النبي ﷺ وأن جميعه كلام الله، وليس قول البشر، ومن قال إنه قول البشر فقد كفر. والله يصليه سقر[٢]، ومن قال: «ليس لله بيننا في الأرض كلام» فقد جحد رسالة محمد ﷺ، فإن الله بعثه يبلغ عنه كلامه، والرسول إنما يبلغ كلام مرسله، فإذا انتفى كلام المرسل انتفت رسالة الرسول).

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

نقول في القرآن: إنه كلام الله تعالى مُنَزَّل غير مخلوق، ونقول: غير مخلوق؛ لئلا يقول قائل: هذا المطر مُنزَّل ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وهذه بهيمة الأنعام مُنزَّلة

---

(١) «عين الشيء»: نفسه وشخصه وأصله، والجمع: أعيان، و«عين كل شيء»: نفسه وحاضره وشاهده. وانظر «القاموس» (مادة: ع ي ن) (ص ١٠٩٩).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ الآية [المدثر: ٢٦، ٢٧] جهنم أعاذنا الله منها «كلمات القرآن» (ص ٤٢٨) وهذا مؤدى قول الطحاوي في «طحاويته في العقيدة السلفية» حيث قال: «وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولًا وأنزل على رسوله وحيًا، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوقٍ ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمَّه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر».

قال الألباني: نقل هذا الكلام عن المصنف رحمه الله شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٠٧) مستشهدًا به.

انظر كتابي: «شرح الطحاوي بحواشي سلفية» (ص ٧٩، ٨٠) [ط. نزار الباز ط الأولى].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، هذا الحديد مُنزَّل ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فلابد أن نقول: غير مخلوق، حتى لا يقول قائل: إن قولكم: إنه مُنزَّل لا يمنع أن يكون مخلوقًا.

ونقول: إنه غير مخلوق؛ لأنه كلام، والكلام صفة المُتكلِّم، وصفة المخلوق مخلوقة، وصفة الخالق غير مخلوقة، ولهذا كان السلف يقولون: (إنه كلام الله مُنزَّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود) [1]، منه بدأ؛ يعني: أنَّ الله تعالى هو الذي تكلَّم به ابتداءً، لم يتكلم به جبريل، ولا محمد عليه الصلاة والسلام، تكلم الله به ابتداءً.

وإليه يعود؛ أي: يرجع، ولكن ما معنى العَودُ هنا ؟ هل هو عَودٌ حِسِّيٌّ، أو عَودٌ حُكميٌّ، أو هما ؟

الجواب: يعود حِسًّا؛ لأنه يُنزع في آخر الزمان، حتى لا يبقى منه شيء، لا في صدور الرجال[2]، ولا في المصاحف، وهذا حين يُعرِضُ الناس عنه إعراضًا كُلِّيًّا، فإنه يُنزع من بين أيديهم؛ لأن القرآن أعظم وأجل من أن يبقى بين قومٍ لا يُقيمون له وزنًا، أو يدوسونه بأرجلهم، والعياذ بالله.

كما أنَّ الكعبة إذا أعرَضَ الناس عنها وامتهنوها سلَّط الله عليها ذو السُّوَيقتين من الحبشة[3] يهدِمُها حجرًا حجرًا حتى يُلقيها في البحر.

هذا عَودٌ حِسِّيٌّ أم معنويٌّ ؟

حِسِّيٌّ، معنويٌّ؛ أي: يعود إليه حكمًا بمعنى أنه لا يُنسب إلى غير الله، فلا يقال: القرآن كلام جبريل، ولا كلام محمد؛ وإنما هو كلام الله عز وجل، فهو يعود إليه وصفًا وحكمًا؛ لأن الكلام إنما يُضاف حقيقةً إلى مَن تكلَّم به أولًا لا إلى مَن بلَّغه.

فإن قلتَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حبيبٍ ومنزل [4]

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير (١٢/ ٣٧).

(٢) الحارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ ص ٧٦٨ حديث رقم: ٧٦٨ .

(٣) رواه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البيت بتمامه:

فهذه القصيدة لك أو لامرئ القيس ؟ لامرئ القيس.

ولو قلتَ:

بانت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول [1]

فهي لكعب بن زُهَير.

إذا قلنا: هذا القرآن كلام الله[2]، فهو كلام الله يُنسب إلى الله عز وجل، ويدلُّك لهذا أن الله سبحانه نسَبَه مرة إلى جبريل، ومرة إلى محمد، ولا يمكن أن يكون كلام واحد منسوبًا لاثنين، لكن يُنسب إليهما على سبيل التبليغ، فجبريل بلَّغه محمدًا، ومحمد بلَّغه أمته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١] ما المراد بالرسول ؟ جبريل، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٤٢] هذا محمد ﷺ، إذًا القرآن كلام الله.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ... بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

(١) البيت بتمامه:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ

(٢) القرآن كلام الله عز وجل حقيقة حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، تكلم الله به قولا وأنزله على نبيه وحيا، وآمن به المؤمنون حقا، فهو وإن خط بالبنان وتلي باللسان وحفظ بالجنان وسمع بالآذان وأبصرته العينان لا يخرجه ذلك عن كونه كلام الرحمن، فالأنامل والمداد والأقلام والأوراق مخلوقة، والمكتوب بها غير مخلوق والألسن والأصوات مخلوقة، والمتلو بها على اختلافها غير مخلوق، والصدور مخلوقة والمحفوظ فيها غير مخلوق، والأسماع مخلوقة والمسموع غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أديموا النظر في المصحف». والنصوص في ذلك لا تحصى، ومن قال القرآن أو شيء من القرآن مخلوق فهو كافر كفرًا أكبر يخرجه من الإسلام بالكلية؛ لأن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود، وكلامه صفته، ومن قال شيء من صفات الله مخلوق فهو كافر مرتد يعرض عليه الرجوع إلى الإسلام فإن رجع وإلا قتل كفرًا ليس له شيء من أحكام المسلمين. أعلام السنة المنشورة(٣٣ و ٣٤).

(تكلم الله به صدقًا وسمعه منه جبريل حقًّا - أو جَبرائيل -) أفادنا المؤلف أن جبريل لم يتلقَّه من اللوح المحفوظ، وإنما سمعه من الله، والقول بأن الله تكلم به ثم أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، هذا في النفس منه شيء، وإن كان يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما [1]، فالذي يظهر أن الله تكلم بالقرآن حين إنزاله، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يحتمل أن المعنى: في اللوح المحفوظ ذكرُه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، ومعلوم أن القرآن ليس هو الذي في زُبُر الأولين نفسه، إنما الذي في زُبُر الأولين هو ذِكْرُه، فيحتمل أن الذي في اللوح المحفوظ هو أن القرآن سيكون مُنزَّلًا على محمد ﷺ، وما أشبه ذلك، فيكون المراد بكونه في اللوح المحفوظ: ذكرُه، لكن يعكر على هذا الشيء نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧- ٧٩]، فإنَّ ظاهره أنَّ القرآن نفسه كُتِبَ في نفس اللوح المحفوظ، والله على كل شيء قدير، قد يكتبه في اللوح المحفوظ ولكن لا يتكلم به إلا عند إنزاله.

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

(وبلَّغه محمدًا ﷺ وحيًا، وأن ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، و ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾، و﴿الٓر﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿نٓ﴾، عين كلام الله حقيقة...) إلخ. المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كرَّر هذا؛ لأن الناس اختلفوا في هذا القرآن[2]؛ فالجهمية قالوا: القرآن كلام الله مُنزَّل لكنه مخلوق، وأُضيف إلى

---

(١) المعجم الكبير (١٠/ ١٧٨).

(٢) وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال. ثم ساقها ومنها: الثالث: وهو أنه معنى واحد قائم بذات الله هو: الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كُلَّاب ومن وافقه كالأشعري وغيره.

قال: وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلقه في غيرهن وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة. اهـ.

وقال ابن مانع في حاشيته على «الطحاوية»: القرآن العظيم كلام الله لفظه ومعانيه، فلا يقال: القرآن لفظ دون المعنى كما هو قول «أهل الاعتزال».

ولا المعنى دون اللفظ كما هو قول «الكلَّابية» الضُّلَّال ومن تابعهم على باطلهم من «أهل الكلام» الباطل المذموم فـ «أهل السنة والجماعة» يقولون ويعتقدون: إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق،

الله على سبيل التشريف، فإضافته إضافة تشريف وخلق، وليست إضافة صفة إلى موصوفها.

وقالت الأشاعرة: إن القرآن عبارة عن كلام الله، خلقه الله عز وجل ليُعبِّر عما في نفسه، وهم في الحقيقة قد تلاقوا مع المعتزلة فيما ذهبوا إليه؛ بل قد يكون المعتزلة خيرًا منهم من بعض الوجوه؛ لأن المعتزلة يقولون: هذا الذي بين أيدينا في المصحف كلام الله حقًّا، وأولئك يقولون: ليس كلام الله ولكنه عبارة عن كلام الله، والكل قد اتفقوا أن ما بين أيدينا في المصحف مخلوق، لكن المعتزلة قالوا: هو كلام الله، وأولئك قالوا: هو عبارة عن كلام الله؛ لأن الأشاعرة من أصول مذهبهم الباطلة: أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس هو الحرف والصوت، وقالوا: إنه مستحيل أن الله يتكلم بحرفٍ وصوتٍ، فانظر كيف خالفوا اللغة، وحكموا على الله تعالى بعقولهم الفاسدة ؟!!

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ونقول أن الله فوق سمواته مستو على عرشه[1] بائن من خلقه[2] ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه تعالى إليه يصعد الكلم الطيب وتعرج الملائكة والروح إليه وإنه يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، وأن المسيح

ألفاظه ومعانيه عين كلام الله.

سمعه جبريل من الله، والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من النبي ﷺ فهو المكتوب بالمصاحف، المحفوظ بالصدور، المتلوّ بالألسنة» اهـ.

انظر كتابي: «الطحاوية بحواشي سلفية» (ص ٧٩، ٨٠) (ط. نزار ـ ط. الأولى).

(١) قال الإمام مالك رحمه الله (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيفية بدعة).مختصر العلو (١/ ٤٨).

(٢) وهذا مؤدى قول الأوزاعي حيث قال: كنا نقول والتابعون متوافرون: إن الله ـ تعالى ذكره ـ فوق عرشه ، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات. وفي روايةٍ: إن الله تعالى مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، معهم بعلمه. انظر البيهقي في «الصفات» (ص ٤٠٨)، والذهبي في «العلو» (رقم ١٢١)، وجوّده ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤١٧)، وصححه ابن تيمية في «الفتاوى» (٥/ ٣٩)، وانظر «القواعد المثلى» (ص ٨٢ – ٩٦ ـ بتحقيقنا ـ طبعة نزار).

رفع بذاته إلى الله وأن رسول الله ﷺ عرج به إلى الله حقيقة[(١)]، وأن أرواح المؤمنين تصعد إلى الله عند الوفاة فتعرض عليه وتقف بين يديه[(٢)]، وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده وهو العلي الأعلى وأن المؤمنين والملائكة المقربين يخافون ربهم من فوقهم، وأن أيدي السائلين ترفع إليه وحوائجهم تعرض عليه[(٣)] فإنه سبحانه هو العلي الأعلى

---

(١) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد في مسنده (١٨٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٣) أدخل ابن القيم رحمه الله الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع بعضها في بعض وقد رتبها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في «القواعد المثلى» على نحوٍ غايةٍ في التنسيق فبدأ بأدلة القرآن، ثم نوَّعها، ثم بالسنة ثم بالعقل، ثم بالفطرة، ثم الإجماع.

أما الكتاب: فقد تنوعت دلالته على ذلك:

- فتارة بلفظ العلو والفوقية والاستواء على العرش، وكونه في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

- وتارة بلفظ صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه، كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

- وتارة بلفظ نزول الأشياء منه ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

وأما السنة: فقد دلت عليه بأنواعها: القولية والفعلية والإقرارية في أحاديث كثيرة تبلغ حد التواتر، وعلى وجوهٍ متنوعةٍ، كقوله ﷺ في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» أخرجه مسلم (٢/ ٦/ ٦٢، ٦٣ - كتاب المسافرين) والترمذي (ح ٢٦٢)، والنسائي (٣/ ٢٢٦)، وابن ماجه (ح ٨٨٨)؛ وانظر تخريجه مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٢ - بتخريجنا له، ط. نزار الباز).

وقوله ﷺ: «إن الله لمَّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي» أخرجه البخاري (ح ٣١٩٤، ٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٥٥٣)، ومسلم (٦/ ١٧، ٦٧، ٦٨). وانظر تخريجه مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٣) بتخريجنا له.

وقوله ﷺ: «ألا تأمَنُوني وأنا أمين من في السماء» . أخرجه البخاري (ح ١٤٣٥١، ٣٦١٠، ٦١٦٣، ٦٩٣٣، ٧٤٣٢)، ومسلم (٣/ ٧/ ١٦٩) وانظر تخريجه مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٣ - بتخريجنا له).

وثبت أنه رفع يديه وهو على المنبر يوم الجمعة يقول: «اللهم أغثنا» أخرجه البخاري (١٠١٤، ١٠١٥: ١٠١٩)، ومسلم (٢/ ٦/ ١٩١). وانظر تخريجنا له مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٤).

وأنه رفع يده إلى السماء وهو يخطب الناس يوم عرفة حين قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت

بكل اعتبار)(١).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهنا بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ صفة العلو الذاتي والاستواء على العرش، فنقول: إن الله تعالى فوق عرشه، مُستوٍ عليه، وفوق جميع المخلوقات.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(بائنٌ من خلقه) وفسَّر البينونة بقوله: (ليس في شيءٍ من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته)، وليس البينونة: عدم المماسة مثلًا، هذا لا نعلمه.

فلو قال قائل: إن الله استوى على العرش؛ هل هو مُماسٌّ للعرش أو غير مُماسٍّ ؟

نقول: الله أعلم.

إذًا ما معنى البينونة التي جاءت في كلام السلف ؟

معناه: نفي الحلول، فليس شيءٌ حالًّا من المخلوقات في ذاته، وليس شيءٌ من ذاته حالًّا في المخلوقات؛ لأنه فوق كل شيء، وبهذا نعرف أن الله تعالى إذا نزل إلى السماء الدنيا لا تكون السماوات الأخرى فوقه، لو كانت فوقه لكان حالًّا في المخلوقات، وهذا مستحيل،

ونصحت، فقال ﷺ: «اللهم اشْهَدْ» أخرجه البخاري (١٧٣٩، ١٧٤١، ١٧٤٢)، ومسلم (٣/ ٨/ ١٨٤) . وانظر تخريجنا له مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٤).

وأنه ﷺ قال للجارية: «أين الله؟» قالت في السماء. فأقرَّها وقال لسيدها: «أعتقها فإنها مؤمنة» أخرجه مسلم (٢/ ٥/ ٢٤)، وأحمد (٥/ ٤٤٨، ٤٤٩)، وانظر تخريجه مطولًا في «القواعد المثلى» (ص ٩٥).

وأما العقل: فقد دل على وجوب صفة الكمال لله تعالى وتنزيهه عن النقص، والعلو صفة كمال، والسفل صفة نقص؛ فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده.

وأما الفطرة: فقد دلت على علو الله تعالى دلالة ضرورة فطرية، فما داعٍ أو خائف فزع إلى ربه إلا وجد في قلبه ضرورة الاتجاه نحو العلو، لا يلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة.

واسأل المصلِّين؛ يقول الواحد منهم في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» أين تتجه قلوبهم حينئذٍ.

وأمَّا الإجماع: فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله تعالى فوق سمواته مستوٍ على عرشه، وكلامهم مشهور في ذلك نصًا وظاهرًا.

وقد تقدم نقل الأوزاعي لهذا الإجماع انظر «القواعد المثلى» (ص ٩٢: ٩٥ ـ ط نزار بتحقيقنا له).

(١) وهذه إشارة من ابن القيم رحمه الله إلى أنواع العلوّ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

إنه لا يُحيط به شيءٌ من مخلوقاته أبدًا؛ بل هو فوق كل شيء.

قد تعجز عن تصور هذا الأمر، ولكن لا غرابة، فنحن عاجزون عن تصور كل صفات الله عز وجل، وليس لنا شرعًا أن نتصورها؛ يعني: نحن عاجزون قدرًا عن تصورها، ولا يحق لنا شرعًا أن نتصورها؛ لأن تصوُّرَها معناه: محاولة إثبات التكييف، وهذا أمرٌ ممتنع، فمهما قدَّرتَ في نفسك من شيء فالله تعالى أعظم وأجلُّ، ولهذا ليس لنا الحق في أن نتفكَّر في ذات الله عز وجل وصفاته؛ لأن ذلك أمرٌ مستحيل، والوصول إليه مستحيل.

فعلى هذا نقول: إن الله تعالى لا يَحِلُّ في شيءٍ من مخلوقاته، ولا يَحِلُّ فيه شيءٌ من مخلوقاته، وهذا هو معنى البينونة التي عبَّر عنها السلف بقولهم: بائنٌ من خلقه.

العلو أيضًا ثابت لله عز وجل؛ لأنه العليُّ العظيم الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، عُرِجَ بالرسول عليه الصلاة والسلام إلى الله، وكل هذا يدلُّ على عُلوِّه سبحانه وتعالى، كل هذه المعاني لا تكون إلا للعلو، هكذا أثبت الموحِّد أن القرآن كلام الله حقيقة، وأن الله تعالى فوق عرشه بائنٌ من خلقه[1]، فننظر ماذا كان موقف المُعطِّل؟

❀ ❀ ❀

(١) تتمة: انقسم الناس في معية الله لخلقه ثلاثة أقسام:

القسم الأول يقولون: إن معية الله تعالى لخلقه مقتضاها العلم والإحاطة في المعية العامة، ومع النصر والتأييد في المعية الخاصة مع ثبوت علوه بذاته واستوائه على عرشه.

وهؤلاء هم السلف، ومذهبهم هو الحق كما سبق تقريره.

القسم الثاني يقولون: إن معية الله لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض مع نفي علوه واستوائه على عرشه. وهؤلاء هم الحلولية من قدماء الجهمية وغيرهم، ومذهبهم باطل منكرٌ، أجمع السلف على بطلانه وإنكاره كما سبق.

القسم الثالث يقولون: إن المعية لخلقه مقتضاها أن يكون معهم في الأرض مع ثبوت علوه فوق عرضه.

ذكر ها شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٢٩) من «مجموع الفتاوى»، وانظر: «القواعد المثلى» (ص ٩١) [طبعة نزار الباز ـ بتحقيقنا له].

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فلما سمع المعطل منه ذلك أمسك، ثم أسرّها في نفسه[١] وخلي بشياطينه وبني جنسه وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا[٢] وأصناف[٣] المكر[٤] والاحتيال، وراموا[٥] أمرًا يستحمدون به[٦] إلى نظرائهم من أهل البدع والضلال وعقدوا مجلسًا يبيتون في مساء يومه ما لا يرضاه الله من القول[٧] والله بما يعملون محيط[٨] وأتوا على مجلسهم ذلك بما قدروا عليه من الهذيان[٩] واللغط[١٠] والتخليط[١١]، وراموا استدعاء المثبت إلى مجلسهم الذي عقدوه ليجعلوا نزله[١٢] عند قدومه عليهم ما لفقوه من المكر وتموه فحبس الله سبحانه عنهم أيديهم وألسنتهم فلم يتجاسروا عليه[١٣]، ورد الله كيدهم في نحورهم فلم يصلوا بالسوء إليه، وخذلهم المطاع[١٤] فمزقوا ما كتبوه من المحاضر، وقلب الله قلوب

---

(١) كتمها وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧].

(٢) يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. و﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: أي: مموهه من الباطل. و﴿غُرُورًا﴾: خاعًا؛ ليغروه. «كلمات القرآن» لأبي عائش (ص ٩٩).

(٣) أي: أنواع.

(٤) المكر: الخديعة. «القاموس المحيط» [ص ٤٣٠ ـ مادة: (سكر)].

(٥) أى طلبوا وأرادوا. الكافية الشافية (ص ٣٤).

(٦) أى يطلبون أن يحمدونهم عليه. الكافية الشافية (ص ٣٤).

(٧) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، أي: يضمرون. «كلمات القرآن» (ص ٧٠).

(٨) وهو يشير إلى ختام الآية السابقة في سورة النساء: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

(٩) اضطراب عقلي مؤقت يتميز باختلاط أحوال الوعي. المعجم الوسيط (٢/ ٨٨٢).

(١٠) الصوت والجلبة، والجمع: ألغاط. المعجم الوسيط (٢/ ٥٧٧).

(١١) من المخالطة والممازجة، واختلط عقله أى فسد. المعجم الوسيط (١/ ٥١٩).

(١٢) النُّزْلُ بوزن القُفل: ما يُهيأ للنزيل، والجمع الأَنْزالُ. مختار الصحاح (ص ٦٨٨) أو ما هو يهيأ للمصنف كما في قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

(١٣) لم يجترءوا.

(١٤) الكبير والزعيم الذى يطيعه قومه. الكافية الشافية (ص ٣٥).

أوليائه وجنده عليهم من كل باد وحاضر، وأخرج الناس لهم من المخبآت كمائنها[١]، ومن الجوائف[٢] والمنقلات[٣] دفائنها[٤]، وقوى الله جأش[٥] عقد المثبت وثبت قلبه ولسانه، وشيد بالسنة المحمدية بنيانه، فسعى إلى عقد مجلس بينه وبين خصومه عند السلطان، وحكم على نفسه كتب شيوخ القوم السالفين وأئمتهم المتقدمين، وأنه لا يستنصر من أهل مذهبه بكتاب ولا إنسان وأنه جعل بينه وبينكم أقوال من قلدتموه، ونصوص من على غيره من الأئمة قدمتوه، وصرخ المثبت بذلك بين ظهرانيهم حتى بلغه دانيهم[٦] لقاصيهم[٧]، فلم يذعنوا لذلك واستعفوا[٨] من عقده فطالبهم المثبت بواحدة من خلال ثلاث:

مناظر في مجلس عام على شريطة العلم والإنصاف تحضر فيه النصوص النبوية والآثار السلفية وكتب أئمتكم المتقدمين من أهل العلم والدين، فقيل لهم: لا مراكب لكم تسابقون بها في هذا الميدان ومالكم بمقاومة فرسانه يدان.

فدعاهم إلى مكاتبة ما يدعون إليه، فإن كان حقًّا قبله وشكركم عليه وإن كان غير ذلك سمعتم جواب المثبت، وتبين لكم حقيقة ما لديه، فأبوا ذلك أشد الإباء، واستعفوا غاية الاستعفاء.

---

(١) المقصود أن الناس غضبوا على المعطلة لما افتضح أمرهم، وأخرجوا لهم البغضاء التي كانت كامنة في النفوس لهم. الكافية الشافية (ص ٣٥).

(٢) الجوائف: مفردها جائفة، والجائفة: طعنة تبلغ الجوف وقال أبو عبيد: وقد تكون التي تخالط الجوف والتي تنفذ أيضًا كما في الصحاح ومنه الحديث: (في الجائفة ثلث الدية) قال ابن الأثير: والمراد بالجواف ها هنا كل ما له قوة محيلة كالبطن والدماغ. تاج العروس (٢٣/ ١٠٩).

(٣) المنقلات من أنواع الجراحات، وهى التي تكسر العظم وتنقله عن موضعه، وفيها خمس عشرة من الإبل. الكافية الشافية (ص ٣٦).

(٤) المراد أعظمها وأشدها وأبلغها. الكافية الشافية (ص ٣٦).

(٥) قال في القاموس الجأش رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع ونفس الإنسان وقد لا يهمز جمع جؤوش. توضيح المقاصد (١/ ٣٦).

(٦) أي: الغريب.

(٧) أي: البعيد.

(٨) أي: طلبوا العفو والإعفاء من ذلك.

فدعاهم إلى القيام بين الركن والمقام قيامًا في مواقف الابتهال[1] حاسري الرءوس[2]، نسأل الله أن ينزل بأسه بأهل البدع والضلال، وظن المثبت والله أن القوم يجيبونه إلى هذا، فوطَّن نفسه عليه غاية التوطين، وبات يحاسب نفسه، ويعرض ما يثبته وينفيه على كلام رب العالمين، وعلى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتجرد من كل هوى يخالف الوحي المبين، ويهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين فلم يجيبوا إلى ذلك أيضًا، وأتوا من الأعذار بما دله على أن القوم ليسوا من أولي الأيدي والأبصار، فحينئذ شمر المثبت عن ساق عزمه وعقد لله مجلسًا بينه وبين خصمه يشهده القريب والبعيد، ويقف على مضمونه الذكي والبليد وجعله عقد مجلس التحكيم بين المعطل الجاحد والمثبت المرمي بالتجسيم، وقد خاصم في هذا المجلس بالله وحاكم إليه بريء إلى الله من كل هوى وبدعة وضلالة وتحيز إلى فئة رسول الله ﷺ، وما كان أصحابه عليه والله سبحانه هو المسئول أن لا يكله إلى نفسه ولا إلى شيء مما لديه، وأن يوفقه في جميع حالاته لما يحبه ويرضاه، فإن أزمة الأمور بيديه وهو يرغب إلى من يقف على هذه الحكومة أن يقوم لله قيام متجرد عن هواه قاصد لرضاء مولاه، ثم يقرؤها متفكرًا ويعيدها ويبديها متدبرًا، ثم يحكم فيها بما يرضي الله ورسوله وعباده المؤمنين، ولا يقابلها بالسب والشتم كفعل الجاهلين والمعاندين، فإن رأى حقًا تبعه وشكر عليه، وإن رأى باطلًا رده على قائله وأهدى الصواب إليه، فإن الحق لله ورسوله، والقصد أن تكون كلمة السنة هي العليا جهادًا في الله وفي سبيله، والله عند لسان كل قائل وقلبه، وهو المطلع على نيته وكسبه، وما كان أهل التعطيل أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، المؤمنون المصدقون: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

---

(1) قال ابن هشام في «تهذيب السيرة»: ﴿نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ندعو باللعنة. توضيح المقاصد (1/ 36).

(2) يعني: كاشفي الرءوس: وفي ذلك إشارة إلى المباهلة التي في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

وكان من السلف من يطلبها كـ: ابن عباس في ميراث الجد والجدة قال: ما ذكر الله في القرآن جدًّا ولا جدَّة. إلى أن قال: فمن أراد أن يباهلني فليباهلني عند الكعبة كما دعا أيضًا ابن القيم المناظِرَ أن يقف بين الركن والمقام ـ هاهنا ـ.

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]).

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

الظاهر من كلامه هذا أنه يريد أن يقول: إنه مُثبِت، ومُحاكٍ أهل التعطيل، ودعاهم إلى هذه الخصال الثلاث وأبوا، دعاهم إلى المناظرة مقابلةً وجهًا لوجه فأبوا، ثم إلى المُكاتبة يكتب ويكتبون، ولكنهم أبَوا، ثم دعاهم إلى المُباهلة بين الركن والمقام، ولكنهم أبَوا، فلما رأى أن الأمور كلها تعذَّرَت كتب هو رَحِمَهُ اللَّهُ مناظرة بينه وبين أهل التعطيل في القصيدة الآتية ليحكم الإنسان بما يراه من خلال هذه القصيدة لمن يكون الصواب معه، وكما شاهدنا جميعًا قوة أسلوب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وبيانه وفصاحته، كل ما كتبه على هذا النحو تجدها في غاية من البيان والفصاحة والسلاسة، حتى إن الإنسان إذا قرَأها أو صار يُراجعها لا يملُّ، نسأل الله تعالى أن يغفر له، وأن يجزيه خيرًا.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فصل: وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل والمشبه والموحد، ذكرناها قبل الشروع في المقصود، فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل لتقريبها المعقول من المشهود [1]، وقد قال تعالى - وكلامه المشتمل على أعظم الحجج وقواطع البراهين -: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقد اشتمل منها على بضعة وأربعين مثلًا).

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

فائدة: أنَّ أمثال القرآن بضعةٌ وأربعون مثلًا، والبِضْعة: ما بين الثلاث إلى التسع، فأمثال القرآن تبلُغ هذا العدد، سواء أمثال الدنيا أو الآخرة، أو الأعمال الصالحة، أو العامل، أو غير ذلك، كلها تبلغ بضعًا وأربعين مثلًا، مع أن القرآن أبين الكلام وأوضحه، ومع ذلك

---

(١) المعقول: الأمر المتصور بالعقل والذهن، والمشهود: هو الماثل المشاهد بالعين. الكافية الشافية (ص ٤١).

فإن الله سبحانه وتعالى قد أكثر فيه من ضرب الأمثال، وقال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ العالمون؛ يعني: ذوي العلم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتدُّ بكاؤه ويقول: لست من العَالِمِينَ، وسنفرد له إن شاء الله كتابًا مستقلًا متضمنًا لأسرارها ومعانيها وما تضمنته من كنوز العلم وحقائق الإيمان، والله المستعان وعليه التكلان).

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابٌ اسمه «أمثال القرآن»[١]، فالحمد لله أن الله سبحانه وتعالى يسَّر له فوَفَى بما وَعَدَ.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المثل الأول: ثياب المعطل ملطخة بعذرة[٢] التحريف، وشرابه متغير بنجاسة التعطيل. وثياب المشبه متضمخة[٣] بدم التشبيه وشرابه متغير بدم التمثيل، والموحد طاهر الثوب والقلب والبدن، يخرج شرابه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين[٤]).

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(مُلطَّخة بعذِرَة التحريف) وهذا بالنسبة لاستعماله النصوص، فإنه لم يستعملها استعمال

---

(١) كشف الظنون (١/ ١٦٨).

(٢) العذرة: الغائط، وعذرة الدار: فناؤها. المعجم الوسيط (٢/ ٨٤).

(٣) تضمخ بالطيب وغيره: تلطخ. المعجم الوسيط (١/ ٥٤٣).

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

السلف بإجرائها على ظاهرها؛ بل كان يُحرِّفُها، كذلك أيضًا يقول: (وشرابه متغير بنجاسة التعطيل) هذا باعتبار عقيدتهم، الأول باعتبار استعمالهم للنصوص، والثاني باعتبار عقيدتهم، فإنه مُعطِّل للنصوص، أما المُمثِّل فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (وثيابه متضمخة بدم التشبيه، وشرابه متغير بدم التمثيل) والظاهر أيضًا أن المُشبِّه عنده تحريف النصوص، فإنه مُحرِّفٌ لها بلا شك؛ لأن التحريف إخراج اللفظ عما يُراد به، والمُشبِّه أخرجه عما يُراد به بلا شك، فإن الله لم يُرِد في هذه النصوص أن يُثْبِت مُماثلته للمخلوقين؛ بل أراد أن يُبيِّن كمال صفاته سبحانه وتعالى التي لا يمكن أن تُشبِه صفات المخلوقين.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المثل الثاني: شجرة المعطل مغروسة على شفا جرف هار[١]. وشجرة المشبه قد اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. وشجرة الموحد أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون[٢]).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

شجرة المُعطِّل مغروسة مُتمكِّنة ولكنها على شفا جُرُفٍ أدنى شيءٍ يُسقِطُها، أما شجرة المُشبِّه المُمثِّل فقد اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار[٣]؛ يعني: وُضِعَت وضعًا على الأرض، أما المُوحِّد فشجرته أصلُها ثابت وفرعُها في السماء، لا تعصِفُها الرياح، ولا تُغيِّرُها، وفرعُها في السماء عالٍ ليست كشجرة المُشبِّه اجتُثَّت من فوق الأرض، ولا كشجرة

---

(١) فيه اقتباس من - وإشارة إلى - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

(٣) القرار: المكان المنخفض يجتمع فيه الماء. المعجم الوسيط (٢/ ٧٢٥).

المُعطِّل التي غُرِسَت على شفا جُرُفٍ هارٍ.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المثل الثالث: شجرة المعطل شجرة الزقوم[١]، فالحلوق السليمة لا تبلعها. وشجرة المشبه شجرة الحنظل[٢]، فالنفوس المستقيمة لا تتبعها. وشجرة الموحد طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها[٣].

المثل الرابع: المعطل قد أعد قلبه لوقاية الحر والبرد كبيت العنكبوت، والمشبه قد خسف بعقله، فهو يتجلجل في أرض التشبيه إلى البهموت[٤]، وقلب الموحد يطوف حول العرش ناظرًا إلى الحي الذي لا يموت).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأول: المُعطِّل قد بنى بيتًا لكنه كبيت العنكبوت، وأوهن البيوت بيت العنكبوت كما قال ربنا عز وجل[٥].

الثاني: المُشبِّه قد خُسِفَ به، فهو يتجلجل[٦] في أرض التشبيه إلى البهَمُوت، الظاهر أنَّ

---

(١) الزقوم: شجرة مرة كريهة الرائحة ثمرها طعام أهل النار. المعجم الوسيط (١/ ٣٩٦) وهي من أخبث الشجر المر بـ«تهامة»، ينبتها الله تعالى في الجحيم، كما قال في المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ....﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] «كلمات القرآن» (ص ٣٤٥).

(٢) الحنظل: نبت مفترش ثمرته في حجم البرتقالة ولونها فيها لب شديد المرارة. «المعجم الوسيط» (١/ ٢٠٢)

(٣) رواه البخاري (٣٢٥١).

(٤) يعني إلى آخر أعماق الأرض. الكافية الشافية (ص ٤٤).

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

(٦) يتجلجل: أي: يغوص وينزل ولعل ابن القيم رحمه الله يقتبس مما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «بينما رجل يمشي في حُلة تعجبه نفسه، مُرجِّل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» [البخاري ح ٥٧٨٩]. ومسلم. وانظر «رياض الصالحين» (ح

البهَمُوت: الأرض العميقة التي ينبهِمُ مَن يقع فيها ولا يعلم له حال ولا خبر، فهو إذًا غير مذكور، وغير مرئيٍّ، ولا ينظر إلى كلامه إطلاقًا.

الثالث: الموحد: وهو يطوف حول العرش ناظرًا إلى الحي الذي لا يموت، فهو مرتفعٌ بقلبه يطَّلِع إلى الله سبحانه وتعالى ببصيرته كل حين.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المثل الخامس: مصباح المعطل قد عصفت عليه أهوية التعطيل فطفئ وما أنار، ومصباح المشبه قد غرقت فتيلته في عكر[1] التشبيه فلا تقتبس منه الأنوار، ومصباح الموحِّد يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار[2].

المثل السادس: قلب المعطل متعلق بالعدم فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم الذي نحت بالتصوير والتقدير، والموحد قلبه متعبد لمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[3].

المثل السابع: نقود المعطل كلها زيوف فلا تروج علينا، وبضاعة المشبه كاسدة لا تنفق لدينا، وتجارة الموحد ينادي عليها يوم العرض على روؤس الأشهاد هذه بضاعتنا ردت إلينا).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

الزيوف هي المغشوشة، والزيف العيب، فالمعنى: أن المُعطِّل عنده نقود، لكنها كلها عيوب، وهذا نقوده كاسدة؛ يعني: رخيصة لا تساوي شيئًا، أما نقود الموحِّد فإن كل الناس

---

٦١٠ بتحقيق أبي عائش. ط. نزار الباز).

(١) عكرُ الشراب والماء والدهن: آخِرُه.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ففيها رد على المعطلة والمشبهة، وإثبات بلا تمثيل ولا تكييف وتنزيه بلا تأويل ولا تحريف.

يرغبها، وإذا ظفر بها قال: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(المثل الثامن: المعطل كنافخ الكير[1] إما أن يحرق ثيابك وإما أن ينجسك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة[2]، والمشبه كبائع الخمر، إما أن يسكرك وإما أن ينجسك، والموحد كبائع المسك إما أن يحذيك[3] وإما أن يبيعك وإما أن تجد منه ريحًا طيبة).

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(كبائع الخمر؛ إما أن يُسكِرَكَ، وإما أن يُنجِّسَك) هذا بناءً على المشهور عند أهل العلم من أن الخمر نجس، أما على ما أختارُه فهو نجاستُها المعنوية[4].

---

(١) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها (ج) أكيار وكيرة. المعجم الوسيط (٢/ ٨٠٧).

(٢) يشير إلى ما جاء عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»، رواه البخاري (ح ٥٥٣٤).

(٣) أي يعطيك.

(٤) جمهور العلماء ـ ومنهم الأئمة الأربعة، واختاره شيخ الإسلام ـ أنها نجسة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[المائدة: ٩٠]. والرجس: النجس؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ولا مانع من أن تكون في الأصل طيبة؛ ثم تنقلب إلى نجسة بعلة الإسكار؛ كما أن الإنسان يأكل الطعام وهو طيب طاهر ثم يخرج خبيثًا نجسًا. واستدلوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] يعني في الجنة، فدل على أنه ليس كذلك في الدنيا.

والصحيح: أنها ليست نجسة، والدليل على ذلك ما يلي:

أولًا: حديث أنس رضي الله عنه: «أن الخمر لما حرمت خرج الناس، وأراقوها في السكك»، وطرقات المسلمين لا يجوز أن تكون مكانًا لإراقة النجاسة، ولهذا يحرم على الإنسان أن يبول في الطريق؛ أو يصب فيه النجاسة، ولا فرق في ذلك بين أن تكون واسعة أو ضيقة كما جاء في الحديث: «اتقوا

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المثل التاسع: المعطل قد تخلف عن سفينة النجاة ولم يركبها فأركبه الطوفان، والمشبه قد انكسرت به في اللجة[1]، فهو يشاهد الغرق بالعيان، والموحد قد ركب سفينة نوح، وقد

اللعانين»، قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم». فقوله: «في طريق الناس» يعم ما كان واسعًا وضيقًا، على أنه يقال: إن طرقات المدينة لم تكن كلها واسعة، بل قد قال العلماء رحمهم الله: إن أوسع ما تكون الطرقات سبعة أذرع، يعني عند التنازع. فإن قيل: هل علم النبي ﷺ بإراقتها ؟ أجيب: إن علم فهو إقرار منه ﷺ ويكون مرفوعًا صريحًا، وإن لم يعلم فالله تعالى علم، ولا يقر عباده على منكر، وهذا مرفوع حكمًا.

ثانيًا: أنه لما حرمت الخمر لم يؤمروا بغسل الأواني بعد إراقتها، ولو كانت نجسة لأمروا بغسلها، كما أمروا بغسل الأواني من لحوم الحمر الأهلية حين حرمت في غزوة خيبر . فإن قيل: إن الخمر كانت في الأواني قبل التحريم، ولم تكن نجاستها قد ثبتت. أجيب: أنها لما حرمت صارت نجسة قبل أن تراق.

ثالثًا: ما رواه مسلم أن رجلًا جاء براوية خمر فأهداها للنبي ﷺ فقال: «أما علمت أنها حرمت؟» فساره رجل أن بعها، فقال النبي ﷺ: «بم ساررته؟»، قال: أمرته ببيعها، فقال النبي ﷺ: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها»، ففتح الرجل المزادة حتى ذهب ما فيها . وهذا بحضرة النبي ﷺ، ولم يقل له: اغسلها، وهذا بعد التحريم بلا ريب.

رابعًا: أن الأصل الطهارة حتى يقوم دليل النجاسة، ولا دليل هنا. ولا يلزم من التحريم النجاسة؛ بدليل أن السم حرام وليس بنجس. والجواب عن الآية: أنه يراد بالنجاسة النجاسة المعنوية، لا الحسية لوجهين:

الأول: أنها قرنت بالأنصاب والأزلام والميسر، ونجاسة هذه معنوية.

الثاني: أن الرجس هنا قيد بقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فهو رجس عملي، وليس رجسًا عينيًّا تكون به هذه الأشياء نجسة. وأما قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، فإننا لا نقول بمفهوم شيء من نعيم الآخرة؛ لأننا نتكلم عن أحكام الدنيا. وأيضا: فكل ما في الجنة طهور فليس هناك شيء نجس. ثم إن المراد بالطهور هنا الطهور المعنوي الذي قال الله فيه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] وهذا متعين؛ لأن لدينا سنة عن النبي ﷺ بعدم النجاسة. ثم إن شراب أهل الجنة ليس مقصورا على الخمر، بل فيها أنهار من ماء ولبن وعسل، وكلها يشرب منها، فهل يمكن أن يقال: إن ماء الدنيا ولبنها وعسلها نجس بمفهوم هذه الآية؟ فإن قيل: كيف تخالف الجمهور؟. فالجواب: أن الله تعالى أمر عند التنازع بالرجوع إلى الكتاب والسنة، دون اعتبار الكثرة من أحد الجانبين، وبالرجوع إلى الكتاب والسنة يتبين للمتأمل أنه لا دليل فيهما على نجاسة الخمر نجاسة حسية، وإذا لم يقم دليل على ذلك فالأصل الطهارة، على أننا بينا من الأدلة ما يدل على طهارته الطهارة الحسية. الشرح الممتع للشارح رحمه الله تعالى.

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه ويقال: فلان لجة واسعة شبيه بالبحر. ولجة الأمر معظمه. المعجم

صاح به الربان[1]: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود: ٤١].

المثل العاشر: منهل المعطل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا فرجع خاسئًا حسيرًا. ومشرب المشبه من ماء قد تغير طعمه ولونه وريحه بالنجاسة تغييرًا، ومشرب الموحد من كأس كان مزاجها كافورًا، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا، وقد سميتها بـ «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهذا حين الشروع في المحاكمة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

كأنه يرى أن المُعطِّل عنده من الحرص وعرض التجارة أكثر مما عند المُشبِّه، وأن الناس أيضًا يغترُّون به أكثر من المُشبِّه، ولهذا تجدون التعطيل في الأمة كثيرًا، لكن التشبيه ما ثبت عليه قدم، حتى إن بعضهم يقول: إن التشبيه كان في الأول، وأنه بعد ذلك زال وانمحى من الوجود.

قلنا: المُمثِّل يعبد صنمًا، والمُعطِّل يعبد عدمًا، ونحن نقول: كل مُمثِّل معطِّل في الواقع، وكل مُعطِّل مُمثِّل أيضًا، فعليه نقول: كيف يكون المُمثِّل مُعطِّلًا ؟

نقول: هو مُعطِّلٌ من وجوهٍ ثلاثة:

الأول: أنه عطَّل الله من كماله الواجب؛ حيث شبَّهه بالمخلوق؛ فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، فتمثيله تعطيلٌ لله عز وجل.

الثاني: أنه عطَّل نفس النص الذي أثبَتَ به الصفة؛ فإن النص الذي أثبت به الصفة أو المُماثلة - على زعمه - قد عطَّلَه؛ لأن النص إنما دلَّ على صفة تليق بالله، فإذا جعله جاء مع التمثيل، أو أثبَتَ به التمثيل عطَّلَه عن مراده بلا شك، لم يُرِد الله عز وجل حين وصف نفسه بما وصف به نفسه أن يفهم عبادُه أنَّه مُماثِلٌ لخلقه أبدًا، إنما أراد المعنى والصفة التي تليق به.

الثالث: أن المُمثِّل عطَّلَ كلَّ نصٍّ يدلُّ على نفي التمثيل، عطَّل قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

الوسيط (٢/ ٨١٦).

(١) قائد السفينة.

شَىۡءٌ﴾ [الشورى:]، وعطَّل ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، واستكبر عن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، وما أشبه ذلك، فصار المُمثِّل مُعطِّلًا من وجوهٍ ثلاثة، والمُعطِّل مُشبِّهٌ أيضًا من وجهين:

الوجه الأول: أنه إذا نفى صفةً عن الله، فإنه شبَّهه بمن خلا من تلك الصفة؛ فمثلًا إذا قال: ليس الله بسميع؛ يعني: ليس له سمع، شبَّهَهُ بالأصم، إذا قال: إن الله لا ينزل، ولا يستوي، ولا يفعل، شبَّهَهُ بالأشلّ، إذا قال: ليس له عين، شبَّهَهُ بالأعمى، وهكذا، فهو بنفسه مُشبِّه.

الوجه الثاني: أنه إنما عطَّل لاعتقاده أن هذه الأدلة تدل على التشبيه، يقولون مثلًا: إثبات اليد معناها المثيل، وإثبات العين معناها المثيل، وهكذا، فمن أجل ذلك أُنكِر هذه الصفة حتى لا أقع في التمثيل، فيقول شيخ الإسلام: إنه مثَّل أولًا، وعطَّل ثانيًا، وبهذا نعرف أن هذين الطريقين كلاهما سيء، وكل واحدٍ منهما أخذ من الباطل بنصيب.

❁ ❁ ❁

القسم الثاني

متن القصيدة النونية وشروحها

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل

ولما كان موضوع هذا الكتاب ما ذكرنا، وكانت تلك المواضيع أقوى الدواعي إلى محبة الله التي هي أصل الخير والسعادة والفلاح، ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول فصل منها «حكمُ المحبة ثابت الأركان» لتوفر شروطه وهي كمال المحبوب المطلق من جميع الوجوه، وآلاؤه ونعمه المتنوعة، وقوة المحبة من الأنبياء والأصفياء وأتباعهم، والموانع منتفية في حق خواص الخلق، وقيام البراهين والأدلة والشواهد على ذلك عقلًا ونقلًا وفطرة وذوقًا ووجدانًا، فصار هذا الحكم ثابتًا كاملًا علميًا اعتقاديًا وجدانيًا عقليًا، وأنه لا سبيل للعذال واللوام الذين يريدون إبطال الحقائق الثابتة ومحو الأمور اليقينية، ولا طريق لهم إلى نقضه وإبطاله، لأنه تم وأبرم ونفذ، بل هو على الدوام في نمو وازدياد، لثبات أصوله، واستمرار ينابيعه وموارده.

ثم إن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبب تشبيبًا خياليًا بالمحبوبة، كعادة الشعراء يشببون بأعلى محبوباتهم، ثم ينتقلون منها إلى الأغراض التي يقصدونها في غاية اللطف والخفاء، فيقع ذلك من الحسن في أعلى المراتب وأعذب المشارب، فإن كان غرضهم مدحًا انتقلوا إليه من ذلك المحبوب الموصوف بالصفات التي يذكرونها، فيكون معنى ذلك ومضمونه أن الغرض المنتقل إليه أعلى عندهم وأشرف من المنتقل منه، وإن كان الغرض الذي يريدونه ذمًا وقدحًا وتخلصوا إليه من وصف ذلك المحبوب، كان ذلك المنتقل إليه فيه من القبح والقدح والذم أبلغ وأعظم مما في هجر المحبوب وصده الذي هو أكره شيء للمحبين، فلذلك سلك المؤلف هذا المسلك، فإنه لما شبب بمحبوبته الخيالية وذكر أوصافها وشدة تعلقه بها وأنه لا زال يتمنى وصلها يقظة ومنامًا وأن محبوبته فاجأته بوصلها بعدما وعدته

وصدقت في موعدها وأن هذا اللقاء إنما هو في المنام أو تخيل في الوهم، فلما حصل له ذلك اللقاء الذي هو أغلى عنده من روحه اندهش وهام بحديثها الشافي للسقام فقال لها في تلك الحال:

إن كُنتِ كَاذبَـةَ الـذي حَدَّثتني فَعلَيكِ إثـمُ الكَـاذِبِ الفَتَّـانِ

وهو جهم بن صفوان وشيعته، ثم جعل يذكر مذهب الجهمية المنتسبين إلى جهم بن صفوان، فوقع هذا التخلص في نهاية الحسن. فللَّه دره ما أبلغه، وما أشد شكيمته في الحق، وكان الجهم بن صفوان معروفًا بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله التي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة، إلا هؤلاء المبتدعة ومن سلك سبيلهم فإنهم زعموا أن الله معطل عن صفات الكمال، وأنه ليس على العرش رب يعبد، وأن حظ العرش منه كحظ الأرض السابعة السفلى، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وكذلك قالوا إنه ليس له سمع ولا بصر ولا قدرة ولا علم ولا إرادة ولا رحمة ولا وجه ولا يدان ولا له صفة تقوم به، وإنما هو على قولهم ذات مجردة عن الأوصاف الخالية من المعاني والنعوت، فأثبتوا الأسماء ونفوا ما دلت عليه الصفات، وهذا مجرد تصوره كاف في رده وإبطاله، ويعلم به مخالفته للسمع والعقل كما سيأتي شرح ذلك، وزعموا مع هذا أنه ليس له خليل من خلقه فنفوا محبة الله وخلته لمن اصطفاه من عباده، وزعموا أنه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولا كلم موسى تكليمًا، فأنكروا صريح الكتاب والسنة، وفسروا معنى خليل الله بأنه الفقير إلى الله، ومعلوم أن هذا التفسير باطل فإنه يدخل فيه الأبرار والفجار وأهل الجنة وأهل النار فكلهم مفتقرون إلى الله ليس لأحد غنىً عنه طرفة عين، فلزم من هذا مساواة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في الخلة لكل أحد، وهذا من أبطل الباطل.

ولما كان هذا القول متقررًا قبحه وبطلانه عند سلف الأمة وأئمتها وأمرائها وعامتها، وأظهر الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان هذا القول، طلبه ولاة أمر المسلمين، فأخذه خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية على العراق فأوثقه وخرج به للمصلى يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه

زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم موسى تكليمًا تعالى الله عن قوله، ثم نزل فذبحه بالمصلى، فشكر الناس له هذا الفعل بشيخ الجهمية.

ثم تمم المؤلف مقالات الجهمية في هذه الفصول المتوالية، فذكر أن مذهبهم في باب القضاء والقدر وأفعال العباد (الجبر)، وأن العبد عندهم مجبور ومقهور على أفعاله كلها خيرها وشرها، وأنه ليس بفاعل حقيقة، وأن فعله بغير اختياره بمنزلة هبوب الرياح وتحرك الأشجار وحركة المرتعش والنائم ونحوهم ممن حركاتهم بغير اختيارهم، وهذا باطل شرعًا وعقلًا، فإنه من المعلوم عقلًا وحسًا الفرق بين الحركة الاختيارية الواقعة بقدرة العبد وإرادته، والحركة القسرية التي لا إرادة له فيها ولا اختيار.

والشارع أضاف الأعمال خيرها وشرها للعباد، وأخبر بوقوعها بقدرتهم ومشيئتهم وأن لهم الاختيار في الفعل والترك، وهؤلاء الجبرية سووا بين النوعين ظنًا منهم أن هذا مدلول القضاء والقدر، وأنه كيف يقضي عليهم ما يعاقبهم عليه،؟ وهذا من أقبح الأغلاط وأشنعها، فإن القضاء والقدر لا ينافي أن العباد هم العاملون لأعمالهم، فإنه تعالى خالق كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، وأفعال العباد تقع بقدرتهم وإرادتهم التي خلقها الله فيهم، وأعطاهم الاختيار في ترجيح ما يختارون، وخالق السبب التام خالق للمسبب. وأيضًا فإنه يعاقبهم على كفرهم ومعاصيهم وهو الحكم العدل، فكيف يعاقبهم على ما ليس من فعلهم؟! هذا من أنكر المنكر وأبطل الباطل، وعند هؤلاء الجبرية الظلم محال عندهم لا يتصور وقوعه، فانظر كيف قادهم هذا الأصل الخبيث، إلى إبطال الأمر والنهي والجزاء بالعدل وإقامة المعذرة لكل ظالم ومجرم، فالظلم الذي نزه الله عنه نفسه وتمدح به أنه لا يعذب أحدًا بغير ذنبه ولا يهضمه من حسناته شيئًا ولا يزيد في سيئاته ما لم يعمله، فهو تعالى قادر عليه، ولكن لكمال عدله وحمده حرمه على نفسه وأخبر بنفيه عنه في مواضع كثيرة من القرآن.

ثم ذكر في الفصل الذي بعد هذا أن الجهمية كما نفوا صفاته فإنهم نفوا حكمته في خلقه وأمره، وما احتوت المخلوقات والشرائع عليه من الحكمة، وما توصل إليه من الغايات الحميدة المرادة لله في شرعه وخلقه، كما دل على ذلك اسمه الحكيم وإخباراته الصادقة، وما هي موجودة عليه في نفس الأمر، واتفق على ذلك الصحابة والسلف الصالح وأئمة الدين

على أن حكمته وصفه العظيم القائم به الناشيء عنه وقوع الأشياء في أحسن صنع وأكمل نظام، وإحكام أحكامه بالحكمة التي صارت بها أحسن الأحكام، وفسروا الحكمة بأنها وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها اللائقة، فنفى الجهمية ذلك كله: فلم يثبتوا لله حكمة حقيقية، بل جعلوا حكمته نفس مشيئته، وزعموا أنه يجمع بين المختلفات بأوصافها ويفرق بين المتماثلات، فيرجح مثلًا على مثل بلا مرجح، ومع ذلك فهذه الحكمة التي يثبتونها على هذا الوجه المنحرف ليست عندهم صفة قائمة بالله، بل يفسرونها إما بأنها ترجع إلى مجرد الذات العارية عن الصفات، أو أنها راجعة إلى المفعولات، كما قالوا ذلك في كلامه إذ زعموا أنه مخلوق خلقه في بعض الأجسام كسائر المخلوقات؛ لأن كلامه على أصلهم غيره، وما كان غيره كان مغايرًا له مخلوقًا، وهذا معلوم البطلان، فإن صفات الله التي من جملتها الكلام داخلة في مسمى ذاته، فهو الله الموصوف بجميع صفاته، وهو بأسمائه وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، وسيأتي إن شاء الله الكلام في الغيرية هل تطلق على الصفات أم لا؟ وما في ذلك من التفصيل.

ومن مقالة الجهمية التي لم يسبقهم إليها أحد من سلف الأمة وأئمتها كلامهم في تفسير الإيمان، حيث زعموا أن الإيمان هو إقرار العبد بأن الله خلقه ودبره فقط، وأما أعمال القلوب من محبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه فإنها لا تدخل في الإيمان عندهم، وكذلك عندهم أعمال الجوارح وأقوال اللسان غير داخلة في مسمى الإيمان عندهم، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف من دخول جميع المذكورات في الإيمان، وأنه اسم لعقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأن الناس فيه متفاوتون جدًّا بحسب ما قاموا به من أمور الإيمان، وعند الجهمية إيمان أصلح الناس وأكملهم إيمانًا كإيمان أفسقهم وأنقصهم إيمانًا، فكلهم في الإيمان على حد سواء عندهم. فمن لوازم هذا القول الفاسد المعلوم فساده بالضرورة أن إبليس وفرعون وقارون وقوم عاد وثمود وقوم نوح ونحوهم وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وسائر الكفرة الذين يعرفون أن الله خلقهم ليسوا كفارًا، وهذا اللازم لهذا القول الباطل معلوم عند كل أحد أنه باطل منكر، حتى عند هؤلاء الجهمية ينفون الإيمان عن هؤلاء ويتولون كل من حكم الشارع بكفره فإنه دليل على أنه ليس في قلوبهم شيء من

الاعتراف بالله، وإنما هم جاهلون بربهم غير مقرين بربوبيته، وهذا من أبطل الباطل، وهو نوع من المكابرة والسفسطة، لما صرح به الكتاب والسنة من اعترافهم بربوبية الله وخلقه، ولما هو معلوم من أحوالهم.

فقول المؤلف: «هم عند جهم كاملو الإيمان» أي هذا لازم قوله، وإلا فلو قال ذلك وصرح به لكان كفره ظاهرًا لكل أحد، ولكن يستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم.

وأما الإيمان الشرعي عند السلف فإنه شامل للعقائد الدينية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى، ويترتب على هذا أن الإيمان يزيد بزيادة هذه الأمور وينقص بنقصها، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه أوصاف الخير والشر، وله من الثواب وعليه من العقاب بحسب ما قام به واتصف به من أمور الإيمان، وهذا كما أنه القول الذي أجمع عليه السلف الصالح مستندين فيه إلى نصوص الكتاب والسنة فإنه القول الموافق للعقل وللفطرة التي فطر الله عليها عباده.

ثم ذكر المؤلف في الفصل الذي بعده أن الجهمية ومن تبعهم، أن مذهبهم في أفعال الله الاختيارية المتعلقة بمشيئته وقدرته من أفسد المذاهب وأبعدها عن الصواب، فإنهم زعموا أن الله كان في الأزل معطلًا عن أفعاله وأن يمتنع عليه الفعل غاية الامتناع، ثم بعد هذا الامتناع استحال الأمر فصار قادرًا على الفعل من غير أن تحدث له صفة فوجب حدوث فعله وانقلاب الممتنع ممكنًا، بل أن حاله قبل ذلك ومعه وبعده على حد سواء، والذي قادهم إلى هذا القول الباطل نفيهم للتسلسل في أفعال الله زعمًا منهم أن إثبات التسلسل ودوام فاعلية الرب يقتضي قدم المخلوقات، وأنه لا يمكنهم إثبات حدوثها إلا بهذا الأصل الذي أصلوه وخالفوا به الكتاب والسنَّة وأقوال سلف الأمة. وطردوا أصلهم هذا فقالوا: كما أن التسلسل منفي في الماضي فهو منفي في المستقبل، فإن أفعال الله على قولهم تعدم في المستقبل كما كانت معدومة عندهم في الماضي، فتفنى الجنة والنار وأهلها وما فيهما من النعيم والعذاب.

وزعم أبو الهذيل العلاف المعتزلي أن الفناء يكون في الحركات لا في الذات، وأن أهل

الجنة والنار سيأتي عليهم زمان تنقطع فيه حركاتهم ويبقون جمادات في سكون أبدًا، والنار وأهلها كذلك، وهذا ـ مع مخالفته للكتاب والسنة والإجماع ـ مما يضحك السفهاء، فلذلك صور المصنف قوله هذا، فإنه بمجرد تصوره يكفي الإنسان معرفةً بسخافته وهجنته، فإنه على قول أبي الهذيل وأتباعه من المعتزلة إذا جاء ذلك الوقت الذي ينقطع فيه فعل الله أن أهل الجنة وأهل النار يكونون فيها كالحجارة والصور، وأن من صادفه ذلك الزمان وقد امتدت يده إلى ثمرة في الجنة يسكن وتبقى يده ممتدة على الدوام، ومن رفع لقمة إلى فيه فأتى عليه ذلك الوقت بقيت يده مرفوعة فيها اللقمة وفمه مفتوحًا مستعدًا لتناولها، ومن كان في تلك اللحظة مواقعًا لزوجته بقيا حجرين متصلين على الدوام، وهكذا، وكذا بقية الصفات، فتبًا لهذه العقول والأذهان، والحمد لله على نعمة السنة والقرآن.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة وهي أفعال الله: فهو ما دل عليه الكتاب والسنة والعقل السليم، أن الله تعالى لم يزل ولا يزال كاملًا متصفًا بجميع صفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال ولم يزل يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فإنه لم يزل فعالًا لما يريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، بل لا يتأتى الكمال إلا بتنوع الأفعال، فكيف يمكن أن يكون في وقت من الأوقات خاليًا من هذا الكمال، وهذا يقتضي أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، ولا محدث إلا وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة الله وإرادته، مرتبطة بحكمته، وهذا لا يقتضي كون شيء من أعيان العالم قديمًا، بل إثبات هذا الأصل أكبر دليل على حدوث العالم، فالتسلسل الباطل الذي اتفق العقلاء على بطلانه هو التسلسل في العلل والمؤثرات، هذا هو المحال الممتنع، وأما التسلسل في الآثار فإنه ثابت بالأدلة السمعية والعقلية، لا يمكن غيره، فالله تعالى لم يزل قادرًا على الفعل، ولم يزل يفعل ولا يزال يفعل، وأفعاله لا تنفد ولا تبيد، والجنة والنار وأهلهما في خلود دائم ونعيم أو عذاب مستمر. والله أعلم.

ثم ذكر المصنف في الفصل الذي بعد هذا مذهب الجهمية، وقولهم في المعاد، وأنه قول باطل، فإنهم زعموا أن الله تعالى يعدم الخلق عدمًا محضًا: العالم العلوي والسفلي وما فيهما من المخلوقات كما يزول الظل بالشمس، ثم يعيد هذا المعدوم ثانيًا فيكون المعاد بعينه هو

المفني، فقالوا هذا القول الفاسد الذي مجرد تصوره يكفي في إبطاله، ونسبوا هذا القول الباطل للقرآن والسنة، وما في الكتاب والسنة مبطل له كما سيأتي التنبيه عليه، فلما نسبوه للإسلام ورأى الفلاسفة بطلانه ببديهة العقل، فظنوا بالإسلام الظنون السيئة، فتجرأ ابن سينا القرمطي وأتباعه ومن قال بقوله على الكفر العظيم والتكذيب بما جاء به الرسول، فإن الأذهان لا تقبل هذا القول ولا تتصوره، بل تحيله وتراه من الممتنعات، فأوجب لهؤلاء الملاحدة التمسك بما هم عليه من الكفر وإنكار المعاد رأسًا.

فهذا القول الذي قاله جهم في المعاد ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وإنما مذهب سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة، أن حقيقة المعاد هو إعادة الله ما تفرق من أجزاء الأموات ورد ما استحال منا من عين إلى أخرى فإنه جل جلاله لما كان واسع العلم: يعلم ما تنقص الأرض منهم، ولا يخفى عليه ما تفرق في ظلمات الأرض وقرار البحار، ولا ما استحال في الفيافي والقفار والأماكن الظاهرة والخفية، ولا ما أحالته بطون السباع والطيور والنار، وهو مع سعة علمه كامل القدرة نافذ المشيئة إنما أمره إذا أراد شيئًا قال له :كن فيكون، فإنه يعيد العالمين بجميع ما تفرق منهم، ورد ما استحال، فيعودون بأعيانهم، ولا يمتنع على قدرته ردهم وإعادتهم من عين إلى أخرى، وقد أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يبين لهم أنه الحق فأشهدهم من أعمال الكهرباء والمخترعات الحادثة ما يدلهم أكبر دلالة على إمكان وقوع جميع ما أخبر الله به وأخبرت به رسله من أمور الغيب والبعث والجزاء وغيرها، فالذي أقدر المخلوق على هذه الأعمال الباهرة ألا يدل أنه على كل شيء قدير وأنه لا يمتنع ولا يتعاصى على قدرته شيء. فهذا القول الذي دلت عليه الكتب المنزلة وجاءت به الرسل هو الذي تقبله الأذهان وتعترف به العقول وتخضع له الألباب، وأن المعادين بأعيانهم هم الذين أماتهم الله ثم نقلهم لأطوار متنوعة ثم أعادهم بأعيانهم، فإن الوحي صرح بأنه يغير الأكوان وينقلها من صفة إلى أخرى لا يفنيها فناء محضًا ثم يعيدها، فأخبر أنه يبدل السماوات والأرض وهذا تبديل لصفاتها ولذاتها كما يبدل الله جلود أهل النار إذا احترقت جلودًا غيرها، فإنها استحالت فحمًا فيعيدها ويردها على حالتها الأولى وهكذا، وإخباره أنه يقبض السماوات

والأرض بيده وهما المعروفتان، لأنهما لو كانتا فانيتين لم يتصور أن يخبر أنه يقبضهما، بل يخبر أنه يقبض غيرهما.

وكذلك أخبر أن الأرض يومئذ تُحدّث أخبارها وتشهد بما عُمِلَ عليها من خير وشر، فلو كانت غيرها من كل وجه لم يكن الخبر على حقيقته، وكان الذي يتحدث ويشهد غيرها، وإنما الله يسويها ويبسطها ويبدل صفتها ويكون لها في ذلك اليوم أحوال متنوعة وصفات متعددة، وكذلك السماوات يحصل لها تغير في الصفات فتكون الجبال كثيبًا مهيلًا، ثم تكون كالعهن وكالهباء المبثوث، ويمد الله الأرض فيجعلها قاعًا صفصفًا مستويًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتُخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة كالأسطوان العظيم لا يستطيع أحد أن يأخذ منه، كل مشغول بنفسه، وكذلك تسجر البحار فتكون بحرًا واحدًا وكذلك يأذن الله للشمس والقمر فيجتمعان، فالشمس مكورة والقمر خاسف ويطرحان في النار ليعلم من عبدهما أنهم كانوا كاذبين وأنهما من جملة المخلوقات المسخرات المدبَّرات لا المدبِّرات، وتنشق السماء فتكون وردة كالدهان تتلون من عظم ذلك الهول، وتمور مورًا فتنثر كواكبها، وكل ما ذكر الله من هذه الأوصاف هو تغير لصفاتها لا لذاتها خلاف ما يقوله جهم وأصحابه.

ومما يدل على بطلان قول جهم أن جميع العالم العلوي والسفلي عنده يفنى فناء محضًا يدل على بطلانه أنه قد دلت الأدلة الشرعية أن العرش والكرسي والجنة وما فيها من الولدان والحور كل ذلك مخلوق للبقاء لا يفنى ولا يبيد، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة، إلا الجهمية فإنهم زعموا أن الجنة والنار لم تخلقا، وأنهما لا تخلقان إلا يوم القيامة، ثم بعد ذلك يفنيان عنده كما تقدم، وهذا من أبطل الباطل، ومما يدل أيضًا على فساد قولهم أنه ثبت أن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء وأجسامهم، وأن عجب الذنب من كل أحد لا يبلى كما يبلى الجسد بل يبقى، منه يُرَكِّب الله خلقة الإنسان، فلو كان الفناء يعم الأشياء كلها لاضمحلت أجساد الأنبياء وعجب الذنب من الإنسان. ومما يدل على ذلك ما تواترت به النصوص من بقاء الأرواح بعد الموت في البرزخ منعمة أو معذبة إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله بعث العباد وإخراجهم من القبور أمطر على الأرض أربعين يومًا مطرًا عظيمًا

غليظًا كمني الرجال لا يكن منه بيت مدر ولا بيت شعر، فينبت الخلق من ذلك كنبات الطراثيث، فإذا تكاملت الأجساد نفخت الأرواح فدخلت في الصور، فهذا هو المعاد الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهذه هي النشأة الأخرى، وهذا الذي تتصوره العقول والأذهان: لم يقل الله ورسوله إن الله يعدم خلقه عدمًا محضًا كما قالته الجهمية. ولما كان هذا هو القول الذي لا شك فيه وعليه سلف الأمة وأئمتها، وكانت أدلته وبراهينه النقل المؤيد بالعقل، لم يكن ملحدًا ولا زنديقًا أن يقاوم هذا القول أو يورد عليه إشكالًا يمنعه، وتمكن أهل السنة من كسر الفلاسفة الملاحدة، والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

١- حُكْـمُ المَحَبَّـةِ ثَابِـتُ الأَركَـانِ [1]

مَـا للصُّـدُودِ بِفَسْـخِ ذَاكَ يَـدَانِ [2]

٢- أنَّى وَقَاضِي الحُسنِ [3] نَفَّذ حُكمَها

فَلِـذَا أَقَـرَّ بِـذَلِكَ الخصـمانِ [4]

٣- وَأتَـت شُـهُودُ الوَصلِ تَشهَدُ أنـه

حَقًّـا جَرَى فـي مَجلسِ الإحسـانِ [5]

٤- فتأكَّـدَ الحُكـمُ العزيـزُ فَلَـم تَجِـد

فَسـخُ الوُشَـاةِ إلَيـهِ مِـن سُـلطَانِ [6]

٥- وَلأجلِ ذَا حُكـمُ العَذُولِ [7] تَدَاعت

أركَـانُ مِنـهُ فَخَـرَّ للأذقَـانِ

---

(١) ركن الشيء جانبه الأقوى، أي ولثبوت أركانه وشدتها لا يطيق الصدود فسخه. توضيح المقاصد (١/ ٣٨).

(٢) حكم المحبة إلخ براعة الاستهلال وهو أن يكون الابتداء مناسبًا للمقصود لأن المنظومة المذكورة في المحاكمة بين الطوائف. توضيح المقاصد (١/ ٣٩).

(٣) أي كيف يقدر الصدود على فسخه وقد ثبت وتوطدت أركانه وذلك أن قاضي الحسن نفد حكمها أي نفذ حكم المحبة وفي بعض النسخ نفذ حكمه والمعنى واحد وفي قوله قاضي الحسن وهو الجمال استعارة وذلك أنه شبه الحسن في قوته وسلطنته على المحبوب وقهره له بسلطنة القاضي الحسي وقهره للخصوم ونفاذ حكمه فكذلك حسن هذه المحبوبة حكم على محبها بالمحبة. توضيح المقاصد (١/ ٣٨).

(٤) أي لما حكم قاضي الحسن بالمحبة أقر الخصمان بها . توضيح المقاصد (١/ ٣٩).

(٥) أي لما حصل وصل هذه المحبوبة وشهدت به الشهود تأكد الحكم فلم يبق سبيل للوشاة إلى فسخه وهذا معنى قوله فتأكد الحكم العزيز. توضيح المقاصد (١/ ٣٩).

(٦) هذا من الكلام المقلوب والمعنى لم تجد الوشاة إلى فسخه من سلطان هذا إن كان لفظ تجد بالتاء وإن كان اللفظ يجد بالتحتية فهو ظاهر وفسخ فاعل يجد وفسخ مضاف والوشاة مضاف إليه. توضيح المقاصد (١/ ٣٩).

(٧) العذول: كثير العذل أبي اللوم.

قال الشاعر:

أقلني اللوم عازلًا والقباب وقولي إن أصبتُ لقد أصاب

٦- وأتـى الوُشـاةُ فَصـادَفُوا الحُكـمَ الـذِي
حَكَمُـوا بـه مُتَـيَقَّنَ الـبُطلانِ

٧- مـا صَـادَفَ الحُكـمُ المَحَـلَّ وَلا هُـوَ
تَـوفَى الشُّـروطَ فَصَـارَ ذا بُطـلاَنِ

٨- فَلِذَاكَ قَاضِي الحُسنِ أَثبَتَ مَحضَرًا
بِفَسَـادِ حُكـمِ الهَجـرِ والسُّـلوانِ(١)

٩- وَحكَى لَكَ الحُكمَ المُحالَ وَنَقضَهُ

---

(١) [١ : ٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

المفردات

الأركان جمع (ركن)، وهو: جانب الشيء الأقوى ـ (الصدود): الهجر والتمنع ـ (يدان) تثنية (يد) بمعنى: القدرة ـ (أنى) بمعنى: كيف. (الوشاة): جمع (واش)، من (وشى به يشي وشاي) إذا نم عليه وسعى به، (لدان) تثنية (لدة) كعدة وهي: (التِّرب) أي المساوي، (مقسط) أي: عادل، الغرام: الحب. والواله: المتحير من شدة الوجد. الغبن في البيع: النقص من الثمن أو غيره واها: كلمة تقال إما للتعجب من الشيء أو للتلهف والحسرة ـ الكثبان: جمع كثيب، وهو التل من الرمل، والسجع: شدو الطير وغناؤه ـ قطف: بكسر القاف بمعنى مقطوف.

الشرح

[بدأ الشيخ قصيدته بالنسيب جريًا على عادة الشعراء في ذلك، ولكن لم يعن بالمحبة هنا إلا ما يتعلق منها بالمطالبة العالية، والمعاني الشريفة التي تتعشقها القلوب الكبيرة، وتجد في طلبها ووصالها، وتسهر الليالي في تحصيلها].

ويخاطب المؤلف بهذه الأبيات المحب الذي لا يرعى شروط المحبة ولا يعرف قدر محبوبه، فهو مع ما يكابده من الوجد والشوق قد هانت عليه نفسه فلم يعطها حظها من وصل محبوبها؛ لأنه باعه طائعًا بأنجس الأثمان، أعني بالصد والتعذيب والهجران، وذلك لجهله بوصف ذلك المبيع وقدره وما يستحقه من غالي الأثمان. ثم يلتفت الشيخ متحسرًا على ذلك القلب الهائم الذي استبد به الهيام، فطيره لا يفارق تلك الأغصان القائمة على كثبانها. ويديم الشدو والغناء فوقها، ومع ذلك فهو محروم من ثمارها وقطوفها على حين يستمتع بها غيره ممن واتاهم الحظ بوصال ذلك المحبوب، وهو كذلك يبيت ليله شاكيًا باكيًا يندب حظه ويتجرع قسوة الحرمان، على حين يبيت ذو الوصل ضاحكًا نشوان. ولكنه مع كل هذا الحرمان والعذاب في الحب فهو لا يسلو ولا يزال مفتونًا بالجمال، حتى أنه لو وجده معلقًا بالثريا لما قعد عن الطيران إليه.

فاسـمع إذًا يـا مَـن لَـهُ أُذُنَـانِ

١٠-حُكـمُ الوُشَـاةِ بِغيـرِ مَـا بُرهَـانِ

إنَّ المحبَّـةَ والصُـدُودَ لِـدَانِ

١١-وَاللهِ مـا هـذَا بِحُكـمٍ مُقسِـطٍ

أيـنَ الغَـرامُ وصَـدُّ ذِي هِجـرَان

١٢-شـتَّان بـين الحـالتَينِ فَـإن تُـرِد

جَمعًـا فمـا الضِّـدَّانِ يَجتَمعَـانِ

١٣-يَـا وَالِهًـا هَانَـت عَلَيـهِ نَفسُـهُ

إذ بَاعَهَـا غَبنًـا بِكُـلِّ هَـوَان

١٤-أتَبِيـعُ مَـن تَهـواهُ نَفسُـك طائِعًـا

بالصَّـدِّ والتَّعـذيبِ والهِجـرَانِ

١٥-أجَهِلـتَ أوصَـافَ المبِيـعِ وقَـدرَهُ

أم كُنـتَ ذا جَهـلٍ بِـذِي الأثمَـانِ

١٦-وَاهًـا لِقَلـبٍ لا يُفَـارِقُ طَيـرُه الـ

أغصَـانَ قَائِمَـةً عَلَـى الكُثبَـان

١٧-وَيَظَـلُّ يَسـجَعُ فوقَهَـا وَلِغَيـرِهِ

مِنهَـا الثِّمَـارُ وكُـلُّ قِطـفٍ دَانِ

١٨-ويبيـتُ يَبكِـي والمواصِـل ضَـاحِكٌ

وَيَظَـلُّ يشـكُو وهـو ذُو هجـرانِ

١٩-هَـذا وَلَـو أنَّ الجَمَـالَ مَعلَّـقٌ

بـالنَّجمِ هَـمَّ إليـهِ بـالطَّيرانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا المقطع أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ به أن يجعله مقدمة لامرأة معشوقة له، فيأتي وصفُها فيما بعد، وما عمِلَت للوصول إلى حبيبها، وغرضه بهذا: أن يتوصَّل إلى المقصود؛ لأنه كان من عادة الشعراء في الأمور الهامة أن يُقدِّموا لها مثل هذه المُقدِّمة، وقد جاء مثل ذلك بين يدي رسول الله ﷺ في قول الشاعر: (بانَتْ سُعاد)[1] إلخ؛ لأن حضور النفس بمثل هذه الأوصاف وهذا التعلُّق وتهيُّؤها لما يُلقَى إليها أمرٌ مطلوب، والمسألة هنا ليست بالهيِّنة، المسألة محاكمة بين أهل الإثبات وأهل التعطيل، القصيدة كلها محاكمة بين أهل الإثبات وأهل التعطيل، لذلك قدَّم لها المؤلف هذه المقدمة العظيمة.

ومن قاعدتنا - إن شاء الله تعالى - في هذا الكتاب: ألَّا نُطيل في الشرح؛ بمعنى: ألَّا نتكلَّم على كل كلمة، وفي كل بيت، لكن كلما أخذنا قطعة بيَّنَّا المراد منها، لئلا نبقى طويلًا في هذا الكتاب، وتضيع الفائدة المقصودة من دراستنا فيه.

فصار الخلاصة الآن: أنَّ المؤلف ذكر المحبة وشئونها، ثم ذكر بعد ذلك المحبوب، لينتقل إلى المقصود.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٠-لله زائِـــرَةٌ بِلَيْـــلٍ لَـــم تَخَـــف
عَسَـــسَ الأميـــرِ وَمَرصَـــدَ السَّـــجَّانِ

٢١-قَطَعَـت بِـلادَ الشَّـامِ ثُـمَّ تَيمَّمَـت
مِـــن أرضِ طَيبَـــةَ مَطلَـــعَ الإيمـــان

٢٢-وأتَـت علـى وادي العَقيـقِ فجاوزت

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٢٤٣) قلت: وعلى هذا نسخ أمير الشعراء قصيدة في مدح الرسول «نهج البردة» فبدأها بقوله:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دم في الأشهر الحرم

مِيقاتَــــهُ حِــلًّا بِـــلا نُكـــرانِ

٢٣-وَأتَتْ عَلَى وَادِي الأرَاكِ وَلَم يَكُن

قَصْــدًا لَهَــا فــألا بِــأن سَــتَرانِي

٢٤-وأتَــت عَلَــى عَرفَـاتِ ثُــمَّ مُحَسِّــرٍ

وَمِنًـــى فَكَــم نَحَرَتــه مـــن قُربَـــانِ

٢٥-وأتَـت عَلَـى الجَمَـراتِ ثُـمَّ تيمَّمَـت

ذاتَ السُّـــتُورِ وَرَبـــةَ الأركَـــانِ

٢٦-هَــذَا ومـا طَافَـت ولا استَلمت ولا

رَمَـــتِ الجمـــارَ ولا سَــعت لِقِــرَانِ

٢٧-وَرَقَت على أعلَى الصَّـفَا فَتيمَّمَـت

دَارًا هنالِـــكَ لِلمُحِـــبِّ العَـــانِي

٢٨-أتَـــرَى الـــدَّلِيلَ أعَارَهَـــا أثوابَـــهُ

والـــرِّيحَ أعطَتهـــا مِـــنَ الخَفَقَـــانِ

٢٩-واللهِ لَـــو أنَّ الـــدَّلِيلَ مَكَانَهـــا

مَــا كَــانَ ذلِـك مِنـهُ فـي إمكَـانِ

٣٠-هـذا وَلَـو سَـارَت مِسِيرَ الـريحِ مَـا

وصَـــلَت بِـــه لَـــيلًا إلـــى نُعمَـــانِ

٣١-سَـارَت وَكَـان دَليلُهـا فـي سَـيرِها

سَـــعد السُّـــعُودِ وَلَـــيسَ بِالـــدَّبَرَانِ

٣٢-وَرَدَت جِفَـارَ الـدَّمعِ وَهـي غَزِيـرَةٌ

فَلِـــذَاك مَـــا احتَاجَـــت وُرُودَ الضَّـــانِ

٣٣-وَعَلَت عَلَى مَتنِ الهَوَى وتـزودَت

ذِكـرَ الحبيـبِ وَوَصـلَهُ المَتـدَانِ

٣٤-وَعَـدَت بِزَورَتِهـا فَأوفَـت بِالـذي
وعَـدَت وَكَـانَ بمُلتَقـى الأجفَـانِ[1]

٣٥-لَـم يَفجَـأِ المُشـتَاقَ إلا وَهـي دا
خِلـةُ السُّتُورِ بِغَيـرِ مَـا اسـتِئذَانِ

٣٦-قَالَت وَقَد كَشَفَت نِقابَ الحُسن ما
بالصَّـبرِ لـي عَـن أن أرَاكَ يَـدانِ

٣٧-وَتَحـدَّثَت عِنـدِي حَـدِيثًا خِلتُـه
صِـدقًا وَقَـد كَـذَبَت بِـه العينـانِ

٣٨-فَعجِبـتُ مِنـهُ وقُلـتُ مـن فَرِحِـي بِـه
طَمَعًـا ولكـنَّ المَنَـامَ دَهَـانِي

٣٩-إن كُنـتِ كَاذبَـةَ الـذي حَـدَّثتني
فَعلَيـكِ إثـمُ الكَـاذِبِ الفَتَّـانِ[2]

---

(١) «ملتقى الأجفان» يعني: أن هذا للقائل حصل في المنام (الكافية) ص٥٧.

(٢) [٢٠: ٣٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

المفردات

العسس: في الأصل مصدر عسس إذا طاف بالليل: يحرس الناس ويكشف أهل الريبة، المراد به هنا جماعة الحراس، المرصد: مكان الرصد. التيمم: القصد، أرض طيبة: هي المدينة دار الهجرة، وكانت تسمى يثرب، المطلع: مكان الطلوع وهو الظهور، ووادي العقيق: واد من أودية المدينة، أهلَّ منه النبيُّ ﷺ؛ وفي الحديث: «أتاني آت بالعقيق فقال: صل في هذا الوادي المبارك، ثم قل عمرة في حجة» (*) وادي الأراك وعرفات ومحسر ومنى، وكلها أمكنة مشهورة بالحجاز، ذات الستور: الكعبة المشرفة، القِران: الإحرام بالعمرة والحج معًا. [(*) أخرجه البخاري في الحج/ باب: قول النبي ﷺ: «العقيق واد مبارك» (ح١٥٣٤) وفي الباب أحاديث أخرى في الفضيلة].

الصفا: الجبل المعروف، المحث: اسم فاعل من أحثه على كذا بمعنى نشطه. ومفعول محذوف أي المحث راحلته، العاني: الأسير، الخفقان: الاضطراب ومنه خفق الطائر بجناحيه، نعمان: اسم مكان ويقال له نعمان الأراك، وسعد السعود والدبران نجمان يكنى بهما عن الإقبال والإدبار. جفار: جمع

هذه المرأة المحبوبة انظروا كيف طَوَت هذه الفيافي [(١)] من الشام إلى المدينة إلى مواضع النُّسُك؛ عرفات، مُحسِّر، ومنًى، وعمِلَت كل الأشياء، وسَعَت، ومع ذلك ما طابَت نفسُها حتى وصلَت إلى حبيبها، وهو يراها كأنه في المنام بين النوم واليقظة، ويُحدِّثُها، يقول:

وتحدَّثَـت لـي حديثًـا خِلْتُـه　　　صدقًا وقد كذبَت بـه العينان

كما أنَّ هؤلاء المُعطِّلة يتحدَّثون للناس حديثًا يظنُّه الساذج الغبي صدقًا، ولكنَّه كذِب، ولهذا قال لها:

إن كنتِ كاذبة الذي حدَّثِتني　　　فعليـكِ إثـمُ الكاذبِ الفتَّان

وأيهما أعظم؛ كذِبُها أو كذِب جهم بن صفوان [(٢)]؟

كذِبُ جهم بن صفوان، لكن حُسن تخلُّص المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وانتقاله من هذه القصة العجيبة التي تجعل الإنسان يسير بقلبه من الشام إلى المدينة إلى المشاعر، ثم في النهاية الذي

جفر وهي البئر الواسعة، المبين: الكذب.

الزورة: الزيارة ـ أوفت: أنجزت ـ ملتقي الأجفان كناية عن النوم ـ فجأة الأمر وأخذه على غرة.

النقاب: ما تنتقب به المرأة كالبرقع. دهاه الأمر: غلبه وحيره. الفتان: الشديد الفتنة، وهي خداع الناس وتضليلهم.

الشرح

يتخيل الشارح في هذه الأبيات جريًا على عادة الشعراء زائرة حسنا قد طرقته ليلًا في غير خوف من العيون والأرصاد، وأنها قبل أن تقدم عليه قد قامت برحلة طويلة وطوفت في أماكن كثيرة فاجتازت بلاد الشام قاصدة أرض طيبة التي شع منها نور الحق وصريح الإيمان.

يقدمه الشيخ بين يدي حكايته للمذاهب والمقالات التي كشف عوارها وهتك أستارها فيما سيأتي من أبيات هذه القصيدة الشماء.

(١) الصحاري.

(٢) جهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين وما علمته روى شيئًا لكنه زرع شرًّا عظيمًا انتهى. وكان قتل جهم بن صفوان سنة ثمان وعشرين وسببه أنه كان يقضي في عسكر الحارث بن شريح الخارج على امراء خراسان فقبض عليه نصر بن سيار فقال له استبقني فقال لو ملأت هذا الملأ كواكب وأنزلت إلي عيسى بن مريم ما نجوت والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك ولا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت وأمر بقتله وكان جهم من موالي بني راسب وكتب للحارث. لسان الميزان (٢/ ١٤٢) وهي أيضًا في الشرح من كلام ابن عثيمين وغيره.

هو في الحقيقة مطب عظيم لكن ما نشعر بهذا المطب العظيم، ننتقل من أمور حِسِّيَّة إلى أمور معنوية بهذه السهولة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معروف بأنه جيِّدُ الأسلوب، قوي جدًّا في أسلوبه، حتى إنَّ أساليبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدخل للإنسان كما يدخل النوم للرجل السهران.

فجهم بن صفوان هذا لابد أن نعرف أنه من تِرْمِذ، وأنه تلقى مقالة التعطيل عن الجَعْدِ بن درهم، والجَعْدُ بن درهم هو أول من قال بالتعطيل، قال كلمتين، هما: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسى تكليمًا، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان، وصار يُناظِر بهما، ويدعو إلى هذا المذهب، وانتشر المذهب على يده، فلهذا نُسِبَ إليه، وصار يُسمَّى مذهب الجهمية لا مذهب الجعدية؛ لأنه هو الذي نشَرَه، وهو مبنيٌّ على تعطيل صفات الله، هذا أول ما كان، ثم غلوا فعطَّلوا الأسماء والصفات، ثم غلوا وعطَّلوا كل ما يدل على ثبوت، ثم غلوا وعطَّلوا كل ما يدل على ثبوت أو انتفاء، وقالوا: لا يصح أن يُوصف الله بنفي ولا إثبات، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في كلامهم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٠- جَهمِ بنِ صفوانٍ وشِيعَتِهِ الأُلَى
جَحَدُوا صِفاتِ الخالِقِ الديَّانِ

٤١- بل عَطَّلوا مِنهُ السَّمواتِ العُلَى
والعَرشَ أخلَوهُ مِنَ الرَّحْمنِ

٤٢- ونَفَوا كَلامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ
وَقَضَوا لَهُ بالخَلقِ والحِدثَانِ[1]

٤٣- قالوا وليس لِرَبِّنَا سَمعٌ وَلاَ
بَصَرٌ وَلاَ وَجهٌ فَكَيفَ يدان

(١) يراجع شرح الأبيات من ٨٢٩ وبعدها للرد عليهم في نفيهم الكلام عن الله وبيان مذهب الحق في ذلك.

٤٤-وكَــذاكَ لَــيسَ لربِّنَــا مِــن قُــدرةٍ
وَإِرَادَةٍ أو رحمَــــةٍ وَحَنَــــانِ

٤٥-كَــلاَّ ولا وَصــفٌ يقــومُ بــه سِــوَى
ذَاتٍ مُجَــــرَّدَةٍ بِغَيــــرِ مَعَــــان

٤٦-وحَيَاتُــــهُ هــــي نفسُــــه وكَلاَمُــــه
هــوَ غيــرُه فاعجَــب لِــذَا البُهتَــانِ

٤٧-وكَــذاكَ قَــالُوا مَــا لَــهُ مِــن خَلقِــه
أحَــدٌ يَكُــونُ خَلِيلَــهُ[1] النَّفسَــانِ

٤٨-وخَليلُــهُ[2] المُحتَــاجُ عِنــدهُم وفــي
ذَا الوصــفِ يــدخُلُ عابــدُو الأوثــانِ

٤٩-فَالكُــــلُّ مفتقــــرٌ إليــــه لذاتِــــه
فــي أســرِ قَبضــتِهِ ذَليــلٌ عَــانِ

٥٠-وَلأجــلِ ذَا ضَــحَّى بجعــدٍ خالــدُ الــ
قَســرِيُّ يَــومَ ذَبــائِحِ القُربَــانِ

٥١-إذ قَــالَ: إبــرَاهِيمُ لــيسَ خِليلَــهُ
كَــلا ولا مُوســى الكلــيمَ الــداني

٥٢-شَــكَرَ الضَّــحِيَّةَ كُــلُّ صاحِــبِ سُــنَّةٍ
لله درُّكَ مِــــن أخِــــي قُربَــــانِ

٥٣-وَالعبــدُ عنــدهُم فَلــيسَ بِفَاعِــلٍ

---

(١) الخليل: صفيًا خالص المحبة له كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] «كلمات القرآن» (ص ٧١).

(٢) «حلية المحتاج» من الخلة بفتح الخاء بمعنى الفقر بضم الخاء من الحجية انظر «مجموع الفتاوى» (ص٥، ٧٧).

بَــل فعلُــهُ كَتَحـرُّكِ الرَّجفَــانِ

٥٤-وهَبُـوبِ ريـحٍ أو تحـرُّكِ نـائمٍ
وتحـرُّكِ الأشـجَارِ للمَـيَلانِ

٥٥-والله يُصليهِ علـى مَـا لَـيس مِـن
أفعالِـهِ حَـرَّ الحَمِـيمِ[1] الآنِ[2]

٥٦-لَكِـن يُعاقِبُـهُ علـى أفعَالِـهِ
فيـهِ تعـالَى الله ذُو الإِحسَـانِ

٥٧-والظُّلـمُ عِنـدَهُمُ المحـالُ لذاتِـهِ
أنَّـى ينـزَّه عَنـهُ ذُو السُّـلطَانِ

٥٨-ويكـونُ مَـدحًا ذَلِـكَ التنزيـهُ مـا
هَـذا بِمَعقـولٍ لِـذِي الأذهَـانِ[3]

---

(١) حميم: ماء حار.

(٢) آن: شديدة الحرارة كما في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] «كلمات القرآن» (ص٣٨٢).

(٣) [٤٠: ٥٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

المفردات

شيعته: أنصاره في مذهبه. جحدوا: أنكروا ـ الديان: اسم لله تعالى من الدين بمعنى الجزاء. عطلوا من التعطيل بمعنى النفي ـ العرش: الجسم المعروف الذي استوى ربنا عليه (*). الحدثان: الحدوث الذي هو سبق العدم. [(*) العرش في اللغة: السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] وفي الاصطلاح: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقُبَّة على العَالَم «شرح الطحاوية» (ص٣٥٢) ط. نزار لأبي عائش].

الشرح

قال العلامة محمد خليل هراس: قوله: جهم بن صفوان بدل من الكاذب الفتان. وكان الجهم من أكذب الناس على الله وأعظمهم فتنة وضلالة في الدين . قال الذهبي عنه في «الميزان»: جهم بن صفوان» هو أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان التابعين وما علمته روى شيئًا، لكنه زرع شرًّا عظيمًا.

وقال البخاري في رسالته (خلق أفعال العباد): «وحدثني أبو جعفر حدثني يحيى بن أيوب قال:

سمعت أبا نعيم الباغي قال: كان رجل من أهل مرو صديقًا لجهم ثم قطعه وجفاه فقيل له: لم جفوته؟ فقال: احتملت منه ما لا يحتمل، قرأت يومًا آية كذا وكذا أنسيها يحيى، فقال: ما كان أظرف محمد! فاحتملتها. ثم قرأ سورة طه فلما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قال: أما والله لو وجدت سبيلًا إلى حكها لحككتها من المصاحف فاحتملتها ثم قرأ سورة القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هنا ذكر قصته في موضع، فلم يتمها، ثم رمى المصحف من حجره برجليه فوثبت عليه».

ثم قال البخاري (بلغني أن جهمًا كان يأخذ من الجعد بن درهم، وكان خالد القسري أمير العراق خطب فقال: إني مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليمًا)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية»، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ.

وذكر الطبري في تاريخه في حوادث سنة تسع وعشرين بعد المائة أن الحارث ابن سُريج خرج على نصر بن سيار عامل خراسان لبني أمية وحاربه، وكان الجهم كاتبًا للحارث، فقتل الحارث في سنة ثمان وعشرين ومائة في خلافة مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وأما الجهم فقيل أنه قُتِلَ أيضًا في المعركة، وقيل بل أسره نصر بن ميار وسلمه إلى سالم بن أحوز فقتله. وكان سالم على شرطة خراسان، وقيل أن سالمًا قتله لما بلغه فساد نحلته، وأنه ينكر أن الله كلم موسى تكليمًا.

ولما كان مذهب الجهم في التعطيل والجبر أصلًا تفرع عنه كثير من فرق الضلال كالمعتزلة والفلاسفة ومتأخري الأشعرية والقرامطة الباطنية وملاحدة الصوفية القائلين بالحلول والوحدة، كابن عربي وابن سبعين وأضرابها، بدأ المصنف ببيانه مع التفصيل والإسهاب، فأخبر أن الجهم وشيعته أنكروا صفات الخالق جل وعلا، وخلاصة مذهب الجهم في هذا أنه لا يجوز أن يوصف الله عز وجل بصفة يوصف بها خلقه ؛ لأن ذلك يقتضي في زعمه تشبيهًا، فنفى كونه حيًّا عالمًا مريدًا إلخ، ولكنه أثبت كونه قادرًا فاعلًا خالقًا، لأن المخلوق عنده لا يوصف بهذه الأشياء.

وأما شيعة الجهم من أهل النفي والتعطيل فإنهم ليسوا في تجهمهم بدرجة سواء بل منهم غالٍ كالفلاسفة أتباع مذاهب اليونان، فإنهم لم يثبتوا له إلا وجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق ولم ينعته إلا بالسلوب والإضافات، ويليهم المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون الصفات، ثم متأخرو الأشعرية الذين أثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها، وسيأتي في كلام المؤلف رحمه الله ما فيه الكفاية في الرد عليهم. وبعد أن ذكر مذهبهم في جحد الصفات إجمالًا أخذ في تفصيل ذلك، فذكر كل واحدة من الصفات التي نفوها، فمن ذلك استواؤه تعالى على العرش، فالجهمية كلهم غاليهم وقاصرهم لا يؤمنون بأن في السماء ربًّا ولا فوق العرش إلهًا بل عطلوا منه السموات العلى، وأخلوا منه عرشه العظيم، مخالفين بذلك صريح الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها بل وإجماع الشرائع السماوية كلها التي قامت على أساس أن الله عز وجل في السماء، وأن الوحي ينزل من عنده على المصطفين من عباده.

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

أراد المؤلف أن يُبيِّن شيئًا من مذاهب الجهمية.

مذهب الجهمية هو الجبر بالنسبة لأفعال العبد، وأنَّ العبد مُجبَرٌ على عمله وليس هو الفاعل، وإنما فِعلُه - كما يقول -: كَتحرُّكِ الرَّجَفان، وهَبُوبِ الرِّيح، وتحرُّكِ النائم، وتحرُّكِ الأشجار؛ يعني: مثلًا أنا عندما أقول هكذا وهكذا هذا أنا مُجْبَر عليه، الفعل فعل الله، وأنا ما لي إرادة أبدًا ولا قدرة؛ مثل: لو أنَّ الشجرة تهُزُّها الرياح يمينًا وشِمالًا؛ هل لها إرادة ؟ ما لها إرادة، إنسان مثلًا: يرجُف من البرد؛ أله إرادة ؟ ما له إرادة، في رجَفَانه، فهم يقولون: إنَّ

وكذلك نفوا أن يكون الله عز وجل متكلمًا بكلام هو صفة له قائمة به، ولكنه متكلم عندهم بمعنى أنه خالق للكلام كخلقه لسائر الأعراض والأجسام، فكلام الله عندهم مخلوق مُحدث منفصل عنه كسائر مفعولاته، وإنما يضاف إليه على سبيل التشريف كما يقال: بيت الله وناقة الله، وقضوا على كلامه سبحانه بالخلق، أي بأنه من جملة المخلوقات التي توجد بالقدرة منفصلة عن الذات. وبالحدثان يعني بالأولية والابتداء، فعندهم أن الله صار متكلمًا أي خالقًا للكلام بعد أن لم يكن كذلك، ومعنى هذا أن القرآن وسائر الكتب المنزلة لم يتكلم الله بها وإنما خلقها في اللوح أو في الهواء، وكذلك تكليمه تعالى لموسى عليه السلام، إنما هو بكلام خلقه في الشجرة ونحو ذلك.

اختلفت مذاهب الناس في الحكمةِ بمعنى العلة الباعثة على الخلق والأمر، وهل لله حكمة من أجلها يفعل ويأمر، أم ليس هناك إلا مجرد الإرادة التي ترجِّح أحد المتماثلين على الأخرى بلا مرجح.

فذهب الأشاعرة والفلاسفة إلى نفي الغرض عن فعله تعالى وأمره، وقالوا: إن الفاعل لغرض مستكمل بذلك الغرض. وأما المعتزلة فمع إثباتهم الحكمة لله في خلقه وأمره لا يجعلونها صفة له قائمة، بل يجعلونها مخلوقة منفصلة عنه.

وكان الجهم ـ قبحه الله وأخزاه ـ على رأس النفاة الذين لا يثبتون لله حكمة يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها وتكون غاية للأمر وإتقان الفعل ولا يثبتون إلا مشيئة مجردة يزعمون أنها كافية في ترجيح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في جواب أهل العلم:

«فإن هذه الأقاويل أصلها مأخوذة من الجهم بن صفوان إمام غلاة المجبرة، وكان ينكر رحمة الرب ويخرج إلى الجذْمَى [«الجذْمَى» أي : المصابون بمرض الجذام]. فيقول: «أرحم الراحمين يفعل مثل هذا» يريد بذلك أنه ما ثم إلا إرادة رجح بها أحد المتماثلين بلا مرجح لا لحكمة ولا لرحمة».

والجهم مع هذا لا يثبت المشيئة وصفًا لله قائمًا به جريًا على مذهبه في النفي والتعطيل، بل يجعلها تارة نفس الذات وتارة يفسرها بما تعلقت هي به من المفعول المراد، كما جعل كلامه مغايرًا له منفصلًا عنه، وقال أنه مخلوق كسائر الأكوان المخلوقة.

الإنسان ليس له فعل اختياري، وأنه مُجبَرٌ على عمله، والله عز وجل يُصلِيه نار جهنم، ويُعاقِبُه على فعلٍ لا يُنسَبُ إليه؛ إنما يُنسَب إلى الله، لكن يُعاقِبُه على أفعاله فيه – نعوذ بالله، الله يُعاقِب هذا الإنسان المُجبَر المسكين الذي ما له فعل إطلاقًا، والفعل لله - يُعاقِبُه على أفعاله فيه -!! وهذا ظلمٌ عظيم.

قيل لهم: هذا ظُلم، كيف أن الله عز وجل يُجبِرُه على الفعل، والفعل فعل الله فيه، ثم بعد ذلك يُصلِيه نار جهنم، ويُعاقِبُه على أفعاله فيه ؟ هذا ظُلم.

قالوا: لا، الظلم عندنا هو الشيء الممتنع لذاته، المُحالُ لذاته، أما شيءٌ يفعله الله عز وجل في مُلكِه، فليس بظلم، لو فعله الله في مُلكِ غيره لكان ظالمًا، لكن هذا مُحالٌ لذاته؛ لأن المُلْكَ مُلك الله، كل ما في السماوات والأرض فهو لله، فتعذيبُه هذا الرجل على ما فعله هو فيه تصرُّفٌ في مُلكِه، إذًا ليس بظالم.

والظلم لله مُحالٌ؛ لأنَّ الظلم أن يتصرَّف الفاعل في مُلكِ غيره، ولا مالك إلا الله، فيكون حينئذٍ الظلم لله مُحالٌ لذاته.

فرد عليهم المؤلف قائلًا:

والظُّلمُ عِندَهُمُ المحالُ لذاتِـه ... أنَّـى ينـزَّه عَنـهُ ذُو السُّلْطـانِ
ويكونُ مَدحًا ذَلِكَ التنـزيهُ مـا ... هَذا بِمَعقـولٍ لِـذِي الأذهَـانِ

يعني: إذا قلتُم: إن الظلم هو المُحالُ لذاته؛ فكيف يُنزِّهُ الله عنه ؟ إذا كان مُحالًا لذاته؛ هل يحتاج إلى تنزُّه الله عنه؟ إذا كان مُحالًا؛ هل يحتاج أن يُقال: إن الله لا يظلم ؟ ما يحتاج، كيف أن نُنزِّه الله عن الظلم، ونقول: هذا مدحٌ لله عز وجل لكمال عدله، لا يظلم، ثم نقول: إن الظلم مُحال؛ لأنَّ الشيء المُحال لا يُمدَحُ الإنسانُ عليه، لا إيجادًا ولا عدمًا، مع أنَّ الله عز وجل يقول: «يا عِبَادِي ! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1]، وهذا يدل على إمكانه أم عدم إمكانه ؟ الجواب: يدل على إمكانه، لكنَّ الله حرَّمَه على نفسه لكمال عدله.

خُلاصة القول: أنَّ مذهب الجهمية في أفعال العباد: الجبر، وأن الإنسان مُجبَرٌ عليها، لا

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) وأحمد (٥/ ١٥٤) وتمام تخريجه في «رياض الصالحين» (ح ١١٢) لأبي عائش ط. نزار.

إرادة له، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة تحرُّكِ الأشجار في الهواء.

فإذا قيل لهم: تعذيبُهم على ذلك ظلم. قالوا: لا، الظلم هو الشيء المستحيل، وهذا لا يستحيل؛ لأنَّ الظلم أن يتصرَّف الإنسانُ في حقِّ غيره، أو مُلكِ غيره، وهذا بالنسبة لله مستحيل؛ لأنَّ كل شيءٍ مِلكُه، فإذًا لا ظلم لأن يتصرَّف في مُلكِه.

فنقول: هذا التفسير الذي ذكرتموه للظلم لا يُثنى به على أحد؛ لأنَّ المُحال لا يُمدَحُ الإنسان على عدم فعله، لأنَّه لو أراد أن يفعل ما يمنعه، فلا يُمدَحُ على عدم فعله، والله عز وجل نزَّهَ نفسَه عن الظلم مُتمدِّحًا بذلك، فلو كان مُحالًا لذاته صار نفيُ الظلم عن الله تنزيهًا له عما لا يليقُ به، وصار عبثًا لا فائدة منه، وهذا الأمر ظاهر.

أما الردُّ عليهم في قولهم: إنَّ الإنسان مُجبَر، فليس هذا موضعه، فأما الردُّ عليهم فظاهر، فإن كل إنسان يعرف أنَّ فعله باختياره لكن هناك أشياء ما هي باختيارك؛ كالموت، والمرض، هذا بغير اختيار لا شك، لكن الأفعال الاختيارية التي يفعلُها الإنسانُ باختياره؛ عمل صالح، وعمل سيء، قول، وفعل، هذا باختياره، ولهذا لو أمسكنا واحدًا من هؤلاء، وضربناه ضربًا مُبرِّحًا شديدًا، وقال: أخطأتم عليَّ، نقول: هذا غضبٌ علينا، أمرٌ مُقدَّرٌ، والمُقدَّر ما لنا منه محيص، لا يرضى بهذا.

أمير المؤمنين لما جيء له بسارقٍ فأمر بقطع يده - كما ذُكِر عنه -، قال: مهلًا يا أمير المؤمنين! والله ما سرقتُ هذا إلا بقدر الله، قال: صدقتَ، ونحن ما نقطع يدكَ إلا بقدر الله.

المهم: أنَّ هذا القول لا يمكن أن يستقيم عليه أحد إطلاقًا، ولو أننا قلنا به لفَسَدَت السماوات والأرض، ولكان كل إنسان يزني، ويسرق، ويقتل، ويشرب الخمر لا ملام عليه، لأنه بغير اختياره، وبغير إرادته.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل

٥٩-وَكَـذاكَ قـالُوا مَـا لَـهُ مِـن حِكمَـةٍ
هِـي غَايَـةٌ للأمـرِ والإتقَـانِ

٦٠-مـا ثَـمَّ غيـرُ مَشِـيئةٍ قـد رَجَّحَـت
مِـثلًا علـى مِثـلِ بِـلاَ رُجحَـانِ

٦١-هَـذا وَمَـا تِلـكَ المَشِـيئةُ وَصـفَهُ
بَـل ذَاتُـه أو فِعلُـهُ قَـولاَنِ

٦٢-وكلامُـهُ مُـذ كَـانَ غيـرًا كَـانَ مَخـ
ـلُوقًا لَـهُ مِـن جُملَـةِ الأكـوَانِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه الأبيات الأربع أيضًا في قولهم في حكمة الله عز وجل، يقولون: إنَّ الله سبحانه وتعالى ليس له حكمة، إذ نفوا الحكمة عن الله ووصفوه بالسَّفَه؛ لأنَّه ـ السَّفه ـ مقابل الحكمة، هم قالوا: إنَّ الله ليس له حكمة؛ قالوا: لأنَّ الحكمة غرض باعثٌ على الفعل، والله عز وجل ليس له غرض، ومُنزَّهٌ عن الغرض، ولهذا من ألفاظهم السائرة الباطلة، يقولون: إنَّ الله مُنزَّهٌ عن الأبعاض، والأعراض، والأغراض.

يُريدون بالأبعاض: الوجه، واليد، والعين، وما أشبه ذلك.

والأعراض؛ أي: الصفات؛ لأنَّ الصفات أعراض لا تقوم إلا بأجسام.

والأغراض؛ يعني: الحكمة، فالله ليس له حكمة، فإنه يفعل الشيء لُمجرَّد المشيئة فقط؛

مثل: أن يأتي سفيهٌ يأكل تمرًا ويأكل جمرًا، ويشرب ماءً عذبًا أو مُرًّا، وإذا قيل له لماذا فعلت ذلك؟ قال: هذا الذي أريدُه، وهذا ليس بمعقول بالطبع.

وكذلك يقولون: إن الله يفعل الأشياء كلها، يخلق نارًا وجنة، ويُعذِّب هذا، ويُكرِم هذا، وما أشبه ذلك بدون حكمة؛ بل مُجرَّد مشيئة، شاء أن يفعل ففعل، مع أن القرآن والسنة مملوءان من إثبات الحكمة لله عز وجل، سواءٌ في أفعاله، أو في تشريعاته، هذا بالإضافة إلى اسمه الحكيم، وبالإضافة إلى وصفه بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، لما ذكر المواريث قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦]، هذه حكمة حتى لا نضِلّ.

وكذلك في الأمور القَدَرية، يُبيِّن الله عز وجل أنَّه فعلها لحكمة عظيمة، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، فأحكامه الكونية والقَدَرية كلها حكمة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، ولا شكَّ أنَّ الله عز وجل موصوفٌ بالحكمة، وأنَّ أحكامه الكونية والشرعية مقرونة بالحكمة.

ولا نعلمُ أفعالًا تنتفي عنها الحكمة إلا وهي أفعال سَفَهٍ، لَمَّا فرُّوا من إثبات الحكمة لله لزِمَهم شرٌّ مما فرُّوا منه؛ وهو: القول بالسَّفَه، وهذا لازمٌ له، ومع قولهم: إنه مُجرَّد مشيئة، قالوا: هذه المشيئة أيضًا ليست وصفًا له، فلا يُوصَف بأنه شاءٍ بناءً على قاعدتهم في إنكار الصفات، قالوا: ما له حكمة؛ بل لمُجرَّد المشيئة، ثم قالوا: وليس له مشيئة أيضًا؛ بل المشيئة ليست وصفًا له.

يقول المؤلف:

هَذَا وَمَا تِلْكَ الْمَشِيْئَة وَصْفَهُ بَـلْ ذَاتـه أَوْ فِعْلُـهُ قَـوْلانِ

يعني: المشيئة إما أن تكون ذاته؛ يعني: هو شاءٍ بذاته لا بصفته، أو أنَّ المراد بالمشيئة: المُشاء يعني: الفعل الذي هو المفعول، ذاته هنا بمعنى: بل مفعوله، فصاروا ينكرون الحكمة والمشيئة، ويا ويلهم عند الله عز وجل.

وإنكارهم حكمة الله يبطُل بذلك الشرعُ والقَدَرُ، فيكون الشرع لهوًا وعبثًا، والقدر

كذلك لهوًا وعبثًا؛ إذ إن كل حكم يصدر عن غير حكمة لا شكَّ أنه سَفَهٌ ولهوٌ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]، ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، فنفى الله عنه الباطل وأثبتَ الحق، وكيف يمكن أن يكون الرب عز وجل يفعل الشيء بلا حكمة، هذا مُجرَّد ما يتصوَّره الإنسان يَعْرِف أنه قولٌ باطلٌ غيرُ لائقٍ بالله عز وجل، وكل هذه – والعياذ بالله – من الأقوال الباطلة المنحرفة، بل تهوي بصاحبها إلى هذه الهاوية.

الحاصل: أن مضمون هذه الأبيات الأربع بيان أن هؤلاء الجهمية ينفون حكمة الله، ويقولون: إنَّ أفعاله لُمجرَّد المشيئة، ومع ذلك يُنكِرون أن تكون المشيئة وصفًا له؛ بل يقولون: إنه شاءٍ بذاته، أو أن المشيئة هي المفعول الذي شاءه[1].

قالوا:

وكلامُهُ مُذ كَانَ غَيرًا كَانَ مَخـ ـلُوقًا لَـهُ مِن جُملَةِ الأكوَانِ

وهم يقولون في كلام الله: ليس وصفًا له، ولكنَّه مخلوق، فكذلك المشيئة ليست وصفًا، ولكنها مخلوقة؛ لأنهم فسَّروا هذا بناءً على التفسير الثاني، الذي يقول: إن المشيئة هي الفعل، فيقولون: أُطلِقت المشيئة على الفعل كما أُطلِق الكلام المُضاف إليه على ما خلقه في الشجرة أو في موسى، أو ما أشبه ذلك.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣–قَـالُوا وإقـرَارُ العِبَـادِ بِأَنَّـهُ
خلاَّقُهُـم هُـوَ مُنتهَـى الإيمَـانِ

٦٤–والنـاسُ فـي الإيمـانِ شـيءٌ واحدٌ

(١) يراجع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٧٧) وقد نقل العلامة محمد خليل هراس أيضًا من كلامه في ذلك.

كالمُشْـــطِ عِنْــدَ تماثُــلِ الأسْــنَانِ

٦٥-فاسـأل أبـا جَهْـلٍ وشـيعتَهُ وَمَـن
وَالاهُـــمُ مِـــن عَابِـــدِي الأوثَـــانِ

٦٦-وسَلِ اليهُودَ وكُلَّ أقلَفَ[1] مُشرِكٍ
عَبْــدَ المَســيحَ مُقَبِّــلَ الصُّــلبَانِ

٦٧-وَاسأل ثَمُودَ وعادَ بل سَل قَبلَهُم
أعــدَاءَ نُــوحٍ أمَّــةَ الطُّوفَــانِ

٦٨-واسأل أبَا الجنِّ اللعينَ أتعرفُ الـ
خَــلَّاقَ أمْ أصـبَحتَ ذَا نُكـرَانِ

٦٩-وَاسـأل شِـرارَ الخلـقِ أعنـي أمَّـةً
لُوطِيَّــةً هُــمُ نَــاكِحُو الــذُّكْرَانِ

٧٠-وَاسـأل كَـذَاكَ إمَـامَ كُـلِّ مُعطِّـلٍ
فِرعَــونَ مَــع قَــارُونَ مَــع هَامَــانِ[2]

٧١-هـل كـانَ فيهِم مُنكـرٌ للخـالِقِ الـرَّ
بِّ العظــيمِ مكــوِّن الأكــوانِ

٧٢-فليَبشِــرُوا مــا فــيهِمُ مِــن كــافِرٍ
هُــم عنــدَ جَهــمٍ كَــامِلو الإيمــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يريد المؤلف أن يُبيِّن أنَّ مذهب الجهمية في الإيمان أنَّ الناس فيه شيءٌ واحدٌ؛ قالوا: لأنَّ

(١) الأقلف والأغلف: غير المختون.

(٢) راجع البيتين (٤٧٩، ٥١٧).

الإيمان هو الإقرار بأنَّ الله هو الخالق.

قَالُــوا وإقـرَارُ العِبَــادِ بِأنَّــه ... خـلَّاقُهم هُـوَ مُنتهى الإيمَـانِ

والناسُ في الإِيمانِ شيءٌ واحدٌ ... كـالمُشطِ عِندَ تَماثُـلِ الأَسنَـانِ

هذا هو الإيمان عندهم؛ أن تؤمن بأن الله هو خلَّاق العباد فقط، وأيضًا يقولون: إنَّ الناس في الإيمان شيءٌ واحدٌ.

هل الأقوال من الإيمان عندهم ؟

لا، قول: لا إله إلا الله ليست من الإيمان، فالأفعال ليست من الإيمان، الصلاة ليست من الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من الإيمان، إماطة الأذى عن الطريق ليس من الإيمان، لكن الاعتراف بأن الله هو الخالق هذا هو الإيمان(١)، وهو غاية الإيمان، وهو لا يزيد ولا ينقص.

قال ابن القيم: على رأيكم الآن؛ أنَّ كل هؤلاء الأمم الذين غضِبَ الله عليهم، وأهلكَهم بذنوبهم، والشيطان الذي هو زعيمُهم وإمامُهم عندكم - أيها الجهمية - كاملو الإيمان؛ لأنهم يعترفون بأنَّ الله هو الرب، إبليس يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]؛ بل يعترف لله بالصفات، فيقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ [ص: ٨٢] فآمنَ بالله وآمنَ بصفاته، فرعون قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ماذا قال ؟ سكتَ، وسكُوتُه إقرار؛ لأنَّه في مقام آخر كان يرُدُّ على موسى، ويقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٦]، إذًا فرعون مُقِرٌّ، واللوطيةُ، وأصحابُ ثمود، وعادٌ، وغيرهم من الأمم يُقرُّون بالله، والذي بُعِثَ فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام يُقرُّون بالله، إذًا كلامُ الجهمية فاسد.

هذا اللازم لا شك أنه فاسد؛ لأنَّه يقتضي أنَّ هؤلاء كلهم مؤمنون، وإذا فسَدَ اللازم كان دليلًا على فساد الملزوم، وابن القيم في هذا الكلام لم يأت بالأدلة الدالة على زيادة الإيمان

---

(١) قال ابن حزم وغيره عنهم (... فإن جهمًا والأشعري يقولان: إن الإيمان عقد بالقلب فقط، وإن أظهر الكفر والتثليث بلسانه وعُبِدَ الصَّلِيبُ في ديار الإسلام بلا تقية) «الفصل في الملل» (٢/ ٢٥٥).

ونُقصانه، ولكنه أتى بدليلٍ واقعٍ لا يمكن إنكاره؛ لأنهم إن قالوا: هؤلاء مؤمنون كاملو الإيمان كفروا، وإن قالوا: إنهم غير مؤمنين خُصِموا.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

٧٣-وَقَضَى بِأَنَّ الله كَانَ مُعطَّلًا
والفِعلُ مُمتنِعٌ بلا إمكَانِ

٧٤-ثُمَّ استَحَالَ وَصَارَ مَقدُورًا لَهُ
مِن غَيرِ أمرٍ قَامَ بالدَّيَّانِ

٧٥-بَل حَالُهُ سُبحَانَه في ذَاتِه
قَبلَ الحُدوثِ وَبَعدَهُ سِيَّانِ(١)(٢)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول الجهم: إنَّ الله عز وجل كان غير قادرٍ على الفعل ثم كان قادرًا عليه؛ لأنه يمنع التسلسل في الحوادث، يقول في القول بأنه: ما يوجد مخلوق إلا وقبله مخلوق، هذا شيء ليس بصحيح، نحن نقول: ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق إلى ما لا نهاية، هو يقول: لا، هذه

---

(١) سيان: مثلان مستويان «القاموس».

(٢) [٧٣: ٧٥] قال العلامة محمد خليل هراس:
فقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقضى بأن الفعل كان معطلًا إلخ، إنما هو بيان لما يلزم مذهب جهم وشيعته في قولهم بحدوث العالم وأن له بداية في الزمان.
ويقابل قول هؤلاء قول الفلاسفة بقدم العالم. ولا شك أن هذا القول أفسد من سابقه وفساده من الظهور بحيث لا يحتاج إلى إطالة الكلام له.
بقي القول الثالث وهو ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الله عز وجل لم يزل حيًّا قادرًا فعالًا لما يريد متكلمًا إذا شاء بما شاء. وأن الفعل والكلام من صفات كماله التي لا يجوز تعطيله عنها في وقت من الأوقات. وأن الفعل والكلام لم يزل ممكنًا مقدورًا لا يجوز القول بامتناع ذلك منه في وقت من الأوقات كذلك.

القاعدة فاسدة؛ بل هناك زمن أتى على الرب عز وجل وهو غير قادرٍ على الفعل، ثم بعد ذلك صار قادرًا على الفعل بدون سبب، لو قال: مضى على الرب زمن لم يفعل ثم فعل، لكان الأمر أهون؛ إذ نقول: إنه في الزمن الذي لم يفعل قد يكون هذا هو مقتضى حكمته فلم يفعل، لكن هو يقول: إنه غير قادرٍ على الفعل، وأنَّه مستحيل على الله عز وجل أن يفعل، ثم كان قادرًا على الفعل.

إذًا نقول: امتناع الفعل في حقه قبل الفعل كمال أم نقص ؟

إن قال: إنه كمال، نقول: إذًا الفعل نقص، وإن قال: نقص، قلنا: خُصِمتَ، إذ ليس عاجزًا عن الفعل أبدًا في أي لحظةٍ من اللحظات لا الأزلية ولا الأبدية، لا يحِلُّ هذا القول، وهو كفرٌ في الواقع، لكن أن نقول: كان قادرًا فلم يفعل ثم فعل ربما نُجوِّزه كما قاله بعضُ أهل العلم؛ لأنَّ التسلسل في الماضي ممتنع، ولكن الصحيح: أنَّ التسلسل في الماضي والمستقبل جائز وواجب بإخبار الله، وجائز عقلًا، لكنه واجب شرعًا بحسب ما أخبر الله به.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٦-وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَم تُخلَق وَلاَ
جَنَّاتُ عَدنٍ بَل هُمَا عَدَمَانِ

٧٧-فَإِذَا هُمَا خُلِقَا لِيومِ مَعَادِنَا
فَهُمَا عَلَى الأوقَاتِ فَانِيَتَانِ

٧٨-وَتلَطَّفَ العَلَّافُ مِن أتباعِهِ
فَأتى بِضُحكَةِ جَاهِلٍ مَجَّانِ(١)

٧٩-قَالَ الفَنَاءُ يكونُ في الحركَاتِ لا

---

(١) مجَّان: صيغة مبالغة والماجن هو الذي يخلط الجد بالهزل وقيل: هو الذي لا يبالي قولًا وفعلًا «القاموس» (ص ١١١١).

فـي الـذَّاتِ وَاعجَبًـا لِـذَا الهـذَيانِ (١)

٨٠-أيَصيرُ أهـلُ الخُلـدِ فـي جَنَّـاتهم
وجَحِـيمِهِم كحِجَـارَةِ البُنيَـانِ

٨١-ما حَـالُ مَـن قَـد كَـانَ يَغشَـى أهلَـه
عِنـدَ انقضـاءِ تحـرُّكِ الحَيَـوانِ

٨٢-وكـذاكَ مَـا حَـالُ الـذي رَفعَـت يـدَا
هُ أكلَـةً مِـن صَـحفَةٍ وخِـوَانِ

٨٣-فتَنَاهَـتِ الحركَـاتُ قَبـلَ وصُـولِها
لِلفَـمِ عِنـدَ تفـتُّحِ الأسـنَانِ

(١) [٧٦: ٧٩] قال العلامة محمد خليل هراس:
ويرى الجهم أن الجنة والنار غير موجودتين الآن. وعلى ذلك سائر المعتزلة وكان منشأ غلطهم في ذلك وغيره من أمور الاعتقاد هو تحكيمهم ما يسمونه بالعقل مع وجود النص. فلما رأوا بعقولهم الفاسدة أن لا فائدة من وجود الجنة والنار الآن من حيث إنهما داران للجزاء على الأعمال. والجزاء لا يكون إلا في الدار الآخرة حكموا بعدمها مع وجود النصوص الصريحة من الكتاب والسنة على وجودهما. مثل قوله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]. ومثل قوله ﷺ: «أرأيت الجنة والنار»(*) وقوله: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها» (**).
ويرى الجهم أيضًا أن الجنة والنار إذ وجدتا في يوم المعاد فإنها لا تبقيان على سبيل التأبيد والخلود، كما تدل على ذلك أيضًا نصوص الكتاب والسنة، بل يرى أنه سيأتي وقت تفنى فيه الجنة والنار وأهلهما بحيث لا يبقى مع الله شيء موجود، لأن كل ما له ابتداء عنده يجب أن يكون له انتهاء.
وأما أبو الهذيل العلاف، وهو رأس من رءوس الاعتزال ومن أتباع جهم في المروق والضلال، فقد تلطف في الأمر فلم يقل بالفناء المحض، ولكنه أتى بما يثير الضحك ويبعث على السخرية به حين قال بانقطاع حركات أهل الجنة وأهل النار بحيث يبقون فيهما همودًا جمودًا ساكنين وحينئذ لا يقدر الله عز وجل أن يزيد في لذائذ أهل الجنة لذة ولا أن يزيد في عذاب أهل النار ألمًا فهل رأيت أعجب مما يهذي به هذا الجاهل المأفون؟
[(*) مسلم (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦/ ١١٢)، والنسائي (٣/ ٨٣ـ السيوطي).
(**) هناك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة الصحيحة على ذلك انظر في «شرح الطحاوية» (ص ٤٦٦، ٤٦٧) لأبي عائش ط. نزار].

٨٤-وكـذاكَ مَـا حَـالُ الـذِي امتدَّت يَـدٌ
مِنــهُ إلــى قِنــوٍ مِــن القِنــوانِ[1]

٨٥-فَتنَاهَـتِ الحَرَكـاتُ قَبلَ الأخذِ هَل
يَبقَــى كَــذلِكَ سَــائِرَ الأزمَــانِ

٨٦-تَبًّــا[2] لهَاتِيــكَ العُقُــولِ فَإنهــا
واللهِ قَــد مُســخَت[3] علــى الأبـدَانِ

٨٧-تَبًّـا لمِـن أضـحَى يُقَـدِّمُهَا علـى الـ
آثــارِ والأخبَــارِ والقُــرآنِ[4]

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: إنَّ الجهم كما منع التسلسل في الماضي منعه في المستقبل.

وعقيدتنا: أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق إلى ما لا نهاية، ولا نُحيطُ بذلك، ونقول: ما

---

(١) القنوان: جمع القنو وهو العزق بحافيه من رطب اللسان (١٥/ ٢٠٤).

(٢) تبت: خسرت. وتب: خسر، وتبًّا: خسار «كلمات القرآن» (ص٤٧٧).

(٣) المسخ لغة: قلب الخلقة من شيء إلى شيء أو تحويل صورة إلى صورة أقبح منها «النهاية» (٤/ ٣٢٩). و«اللسان» (٣/ ٥٥).

(٤) [٨٠: ٨٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
هذه الأبيات كلها في بيان شناعة ما ذهب إليه أبو الهذيل من انقطاع حركات أهل الجنة وأهل النار بحيث يبقون ساكنين جامدين كحجارة البنيان التي لا حس ولا حركة. فكيف حال من كان يجامع أهله ثم انقضت تلك الحركات قبل أن ينزع عنها يظل على حاله تلك من الغشيان والإيلاج؟
وكيف حال من رفعت يده اللقمة إلى فيه فتناهت الحركات قبل وصولها إلى فمه أيظل فمه هكذا مفتوحًا في انتظار اللقمة التي لن تصل إليه؟
ثم ما حال الذي امتدت يده إلى عذق من الرطب ثم دخل هذا الوقت قبل تناوله هل تبقي يده ممدودة هكذا سائر الأزمان؟
ألا تبًا لعقل يقدم على مثل هذه الترهات والأباطيل. ويقدمها على النصوص الصريحة من الكتاب والسنة والآثار.

من مخلوق إلا وبعده مخلوق إلى ما لا نهاية له، ومن عقيدتنا: القول بالتسلسل ماضيًا ومستقبلًا، وهذا لا يمكن أن يكون فيه إشراكٌ مع الله أبدًا.

يقولون: التسلسل ممنوع في الماضي والمستقبل، أفعال الله في ما مضى ليست دائمة، وأفعال الله في المستقبل ما هي دائمة، وقال: الجنة الآن غير مخلوقة، والنار غير مخلوقة؛ يعني: كل ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام عن الجنة وما رأى فيها، والنار وما رأى فيها كله كذِب، أو تخييلاتٌ خُيِّلَت للرسول عليه الصلاة والسلام وليست بحقيقة، إذا خُلِق يوم القيامة أيضًا لا تبقيان؛ بل تفنيان، وما فيهما من نعيم والسكان وكل شيء، يفنى ويزول؛ لأن عنده قاعدة: لابد من نهاية في الأول وفي الآخر، فليس هناك استمرار لفاعلية الرب لا أولًا ولا آخرًا، فالله عز وجل كان مُعطَّلًا وسيكون في الآخر مُعطَّلًا – والعياذ بالله –، فجاء رجلٌ – وهو العلَّاف –، وهو كاسمه علَّاف، قال: لا، أنا ما أقول بمنع التسلسل، لكن الممنوع تسلسل الحركات، أما الأعيان فتبقى، الجنة والنار تبقى، وساكنيها يبقون، لكن حركاتهم تفنى، يكونون كالحجارة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مفصلًا ذلك القول:

الحالة الأولى

ما حَالُ مَن قَد كَانَ يَغشَى أهلَه ... عِندَ انقضاءِ تحرُّكِ الحَيَوانِ

إذا صار عندك فناء الحركات كما قلتَ، وهو على زوجته ـ على حورية من الحور العين ـ، وقعت الواقعة، وبطلت الحركات، هل يبقون هكذا ؟ على مذهبه يبقون، يبقى رجلٌ وامرأة متطابقَيْن إلى ما لا نهاية له، هذه واحدة.

الثانية:

وكذاكَ مَا حَالُ الذي رَفَعَت يدَا ... هُ أكلَةً مِن صَفحَةٍ وخِوَانِ

فَتَناهَتِ الحركَاتُ قَبلَ وصُولِها ... لِلفَمِ عِندَ تفتُّحِ الأسنَانِ

إنسان أمامه المائدة يأكل منها، فلما رفع اللقمة بطلت الحركات إلى ما لا نهاية له، هل هذا يصح التسلسل فيه، واللقمة لم تصل إلى فمه، ولا هي على الصفحة والخوان؟!

الثالثة:

وكذاكَ مَا حَالُ الذِي امتدَّت يَدٌ ... مِنهُ إلى قِنوٍ مِنَ القِنوانِ

فَتَنَاهَتِ الحَرَكَاتُ قَبلَ الأخذِ هَل   يَبقَى كَذلِكَ سَائِرَ الأزمَانِ

(القِنْو) هو قنا النخلة، وكذلك أيضًا ثمرة العنب وغيره مثله، فهذا رجلٌ اشتهى أن يأكل رمانةً، فالجنة فيها رمان، وفيها نخل، فمدَّ يده ليأخذ رمانة وتناهت الحركات يظل هكذا إلى ما لا نهاية له؟ يقول: أنا ما أقول بفناء الأعيان، هذا تلطُّف يجمع بين قول أهل السنة وقول الجهمية كالإرضاء للطرفين، يقول: الأعيان تبقى والحركات تفنى.

الصحيح: أنَّ الإنسان كلما تأمل هذا القول – مثل ما قال ابن القيم – يضحك مجَّان بدون عِوَض، (بضِحْكَة جاهلٍ مجَّانِ).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَبًّا لِمَن أضحَى يُقَدِّمُهَا على الـ   آثَارِ والأخبَارِ والقُرآنِ

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، قلوب لكنها ممسوخة، كيف عَالِم من العلماء يجرؤ أن يقول هكذا في حق الله، أو في حق عباد الله ؟

حتى إن أهل النار الذين يُعذَّبون بالنار، عندما يرفع السوط ليضربهم وتنتهي الحركات يقف.

أخبث من هذا، ليتهم رضوا بهذه العقول السخيفة، لكنهم قدموها على المنقولات الصحيحة.

تَبًّا لِمَن أضحَى يُقَدِّمُهَا على الـ   آثَارِ والأخبَارِ والقُرآنِ

وهي: الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، والأخبار الواردة عن الرسول ﷺ، والقرآن، هذا ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى، كذَّبوا الآثار والأخبار والقرآن، وقالوا: إننا نُحكِّم العقول.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

٨٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ يَجعَلُ خَلقَهُ
عَدَمًا ويقلِبُهُ وُجُودًا ثَانِ

٨٩- العَرشُ والكُرسِيُّ والأرواحُ والـ
أملاكُ والأفلاكُ والقَمَرَانِ

٩٠- والأرضُ والبَحرُ المحيطُ وسائِرُ
أكوَانِ مِن عَرَضٍ وَمِن جُثمَانِ

٩١- كُلٌّ سَيُفنِيهِ الفَنَاءَ المَحضَ لا
يَبقَى لَهُ أَثَرٌ كَظِلٍّ فَانِ

٩٢- ويُعِيدُ ذَا المَعدُومَ أيضًا ثانيًا
مَحضَ الوجودِ إعَادَةً بِزَمَانِ(١)

(١) [٨٨: ٩٢] قال العلامة محمد خليل هراس:
يرى الجهم أن العالم كله علويه وسفليه يفنى يوم القيامة ويصير إلى العدم المحض مستدلًا بمثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] زاعمًا أن الهلاك في الآية معناه الفناء المحض، وهذا محض افتراء فإن لفظ الهلاك إنما يُستعمل في اللغة بمعنى التحلل والفساد وتفرق الأجزاء، ولا شك أن الأشياء جميعًا قابلة للهلاك بهذا المعنى.
على أن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ هو من العالم المخصوص كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] والمراد به هلاك ما على الأرض من إنسان وحيوان. كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].
ويرى الجهم أيضًا أن الله عز وجل يعيد هذا العالم بعد الفناء بعينه؛ يعني بجميع صفاته وأعراضه، حتى قال جهلًا بإعادة الزمان الأول الذي كان مقارنًا للوجود الأول بعينه. وهذا معنى قول الناظم رحمه الله: (إعادة بزمان) يعني: مصحوبة بالزمان الذي كان مقارنًا للأشياء حتى يكون الثاني عين الأول.

٩٣- هـذا المعـادُ وَذلِـكَ المَبـدَا لَـدَى
جَهـمٍ وقـد نَسَـبُوه للقـرآنِ

٩٤- هَـذا الـذِي قَـادَ ابـنَ سينَا والأُلَـى
قَـالُوا مَقَالَتَـه إلـى الكُفـرَانِ

٩٥- لَـم تَقبَـلِ الأذهـانُ ذَا وتوهَّمُـوا
أنَّ الرَّسُـولَ عَنَـاهُ بِالإِيمـانِ

٩٦- هَـذا كِتَـابُ الله أنَّـى قَـالَ ذَا؟
أو عَبـدُهُ المبعُـوث بالبُرهَـانِ؟

٩٧- أو صَـحبُه مِـن بعـدِهِ أو تَـابعٌ
لَهـمُ عَلـى الإِيمـانِ والإِحسَـانِ(١)

واعلم أن الذي أوقع الجهم وأشياعه من المتكلمين في مثل هذه الجهالات هو إيمانهم بالجوهر الفرد واعتقادهم أن العوالم كلها مركبة من هذه الجواهر الفردة التي لا تقبل القسمة، فبنوا على هذه النظرية الفاسدة كل أصول دينهم، ومنهم المعاد فصاروا على قولين فيه، فمنهم من قال: تعدم الجواهر ثم تعاد، كما هو مذهب الجهم. ومنها من قال: بل تفرق الأجزاء ثم تجمع، وقد أورد الفلاسفة على كل من القولين من الشبه ما اضطر فريقًا من المتكلمين كالحليمي والغزالي أن يدعوا أن الإعادة لا تكون لهذه الأجسام التي كانت في الدنيا، بل يخلق الله أجسامًا جديدة ويعيد الأرواح إليها مع مخالفة ذلك للنصوص الصريحة التي دلت على أن هذه الأجسام التي باشرت الطاعة والمعصية هي التي تُعاد، وهي التي يجري عليها الثواب والعقاب.

(١) [٩٣: ٩٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكانت مقالة الجهم هذه هي التي حملت ابن سينا وشيعته من المتفلسفة إلى الكفر بالبعث وإنكار حشر الأجساد؛ لأنهم ظنوا كما ظن الجهم أن الإعادة لا تكون إلا عن عدم، وأن هذا هو الذي قصده الرسول ﷺ من الإيمان بالبعث ـ ولما كان لا يمكن في العقل إعادة المعدوم بعينه؛ لأن ذلك يستلزم إعادته بجميع أعراضه وصفاته كلها ومنها الزمان، فقد ذهبوا إلى استحالة الإعادة إذ لا يمكن إعادة الزمان الأول بعينه.

ومعلوم أن هذا الذي قاله الجهم في الإعادة عن عدم، وكان سببًا لورود الإشكالات على البعث ليس في شي من كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا ذهب إليه أحد من الصحابة ولا من الذين اتبعوهم بإحسان ﷺم أجمعين، بل كلهم فهموا معنى البعث كما ورد به الكتاب الكريم، وهو أبعد ما يكون

٩٨- بَـل صَـرَّحَ الـوحيُ المبـينُ بأنـهُ
حقًّـا مُغَيِّـرُ هَـذه الأكـوَانِ

٩٩- فَيبَـدِّلُ الله السَّـمواتِ العُلَـى
والأرضَ أيضًـا ذَانِ تبـديلانِ

١٠٠-وهُما كتبديلِ الجُلودِ لِساكِني الـ
ـنِيرانِ عنـدَ النُّضـجِ مـن نِيـرَانِ

١٠١-وَكَـذَاكَ يَقـبِضُ أرضَـهُ وَسَـمَاءَهُ
بِيدَيـهِ مَـا العَـدَمَانِ مقبُوضَـانِ

١٠٢-وتُحـدِّثُ الأرضُ التـي كُنَّـا بِهَـا
أخبَارَهـا فـي الحَشـرِ للـرَّحمنِ

١٠٣-وتَظَـلُّ تَشـهَدُ وَهـيَ عَـدلٌ بِالـذِي
مِـن فَوقِهَـا قَـد أحـدَثَ الـثَّقلاَنِ

١٠٤-أفيشـهَدُ العَـدَمُ الـذِي هُـوَ كاسـمِهِ
لا شـيءَ هـذا لَـيسَ فـي الإمكَـانِ[1]

عن أقوال هؤلاء الزائغين المبتدعين.

(١) [٩٨: ١٠٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
يعني: أن الذي صرحت به النصوص ليس هو إعدام هذه الأكوان كما يقول الجهم، ولكن تغييرها وتبديلها في الكيفية مع بقاء الذوات والأعيان، قال تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].
وفي الصحيحين عن سهل بن سعد: «أن الناس يحشرون يوم القيامة على أرض عفراء بيضاء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد» وقيل «تصير خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده» كما في الحديث.
وعن علي رضي الله عنه: «تكون الأرض فضة والسموات ذهبًا» وقيل تصير الأرض جنانًا، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تدل إلا على تبدل الأرض في الكيفية لا على انعدامها بالكلية، وهذا كتبديل جلود أهل النار إذا نضجت من حر النار، فالمقصود أن الله يجددها ويحي أعصاب الحس المنبثة فيها ليكمل ذوقهم للألم وإحساسهم بالعذاب.

١٠٥-لَكِـن تُسَوَّى ثُـمَّ تُبسَـطُ ثُـمَّ تَشـ
ـهَدُ ثـم تبـدَل وَهِـي ذَاتُ كِيـانِ

١٠٦-وتُمـدُّ أيضـا مِثـلَ مَـدِّ أدِيمِنَـا
مِـن غيـرِ أودِيَـةٍ ولا كُثبَـانِ

١٠٧-وَتقـيءُ يَـومَ العَـرضِ مِن أكبَادِهَـا
كَالأُسـطُوَانِ نَفـائِسَ الأثمَـانِ

١٠٨-كُـلٌّ يَـرَاهُ بِعَينِـهِ وعِيَانِـهِ
مَـا لامـرِىءٍ بِالأخـذِ مِنه يَـدَانِ

١٠٩-وَكَـذا الجبـالُ تُفَـتُّ فَتًّـا مُحكَمًـا
فَتَعُـودُ مِثـلَ الرَّمـلِ ذِي الكُثبَـانِ

١١٠-وتَكُـونُ كـالعِهنِ الَّـذِي ألوَانُـه
وصِبَـاغُهُ مِـن سـائِرِ الألـوَانِ

١١١-وَتُـبَسُّ بَسًّـا مِثـلَ ذَاكَ فَتنثَنِـي
مِثـلَ الهَبَـاءِ لِنَـاظِرِ الإنسَـانِ(١)

وكذلك صرحت النصوص بأن الله يقبض الأرض والسموات بيديه كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: «إن الله يطوي السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: «أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟» ومعلوم أن الطيَّ والقبض والأخذ لا يقع إلا على شيء موجود.

وصرحت النصوص أيضًا بأن الأرض التي كنا عليها بعينها تحدِّث الله بأخبارها يوم القيامة وتشهد عنده شهادة عدل بما أحدثه الثقلان من الجن والإنس فوقها، كما قال تعالى في سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] فلو كانت عدمًا كما يقول الجهم فكيف يتأتى لها أن تحدث أو تشهد، هذا ما لا يقوله عاقل أصلًا.

(١) [١٠٥: ١١١] قال العلامة محمد خليل هراس:

١١٢- وَكَـذا البِحَـارُ فَإِنَّهَـا مسـجورَةٌ
قَـد فُجِّـرَت تَفجِيـرَ ذِي سُـلطَانِ
١١٣- وكَـذَلِك القَمَـرَانِ يَـأذَنُ رَبُّنَـا
لَهُمَـا فيجتَمِعَـانِ يلتَقِيَـانِ
١١٤- هَـذِي مُكـوَّرَةٌ وَهَـذا خَاسِـفٌ
وكِلاَهُمَـا فـي النَّـارِ مَطروحَـانِ
١١٥- وَكَوَاكِـبُ الأفـلاَكِ تُنثَـرُ كُلُّهَـا
كلآلِـيءٍ نُثِـرَت عَلَـى مَيـدَانِ
١١٦- وَكَـذا السَّـمَاءُ تُشَـقُّ شَـقًّا ظَـاهِرًا
وَتَمُـورُ أيضًـا أيَّمَـا مَـوَرَانِ

لكن الذي دلت عليه النصوص الصريحة أن الأرض تسوى وتصير قاعًا صفصفًا لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، وتصير صعيدًا جرزًا ليس عليها نبات ولا شجر، قال تعالى في سورة طه: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧] وقال في سورة الكهف: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧، ٨] وأنها تبسط وتوسع وتمد كمد الأديم، وهو الجلد المدبوغ، قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٥] وأنها تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، وأنها تبدل كما سبق في الشكل والكيفية مع بقاء كيانها.

وأما قول المؤلف (وتقيء يوم العرض إلخ) هذا البيت والذي بعده فهو إشارة إلى قوله عليه السلام فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا».

وكذلك دلت النصوص الصريحة من القرآن على أن الجبال التي جعلها الله أوتادًا للأرض حتى لا تميد بنا تتفتت وتصير كثيبًا مهيلًا. وأنها تصير كالعهن المنفوش، يعني: مثل الصوف المصبوغ أو المتمزق البالي، وأنها تُبس بسًّا فتصير هباءً منبثًّا. قال علي رضي الله عنه: هباء منبثًا كرهج الغراب يسطع ثم يذهب فلا يبقي منه شيء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما «الهباء الذي يصير من النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئًا».

وبالجملة فقد دلت النصوص على زوال الجبال من أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها وصيرورتها هباء وكالعهن المنفوش، ومعلوم أن هذه الأحوال كلها لا تجري على معدوم.

١١٧-وتصيرُ بَعدَ الانشِقَاقِ كَمِثلِ هَـ
ـذَا المُهلِ أو تَـكُ وردةً كَـدِهَانِ[(١)]

١١٨-والعَرشُ وَالكُرسيُّ لا يُفنِيهمَا
أيضًا وَإنَّهُمَا لَمخلُوقَانِ

١١٩-والحورُ لا تَفنَى كَذلِكَ جَنَّةُ الـ
ـمأوَى وَمَا فِيهَا مِنَ الوِلدَانِ

١٢٠-ولأجلِ هَذَا قَالَ جَهمٌ إنَّهَا
عَدَمٌ وَلَم تُخلَق إلَى ذَا الآنِ

١٢١-والأنبِيَاءُ فَإنَّهُم تَحتَ الثَّرَى
أجسَامُهُم حُفِظَت مِنَ الدِّيدَانِ

١٢٢-مَا للبَلَى بِلُحُومِهِم وجُسومِهِم
أبَدًا وَهُم تَحتَ التُّرَابِ يَدَانِ

---

(١) [١١٢: ١١٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكذلك وردت النصوص من الكتاب العزيز بأن البحار تسجر قيل معناه تفجر، فيكون قوله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ هو في معنى قوله في سورة الانفطار ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وقيل معناه تمتلئ نارًا. وكلا المعنيين وارد في اللغة، يقال سجر البحر فجره، وسجر التنور أوقده، ولعل قول المؤلف رحمه الله قد فجرت إلخ، يدل على أنه يرجح التفسير الأول.

وكذلك القمران ـ يعني: الشمس والقمر ـ يأذن الله لهما في الالتقاء بعد أن كانت الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، فتكور الشمس، يعني يجمع بعضها إلى بعض، ويخسف القمر، يعني يذهب ضوءه ثم يطرحان في النار مع من عبدوهما من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وكذلك تتساقط نجوم السماء وينتشر بريقها كما في قوله تعالى في سورة التكوير ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾.

وتتشقق السماء وتتفتح أبوابها وتمور مورانًا شديدًا. يعني: تتحرك في استدارة. وقيل: معنى تمور تشقق وتصير بعد تشققها كالمهل، يعني دردي الزيت. وتكون وردة كالدهان، قيل: مثل الأديم الأحمر. وقيل: مثل الفرس الورد، أي: الأحمر إلى صفرة.

١٢٣- وَكذاكَ عَجبُ الظَّهرِ لاَ يبلَى بَلَى
مِنهُ تُرَكَّبُ خِلقَةُ الإِنسَانِ

١٢٤- وَكَذلِكَ الأروَاحُ لاَ تَبلَى كَمَا
تَبلَى الجُسُومُ وَلاَ بِلَى اللُّحمَانِ

١٢٥- وَلأجلِ ذَلِكَ لَم يُقِرَّ الجَهمُ بالـ
أروَاحِ خَارِجَةً عَنِ الأبدَانِ

١٢٦- لَكِنَّهَا مِن بَعضِ أعرَاضٍ بِهَا
قَامَت وَذَا في غَايَةِ البُطلاَنِ (١)

١٢٧- فالشَّأنُ للأرواحِ بَعدَ فراقِهَا
أبدَانَنا وَاللهِ أعظَمُ شَانِ

١٢٨- إمَّا عَذَابٌ أو نَعِيمٌ دَائِمٌ
قَد نُعِّمت بِالرَّوحِ والرَّيحَانِ

(١) [١١٨ : ١٢٦] قال العلامة محمد خليل هراس:
يريد المؤلف بهذه الأبيات أن يرد على جهم في قوله بالعدم المحض للأشياء كلها يوم القيامة، فيقول: إن العرش والكرسي وهما من جملة المخلوقات قد صرحت النصوص ببقائها دون فناء، وكذلك جنة المأوى وما فيها من حور وولدان. ولأجل هذه النصوص المصرحة ببقاء الجنة ونعيمها، ذهب جهم إلى أنها لم تخلق للآن زاعمًا أنه لا فائدة من وجودها؛ لأنها إنما جعلت دارًا للجزاء على الأعمال. وكذلك وردت النصوص بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ولا يصيبها ما يصيب الأجسام من البلى والتمزق ـ وبأن ابن آدم كله يبلى إلا عجب الذنب وهو الذي تنبت منه الأجسام في النشأة الأخرى ـ وبأن الأرواح باقية كذلك لا تبلى كما تبلى اللحوم والأجسام. ولأجل هذا أنكر الجهم وجود الأرواح المستقلة عن الأبدان، وقال: ليس هناك أرواح تنزل إلى البدن عند الولادة وتصعد منه عند الموت. ولكن الحياة عنده عرض من الأعراض القائمة بالبدن، فإذا مات الحي بطل ذلك العرض وفنى، وهذا المذهب الذي ذهب إليه جهم وأخذه عن جالينوس الطبيب اليوناني وغيره في غاية البطلان، فإن الحياة وغيرها من الأعراض المشروطة بها، كالإحساس والحركة والإرادة وغيرها لابد لها من سبب خارج عن تركيب البدن ومزاجه. وذلك هو الروح التي تحل بالبدن وقد أفاض أهل الأديان وغيرهم من الفلاسفة الروحانيين في الرد على مذاهب هؤلاء الطبيعيين وبيان فساد مقالتهم بوجوه ليس هنا محل بسطها.

١٢٩-وتصيرُ طيرًا سَارِحًا مَع شكلِهَا
تجنـي الثِّمـارَ بِجَنَّـةِ الحَيَـوانِ

١٣٠-وَتَظَـلُّ وَاردَةً لأنهَـارٍ بِهـا
حَتَّـى تَعُـودَ لِـذَلِكَ الجثمَـانِ

١٣١-لَكِـنَّ أرواحَ الـذينَ استُشـهِدُوا
فِـي جَـوفِ طَيـرٍ أخضَـرٍ رَيَّـانِ

١٣٢-فلهُـم بـذَاكَ مزيَّـةٌ فـي عَيشِـهِم
ونَعِـيمِهِم لِلـرُّوحِ والأبـدَانِ

١٣٣-بَـذَلُوا الجُسُـومَ لـربِّهِم فأعَاضَـهُم
أجسَـامَ تلـكَ الطَّيـرِ بالإحسَـانِ

١٣٤-وَلَهَـا قَنَادِيـلٌ إليهَـا تَنتَهِـي
مَـأوَى لَهَـا كَمَسَـاكِنِ الإِنسَـانِ(١)

١٣٥-فـالرُّوحُ بَعـدَ المـوتِ أكمَـلُ حَالَـةٍ
منهَـا بِهَـذِي الـدَّارِ فـي جُثمَـانِ

١٣٦-وَعـذَابُ أشـقَاهَا أشـدُّ مِـنَ الـذِي

---

(١) [١٢٧: ١٣٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
قول المؤلف (وتصير طيرًا سارحًا إلخ) فهو إشارة إلى قوله عليه السلام فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله: (إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم القيامة) ولكن ليس في الحديث أن روح المؤمن تجني من ثمار الجنة أو تشرب من أنهارها كما ذكر المؤلف. وإنما تلك خصوصية الشهداء، فإن الله عز وجل يجعل أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت. تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].
وإنما استحق الشهداء هذه الكرامة؛ لأنهم بذلوا حياتهم رخيصة في سبيل الله فعوضهم الله عنها هذه الحياة الكريمة، وعوضهم عن أجسامهم التي قدموها للضرب والطعان طيورًا خضرًا تحمل أرواحهم في رحبات الجنان.

قَــد عَايَنَــتْ أبصَــارُنَا بِعِيَــانِ

١٣٧-والقَــائِلُونَ بِأنَّهَــا عَــرَضٌ أبَــوا
ذَا كُلَّـــهُ تَبًّــا لِــذِي نُكــرانِ[1]

١٣٨-وإذَا أرَادَ الله إخـــرَاجَ الــوَرَى
بَعــدَ المَمَــاتِ إلــى المَعَــادِ الثَّانِي

١٣٩-ألقَى عَلَى الأرضِ التي هُم تحتها
والله مُقتَـــــدِرٌ وذُو سُـــــلطَانِ

١٤٠-مَطَــرًا غَليظًــا أبيضًــا مُتَتَابِعًــا
عَشــرًا وَعَشــرًا بَعــدَهَا عَشــرَانِ

١٤١-فَتَظَـلُّ تَنبُـتُ منـهُ أجسَـامُ الـوَرَى
وَلُحُـــومُهُم كَمَنَابِـــتِ الرَّيحَـــانِ

١٤٢-حَتَّـى إذَا مَــا الأمُّ حَــانَ وِلادُهَــا
وتمخَّضَـــت فِنفَاسُـــهَا مُتَـــدَانِ

١٤٣-أوحَـى لَهَـا ربُّ السَّـما فَتَشـقَّقَت
فَبَــدَا الجَنِيــنُ كَأكمَــلِ الشُّــبَّانِ

١٤٤-وتخلَّـتِ الأمُّ الوَلُـودُ وأخرَجَـت
أثقَالَهَــا أنثَــى ومِــن ذُكــرَانِ[2]

---

(١) [١٣٥ : ١٣٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
أما القائلون بأن الروح عرض قائم بالبدن فقد أنكروا ذلك كله، إذ ليس عندهم روح تفارق ثم تبقى حية بعد المفارقة، ولكنها عندهم عرض يفنى بفناء البدن كسائر الأعراض، فهلاكًا لهؤلا المنكرين لحياة الروح بعد المفارقة وما يجري عليها من شئون بعد ما نطق بذلك الكتاب الكريم والسنة المطهرة. وإن يهلكون بهذا الانكار إلا أنفسهم وما يشعرون.

(٢) [١٣٨ : ١٤٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
قوله (الله مقتدر وذو سلطان) جملة معترضة أُريد بها بيان أن الله كان قادرًا أن يخرج الناس من قبورهم

١٤٥-واللهُ يُنشِـــئُ خلقَـــهُ فـــي نَشـــأةٍ
أُخـــرَى كَمَـــا قَـــد قَـــالَ فـــي الفرقـــان

١٤٦-هَـذا الَّذِي جَاءَ الكتابُ وسنةُ الـــ
هَـــادِي بـــهِ فـــاحرِص عَلَـــى الإِيمَـــانِ

١٤٧-مـــا قَـــالَ إنَّ اللهَ يُعـــدِمُ خَلقَـــهُ
طُـــرًّا كقَـــولِ الجاهـــلِ الحَيـــرَانِ[1]

الشَّـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

خُلاصة هذا البحث: أنَّ هذا الرجل – الذي هو الجهم – زعَمَ أنَّ المعاد يوم القيامة ليس لهذه الأجسام، وأنَّ هذا الخلق الموجود المُشاهَد الآن يفنى يوم القيامة فناءً كاملًا، ولا يوجد منه شيءٌ أبدًا كالظل تمسخه الشمس؛ فهل تبقي ظلًّا ؟ لا، ما يبقى شيء، ثم يُعيد الله تعالى الخلقَ من جديد، فيُعيدُه حيوانًا، وإنسانًا، وبهائم، ووحوشًا، وهكذا، وأيضًا السماوات يُعيدُها من جديد، والأرض يُعيدُها من جديد، والكواكب يُعيدُها من جديد، كل شيء يُعادُ من جديد؛ لأنَّ هذا هو معنى التبديل، أنتَ إذا قلتَ: أبدِل لي هذه الحقيبة بهذا الكتاب، فالحقيبة تنتقل مني إليك، والكتاب ينتقل منك إليَّ، فالبديل غير المُبدَل منه، والله يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، ولا شكَّ أنَّ هذا القول باطل، والتبديل الذي ذكره الله عز وجل ليس تبديل ذاتٍ بذات، ولكنه تبديل وصفٍ بوصفٍ، واستشهدَ المؤلف لذلك بقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء:٥٦] قال: إنَّ الجلد باقٍ، لكنه نضج من النار، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، فهي لما نضِجَت نشأت من جديد وهي هي، واستدلَّ أيضًا بأنَّ الله تعالى يطوي السماوات، ويطوي

بدون هذه الأسباب، ولكن حكمته اقتضت أن تكون النشأتان متشابهتين كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وكما قال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) يراجع لمزيد من الرد عليهم «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٤٦ وبعدها).

الأرضين، والطيُّ للمعدوم ممكن أو غير ممكن ؟ غير ممكن.

واستدلَّ أيضًا بأنه لو كان خلقًا جديدًا لعُذِّبَ من لا يستحقُّ العذاب، ونجا من يستحق العذاب؛ لأنَّ هذا الكافر عُذِّبَ نهائيًا، وجاء كافر جديد بدله وعذَّبنا هذا الكافر، وهذا غير معقول، ولا يمكن أن الله عز وجل يخلق أقوامًا يُعذِّبُهم، وأقوامًا يُنعِّمُهم بدون أيِّ عمل.

ثم عرَّج المؤلف أيضًا إلى معنى آخر يقوله الجهم، قال: إنَّ الموت ليس خروج الروح من البدن، بل الروح وصفٌ من الأوصاف؛ كالطول والقِصَر والحُمرة والسواد والبياض، هي عَرَضٌ من الأعراض، والصحة فإذا مات الإنسان فقد حياته، فليس هناك روح، ولا عذاب القبر، ولا نعيم، ولا نعيمٌ في الجنة، ولا شيء، عنده التسلسل ممنوع، كل هذا مبنيٌّ على قواعد فاسدة مخالفة للكتاب والسنة، أيضًا يُبطِلُها العقل كما يُبطِلُها النقل.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الفصل جاء بأمثلة، ثم ذكر أنَّ الله إذا أراد إخراج الورى أرسل على الأرض مطرًا غليظًا أبيض متتابعًا - لكنه قال: (أبيضًا) بالصرف، لضرورة الشعر - كمنيِّ الرجال، عشرًا وعشرًا بعدها عشران، الجميع أربعون يومًا، تنبُت هذه الأجساد بإذن الله في أنحائها، وإذا تكاملت نُفِخ في الصور، وإذا نُفِخَ في الصور النفخة الأولى يفزع الناس ويموتون، والنفخة الثانية تتطايرُ الأرواح، وتأوي كلُّ روحٍ إلى جسدها الذي كانت تعمُره في الدنيا، فإذا هم قيامٌ ينظرون بإذن الله، وقوله سبحانه وتعالى وإرادته وقدرته، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] الأول، والأخير، والصغير، والكبير، والذكر، والأنثى لصيحةٍ واحدةٍ يُهرولون إلى الله عز وجل للقضاء بينهم، هذا هو الحق، وهو المعقول المُؤيَّد بالمنقول، أما جهمٌ وأتباعُه فهم على شفا جُرُفٍ هارٍ انهار بهم في مهاوي الضلال - والعياذ بالله -.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

ومن أقوال الجهمية الباطلة نفي أفعال العبيد كما نفوا أفعال الله في قولهم إن أفعال الله لا تقوم به، والفعل عندهم عين المفعول، كذلك قالوا: إن العبد مجبور على أفعاله طاعاتها ومعاصيها، وأنها واقعة بغير اختياره، وأن الله كلفهم ما لا يطيقونه، فالعبد عندهم كالنعامة التي قد كلفت بالطيران لما لها من الأجنحة ومشابهة الطيور، وبالجمل لما له من كبر الجسم، وهي لا قدرة لها على واحد منها، فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان:

أحدهما: أن تنفي عن العباد قدرتهم على أفعالهم.

ثانيًا: أن ينفي صدورها منهم، فيقال على قولهم: لم يقدروا على الإسلام والإيمان ولا الصلاة والصيام ونحوها، وإذا فعلوها يصح أن يقال: لم تصدر منهم، وإنما يقال ذلك على وجه المجاز لا الحقيقة، ولا فرق عندهم أن يوصفوا بهذه الأفعال أو يوصفوا بالبياض والسواد وبقية الألوان؛ لأن الجميع قامت بهم، فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه، فإذا جمعت مقالات جهم المذكورة وهي نفي صفات الله، ونفي أفعاله، ونفي خلته ومحبته، ونفي كلامه وتكلمه، ونفي أفعال العبيد،لزم من ذلك بطلان الخلق والأمر والوحي والشرع والتكاليف، فإذا ضممت ذلك إلى قول غلاتهم بنفيهم لأسماء الله الحسنى عرفت أن هذا القول مفض إلى تعطيل رب العالمين وجحده، ولكنهم موهوا قولهم وزخرفوه، وحسنوا له العبارات، وهولوا مخالفتها، وضموا إلى ذلك القدح في مذهب السلف وتسميته بأسماء قبيحة، فتولد من ذلك قبول الناس له وافتتانهم به كما افتتن بنو إسرائيل بعبادة العجل المصوغ المزخرف، فافتتنوا بصورته وشارته كما افتتن هؤلاء بتحسين القول وزخرفة عبارته، فأخذت طوائف البدع من أقوال جهم بحسب بعدهم عن مذهب

السلف: فطائفة أثبتت الأسماء ونفت الصفات وهم جمهور الجهمية والمعتزلة، وطائفة غلت فنفت الأسماء الحسنى، وطائفة وافقت الجهمية بنفي الأفعال الاختيارية ووافقوا السلف في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهم الأشعرية والماتريدية، وطائفة أخذت بقوله: إن العباد مجبورون على أفعالهم وهم الملقبون بالجبرية. وطائفة وافقته في أن القرآن الموجود المحفوظ في الصدور المكتوب في المصاحف مخلوق، والمعنى القديم النفسي غير مخلوق، كالكلابية والأشعرية.

ونجَّى الله أهل السنة والجماعة من جميع أقواله الباطلة فأثبتوا جميع أسماء الله الحسنى وما دلت عليه من الصفات العليا لا فرق بين الصفات الذاتية المتعلقة بذاته التي لا ينفك عنها كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولا بين صفات الأفعال القائمة بذاته المتصف بها المتعلقة بمشيئته وقدرته، وأثبتوا محبته وخلته لأوليائه وأصفيائه وكلامه وتكليمه حقيقة، وكذلك قالوا: إن الإيمان هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعات وينقص بالمخالفات، وأن العباد هم الفاعلون لأفعالهم حقيقة، ليسوا مجبورين عليها بل هم مختارون لها واقعة بقدرتهم ومشيئتهم، وإن كانت مندرجة بقضاء الله وقدره، فإنه قد أرادها منهم خلقًا وتقديرًا، وهم فعلوها حقيقة ومباشرة، لم يقهروا عليها، ولهذا وصفوا بما عملوه من خير وشر، وثبت بقولهم الوحي والشرع والقدر، وصدَّقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله من غير رد لشيء من ذلك.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

١٤٨- وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيسَ بفاعِلٍ
فِعلًا يَقومُ بِهِ بِلاَ بُرهَانِ

١٤٩- بَل فِعلُه المَفعُولُ خَارِجُ ذَاتِهِ
كَالوَصفِ غَيرِ الذَّاتِ في الحُسبانِ

١٥٠- والجبرُ مَذهبُهُ الذِي قرَّت بهِ
عَينُ العُصَاةِ وشِيعةُ الشَّيطانِ

١٥١- كانُوا عَلَى وَجَلٍ مِنَ العِصيانِ إذ
هُوَ فِعلهُم والذَّنبُ للإِنسَانِ

١٥٢- واللَّومُ لا يعدُوه إذ هُوَ فَاعِلٌ
بإِرَادةٍ وَبِقَدرَةِ الحَيَوَانِ

١٥٣- فَأراحَهُم جَهمٌ وَشِيعتُهُ مِنَ الـ
ـلومِ العَنِيفِ وَمَا قَضوا بِأَمَانِ

١٥٤- لكنَّهم حَمَلوا ذُنُوبَهُمُ عَلَى
ربِّ العِبَادِ بِعِزَّةٍ وأَمَانِ

١٥٥- وتبرَّؤوا مِنهَا وقالُوا إنَّهَا
أفعالُهُ مَا حِيلَةُ الإنسَانِ

١٥٦- مَا كَلَّفَ الجبَّارُ نَفسًا وُسعَهَا
أنَّى وقَد جُبِرَت عَلَى العِصيَانِ

١٥٧- وَكَذا عَلَى الطَّاعَاتِ أيضًا قَد غَدَت
مَجبُـــورةً فَلَهَـــا إذًا جَبــرَانِ
١٥٨-وَالعَبـدُ فـي التَّحقيـقِ شِبهُ نَعامَـةٍ
قَـد كُلِّفَـت بِالحَمـلِ وَالطَّيـرانِ
١٥٩-إذ كَـانَ صُـورَتَها تَـدُلُّ عَلَيهِمَـا
هَـذَا ولَـيسَ لَهَـا بِـذَاكَ يَـدَان
١٦٠-فلِـذَاكَ قَـالَ بِـأنَّ طَاعَـاتِ الـوَرَى
وكَـذَاكَ مَـا فَعلُـوهُ مِـن عِصـيَانِ
١٦١-هِـيَ عَـينُ فِعـلِ الـرَّبِّ لا أفعَـالُهُم
فَيَصِـحُّ عَـنهُم عِنـدَ ذَا نَفيَـانِ
١٦٢-نَفـيٌ لِقُـدرتِهِم عَلَيهَـا أوَّلًا
وصُـدورِهَا مِـنهُم بِنَفـيٍ ثَـانِ
١٦٣-فَيُقَـالُ مـا صَـامُوا ولاَ صَـلَّوا وَلاَ
زَكَّـوا ولا ذَبَحُـوا مِـنَ القُربَـانِ
١٦٤-وكَـذاكَ مَـا شَـرِبُوا ومـا قَتَلُـوا ولَا
سَـرَقُوا ولا فِـيهِم غَـوِيٌّ زانِ
١٦٥-وَكَـذاكَ لَـم يـأتُوا اختيَـارًا مِـنهُمُ
بـالكُفر والإسـلاَم والإيمَـانِ
١٦٦-إلاَّ عَلَـى وَجـهِ المَجَـازِ لأنَّهَـا
قَامَـت بِهِـم كـالطَّعمِ والألـوَانِ
١٦٧-جُبِـرُوا عَلَـى مـا شَـاءَهُ خَلَّاقُهـم
مَـا ثَـمَّ ذُو عَـونٍ وَغيـرُ مُعـانِ

١٦٨-الكُـلُّ مَجبُـورٌ وغَيـرُ مُيَسَّـرٍ
كَالمَيْـتِ أُدْرِجَ دَاخِـلَ الأكفَـانِ
١٦٩-وكـذَاكَ أفعـالُ المُهَـيمنِ لَـم تَقُـم
أيضًـا بِـهِ خَوفًـا مِـنَ الحَـدَثَانِ
١٧٠-فَـإِذا جَمَعـتَ مَقَالَتَيـهِ أنتَجَـا
كَـذِبًا وزُورًا واضِـحَ البُهتَـانِ
١٧١-إذ لَيسَـتِ الأفعَـالُ فِعـلَ إِلَهِنَـا
والـرَّبُّ لَـيسَ بِفَاعِـلِ العِصيَانِ
١٧٢-فَـإذَا انتَفَـت صِـفَةُ الإلَـهِ وَفِعلُـهُ
وَكَلاَمُـهُ وَفَعائِـلُ الإِنسَـانِ
١٧٣-فهُنَـاكَ لا خَلـقٌ وَلا أمـرٌ وَلاَ
وَحـيٌ ولاَ تَكلِيـفُ عَبـدٍ فَـانِ[1]

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الآيات تضمَّنَت شيئين:

الشيء الأول: أن الله سبحانه وتعالى ليس بفاعلٍ فعلًا يقوم به، فليس بخالق خلقًا يقوم بذاته، وليس بمستوٍ استواءً يقوم بذاته، وليس بآتٍ يوم القيامة إتيانًا يقوم بذاته، وليس بنازلٍ إلى السماء الدنيا نزولًا يقوم بذاته، وليس برازقٍ رزقًا يقوم بذاته، فلا يقوم بذاته فعل أبدًا؛ لماذا

(١) [١٦٩ : ١٧٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
والمقصود أن الجهم إذا كان ينفي صدور الفعل من العبد، وكان الفعل ليس قائمًا بالرب، فإذا جُمع القولان كل منهما إلى الآخر أنتجا قضية من أكذب الكذب، فإن السلب لا ينتج إلا سلبًا، فإذا نفى صفات الرب وفعله وكلامه، ونفى مع ذلك فعل العبد، أنتج ذلك أن لا خلق، ولا أمر، ولا وحي، ولا تكليف عبد فان.

؟ قال: لأنَّ هذه الأفعال حوادث، ولو قامت بالرب عز وجل لكان حادثًا؛ لأنَّ الحوادث لا تقوم إلا بحادث، فهو قد جعل التعطيل في قالَبِ التنزيه، لكنه في الحقيقة ليس تنزيهًا؛ بل هو تعطيلٌ لكمال الله عز وجل، فيقول: إن الله سبحانه وتعالى لا يفعل فعلًا يقوم به.

ثم يقول: إن الإنسان أيضًا لا يفعل فعلًا يقوم به، يقول: (والجبر مذهبُه الذي قرَّتْ به عينُ العُصاة)، إذًا فالإنسان غير فاعل فعلًا يقوم به؛ لأنه مُجبرٌ على ذلك، من فاعل فعل الإنسان ؟ يقول: الله هو فاعل فعل الإنسان.

وهذا من العجب ! فِعل الله ينفونه عنه، وفِعلُ العبد يُثبِتُونه لله، فيقول: إن الإنسان ليس بفاعل، مُجبَرٌ على فعله، زَنَى، وسَرَقَ، وشَرِبَ الخمر، وقَتَلَ النفس، وكل ذلك مُجبَر، صلى، وصام، وزكَّى، وحجَّ، وبرَّ الوالدَين، وَصَلَ الأرحام، فأحسنَ إلى الجيران، كل ذلك مُجبَرٌ عليه، ما له فيه أيُّ فعلٍ، وهذه الأفعال التي تقوم بالإنسان بمنزلة الأوصاف التي تقوم ببدنه، هو أحمر، أبيض، أسود، طويل، قصير، باختياره أم بغير اختياره ؟ بغير اختياره، يقول: نفس الأفعال كهذه الأعراض والأوصاف تمامًا، ما له فيها أي إرادة أو قدرة، فنفوا قدرة الإنسان على فعله واختياره، وقالوا: إن الفعل ليس فعله، فهو ما صام، ولا صلى، ولا زكَّى، ولا حجَّ.. إلخ.

إذًا معناه: كلَّفه الله شيئًا لا يُطِيقُه، كما تُكلَّفُ النعامة الحمل والطيران، والنعامة كبيرة الجسم، قال: هكذا أفعال الإنسان مُكلَّفٌ بها وإن كان هو لا يُطيقُه.

إذًا هؤلاء الجماعة – والعياذ بالله – نفوا قيام الأفعال بالله، ونفوا قيام الأفعال بالإنسان، وبذلك أبطلوا القَدَر والشرع، وأبطلوا الحكمة، وقد سبق أنهم لا يُثبِتون لله حكمة، إذا كان الإنسان يفعل بغير اختياره؛ كيف نمدح المُطيع، وكيف نذُمُّ العاصي؟ وكيف نُعاقِبُ العاصي، وكيف نُثيب المُطيع ؟

وإذا كان الله لا يقوم به فعل؛ فأين كلامه ؟ وأين فعله؟، وأين خلقه ؟ وأين تدبيره ؟

إذًا يلزم على قولهم نفي الشرائع كلها، وإبطال القَدَر والشرع؛ لأنهم ما يرون أن هذا فعل قائمٌ بالله؛ يعني: يرون أن فعل الله هو المفعول فقط، أما أن يكون هو فعلٌ قائمٌ به فلا، فهو مخلوقٌ بلا خلقٍ قائمٍ بالله، والله خالقٌ بلا وصفٍ قائمٍ به، فالخالق له مخلوق.

هم يُنكِرون فعل الله الذي هم يتَّصفون به، وهذا أكبر تناقُض، فلا شكَّ أنَّ القول الذي الذي أتوا به هو ما دلَّ عليه الدليل أنه موصوفٌ بالأفعال، وأنَّ الأفعال وصفُه سبحانه وتعالى قائمٌ به، ولا يلزمُ من حدوث الفعل حدوث الفاعل بلا شكٍّ.

وهل يمكن أن نقول: بلا فعل ؟ هذا لا يمكن، فالمفعول يلزم منه سبقُ الفعل، وإلا لَمَا حصل المفعول.

ونقول أيضًا: إن الإنسان، ولو لم يكن الفاعل لكان الرجل إذا زنى نقول: ما زنى؛ لأنَّ هذا ليس فعله، فنقول: ما دلَّ عليه الكتاب والسنة أنَّ للإنسان فعلًا قائمٌ به يُحمَدُ عليه ويُذمُّ بسببه، ويُثابُ ويُعاقَب عليه، ويصِل به إلى الدرجات العُلى أو الدركات الأسفل من النار، هذا لا شك فيه، وهو مُقتضى العقل والشرع.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧٤- وَقَضَى عَلَى أسمائِهِ بِحُدُوثِهَا
وبِخَلقِهَا مِن جُملَةِ الأكوانِ

١٧٥- فانظُر إلى تَعطيلِهِ الأوصَافَ والـ
أفعَالَ والأسمَاءَ للرَّحمنِ

١٧٦- مَاذَا الذِي في ضِمن ذَا التعطِيلِ مِن
نَفيٍ وَمِن جَحدٍ وَمِن كُفرَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: إن أسماء الله عز وجل مخلوقة، وليست قديمة بقِدَمه؛ لأنَّ الاسم غير المُسمى، وهل هذا صحيح أن أن الاسم غير المُسمَّى ؟

إن قلتَ: نعم، أخطأتَ، وإن قلتَ: لا، أخطأتَ، لكن فيه تفصيل:

إن أردتَ بالاسم: اللفظ الدال على مُسمَّاه، فهو المُسمَّى، إذا قلتُ: ادعُ لي زيدًا، تدعُ

نفس زيد المُسمَّى بهذا الاسم، فهو هو، أما إذا أُريدَ بالاسم: الحروف الدالة على مُسمّاه فهذا غيره بلا شك؛ ولهذا أنا أكتب: زيد قام، وأضربُ زيدًا ضربًا شديدًا جدًّا، وزيد هل يقول: أوجعتَني ؟ لا يقول؛ لأن الاسم غير المُسمَّى، لكن لو أقول: ادعُ زيدًا، هذا المُسمَّى لا شك، قال الله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ١٤]، المُرادُ: مُسمَّى هذا الاسم، ولا يحتمل اللفظ غيره، لكن لو قلتُ: اكتُب: الله، المراد: الاسم؛ يعني: الحروف الدالة على المُسمى.

هم يقولون: إن أسماء الله مخلوقة؛ لأنها غيره، فتسمَّى الله بها بعد أن لم يكن له اسم - والعياذ بالله -، فكان مُعطَّلًا عن الأسماء، وعن الأوصاف، وعن الأفعال، فصار عدمًا، يقولون: الاسم حادث، والأوصاف ما له صفة قائمة به، والأفعال ما له فعل قائمٌ به، إذًا فكان عدمًا، ثم صار موجودًا، نسأل الله العافية، اللهم اهدِنا فيمن هدَيتَ.

ماذا نقول نحن في الأسماء والصفات ؟

نقول: إن الله لم يزَل، ولا يزال بأسمائه وصفاته، فأسماؤه وصفاته قديمةٌ بقِدَمه، صحيحٌ أنَّ أنواع الصفات الفعلية أو أفرادها يكون حادثًا، أما الصفات الذاتية فهي قديمةٌ بقِدَمِ الربِّ عز وجل، وكذلك الأسماء؛ فمثلًا: الاستواء على العرش حادث؛ لأن العرش ليس بأزليٍّ بل حادثٍ، والنزول إلى السماء الدنيا[1] حادِث، الكلام باعتبار آحاده حادث.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٧- لَكِنَّــه أبـدَى المَقَالَــةَ هَكَــذَا
فــي قَالَــبِ التنزيــهِ للــرَّحمَنِ

١٧٨- وأتى إلى الكُفرِ العَظِيمِ فَصَاغَهُ
عِجــلًا لِيَفــتِنَ أمَّــةَ الثِّيــرَانِ

---

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» (٧٥٨) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر هل من تائب هل من سائل هل من داع حتى ينفجر الفجر».

١٧٩- وَكَسَاهُ أَنـوَاعَ الجـواهِرِ والحُلَـى
مِـن لُؤلُـؤٍ صَـافٍ وَمِـن عِقيَـانِ

١٨٠- فَرَآه ثيرانُ الوَرَى فَأَصَابَهُم
كَمُصَـابِ إخـوَتِهِم قَـدِيمَ زَمَـانِ

١٨١- عِجلاَنِ قَـد فَتَنَـا العِبَـادَ بِصـوتِهِ
إحـدَاهُمَا وَبِحَرفِـهِ ذَا الثَّـانِي (١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالجهمية الذين يقولون هذا القول ثيران؛ لأنهم تبِعوا هذا القول، والتزموا به.

ويضرب المؤلف مثلًا بموسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه استخلف عليهم هارون، ونعلم أن موسى كان ميعاده ثلاثين ليلة، وأتمَّها الله بعشرٍ فصارت أربعين ليلة، لما تمَّت ثلاثون ليلة ولم يأتِ صنع السامريُّ عجلًا من الحُلِيِّ، من الذهب على صورة العجل، وقال لهم: هذا هو إلهكم وإله موسى، لكن موسى ما عرف، ولهذا كان الميعاد ثلاثين يومًا والآن أكثر من ثلاثين يومًا؛ لأنه ما عرف، فهذا هو إلهكم، فلما قال هذا الكلام راجَ عليهم واستحسنوه، وعبَدوا العجل – والعياذ بالله –؛ وهذا عجل اليهود (٢).

---

(١) [١٧٧ : ١٨١] قال العلامة محمد خليل هراس:
كما نفى الجهم صفات الرب عز وجل وأفعاله، فهو كذلك ينفي أسماءه الحسنى التي سمَّى بها نفسه والتي سماه بها رسوله ﷺ ويرى أنها أسماء لبعض مبتدعاته، وأنها حادثة، وإنما تطلق عليه سبحانه على سبيل المجاز، ومن العجب أن هذا الجهم مع غلوه في النفي والتعطيل، ومع ما يتضمنه هذا التعطيل من الكفر والإنكار والجحود يصوغ ذلك في عبارات يوهم بها الأغرار أنه إنما يقصد تنزيه الرب عما لا يليق به من المشابهة لخلقه، ويصوغ من ذلك الكفر الشنيع عجلًا ليفتن به أمة الجهل والضلال، لا سيما وقد كساه من حلل التمويه وزخارف التحريف ما بهر أبصارهم. ففعلوا به حين رأوه ما فعله إخوة لهم من قبل بالعجل الذي صاغه لهم السامري، فكان هناك عجلان فُتِن بهما الناس، عجل فتن بصوته وخواره وعجل فتن بتحريفه وتمويهه. وهو العجل الذي صاغه الجهم لثيران هذه الأمة وأبقارها.

(٢) راجع تفسير الطبري (٢/ ٦٢).

وعجلُ الجهمية ما هو ؟ إنه القول المُزخرَف الذي زخرَفَه جهمٌ، لكن عجل بني إسرائيل بالصورة، وعجل هذا بالتحريف، ولهذا قال: (بحِرفة ذا الثاني)، هذا بالتحريف، تحريف الكَلِم عن مواضعه، وتزويق الكلام الذي يحسبُه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجِده شيئًا [1].

۞ ۞ ۞

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٨٢- وَالنَّاسُ أكثرُهم فأهلُ ظَوَاهِرٍ
تبدُو لَهُم ليسُوا بِأهلِ مَعَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الناس أكثرهم أهل ظواهر، ينظرون إلى الظاهر فقط، ولا ينظرون إلى ما يترتَّب على هذه الظواهر، وما ينتُج عنها، وهل هي حق أو باطل؟ مُصلِحةً أو مُفسِدة، فتجِدُهم أتباع كل ناعق.

۞ ۞ ۞

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٨٣- فَهُمُ القشُورُ وَبالقُشُورِ قِوَامُهُم
وَاللُّبُّ حَظُّ خُلاَصَةِ الإِنسَانِ

١٨٤- وَلِذَا تقسَّمَتِ الطَوائِفُ قَولَهُ
وتوارَثُوه إرثَ ذِي السُّهمَانِ

١٨٥- لَم يَنجُ مِن أقوَالِه طُرًّا سِوَى
أهلِ الحَدِيثِ وَشِيعَةِ القرآنِ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

١٨٦- فَتَبَــرؤوا منهَــا بَــراءةَ حَيـدَرٍ
وَبَــراءَةَ المولُــودِ مِــن عِمــرَانِ

١٨٧- مِـن كُـلِّ شِـيعِيٍّ خَبِيـثٍ وَصـفُهُ
وَصـفُ اليهُـودِ مُحَلِّلِـي الحِيتَـانِ(١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول المؤلف: إن الطوائف - يعني: أهل البدع - تقسَّموا قول جهم؛ أحدهما أخذ سهمًا، وأخذ واحدٌ سهمَين، وأخذ واحدٌ أسهم كثيرة؛ فمثلًا: هو عطَّلَ الله من أسمائه، وعطَّلَ الله من أوصافه، وعطَّلَ الله من أفعاله، وقال: إن الإيمان شيءٌ واحدٌ، ولا يدخل فيه القول والعمل، وقال بالجبر، وأنكَرَ أن للعبد اختيارًا، هذه خمسة أشياء، الناس تقسَّموها؛ ومن الناس من أقرَّ بالأسماء وأنكر الصفات؛ مثل: المعتزلة، ومنهم من أقرَّ بالأسماء وأثبتَ من الصفات سبعًا، وهم: الأشاعرة، ومنهم من قال بأن الإنسان مُجبَرٌ على عمله، ولكن لا يصح أن نقول: مُجبَرٌ؛ بل نقول: إنَّ عملَه كسبٌ له، وهو خلقٌ لله، كما قالت الأشاعرة،

(١) [١٨٢ : ١٨٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

جازت حيلة الجهم وعظمت فتنته وانخدع بها كثير من الناس؛ لأن الناس معظمهم أهل ظواهر، يغرهم بريقها، ويخدعهم عما وراءها من كفر وباطل وسم قاتل، وليسوا بأهل حقائق ومعان؛ لأنها تحتاج في إدراكها إلى سلامة فطرة، وإلى ذكاء وفطنة، وهؤلاء أهل بله وغفلة فهم أشبه شيء بالقشرة الظاهرة التي تستر الثمرة وتحميها، لذلك لا يدركون من الأشياء إلا قشورها، وأما إدراك اللب فهو حظ المصطفين من عباد الله ذوي الألباب السليمة والأفكار المستقيمة ومن أجل هذا راج مذهب الجهم وتقسمت أقواله طوائف أهل الكلام، فمن آخذ بقوله في النفي والتعطيل، ومن قائل برأيه في الجبر والتسيير، ومن ذهب مذهبه في نفي العلم بالمتجدد وخلق القرآن، ومن متأثر به في غير هذا وذاك من ترهاته وأباطيله التي لم ينج من أحابيلها إلا أهل الحديث والقرآن والمعتصمين بعروتها الوثقى، فتبرأوا من مقالة الجهم براءة حيدر، وهو لقب علي رضي الله عنه، وبراءة المولود من عثمان من أهل التشيع الخبثاء. الذين أشبهوا في وصفهم اليهود فقد حرم الله عليهم الاصطياد في يوم السبت. فتحايلوا على ذلك وخرجوا عن طاعة الله. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «منهاج السنة» وجوه شبه كثيرة بين الشيعة واليهود. قبح الله الجميع وأذلهم وأخزاهم.

وهذا الكَسْب عند الأشعري ما له قيمة أبدًا، ومنهم من قال: إن الله تعالى لا يُوصف بالأفعال الاختيارية.

فالمهم: أنَّ الناس – والعياذ بالله – تقاسَموا قول جهم، منهم من أخذ نصيبًا، ومنهم من أخذ نصيبين، ومنهم من أخذ ثلاثة.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ما نجا من أقواله إلا أهلُ الحديث وشيعة القرآن؛ يعني: أصحابه المُكثِرين له، وتبرَّأوا من أقواله براءة حيدَر من الشيعة، من هو حَيْدَر؟ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحَيْدَر اسمٌ للأسد، وقال ذلك حينما بارَزَ مرحَب اليهودي [1]، قال: أنا الذي سمَّتْني أمي حَيْدَرًا، وحَيْدَر مُتبرِّئ من الشيعة براءةً كاملة، لو أنه خرج لقاتلهم؛ بل إنه رضي الله عنه أحرَقَهم بالنار، لما خرج عبدُ الله بن سبأ اليهودي، وأتى إلى عليٍّ بن أبي طالبٍ، وقال له: أنتَ الله، أمَر غلامَه أن يحفِر أخاديد في الأرض، وملأها حطبًا، ثم أخذ هؤلاء الفرقة وألقاهم في النار، وما قتلهم بالسيف، بل ألقاهم في النار غضبًا لله عز وجل، وقال: يذوقون نار الدنيا قبل نار جهنم [2]، ولا شك أنه لو خرج رضي الله عنه لقاتلهم، فهو بريءٌ منهم [3].

أيضًا براءة المولود من عمران، مَن هو ؟ موسى، وهو ابن عمران، ما هي البراءة ؟

---

(١) مرحب اليهودى: وهو بفتح الميم والحاء، قُتل كافرًا يوم خيبر، واختلفوا في قاتله، فقيل: على بن أبي طالب، وقيل: محمد بن مسلمة الأنصارى، رضى الله عنهما. قال ابن عبد البر في كتابه «الدرر في مختصر السير»: قال محمد بن إسحاق: إن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحبًا اليهودى بخيبر. قال: وخالفه غيره، فقال: بل قتله على بن أبي طالب. قال ابن عبد البر: هذا هو الصحيح عندنا. ثم روى ذلك بإسناده عن بريدة، وسلمة بن الأكوع.

وقال الشافعى في المختصر: كفَّل النبى – ﷺ – يوم خيبر محمد بن مسلمة سلب مرحب، ذكره في أول باب جامع السير، وهذا تصريح منه بأن قاتله محمد بن مسلمة. وقال ابن الأثير: الصحيح الذى عليه أكثر أهل السير والحديث أن عليًا هو قاتله. قال المصنف، رحمه الله: قلت: وفى صحيح مسلم بإسناده عن سلمة بن الأكوع التصريح بأن عليًا هو الذى قتله. «تهذيب الأسماء» (١/ ٦١٥).

(٢) ولا شك أن بعض الصحابة قد عارض الإمام عليًّا في تحريقه لهم بالنار معللين ذلك بأن الله هو الذي يعذب بالنار وحده؛ ويُذكر أيضًا دليلًا على ذلك حيث أن النبي ﷺ نهى عن الكيِّ بالنار لما فيه من تعذيب بها والله أعلم.

(٣) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٣٠٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب:٦٩] فهو بريءٌ مما قيل فيه، فتبرَّأ تبرُّؤ موسى من هذا القول الذي قيل فيه، كما تبرَّأ أهلُ السنة من قول جهمٍ.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: (تبرُّؤ المولود من عمران): تبرُّؤ موسى من عجل اليهود، كما تبرَّأ أهلُ السنة من عجل الجهم، فقوله يحتمل هذا وهذا، إن نظرنا إلى أن القرآن قال: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ قلنا: الأولَى أن يُحمَل على براءته مما عابوه به؛ حيث قالوا: إنه آدر(١)، وإن نظرنا إلى سياق الكلام الأول عن العجل، قلنا: إنه تبرَّأ من عبادتهم العجل كما تبرَّأ أهلُ السنة من عجل جهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) (آدر) أي: منتفخ الخصية؛ وذلك لتسرب مائع بين طبقتي الغلاف الذي يحيط بها، «المعجم الوجيز: ٩».

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل

في مقدمة نافعة قبل التحكيم

وذلك أن المؤلف رحمه الله جعل هذا الكتاب حكمًا وحاكمًا بين مذاهب الجهمية والمعطلين وبين مذاهب أهل السنة والجماعة المثبتين، والحاكم لا يمكنه أن يحكم بالعدل حتى يعلم العدل ويتخلق بالأخلاق الجميلة ويتخلَّي عن الأخلاق الرذيلة، فأعظم الأخلاق الجميلة الواجبة خصوصًا في هذا المقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون هذا الأمر هو قاعدة العبد واخيته التي يرجع إليها ويرد ما تنازع فيه المتنازعون إليه، فما وافقه فهو الحق المقبول وما ناقضه فهو الباطل المردود وما لا يعلم موافقته ولا مناقضته وقف فيه حتى يتبين أمره، فإذا بنى العبد أقواله وعلومه ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح وأنجح وكان على ثقة من أمره ويقين من براهينه، ولكن لا يصلح هذا ولا يتم إلا لمن كان عارفًا بالأدلة الشرعية، وأما الجاهل فما يفسده أكثر مما يصلحه فعليه أن يتعلم ليتكلم، فالجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، والجاهل البسيط هو الذي لا يدري ويدري أنه لا يدري، كلاهما إذا تكلم كان مع تحريم كلامه ضرره أكثر من نفعه سواء انتسب إلى الحق أو إلى الباطل.

فإذا وفِّق العبد للعلم ورُزِقِّ خشية لله وإنصافًا بأن يكون مراده الحق، فيقبل الحق مع من كان وأَيْنَ كان فهذا موفق محمود، فإذا رزق مع ذلك الإخلاص والمتابعة بأن تقع أقواله وأفعاله وجميع حركاته وسكناته خالصة لوجه الله مرادًا بها رضاه وطلب ثوابه وكان في ذلك دائرًا مع سنة نبيه ﷺ فقد كمل أمره، وحينئذ لا يبالي بكثرة المعارضين. وكلما كثر خصومه ازدادت شجاعته لعلمه وخشيته وإخلاصه ومتابعته ومعرفته أن ما معه من الحق

لا تثبت له الجبال الرواسي، فإن أهل الحق لا يقاتلون بكثرة عدد ولا قوة عدد مادية وإنما قوتهم ومدارهم على القوة الحقيقية المعنوية قوة الإيمان وقوة الحق وما يقتضيه من المقويات المعنوية وما يتبعها من القوة المادية، وبهذا فتح الصحابة وقرون الأمة المفضلة القلوب بالعلم والإيمان، واحتلوا بهذه القوة وبالعدل والرحمة الأقطار؛ لأنهم جمعوا أصناف الشجاعة لاعتمادهم على الحق وزهدهم في النفوس وتمام ذلك زهدهم في الثناء الباطل، فإن هذه الأمور متى اجتمعت تمت الشجاعة ومتى فقد واحد منها أو كلها نقصت أو فقدت، فمن لم يعتمد على حق بل ينصر الباطل فما أسرع ما يخالطه الجبن والخيالات المتولدة من الباطل، ومن لم يزهد بنفسه بل حببت إليه ولم يهن عليه إقدامها في الحق المشق على النفوس أو كان يخشى لوم اللائمين أو يقف عند مدح المادحين أو يعرقل مساعيه ذم الذامين فهذه كلها علل توقف سيرة القوة وتمنع الشجاعة، فالحق الذي لا يبالي بالمشاق ولا يقف إلا عند مدح الله ورسوله وذمهما هو القوي الشجاع.

ولا بد أن يبتلى إذا وصل إلى هذه الحال بالمعرضين والمعارضين له الرادين لما قاله، فإذا تيقن أنه على الحق وما مع المعارضين باطل ما بين بدعة أو فرية أو رأي مخالف للشرع أو شبه وتشكيكات يشككون فيها الخلق أوجب له أن يصدع بالحق ولا يخشى إلا الله، ولكنه في هذه الحال يحتاج إلى صبر جميل وصفح جميل، والجميل من ذلك ضد القبيح، فهو الخالص لوجه الله، الموافق لمرضاة الله، الخالي من هوى النفس وحمية الشيطان، ومن التسخط والشكاية إلى المخلوقين، بل إذا اشتكى فإلى رب العالمين، ويستعمل الهجر في محله لأهل البدع والانحراف والمعاصي، حيث كان فيه مصلحة ونصر للحق وتخفيف للباطل والشر، وعليه أن يحمد الله على الهداية إلى الحق ويرحم الخلق،فإنه إذا نظر إلى أقدار الله إذ خذلهم وولاهم ما تولوا لأنفهسم من الباطل والغي، وأبقاهم في ضلالهم يعمهون، رحمهم ودعا لهم وجد وحرص على السعي في هدايتهم بحسب إمكانه، ثم إذا نظر إليهم بعين الشرع والأمر أقام عليهم ما أمر به الشارع من العقوبات، وحملهم عليه وعلى التزام أحكامه، وهو مع ذلك خائف مشفق على إيمانه، فإن الله مقلب القلوب، فما استبقيت نعم الله بمثل حمده والثناء عليه، والخوف والحذر من زوالها، والسعي في الأسباب الجالبة لها،

والبعد عن المخالفات والبطر والبغي الذي يزيلها، والإكثار من الاستعاذة بالله من شر النفس وسيء الأعمال، وعليه أن يوطن نفسه على الخضوع للحق والانقياد له مع من قاله. وسرعة الرجوع عن الباطل الذي قاله مخطئًا، وأن لا يعجب بنفسه وعمله، ويجعل الرياسة والتمكن من قلوب الناس مانعًا له من قبول الحق.

فإذا جمع الله للعبد هذه ا لأمور التي وصى بها المؤلف في هذه المقدمة، ووثق بربه وتوكل عليه، وعلم أن الله لا بد أن ينصر الحق ومن اتبعه، نشطت نفسه وقويت همته وحصل على الفلاح والنجاح. والله أعلم.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصلٌ
في مقدمةٍ نافعةٍ قبل التحكيم

١٨٨- يـا أيُّهَـا الرَّجُـلُ المرِيـدُ نَجَاتَـهُ
اسـمَع مَقَالَـةَ نَاصِـحٍ مِعـوَانِ

١٨٩- كُـن فـي أمُـورِكَ كُلِّهـا مُتمسِّـكًا
بـالوحي لا بزخـارِفِ الهـذَيَانِ

١٩٠- وانصُـر كتَـابَ الله والسُّـنَنِ الَّتـي
جَـاءَت عَـنِ المبعُـوثِ بالفُرقَـانِ

١٩١- واضـرِب بِسَيفِ الـوحي كُـلَّ مُعَطِّـلٍ
ضَـربَ المجاهِـدِ فَـوقَ كُـلِّ بَنَـانِ

١٩٢- واحمِل بعزمِ الصِّدق حَملَةَ مُخْلِصٍ
مُتَجَـرِّدٍ لله غَيـرِ جَبَـانِ

١٩٣- واثبُت بِصَبرِكَ تَحتَ ألوِيةِ الهُدَى
فَـإذَا أُصِـبتَ فَفِـي رِضَـا الـرَّحمنِ(١)

---

(١) [١٨٨: ١٩٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
بعد أن فرغ المؤلف رحمه الله من ذكر مقالات الجهم الفاسدة، وما أغرق فيه من الضلال بسبب إعراضه عن النصوص وإبعاده في التأويل، تقدم بهذه النصائح الغالية لمن ينشد لنفسه النجاة من عذاب الله الذي توعد به كل مارق ضال، فوصاه بأن يتمسك في أمور دينه كلها بالوحي المبين، معرضًا عن تمويه المبطلين، وأن يجتهد في نصر كتاب الله والسنن المأثورة عمن بعثه الله بالفرقان، صلوات الله وسلامه عليه وآله، وأن يتخذ من نصوص الوحيين سيفًا يضرب به أهل التعطيل والبهتان، ضرب المجاهد لأعدائه فوق كل بنان، وأن يكون صادق العزم في حملته، مخلصًا لله عز

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هنا يُخاطب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الرجلَ الذي يريد نجاته من عذاب الله عز وجل بأن يسمع مقالة هذا الرجل الناصح المعوان؛ يعني: الذي هو أهلٌ للمعاونة والمساعدة؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ مُخلصٌ لإخوانه، ويأمُر بأن يكون الإنسان مُتمسكًا في كل أمر، في العقيدة، وفي الأعمال، وفي العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق والسلوك، بالوحي الشامل للكتاب والسنة، ويأمُر كذلك أن ننصُر كتاب الله والسنن التي جاءت عن النبي ﷺ المبعوث بالفرقان، وأن نضرب بسيف الوحي - وما أعظمه من سيف، وما أبتَرَه للباطل، وأقطعَه له - كلَّ مُعطِّلٍ ضرب المُجاهِد فوق كلِّ بنانٍ، هذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ يعني: حتى الأصابع قطِّعوهم قِطَعًا قِطَعًا.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(واحمِل بعَزْمِ الصِّدْقِ) ثم أمَرَ أيضًا أن نحمِل بعزمِ الصِّدْق حملةَ مُخلصٍ مُتجرِّدٍ لله، لا للهوى أو لأَن يكون قولُه هو الأعلى، ولكن مُتجرِّد لله عز وجل، لا يُريدُ بذلك إلا وجهَ الله، ويأمُر كذلك بالصبر تحت ألْوِيَة الهُدى، والأَلْوِيَة جمعُ لواء، وهي الأعلام، تحت ألْوِيَة الهُدى اثبُت، فإذا قُدِّرَ أنَّكَ أُصِبْتَ فذلك في رِضا الرحمن، والإصابة في رضا الرحمن هي في الحقيقة ليست إصابة؛ بل هي غاية ما يتمنَّاه الإنسان، إذا أُصِيبَ في الله وفي رضا الله فهو لم يُصَب؛ بل حصل له الأجر والفضل، وهذا البيت ينبغي أن نجعله معنا دائمًا، أن نثبُت تحت ألْوِيَة الهُدى، فإذا أُصِبْنا، أو أُوذِينا، أو ضُرِبْنا، أُمْهِلنا، فُعِلَ بنا ما فُعِل، فكلُّ هذا في رضا الرحمن، وهذا كقول النبي ﷺ حين دَمِيَت أُصْبعُه: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وَفِيْ سَبِيْلِ اللهِ مَا لَقِيْتِ»[1].

❁ ❁ ❁

وجل غير هياب ولا وجل وأن يثبت تحت راية الهدى والإيمان، غير فار ولا منهزم، فإن أصابه شيء ففي رضا الرحمن وهو غاية يرخص في سبيلها كل بذل وتهون كل تضحية.

(١) رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٩٤- واجعَل كِتَابَ الله والسُّنَنَ الَّتِي
ثَبَتَت سِلاَحَكَ ثُمَّ صِح بِجَنَانِ

١٩٥- مَن ذَا يُبَارِز فليقَدِّم نَفسَهُ
أو مَن يسَابِق يَبدُ في الميدَانِ

١٩٦- وَاصدَع بِمَا قَالَ الرَّسُولُ ولا تَخَف
مِن قِلَّةِ الأنصَارِ والأعوَانِ

١٩٧- فَالله نَاصِرُ دِينِهِ وكتَابِهِ
وَالله كَافٍ عَبدَهُ بأمَانِ

١٩٨- لا تخشَ مِن كَيدِ العدُوِّ وَمكرِهِم
فَقتَالُهُم بالكِذبِ والبُهتَانِ

١٩٩- فجُنودُ أتبَاعِ الرَّسُولِ مَلائِكٌ
وَجُنُودُهُم فَعَسَاكِرُ الشَّيطانِ

٢٠٠- شَتَّانَ بينَ العَسكَرين فَمَن يَكن
مُتَحَيِّزًا فلينظُرِ الفئَتَانِ

٢٠١- واثبُت وقاتِل تَحتَ راياتِ الهُدى
وَاصبِر فَنَصرُ الله رَبِّكَ دَانِ

٢٠٢- واذكُر مَقَاتلَهُم لفُرسَانِ الهُدَى
لله درُّ مَقَاتِلِ الفُرسَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اجعل سلاحك شيئين: كتابَ الله، والسنن التي ثبَتَت، ثم صِحْ بهؤلاء

الجُبناء قائلًا: مَن يُبارِزْ ؟ هل أحدٌ يستطيعُ أن يُبارِز ما سلاحه؟ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا المُبارِز سلاحُه الهَذَيان والكَذِب والفِرْية والدَّجَل والزخارف؛ هل يستطيع أو لا؟ أبدًا لا يستطيعُ. آيةٌ من كتاب الله تُحطِّم كلَّ ما جاء به من هذه الزخارف حتى تُبيده.

ثم قال: (اصدَع بما قال الرسول) أمَرَنا أن نصدَع بما قال الرسول ﷺ، وألا نخاف من قلة الأنصار والأعوان، حتى لو كنتَ وحدك اصدَع بما قال النبي عليه الصلاة والسلام ولا تخف من قلة الأنصار؛ بل لا تخف من كثرة ما يقوم عليك ويكون ضدُّك، فالصادِع بما قال الرسول إما أن يجِدَ ناصِرًا، أو لا يجِدَ ناصرًا، أو يجِدَ مُعارِضًا، فالأول الذي يجِد الناصر واضح أنه سيصدَع؛ لأنه لديه من يُعينُه، والثاني الذي لم يجِد لا هذا ولا هذا؛ بل وجَدَ مُعرِضًا، هذا قد يكسَل إذا رأى أن ما صدَعَ به من قول الرسول لم يلتفِتْ إليه أحدٌ، والثالث الذي وجَدَ المُعارِضَ الذي يُقابِلُه ويُنازِلُه ويُضيِّقُ عليه، ويأتي ضدَّه بالدِّعايات، ولكن كل هذا يجب أن يكون لا شيء أمام الإنسان، وهذا لا يعني في العقائد فقط، بل في العقائد، والأحكام الفقهية، والآداب، والأخلاق، وكل شيء، اصدَع بما قال الرسول قولًا وفعلًا، ولا تخَف من قلة الأنصار والأعوان، فالناس أمامك إما مُساعدٌ، أو مُعرِض، أو مُعارِض، لا تُبالِ بهذا، حتى وإن لم يكن أمامك إلا المُعرِض والمُعارِض لا يهُمَّنَّك.

ويقول: (لا تخش من كيدِ هؤلاء ومكرِهم) لأنهم يُقاتِلون بالكذب والبُهتان والزخارف المُموَّهة الباطلة، وأيضًا جُنودُهم عساكِرُ الشيطان، أما جُنودُك فملائكة الرحمن، أنتَ مُؤيَّدٌ بالملائكة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول لحسَّان بن ثابت[1] وهو ينشُد: «اللهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»[2].

ويقول أيضًا: إنَّهُ ينبغي لنا أن نُبيِّن مَقاتِلَهم؛ أي: موضِعَ قتلِهم، نُبيِّنُه فيما بيننا، نقول: جادِلْهم بكذا، حادُّهم بكذا، ناظِرْهم بكذا، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في القَدَرِيَّة، قال: ناظِرُوهم بالعلم فإن أقرُّوا به خُصِموا، وإن أنكروا كفروا، أئمة الهدى يُبيِّنون لنا مَقاتِل

(١) شاعر الرسول ﷺ وكان ينافح بلسانه عن النبي والإسلام وله ديوان شعري يحمل في الجاهلية والإسلام

(٢) بنحوه عند مسلم (٢٤٩٠)، وأبي داود (٥٠١٥). من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

هؤلاء حتى نقتُلَهم بما يُبطِلُ أقوالهم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٣- وادرَأ بِلَفظِ النَّصِّ في نَحرِ العِدى
وَارجُمهُم بِثَواقِبِ الشُّهبَانِ

٢٠٤- لا تَخشَ كثرتَهُم فَهُم هَمَجُ الوَرَى
وَذُبَابُهُ أتَخافُ مِن ذِبَّانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

الشُّبُهات من أهون ما يكون، ومن أخوف ما يكون، فهؤلاء ذِبَّان، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ أتى بهذا التشبيه لبيان حالهم وتقبيحها؛ لأن تشبيه الإنسان بالذُّبَاب تقبيح بلا شك، وهو أيضًا مُبيِّن لحاله، وأنه من أضعف ما يكون من الحشرات.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٢٠٥-واشْغَلْهُمْ عنْدَ الجِدالِ ببعْضِهِمْ
بعضًا فَذَاكَ الْحَزْمُ للْفُرسَانِ

٢٠٦-وَإذا هُمُ حَمَلُوا عَلَيكَ فلا تكُن
فَزِعًا لِحَملَتِهِم ولا بِجَبَانِ

٢٠٧-واثبُت ولا تَحمِل بِلا جُندٍ فَمَا
هَذا بِمَحمودٍ لَدَى الشُّجعَانِ(١)

---

(١) [٢٠٥: ٢٠٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

على أن هؤلاء الأعداء وإن كانوا إلبًا واحدًا على أهل الحق، فإنهم متنازعون فيما بينهم، فالحزم يقتضي

٢٠٨- فإذَا رَأيتَ عِصَابَةَ الإِسلاَمِ قَد
وَافَتْ عَسَاكِرُهَا مَعَ السُّلطَانِ

٢٠٩- فَهُنَاكَ فَاخترِقِ الصُّفُوفَ ولا تَكُن
بِالعَاجِزِ الوَانِي وَلاَ الفَزعَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّنَ لنا من مَقاتِلِ القوم أن نرمي أقوال بعضهم ببعض؛ فمثلًا: هؤلاء المُتكلِّمون ليسوا على طريقةٍ واحدة؛ بل طُرُقُهم مُتناقِضة حتى إن الواحد منهم يقول: هذا شيءٌ يُوجِبُه العقل، والثاني يقول: هذا شيءٌ يمنعه العقل.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: اضرب أقوال بعضهم ببعض، فإن ذلك يُوجِبُ أن بعضهم ينشغل ببعض؛ فمثلًا: هذا الذي يقول: هذا واجبٌ عقلًا، وذاك يقول: هذا ممتنعٌ عقلًا، حرِّش بعضهم ببعض، لأجل أن يرُدّ الذي قال: إنه يمتنع على الذي قال: إنه يجب، والذي قال: يجب يرُدُّ على الذي قال: يمتنع، وتبدأ أنت في موقف المُتفرِّج، وهذه سياسة، حتى في الأمور العسكرية الآن سياسة أشغِل الناس بعضهم ببعض، ولهذا تجد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أحيانًا يسوق بيان بطلان قولهم في أنه مُتناقِض ثم يقول: قال فلان - وهو من زعمائهم - كذا وكذا، وقال آخر - وهو من زعمائهم - كذا وكذا، يدلُّ على التناقُض، وتناقُض قولٍ أكبرُ دليلٍ على بطلانه.

ويقول أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: اثبُت لكن إن أردتَ أن تهجم فالأَولَى ألا تهجِمَ إلا بجُندٍ معك يُساعِدونك؛ لأنَّ الحمل بلا جُند غير محمود، يبقى الإنسان وحده ربما لا يُحمَد، يحتمل كلام المؤلف هنا أن يُريد بالجُند: العلماء الذين يُساعِدونك ويُعِينونك، ويحتمل أنه يُريد به

بأن نصرفهم عن مناوشتنا بأن نشغل بعضهم ببعض، فنستفيد من ذلك معرفة بفساد مقالتهم جميعًا. وبالمطاعن التي يوجهها كل منهم إلى الآخرين، أما إذا تصالحوا على حربنا وحملوا علينا، فالواجب أن لا نحزن لحملاتهم وأن لا نجبن عن لقائهم، وأن نحشد جنودنا لمقاتلتهم، فإن الحرب بلا جند وأعوان ليست مما يحمده الأبطال والشجعان.

السلاح؛ يعني: لا تحمل إلا بعلم، لكن آخر كلامه يؤيِّد الكلام الأول، ولهذا قال: فإذا رأيتَ عِصابةَ الإسلام قد وافَتْ عساكِرها مع السلطان فهناك فاخترق، والمؤلف يُريد أن يُبيِّن الجيش القوي، والمراد بالسلطان: ذو السلطة، حتى القائد ذو سُلطة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١٠- وَتَعَرَّ مِن ثوبَينِ مَن يَلبَسهما
يَلقَ الرَّدَى بِمَذَمَّةٍ وَهَوانِ

٢١١- ثوبٌ مِنَ الجَهلِ المُرَكَّبِ فَوقَهُ
ثَوبُ التّعَصُّبِ بِئسَتِ الثَّوبَانِ

٢١٢- وتَحلَّ بالإنصافِ أفخَر حُلَّةٍ
زِينَت بهَا الأعطافُ والكَتِفَانِ

٢١٣- واجعَل شِعَارَكَ خَشيَةَ الرّحمَنِ مَع
نُصحِ الرّسُولِ فَحَبَّذَا الأمرانِ

٢١٤- وَتَمسَّكَنَّ بحبلِهِ وَبوَحيِهِ
وَتَوَكَّلَنَّ حَقيقَةَ التُّكلانِ[1]

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

أمَرَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن نتعرَّى من ثوبين، وبيَّنَ أنَّ مَن يلبس هذين الثوبين يلقى الرَّدَى

---

(١) [٢١٠: ٢١٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
وهذان الثوبان هما: ثوب الجهل المركب وفوقه ثوب التعصب. ما اجتمع هذان الثوبان على أحد إلا أدخلاه في لجج الباطل ومتاهات الضلال وزينا له سوء عمله وقبح اعتقاده فرآه حسنًا والمراد بالجهل المركب أن يعتقد الإنسان خلاف الحق مع اعتقاده أنه على الحق فهو جاهل بالحق ولا يدري أنه جاهل به. وهذا أشنع من الجهل البسيط الذي هو عدم العلم بالحق بمعنى خلو الذهن عنه.

بمذلَّةٍ وهوان، فبعض الناس يقول: أنا الفقيه، أنا الإمام، وإذا تحدَّثت معه فإذا هو لا يعرفُ كُوعَه من كُرسُوعِه، من أجهل عباد الله، لكن يرى نفسَه عالمًا، إمام الأئمة، أمير العلماء، وعالمَ الأُمَراء، لا يُدانيه أحدٌ؛ لأنه جاهل جهلًا مُركبًا فما يعرف أنه جاهل، لكن يرى أنه هو العالم.

الثوب الثاني: ثوب التعصُّب - والعياذ بالله -، يتعصَّب لرأيه لا يمكن أن يحيدَ عنه حتى ولو بان الحق بيان الشمس في رابعة النهار لا يحيد، هذان الثوبان - أعاذني الله وإياكم منهما - إذا ابتُلِيَ بهما الإنسان حُرِمَ الحق؛ لأنه يقول: يرى نفسَه هو العالم وهو جاهل، ثم يرى أنه لا يمكن أن يتزحزح عما هو عليه؛ لأنه يرى أنَّ تزحزُحَه ذُلٌّ، وأنَّه إذا تزحزح قال الناس: هذا رجلٌ جاهل، ما علِمَ أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام أحيانًا يحكم بالشيء ثم يتبيَّن له خلافه فيرجع، وكذلك الخلفاء، وكذلك الأئمة.

كتب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما كتابًا في القضاء من أحسن الكتب وأجمعها، حتى إنَّ ابن القيم جعل كتابه «إعلام المُوقِّعين» ذلك الكتاب الذي قلَّ أن يوجد في كتب الإسلام مثله، مبنيًّا على كتاب عمر لأبي موسى في القضاء، قال له: (لا يمنعنَّك قضاؤك أن تقضي بالحق في غدٍ، فإنَّ الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل)(١)، فجرِّد نفسك من هذين الثوبين:

الأول: الجهل المُركَّب.

والثاني: التعصُّب.

ثم أمَرَ بعد التجرُّد من هذين الثوبين التحلِّي بالإنصاف، والإنصافُ: أن يقول الإنسان العدل ولو على نفسه، إذا بان له الحق فليرجِع إليه ولا يتعصَّب، وبيَّن أنه - أي: الإنصاف - أفخر حُلَّة زِينت بها الأعطاف والكتفان، وصدق رحمه الله، لا حُلَّة أفخر ولا أبهى من الإنصاف.

ثم بعد ذلك أمَرَ بأن يجعل الإنسان شعارَه دائمًا خشية الله، والنُّصْحَ لرسول الله ﷺ، وأن يتمسَّك بحبل الله وبوحيِه، وأن يتوكَّل عليه غاية التُّكْلان حتى يصِل إلى ما تُحمَد عاقبتُه في

---

(١) البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٩).

الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١٥- فالحَقُّ وَصفُ الرّبِّ وَهوَ صِراطُهُ الـ
ـهَادِي إليـهِ لصَـاحِبِ الإيمَـانِ

٢١٦- وهُو الصِّراطُ عَلَيهِ رَبُّ العَرشِ أيـ
ـضًا ذا وَذَا قَد جَاءَ في القرآنِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحق وصفُ الله عز وجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، وكذلك أيضًا الحق هو صِراطُه الهادي إليه؛ لأنَّ الله تعالى وصف الصراط الهادي إليه بأنه حق، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥]، فهو الحق، وهو الهادي إلى الحق، وصراطُه أيضًا هو الحق، فهذه ثلاثةُ أمورٍ، الله تعالى هو الحق، والحقُّ وصفُه، ويهدي -يعني: يهدي عبادَه- يدلُّهُم إلى الحق، وصراطُه المُوصِل إليه هو الحق.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١٧- والحَقُّ مَنصُورٌ ومُمتَحَنٌ فَلاَ
تَعجَب فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحمَنِ

٢١٨- وبِذَاكَ يَظهَرُ حِزبُه مِن حَربِهِ
ولأجلِ ذَاكَ النَّاسُ طَائِفَتَانِ

٢١٩- ولأجلِ ذَاكَ الحَربُ بَينَ الرُّسلِ والـ
ـكُفَّارِ مُذ قَامَ الوَرَى سَجلاَنِ

٢٢٠- لَكِنَّمَا العُقْبَى لأَهْلِ الحَقِّ إن
فَاتَتْ هُنَا كانَتْ لَدَى الدَّيَّانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الحق منصورٌ ومُمتحَن؛ يعني: ليس منصورًا بدون مِحنةٍ تمُرُّ عليه؛ بل لابد من محنةٍ تمُرُّ عليه، ولا عجب في ذلك فإنَّ هذه سنة الله عز وجل، حتى يتبيَّن بذلك حِزْبُ الله من حَرْبِ الله، ولولا ذلك لكان الناس أمةً واحدة، وما تبيَّنَ حِزْبُ الله من حَرْبِه، ولأجل أن الحق منصور ومُمتحن صار الناس طائفتين، ولكن العُقبى لأهل الحق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١، ٥٢]، العُقبى لأهل الحق، إن فاتت في الدنيا وجدوها لدى الديَّان عند الله، العُقبى لهم على كل حال، إما في الدنيا والآخرة، وإما في الآخرة، أما أن يُحرَموا النصر فهذا شيءٌ مُمتنع، على أنَّني كرَّرتُ مرارًا أقول: إنَّ النصر ليس نصرَ الشخص، ولكن نصر الطريق الذي ينتهجُه، فإذا قُدِّرَ أنَّ الإنسان قضى الله عليه في الدنيا قبل أن يُشاهِد النصر - أي: نصر ما كان عليه - فإنه سوف ينتصر بعد ذلك، ينتصر منهجه ويقوم ما دام هو المنهج الذي جعله الله سبحانه وتعالى لعباده، ولهذا نقول: إن انتصار المسلمين بعد موت الرسول ﷺ انتصارٌ للرسول ﷺ، وإن كان بعد وفاته، ويدلُّ لهذا: أنَّ هِرَقل [(١)] عظيم الروم لَمَّا حدَّثه أبو سفيان بما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام من الدعوة إلى الحق، قال: إن كان ما تقوله حقًّا فسيملِك ما تحت قدمَيَّ هاتين، هل الرسول مَلَكَ ما تحتَ قدَمَيه؟ نعم، لكن لا بشخصه، ولكن بشرعه ومنهاجه عليه الصلاة والسلام.

فالمهم: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول حاضًّا لنا على أن ننصر دين الله عز وجل وأن نتأسَّى بمن سبق؛ لأنَّ الحق منصورٌ مُمتحن؛ لأنه إذا لم يتم النصر في الدنيا كان في الآخرة.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر حديث هرقل بطوله عند البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢١- واجعَل لقلبِكَ هِجرتَينِ وَلاَ تَنَم
فهُمَـا عَلَـى كُـلِّ امـرِىءٍ فَرضَـانِ

٢٢٢- فالهِجرةُ الأولَى إلى الرَّحَمنِ بالـ
إخـلاصِ فـي سِـرٍّ وفـي إعـلانِ

٢٢٣- فالقصـدُ وَجـهَ الله بـالأقوَالِ والـ
أعمـالِ والطَّاعَـاتِ والشُّـكرَانِ

٢٢٤- فَبِـذَاكَ يَنجُـو العبـدُ مِـن إشـراكِهِ
وَيَصِـيرُ حَقًّـا عَابِـدَ الـرَّحمنِ

٢٢٥- وَالهِجرةُ الأخرَى إلى المبعوثِ بالـ
حَـقِّ المُبِـين وَوَاضِـحِ البرهَـانِ

٢٢٦- فَيَـدُورُ مَـع قَـولِ الرّسُـول وَفِعلِهِ
نَفيًـا وإثبَاتًـا بِـلاَ رَوَغَـانِ

٢٢٧- وُيحكِّمُ الوَحيَ المُبينَ عَلى الذِي
قَـالَ الشُّـيوخُ فَعِنـدَهُ حَكَمَـانِ

٢٢٨- لاَ يَحكُمَـانِ بِبَاطِـلٍ أبَـدًا وكُلْـ
ـلُ العَـدلِ قَـد جَـاءَت بِـه الحَكمَـانِ

٢٢٩- وَهُمـا كتَـابُ الله أعـدَلَ حـاكِمٍ
فِيـه الشِّـفا وهِدايَـةُ الحيـرانِ

٢٣٠- والحَـاكِمُ الثَّـاني كَـلامُ رَسُـولِهِ
مَـا ثَـمَّ غيرُهُمَـا لِـذِي إيمـانِ

٢٣١- فَـإذَا دَعـوكَ لغَيـرِ حُكمِهِمَـا فَلا

سَـمعًا لِـدَاعِي الكُفْـرِ والعِصْـيانِ

٢٣٢- قُـل لاَ كَرَامَـةَ لاَ ولاَ نُعمَـا وَلا
طَوعًـا لِمَـن يَـدعُو إلـى طُغيَـانِ

٢٣٣- وإذا دُعِيتَ إلى الرَّسُولِ فقل لَهُم
سَـمعًا وَطَوعًـا لسـتُ ذَا عِصيانِ(١)

٢٣٤- وإذا تكَاثَرَتِ الخصُومُ وَصيَّحُوا
فَاثبُـت فَصَـيحَتُهُم كَمِثـلِ دُخَـانِ

٢٣٥- يَرقَـى إلـى الأوجِ الرَّفِيعِ وَبَعـدَه
يَهـوِي إلـى قَعـرِ الحَضِيضِ الـدَّاني

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: اجعل لقلبك هجرتين:

الأولى: هجرة إلى الله.

---

(١) [٢٢٧: ٢٣٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
يشير المؤلف بهذه الأبيات إلى أصل عظيم ضل عنه أكثر الناس فوقع بينهم الاختلاف والتنازع، وفاتهم من الحق بقدر إهمالهم له، ذلك هو تحكيم الوحي المبين في كل مسائل الدين، أصوله وفروعه، وإيثاره على تقليد المشايخ والآباء في أقوالهم بلا بينة، فهناك حَكَمان اثنان لا يحكمان إلا بكل ما هو حق وعدل، ولا يعقل أن يصدر منهما حكم بخلاف ذلك، فأولهما: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، وفيه الشفاء من جميع أمراض القلوب، وهدى كل ضال حيران.
والثاني: هو كلام رسول الله ﷺ الذي أمره الله أن يحكم بين الناس بما أنزله، وأن يبلغهم البلاغ المبين، وأن يبين لهم ما نزل إليهم. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فإذا دعي الإنسان لغير حكمهما فيجب أن يرفض بكل إباء، وأن لا يجيب من يدعوه إلى ذلك قائلًا له بملء فمه: لا، ولا كرامة ولا نعمى ولا طاعة لمن يدعو إلى الكفر والطغيان، وأما إذا دعي إلى الله ورسوله فليقل على السمع والطاعة في غير إباء ولا استكبار. قال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والثانية: هجرة إلى رسول الله ﷺ.

ونحن نعرف أن الهجرة معناها: الترك؛ يعني: اترُكْ كلَّ شيء إلا هذين الشيئين؛ وهما: الهجرة إلى الله ورسوله؛ الهجرة إلى الله بالإخلاص، لا تقصد سواه أبدًا، ولهذا قال رحمه الله: (فالقصد وجه الله بالأقوال والأعمال والطاعات والشُّكْران) بهذه الهجرة تنجو من الشرك؛ لأنك أخلصتَ القصدَ، أما الهجرة الثانية فهي إلى رسول الله ﷺ باتباعه وعدم الرَّوَغان عن هديه، لا تقدُّمًا ولا تأخُّرًا، ولا يمنةً ولا يَسْرة، وبهذه الهجرة تسلم من الابتداع، فهاتان الهجرتان يجب على كل مسلم يجعلها لقلبه دائمًا.

ومَن الحَكَم في أمورك ؟

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإذا دُعِيتَ إلى غير كتابه وسنة رسوله فقل: لا سمعًا ولا طاعة لداعي الطغيان، قال المؤلف: (لداعي الطغيان) وهذا موافقةٌ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] فكل ما سوى حكم الله ورسوله فهو طغيان.

إذا تكاثروا عليك[١]- أي: الذين يدعون إلى غير الكتاب والسنة - وصيَّحوا، فاثبُت، وشبَّهَهم بالدخان، تعلو أصواتهم وضجيجهم وكلماتهم ودعاياتهم إلى أوجِ العلا وفي النهاية تهبط إلى الحضيض الداني، أو تُمزِّعُها الرياح يمينًا وشمالًا.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رحمه الله:

٢٣٦- هَـذا وإنَّ قِتَـالَ حِـزبِ الله بالـ
أعمـالِ لا بِكَتَائِـبِ الشُّـجعَانِ

٢٣٧- والله مَـا فَتَحـوا الـبلادَ بكَثْـرَةٍ
أنَّـى وأعـدَاهُم بِـلاَ حُسبَانِ

---

(١) قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: عليك بطريق الحق و لا تستوحش لقلة السالكين و إياك و طريق الباطل و لا تغتر بكثرة الهالكين.

٢٣٨- وَكَذَاكَ ما فتحُوا القُلُوبَ بهذِهِ الـ
آراءِ بَـــل بـــالعِلمِ والإيمَـــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا فيه ردٌّ على من قال: إن المسلمين فتحوا البلاد بالسلاح والحرب، وهذا قول أعداء المسلمين؛ لأنهم إذا قالوا هكذا فمعناه أنَّ المسلمين بُغاةٌ مُعتدون فتحوا البلاد بقوة السلاح، وهذا ما قاله إلا أعداؤنا من المُستشرقين وأمثالهم، وإنما فتحوا البلاد بالعمل، وفتحوا القلوب بالعلم، فمثلًا بالعمل: إذا رأى الكفار ما عليه طُغاتُهم ووُلاتهم من استعبادهم واستذلالهم، ورأوا ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأنَّ أميرهم السلطان الأعلى فيهم ثوبه مُرقَّع ينام في المسجد على كَثيبٍ من الرمل، وليس عنده حارس، ويتكلَّم عليه الصغير والكبير، ويخطب الناس فترُدُّ عليه المرأة، وما أشبه ذلك، هل النفوس بفطرتها الأصيلة تقبل هؤلاء أو لا تقبلهم ؟ تقبلهم وتنفتح قلوبهم قبل انفتاح بُلدانهم بهذه الأعمال الجليلة والأخلاق الفاضلة فهم فتحوا البلاد، لا بكثرة العدد ولا بقوة العُدَّة، لو قارنَّا بين كثرة العدد وقوة العُدَّة أيهم أكثر؟ أعداؤهم؛ الأعداء أضعاف مُضاعفة، وكذلك في العُدَّة، لكن فتحوا البلاد بهذه الأعمال، وفتحوا القلوب بالعلم والإيمان، لا بقواعد أهل المنطق اليوناني.

❁ ❁ ❁

* قولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٣٩- وَشَجَاعَةُ الفُرْسَانِ نَفسُ الزُّهْدِ في
نَفْـــسٍ وذَا مَحْـــذُورُ كُـــلِّ جَبَـــانِ

٢٤٠-وَشَجَاعَةُ الحُكَّامِ والعلماءِ زهـ
ـــدٌ فـــي الثَّنَـــا مِـــن كـــلِّ ذِي بُطـــلانِ

٢٤١-فَإِذَا هُمَـا اجتَمَعَـا لِقَلـبٍ صَادِقٍ
شُـــدَّت رَكَائِبُـــهُ إلـــى الـــرَّحمنِ

٢٤٢- وَاقصِد إلى الأقرَانِ لاَ أطرَافِهَا
فَالعِزُّ تَحتَ مَقَاتِلِ الأقرَانِ

الشَرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا التعريف بالشجاعة لا تكاد تجِده في كتاب، ما هي الشجاعة ؟ زُهد الإنسان في نفسه، إذا زهِدتَ في نفسك فأنت الشجاع، يقول المؤلف: (شجاعة الفرسان نفس الزُهد في نفس)؛ لأن الإنسان إنما يجبُن عن شقِّ غُبار الميدان خوفًا من القتل والموت، فإذا زهِدَ في نفسه لا يهُمُّه الموت، فزهادة الإنسان في نفسه هي الشجاعة.

أما الحكام والعلماء ما هي زهادتهم ؟ هؤلاء لهم زهادة أخرى؛ لأن العمل غير العمل الأول، فشجاعة العالم وشجاعة الحاكم هو أن يزهد في الثناء، إذا راعى الإنسان ثناء الناس عليه ضيَّع دينه ودنياه، فصار يُلاحِظ المواقع التي فيها الثناء عليه، لا المواقع التي يُرضي بها الله ورسوله، ما يهُمُّه ذلك، طالما هذا محلّ ثناء أنا أقوله، فإذا رأى أنَّ الثناء عليه يكون في تحليل المصارف بالربا، فيقولون: هذا الرجل العالم الفاهم للغة العصر واقتصاد العصر، سيقول: تعملوا بالربا بأيديكم وأرجلكم، لا يقوم الاقتصاد إلا به، هذا لاحَظَ ثناء الناس عليه، فلم يُبالِ بما يُخالِفُ الشرع، لكن إذا قال: هذا حرام، ولا يجوز، لم يُثْنُوا عليه، أو قالوا: هذا رجلٌ مُعقَّد، هذا رجلٌ رجعِيٌّ، هذا ما يعرف إلا دينًا مضى عليه قرون، لكن من يقول: هذا حرام، وقولوا ما شئتم، هذا هو الشجاع، فشجاعة الحكام والعلماء بالزهد في الثناء، وشجاعة الفرسان بالزهد في النفوس.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَاقصِد إلى الأقرَانِ لاَ أطرَافِهَا فَالعِزُّ تَحتَ مَقَاتِلِ الأقرَانِ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه أيضًا حكمة، إذا أردتَ أن تُبيِّنَ هزيمة خصمِك لا تذهب إلى العوام، اذهب إلى

الأقران الذين مثلك أي: العلماء، وجادِلهم وناظرهم حتى ينهزم أمام عوامِّه، وحينئذٍ يخشاك؛ لأنَّ العامة لا يمكن تقف في طريقهم أبدًا، فلهذا يقول: (اقصد إلى الأقران لا أطرافها)، وهذه من الحِكَم التي أرشد إليها رحمه الله.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤٣- وَاسمع نصيحَةَ من لهُ خُبرٌ بمَا
عندَ الورَى مِن كَثرةِ الجَولاَنِ

٢٤٤- مَا عِندَهُم وَالله خَيرٌ غَيرَ مـا
أخذُوهُ عَمَّن جَاءَ بالقرآنِ

٢٤٥- والكُلُّ بَعدُ فَبدعةٌ أو فِريَةٌ
أو بَحثُ تَشكِيكٍ وَرأيُ فلانِ[1]

٢٤٦- فاصدَع بِأمرِ الله لا تَخشَ الوَرَى

---

(١) [٢٣٩ : ٢٤٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

يقسم المؤلف الشجاعة إلى شجاعة مادية يتصف بها الفرسان في ميدان القتال، ويعرفها بأنها الزهد في الحياة واسترخاص النفوس في حومة الوغى، وهذا ما لا يطيقه الجبان ويتحاماه، وإلى شجاعة معنوية ويتصف بها العلماء والحكام الذين يقولون قولة الحق ولا يخشون فيها أحدًا، ويعرفها بأنها الزهد في المديح والثناء الذي يزجيه أهل الباطل لمن يجاريهم على باطلهم ولا يواجههم بالحق خوفًا من هياجهم عليه وذمهم له. ولا شك أن الشجاعة في الحق أفضل أنواع الجهاد كما قال عليه السلام «أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر» فإذا اجتمعت هاتان الشجاعتان لقلب صادق العزم بريء من الهوى والنفاق كانا عونًا له على السير إلى الله عز وجل والقرب منه ـ ولا ينبغي لمن توفرت له هذه الشجاعة أن يقصد من دونه من أطراف القوم وأوشابهم بالقتال، بل يقصد إلى الأقران من خصومه فإن العز تحت مقاتلهم ثم عليه أن يسمع لصيحة خبير مجرب ـ يعني نفسه رحمه الله ـ عنده علم بكل ما عند الورى من مذاهب وآراء، هو يقسم بالله أنه ليس عندهم أفضل ولا أنفع مما أخذوه عن الرسول ﷺ وما وراءه مما يقول الناس فهو إما بدعة محدثة لا أصل لها في دين الله، وإما فرية مختلفة افتراها أحد الكذابين، وإما بحث يقصد منه إثارة الشكوك والشبهات حول العقائد الصحيحة المسلمة، وإما رأي مأثور عمن ليس قوله حجة ولا له عليه دليل.

فِـــي اللهِ وَاخشَـــاهُ تَفُـــز بأَمَـــانِ

٢٤٧-وَاهجُر وَلَو كُلَّ الوَرَى في ذاتِهِ
لاَ فِــي هَــوَاكَ وَنَخــوَةِ الشَّــيطَانِ

٢٤٨-وَاصبِر بِغَيرِ تَسَخطٍّ وشِكَايةٍ
وَاصفَح بِغَيرِ عِتَابِ مَن هُوَ جَانِ

٢٤٩- واهجُرهُمُ الهَجرَ الجَمِيلَ بِلا أذًى
إن لَــم يَكــن بُــدٌّ مِــنَ الهِجــرَانِ

٢٥٠-وانظُر إلى الأقدَارِ جَارِيَةً بِمَا
قَــد شَــاءَ مِــن غَــيٍّ وَمِــن إيمَــانِ

٢٥١-واجعَل لِقَلبِكَ مُقلَتينِ كِلاَهُمَا
بِــالحَقِّ فِــي ذَا الخَلــقِ باصِــرَتَانِ

٢٥٢- فانظُر بِعَينِ الحُكمِ وَارحَمهمُ بِهَا
إذ لا تُــرَدُّ مَشِــيئَةُ الــدَّيَّانِ

٢٥٣-وانظُر بِعَينِ الأمرِ واحملهُم عَلَى
أحكَامِـــهِ فَهُمَـــا إذًا نَظَـــرانِ

٢٥٤-واجعَل لوجهكَ مُقلَتَينِ كِلاَهُما
مِـــن خَشـــيةِ الــرَّحمنِ بَاكِيَتَــانِ

الشَرح

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله:

أرشد المؤلف رحمه الله في هذه الأبيات أن الواجب على الإنسان أن يصدع بالحق ولا يخشى إلا الله عز وجل، فإنَّ الأمان في خشية الله، والخوف كل الخوف في خشية الناس، فمن خشي الله خافه الناس، ومَن خاف الناس وطئه الناس، ولهذا قال رحمه الله: (لا تخشى

الورى في الله واخشاه تفُزْ بأمان)، وأرشَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن الواجب الصبر من غير أن يتسخَّط أو يشكو، فلا تتسخَّط ولا تشكو، وأما الهجر، فقال: إن لم يكن منه بُدٌّ فاهجُرهُ، وإلا فلا، ثم أمَرَنا أن ننظُر إلى أقدار الله عز وجل في هؤلاء المُعرِضين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنَّ لنا ـ بالنسبة للمُعرِضين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ- فيهم نظَرَان:

النظَرُ الأول: النظرُ القَدَريُّ؛ يعني: النظر إلى قَدَرِ الله عز وجل، فهنا نرحمهم ونرِقُّ لهم، ونحمَدُ الله عز وجل أن عافانا مما ابتلاهُم به؛ لأنَّ هذا من أقدار الله عز وجل.

والنظر الثاني: ننظر بعين الأمر؛ أي: بعين الشرع، وحينئذٍ نُلزِمُهم بما يقتضيه الشرع، ونُجبِرُهم عليه، ونُؤدِّبهم عليه، ونُعذِّبُهم فيه، كما قال الله تعالى في الزانية والزاني، قال: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [النور:٢]، فأنتَ إذا نظرتَ إلى هذا المخذول - والعياذ بالله - تقول: مسكين صُدَّ عن الهُدى، واتبع الهوى والرَّدَى، ترِقُّ له، لكن في الأمر الذي هو الشرع تُلزِمُه به وتُؤدِّبُه على ما فعل حتى يستقيم على أمر الله عز وجل، ولهذا قال المؤلف: وانظر إلى الأقدارأي: أقدار الله سبحانه وتعالى، جاريةً بما قد شاء من غيٍّ ومن إيمان.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥٥-لَو شَاءَ رَبُّكَ كُنتَ أيضًا مِثلَهُم
فَالقَلبُ بَينَ أصابِعِ الرَّحمَنِ[1]

---

(١) [٢٥١ : ٢٥٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

إذا كان الله عز وجل قد أجرى مقاديره على العباد وحكم فيهم بما شاء من كفر وإيمان، وهو مع ذلك قد أمرهم جميعًا بالإيمان والطاعة، فيجب أن ينظر الإنسان إلى الخلق تبعًا لذلك بنظرين مختلفين، نظر بعين الحكم النافذ والقدر السابق، يرحمهم ويرثى لهم لعلمه أن حكم الله وقدره لا راد له ولا دافع، ونظر بعين الأمر الشامل لجميع المكلفين، فيجاهدهم في ذلك ويغلظ عليهم حملًا لهم على أمر الله عز وجل وحكمه الديني، فهذان نظران مختلفان، ولا يلزم من ذلك الاختلاف التناقض، فإن جهة كل منهما مخالفة للآخر، وإنما يكون التناقض عند الاتحاد، ويجب على العبد كذلك عند نظره إلى اختلاف الناس في الهدى والضلال أن يستفرغ الدمع من عينيه باكيًا من خشية الله عز وجل. شاكرًا له نعمة الهداية والتوفيق، إذ لو شاء الله

٢٥٦- واحذَر كَمَائِنَ نَفسِكَ اللاَّتي مَتى
خَرَجَت عَلَيكَ كُسِرت كَسرَ مُهَانِ

٢٥٧- وَإِذا انتصَرت لَهَا فَأنتَ كَمَن بَغَى
طَفيَ الدُّخَانِ بِمَوقِدِ النِّيرَانِ

٢٥٨- والله أخبَرَ وَهْوَ أصدَقُ قَائِلٍ
أن سَوفَ يَنصُر عَبدَهُ بأمَانِ

٢٥٩- مَن يَعمَلِ السَّوأى سَيُجزَى مِثلَهَا
أو يَعمَلِ الحُسنَى يَفُز بِجنَانِ

٢٦٠- هَذِي وَصِيَّةُ نَاصِحٍ وَلِنَفسِهِ
وَصَّى وَبَعدُ لسَائِرُ الإخوَانِ(١)

الشَرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لو شاء ربُّك كنتَ أيضًا مثلهم)، مثل مَن؟ مثل هؤلاء الضُّلَّال، الذين ضلُّوا عن

لكان هو أيضًا مثلهم. فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف شاء، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في دعائه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

(١) [٢٥٦: ٢٦٠] قال العلامة محمد خليل هراس:
الكمائن جمع كمينة، والمراد بكمائن النفس غرائزها السيئة وشهواتها الدنيا. يوصي المؤلف بأن يحذرها الإنسان وينهض دائمًا لتأديبها كلما تمردت وخرجت عليه. وإلا هزمته هزيمة منكرة يصبح بعدها مهانًا ذليلًا. كما يجب أن لا ينتصر لها يبغي شفاءها وإطفاء ثورتها. فإن ذلك يزيدها حدة واشتعالًا. ويكون حينئذ كمن يريد إطفاء الدخان بموقد النيران، بل يحسن أن يصبر ويغفر لهم الله عز وجل قد ضمن له النصر، وأخبر بذلك في كتابه حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] كما أخبر سبحانه أن جزاء السيئة سيئة مثلها، وأن جزاء الحسنى مغفرة من الله ورضوان.
وبعد فهذه وصية المؤلف رحمه الله يوصي بها نفسه أولًا ثم سائر إخوانه من طالبي الهدى، أهل الصدق والتوحيد والإيمان.

الهدى، لكن إذا وُفِّقتَ للهدى فلا تجعل ذلك فخرًا على ربك، اعرف قدر نعمة الله عليك بذلك، واعلم أنَّ له سبحانه وتعالى أكبر المنَّة عليك، لأنه لو شاء لأزاغ قلبك - نسأل الله العافية -، (لو شاء ربُّك كنتَ أيضًا مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمن)، فكل العباد قلوبهم بين أصابع الرحمن عز وجل يُقلِّبُها كيف يشاء، إن شاء أزاغها، وإن شاء هداها، ولكنَّ الزَّيغَ له سبب ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، واحذر كمائن نفسك، ففي النفس كمائن؛ يعني: أشياء مُستترة لا يعلمها إلا الله عز وجل، كما قال القحطاني [1] رحمه الله:

والله لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَام عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

فالإنسان في نفسه كمائن لا يعلمها إلا الله، فاحذر هذه الكمائن، وهي كثيرة قد تكون إشراكًا بالله - نسأل الله العافية -، يُحبُّ الإنسان الرياء أي: أن يراه الناس على عملٍ صالحٍ، قد يكون الحسد لعباد الله وهو من خصال اليهود، وقد يكون كراهة أن ينتصِر دينُ الله عز وجل، أو أن ينتصِر أولياءُ الله عز وجل، قد يكون إيثارُ الدنيا على الآخرة، قد يكون إيثار الأولاد والأزواج على الآخرة قال تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

المهم: أنَّ هناك كمائن في القلب خفيَّة تحتاج إلى تمحيص، وإلى غسل القلب من ظاهره وباطنه، كلنا يستطيع أن يُصلِّي صلاة خُشوعٍ ظاهرة، يُكبِّر فيرفع يديه، ويضع يديه على صدره، ويركع تمامًا، ويسجُد تمامًا، ويقرأ تمامًا، لكن الشأن على القلب، هل الجوارح هذه تابعةٌ للقلب في إحسان العمل أم هو صورة ؟

كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احذر كمائن نفسك التي متى ما خرجت عليك كُسِرتَ كَسْرَ مُهانٍ، واجعل دائمًا قصدك الوصول إلى الله عز وجل، فهو غاية كل غاية، أنتَ إذا جعلتَ هذا هو القصد تنسى الدنيا وما فيها، إذا جعلتَ ذلك قصدَك أن تصِلَ إلى الله، وأن تنصُرَ دين الله، وأن تُحبَّ في الله وتُبغِضَ في الله [2]، فإنك سوف تصِل إلى الغاية التي تنسى الدنيا

(١) أبو محمد الأندلسي القحطاني.

(٢) روى الإمام أحمد في مسنده (١٨٠٥٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

كلها من أجل تلك الغاية؛ بل تجِد لذَّة العيش في هذه الدنيا والحياة الطيبة، أما إن أتبَعتَ نفسك الدنيا وزخارفها تتعب؛ لأن الدنيا لا يمكن أن تأتيك على ما تريد أبدًا، لكن إذا قصدتَ الله جاءك ما تريد.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإذا انتصرتَ لها) يعني: إذا كان الإنسان يحبُّ أن ينتصر لنفسه فقط فهذا خطأٌ عظيمٌ، كمن يبغَي طَفْيَ الدخان بمُوقدِ النيران، ثم قال: إن الله أخبر بأنه سوف ينصر عبده بأمان وأنَّ مَن يعمل السوء يُجزى مثله، وأما مَن يعمل الحسنى يفُزْ بجنان، اللهم اجعلنا ممن يعملون الحسنى.

❀ ❀ ❀

(... إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله)، وقال الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٠٠٩): حديث حسن.

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

وهذا أول عقد مجلس التحكيم

ذكر المصنف رحمه الله في هذه الفصول أقوال أهل البدع من الجهمية وغيرهم، ثم قول أهل العلم والإيمان بطريقة التمثيل والتصوير، ليكون أوضح لمعرفتها، وأكمل لتصورها على ما هي عليه، فهذه الطريقة من طرق التعليم العالي، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المهمة، وكذلك النبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال، فضرب المؤلف لهذه المذاهب مثلًا بركب اتفقت مقاصدهم أولًا حين شرعوا في سفرهم، يظهر من قصد جميعهم أنهم لا يطلبون أولًا حين فسلكوا طريقًا واحدًا في مبتدأ سيرهم، فلما جد بهم السير وصلوا إلى مفرق الطرقات وتعدد السبل المفضية إلى مقاصدها ومواردها، فحينئذ افترقوا، فكلٌ من هؤلاء الركب سلك طريقًا غير طريق الطائفة الأخرى.

ثم رجعوا من سفرهم آيبين وعرضوا تجارتهم وما حصَّلُوه في سفرهم وثمرات سعيهم على العالم العادل ليحكم بينهم بالحكم الموافق للنقل والعقل والفطرة وأنواع الأدلة، فذكر مذهب الاتحادية كابن عربي الطائي صاحب «الفصوص...» وغيرها من المصنفات المشحونة بالتعطيل والاتحاد، وكابن سبعين والعفيف التلمساني ونحوهم ممن يجمعهم هذا المذهب الخبيث، وهو أن الوجود عندهم شيء واحد، فما ثم خالق ومخلوق ولا رب ولا مربوب، بل الجميع عندهم شيء واحد، ويزعمون أن تكثر الموجودات إنما ذلك وهم وغلط، فهم يطلقون عباراتهم الإلحادية فيقولون:

إن تعدد الموجودات مظاهر للتجليات؛ فيتجلى عندهم الحق في أصناف الموجودات،

فهو فقير إليها لأجل ظهوره وتجليه فيها، وهي فقيرة إليه لكونه هو ذاتها وهي صفاته، فتارة يلبس الموجودات وهو إيجادها، وتارة يخلعها وهو إعدامها، فالموجودات عندهم قد لبسها، والمعدومات قد خلعها، بحسب المظاهر والتجليات. ويشبهون تكثر الموجودات بتكثر أعضاء الحيوانات، فهو حيوان واحد وأعضاؤه متنوعة، فكذلك الخالق عندهم واحد بالعين والموجودات من السماوات والأرض وما فيها صفات له وأعضاء.

وقد يشبهونه أيضًا بالقوى النفسية: نفس واحدة تحمل قوى متنوعة، فيكون على قولهم كلًّا وأجزاؤه الموجودات، أو كليًّا وجُزئياتِهِ هذا الوجود. فهذان قولان لهذه الطوائف الملحدة.

ولم يرتض التلمساني هذين القولين وقال: هذا غلط، والصواب عنده أن الجميع شيء واحد ليس فيه تقسيم ولا تجزئة ولا تعدد، فالآكل والمأكول شيء واحد، والواطيء والموطوء شيء واحد. وقالت طائفة رابعة منهم: كل هذا غلط، وإنما الموجودات مظاهر للذات الواحدة بالعين.

ومضمون كلام طوائفهم الخبيثة أن وجود الباري تعالى خيال في الأذهان، لا وجود له في الخارج، وليس لوجوده حقيقة، وهذا هو التعطيل المحض. فقول هذه الطائفة مجرد تصوُّرِهِ كافٍ في إبطاله، فلم يصونوه عن المحال التي يرغب عن ذكرها.

فهذا مضمون توحيدهم وعقيدتهم، فالكفار عندهم لا يذمون إلا على تخصيصهم لبعض المعبودات، وإلا فلو عبدوا الوجود جميعه لكانوا عند هؤلاء مهتدين. وعندهم أن تغريق فرعون في البحر تطهير له من الوهم والحسبان الذي ظن أنه ربهم الأعلى بسبب رياسته.

وزعموا أن موسى عليه السلام لما أنكر على أهل العجل حين عبدوه لم ينكر على من عبده منهم، إنما أنكر على من لم يعبده، ولذلك جر بلحية أخيه هارون ورأسه حين أنكر عليهم. وفي هذا القول من المكابرة وقلب الحقائق وجحد الضروريات ما لا يخفى على أحد، إلا على ملبوس عليه.

وتنتهي بهم الحال إلى أنهم يتظاهرون بالسجود لكل شيء حتى أن بعض أكابرهم رأى إبليس فسجد له، فأنكر عليه فقال: ما سجدت إلا لله، فاسجدوا لأي موجود شئتم من شمس أو قمر أو أصنام أو غيرها فليس ثم غير الله، لأن الجميع شيء واحد. هذا المحقق

منهم فسبحان الله وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، فلقد تجرأوا على الله وقالوا مقالة لم يرتضها اليهود والنصارى وغيرهم من الملل، وحقيقة الأمر أن كفر المشركين وكل كافر جزء من أجزاء كفر هذه الطائفة الملعونة، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لأمرين: انتسابهم إلى التأله والتعبد والتصوف والزهد، وكثرة الرموز والإشارات الشبيهة بالألغاز. وإلا فمن في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان لو عرف حقيقة مذهبهم لرجمهم بالحجارة.

نسأل الله العافية، ونحمده على نعمه الظاهرة والباطنة.

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

وهذا أوّل عقد مجلس التَّحْكِيمِ

٢٦١- فاجلِس إذًا في مَجلِسِ الحَكَمَينِ للرْ
ـــرَحمَـــنِ لا للـــنَّفسِ والشَّـــيطَانِ

٢٦٢- إحداهما النقلُ الصحيحُ وبعدَهُ الـ
ـــعَقلُ الصَّـــريحُ وفِطـــرةُ الـــرَّحَمنِ

٢٦٣- واحكُـم إذًا فِـي رُفقَـةٍ قَـد سَـافَرُوا
يَبغُـــونَ فَـــاطِرَ هَـــذِهِ الأكـــوَانِ

٢٦٤- فترافَقُـوا فـي سَـيرِهم وَتَفَـارَقُوا
عِنـــدَ افتـــراقِ الطُّـــرْقِ بـــالحَيرانِ

٢٦٥- فَـأَتى فَرِيـقٌ ثـم قَـالَ وَجَدتُـهُ
هَـــذَا الوجـــودَ بِعَينِـــه وَعِيَـــانِ

٢٦٦- مـا ثَـمَّ موجـودٌ سِـوَاهُ وَإِنَّمَـا
غَلِـطَ اللِّسَـــانُ فَقَـــالَ موجُـــودَانِ(١)

٢٦٧- فهـوَ السَّـماءُ بعينِهَـا ونجُومِهَـا

---

(١) [٢٦١: ٢٦٦] قال العلامة محمد خليل هراس:
والسفر هنا كناية عن سفر الفكر والطلب بالنظر، فبدأوا السفر من نقطة واحدة وترفقوا في سيرهم ولكنهم لم يلبثوا أن افترقوا وذهبوا في ربهم مذاهب شتى؛ فذهب فريق وهم أصحاب وحدة الوجود بزعامة ابن عربي الزنديق أن الله هو هذا الوجود بعينه وعيانه، وأنه ليس هناك إلا موجود واحد وإنما يغلط اللسان فيقول موجودان.

وكــــذلِكَ الأفـــلاكُ والقَمَـــرَانِ

٢٦٨-وهـو الغَمَـامُ بعينِـهِ والـثَّلجُ والـ

أمطَــارِ مَــعَ بَــرَدٍ وَمَــع حُســبانِ

٢٦٩-وهـو الهَـواءُ بِعَينِـهِ وَالمَـاءُ وَالـتْـ

تُــربِ الثَّقِيــلُ وَنَفــسُ ذِي النِّيــرانِ

٢٧٠-هَــذِي بســائِطُهُ ومنــه تركَّبــت

هَــذِي المظَــاهِرُ مَــا هُنَــا شَــيئَانِ

٢٧١-وهـو الفقيـرُ لَهـا لأجـلِ ظهُـورِهِ

فِيهَــا كفقــرِ الــرُّوحِ للأبــدَانِ

٢٧٢-وهـي التـي افتَقَـرَت إليـه لأنـه

هــو ذاتُهَــا ووجودُهَــا الحقَّــانِي

٢٧٣-وَتَظَـلُّ تَلبسُــه وتخلَعُـه وذَا الــ

إيجــادُ والإعــدامُ كُــلَّ أوَانِ

٢٧٤-وَيظَــلُّ يَلبَسُــهَا وَيَخلَعُهَــا وَذَا

حُكــمُ المَظَـاهِرِ كَـي تُـرَى بِعِيَـانِ

٢٧٥-وَتكثُّر الموجودِ كالأعضَاءِ في الـ

ـمحسُوس مِـنْ بَشَـرٍ وَمِـن حَيَـوَانِ

٢٧٦-أو كالقُوَى فِي النَّفسِ ذَلِكَ واحدٌ

مُتَكَثِّــرٌ قَامَــت بِــهِ الأمــرَانِ

٢٧٧-فَيكُــونُ كُــلاًّ هَــذِهِ أجَــزَاؤه

هــذِي مقالَــةُ مُــدَّعِي العِرفَــانِ

٢٧٨-أو أنهــا كَتَكَثُّــرِ الأنــواعِ فِــي

جِـنسٍ كَمَـا قَـالَ الفريـقُ الثَّـانِي

٢٧٩-فَيَكُـونُ كُلِّيًّـا وجُزئِيَّاتُـهُ
هَـذَا الوجـودُ فهـذِهِ قَـولَانِ

٢٨٠-أولاهما نَصُّ الفُصُوصِ وَبَعدَهُ
قـولُ ابـنُ سَبعِينٍ ومَـا القَـولَانِ

٢٨١-عِنـدَ العفيـفِ التِّلمِسَانِيِّ الـذي
هـوَ غايـةٌ فِـي الكُفـرِ والبُهتَـانِ

٢٨٢-إلَّا مِـنَ الأغـلاَطِ فـي حِسٍّ وَفِـي
وَهـمٍ وتلـكَ طَبيعَـةُ الإنسَـانِ

٢٨٣-وَالكُـلُّ شَـيءٌ واحِـدٌ فِـي نَفسِـهِ
مَـا لِلتَعَـدُّدِ فِيـهِ مِـن سُـلطَانِ

٢٨٤-فَالضَّـيفُ والمـأكُولُ شَـيءٌ وَاحِـدٌ
والـوَهمُ يَحسِـبُ هَاهُنَـا شَـيئَانِ

٢٨٥-وَكَذَلِكَ الموطُوءُ عَينُ الوَاط والـ
ـوَهمُ البعيـدُ يقُـول ذَان اثنَـانِ

٢٨٦-وَلَرُبَّمَـا قَـالاَ مَقَالَتَـهُ كَمَـا
قَـد قَـالَ قَولَهُمَـا بِـلاَ فُرقَـانِ

الشَّـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر النصائح السابقة طلب الآن أن نجلس مجلس التحكيم، وماذا نُحكِّم في رأيه؟ أمَرَ أن نُحكِّمَ شيئين:

النقل الصحيح، والعقل الصريح المُؤيَّد بالفطرة.

النقل الصحيح يعني به: الكتاب وصحيح السنة؛ لأن السنة فيها صحيحٌ وضعيفٌ، والعقل الصريح هو العقل السالم من الشُّبُهات والشهوات، كلما سمعتَ عقلًا صريحًا، فالمعنى: أنه سالمٌ من الشُّبهات والشهوات، والشُّبُهات: الجهل، والشهوات: الإرادات السيئة، فإذا وفَّق الله سبحانه وتعالى الإنسان علمًا وحسن قصدٍ وإرادة صار ذا عقلٍ صريحٍ، ضدُّ ذلك العقلُ المبني على الجهل أو على سوء الإرادة، هذان هما الحَكَمان.

وفطرة الرحمن تُؤيِّد كلا الأمرين في الواقع، فهي تُؤيِّد النقل الصحيح؛ لأنها تقبل ما جاء به الشرع، والعقل الصريح كذلك؛ لأنها تقبل ما دلَّ عليه العقل.

ثم ذكر المؤلف أن الخلق صاروا رُفقةً، أي: خرجوا من البلد رُفقة واحدة، ثم بعد ذلك، تفرَّقَت بهم السُّبُل، كل واحد راح مع طريق، خرجوا مخرجًا واحدًا يطلبون الربَّ عز وجل، ثم بعد ذلك تفرَّقوا، وبدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأشدِّهِم شَطَحًا وضلالًا وهم: أهل وحدة الوجود الذين على رأسهم: الخبيثُ ابن عربي[1]، هو رئيس هذه الطائفة، ذهبوا يطلبون الله قالوا: وجدنا الله هو هذا الوجود، ما وجدنا شيئًا آخر غير هذا الوجود، فهذا الوجود هو عين الله، فالسماء، والأرض، والحمار، والجمل، والكلب، والهر، والقط كل شيءٌ واحدٌ.

يقول ابن عربي[2]: إن هذا الكون هو الله، وما نُشاهِدُه عبدًا فأعضاء الإنسان، مثلًا هذه يد، وهذه رِجْل، وهذا وجه، وهذه عين، وهذا أنف، وهذا فم، يقول عنه: الخلق؛ يعني: الموجودات شيءٌ واحدٌ، والتفرُّق هذا بمنزلة الأجزاء، فهو كُلٌّ والمخلوقات أجزاؤه.

وأما الثاني: ابن سبعين[3]، فقال: بل هو كلِّي، وهذه جُزئياتُه، والفرق بين الكلِّي والكُل، والجُزء، والكلِّي والجُزئي، الكلِّي والجزئي بالمعاني، والكلُّ والجزء بالأجسام، ولهذا يقول ابن

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، وكان مولده في سنة ستين وخمسمائة بمرسية من الأندلس، ووفاته في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة. «فوات الوفيات» (٣/ ٤٦٣).

(٢) تنبيه: هذا الخبيث الزنديق (محيى الدين ابن عربى) غير العالم الفاضل (أبو بكر بن العربى) رحمه الله صاحب كتاب (أحكام القرآن)، وما بينهما مثل ما بين السماء والأرض.

(٣) قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الأشبيلي المرسي، الرقوطي الأصل، الصوفى المشهور، قال الإمام الذهبي: كان من زهاد الفلاسفة ومن القائلين بوحدة الوجود له تصانيف وأتباع يقدمهم يوم القيامة. «جلاء العينين» (١/ ٩٥).

سبعين: هذه أجناس، وهذه أنواع، المخلوقات أنواع، والخالق جنس، فهو من باب اختلاف الكلِّي مع الجزئي.

وعلامة الفرق بينهما: إن صحَّ أن يُخبَر بالأكبر عن الأصغر؛ فهو من باب الجزئي، وإن لم يصِحّ، فهو جُزء.

الكلمة اسم وفعل وحرف، انقسام الكلمة إلى اسم وفعل وحرف هذا من باب تقسيم الكلِّي إلى جزئياته؛ لأنَّك تقول: الاسم كلمة، والفعل كلمة، تُخبِر بالأكبر عن الأصغر، والحرف كلمة، إذًا هذا كلِّي وجزئي.

الكلُّ والجزء لا يصح أن تُخبِر بالأكبر عن الأصغر، هل يصح أن أقول: اليد إنسان ؟ لا يصح.

إذا كنتَ لا تُخبِر بالأكبر عن الأصغر فهو من باب الكل والجزء، وإذا كنتَ تُخبِر عن الأصغر بالأكبر، فهو من باب الكلِّي والجزئي، هكذا فرَّقوا بينهما.

التلمساني[1] قال: كلكم على خطأ، الشيء شيءٌ واحدٌ ما يختلف، لكن كوني أضمن أنَّ هذا حَمَد وهذا سليمان، هذا وهَم حسب الحسبان فقط، والواقع أنهما شيء واحد، إذا قلتُ: سليمان، ما أحتاج أن أقول حَمَد؛ لأنهما شيءٌ واحدٌ، فأنتم كونكم تعتقدون أن هذا جمل، وهذا حمار، وهذا كلب، هذا حسب الوَهَم والخيال والحسبان الباطل، والصواب: أنهما شيءٌ واحدٌ.

هل هذا يُتصوَّر ؟ لا، كما أننا لا نتصوَّر لما قال الأشاعرة: إن كلام الله شيءٌ واحد، وأنَّ الخطأ والاستغفار والأمر والنهي بمعنىً واحد؟! ما نتصوَّر هذا الشيء.

فعندنا الآن ثلاثة أقوال:

قول ابن عربي: أن الموجود شيءٌ واحد، والمُشاهَد أجزاؤه.

قول ابن سبعين: أنَّ الموجود كلِّيٌّ، وما نُشاهِده جُزئياتُه.

---

(١) التلمساني هو عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الأديب الشاعر أحد زنادقة الصوفية وقيل له مرة أأنت نصير فقال النصيري بعض مني وأما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغة لا من حيث الاتحاد توفي في خامس رجب وله ثمانون سنة قاله في العبر وقال الشيخ عبد الرؤف المناوي أثنى عليه ابن سبعين وفضله على شيخه القونوي. «شذرات الذهب» (٥/ ٤١١).

التلمساني يقول: المُشاهَد كلُّ وجزء، وتقسيمه إلى شيء وشيء وشيء هذا وهْمٌ، وإلا فإنَّ الشيء شيءٌ واحدٌ.

والذي غرَّ الناس من هؤلاء أنَّهم يتظاهرون بالزُّهد والتصوُّف[1] والعِفَّة، والعامة -مثل ما قال ابن القيم في أول النونية -: (الناس أكثرهم فأهلُ ظواهِر)، يقولون: هؤلاء عندهم زُهد ورِقَّة وسلوك، فيقولون: هذا هو الحق، ولهذا غرَّوا الناس، وكل هؤلاء من الصوفية، فالناس يغترُّون بهم، فيظنُّون أنهم على الحق.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨٦- وَلَرُبَّمَا قَالاَ مَقَالَتَهُ كَمَا
قَدْ قَالَ قَولَهُمَا بِلاَ فُرقَانِ

٢٨٧- وَأبَى سِوَاهُم هَذَا وقَالَ مَظَاهِرٌ
تَجلُوهُ ذَاتُ توحُّدٍ ومَثَانِ

٢٨٨- فالظَّاهِرُ المجلُوُّ شيءٌ وَاحِدٌ
لَكِن مَظَاهِرُهُ بِلاَ حُسبَانِ

٢٨٩- هَذِي عِبَارَاتٌ لَهُم مَضمُونُهَا
مَا ثَمَّ غيرٌ قَطُّ فِي الأعيَانِ[2]

---

(١) هذا اللفظ مشتق من الصوف ـ ورجل التصوف يُسمى صوفي ـ وليس نسبة إلى الصفاء ـ كما زعم بعض المتصوفة ذلك وقال:

تنازع الناسُ في الصُّوفِيِّ واخْتَلَفُوا ... قِدْمًا وظنوهُ مُشْتَقًّا من الصُّوفِ
ولستُ أمنحُ هذا الاسمَ غير فتًى ... صَافى فصُوفِي حتى لُقِّبَ الصُّوفي

ولو كان هذا صوابًا لكان الاشتقاق يقتضينا أن نقول: الصفائي أو الصفاوي ، نسبة إلى الصفاء. وهذا يعتبر أيضًا من سوء الفهم للغة العرب لقوله: (مشتقًّا).

(٢) [٢٨٤: ٢٨٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذا تفريع على مذهب التلمساني القائل بأن الكثرة وهم وما ثم إلا شيء واحد فيكون الضيف وما قدم له من القرى شيئًا واحدًا. وإن حسب الوهم أن ها هنا شيئين آكلًا ومأكولًا ويكون كذلك

٢٩٠-فَالقَومُ مَا صَانُوهُ عَن إنسٍ وَلاَ
جِـنٍّ ولاَ شَـجَرٍ وَلاَ حَيَـوَانِ

٢٩١-كَـلاَّ وَلاَ عُلْـوٍ وَلاَ سُـفْلٍ وَلاَ
وَادٍ وَلا جَبَـلٍ وَلاَ كُثْبَـانِ

٢٩٢-كَـلَّا وَلا طَعـمٍ وَلاَ رِيـحٍ وَلاَ
صَـوتٍ وَلاَ لَـونٍ مِـن الألـوَانِ

٢٩٣-لَكِنَّـهُ المطعُـومُ والمَلبُـوسُ والـ
مَشـمُومُ والمسـمُوعُ بـالآذانِ

٢٩٤-وكـذَاكَ قَالُوا إنَّـهُ المنكُوحُ والـ
مَـذبوحُ بَـل عَـينُ الغَـوِيِّ الزَّانِـي(١)

الموطوء عين الواطئ وإن تخيلها الوهم اثنين ومهما يكن من فرق بين هذه الأقوال الثلاثة فهي جدًّا متقاربة؛ لأن جوهرها واحد، ولهذا قال الشيخ رحمه الله، ولربما قالا - أي ابن عربي وابن سبعين - مقالة هذا التلمساني في إبطال الكثرة كما قد قال هو قولهما بلا فارق أصلًا.
ثم ذكر الشيخ مذهبًا رابعًا أشار إليه بقوله: وأبى سواهم ذا: أي سوى هؤلاء الثلاث. هذا الذي قالوه. وذهب إلى أن هذه الموجودات إنما هي مظاهر وتجليات لشيء واحد. وهذه المظاهر ذات توحد: أي انفراد ومثان: أي تعدد. وهذه العبارات التي نطق بها أصحاب وحدة الوجود مهما اختلفت وتنوعت فإن مضمونها شيء واحد. وهو أنه ما ثم غير الله في هذا الوجود. فسواء جعلت الكثرة أجزاء له أو أنواعًا أو قلت أنها وهم، أو جعلتها مظاهر وتجليات فالمآل واحد وهو أنه ما ثم إلا وجود واحد.

(١) [٢٩٠: ٢٩٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
هذا بيان لما يترتب على تلك المقالة الفاسدة من أنواع الكفر والضلال التي لا تخفى على أحد، فإنه إذا لم يكن ثم إلا وجود واحد لبس هذه الصور والتعينات المختلفة التي لابد له منها في بروزه وتجليه. ولابد لها منه؛ لأنه عين حقيقتها لزم أن يكون الله تعالى وتقدس هو الأشياء جميعًا بما فيها متقابلات ومتضادات. فالقوم ما صانوا ربهم ولا نزهوه عن أن يكون هو الإنس والجن والشجر والحيوان. ولا أن يكون هو العلو والسفل والوديان والجبال والكثبان، ولا أن يكون هو الطعوم والروائح والأصوات والألوان، ولا أن يكون هو المطعوم والملبوس والمشموم والمسموع بالآذان، بل قالوا: إنه المنكوح والمذبوح بل عين الغوى الزاني.

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا أيضًا من الأقوال الثلاثة السابقة يقول: إن الكون كله شيء واحد، أي: الخلق والمخلوق شيء واحد، وهذه مظاهر تجلو ذلك الخالق – على زعمه –، ومظاهر؛ يعني: لا حقائق، مثل ما يظهر لنا الماء إذا نزل وقابَلَته الشمس، الذي يُسمِّيه الناس (قَوس قُزَح)، هو مظاهر فقط، وإنما هو شيءٌ واحدٌ، وهذا يعني: أننا نُقسِّم الموجودات المُتغيِّرة إلى موجوداتٍ في الشكل فقط، وهو قريبٌ من قول التلمساني: إنه أوهام، فهؤلاء القوم هذه عقيدتهم في الله عز وجل – والعياذ بالله –، أخبث العقائد، وصدق لنا أنَّ الذي خدع الناس في أقوالهم هذا، وإلا فإنَّ مُجرَّد تصوُّرِها كافٍ في ردِّها وإبطالِها، مُجرَّد ما تتصوَّر هذا تعلم أنه باطل، لكن الذي غرَّ الناس وخدَعَهم هو أنَّ هؤلاء كانوا يتنسَّكون بالزُّهد، ويأتون أيضًا بعباراتٍ غير صريحة؛ بل هي إشاراتٌ ورموزٌ، إذا قرأها الإنسان ما يعرف معناها تمامًا، لكن هم يُفسِّرونها بما يُريدون، فيظنُّ القارئ أول ما يقرأها أنها حق، ولكنها باطل.

بهذين الأمرَين: زُخرُف الحال، وزُخرف المقال غرَّوا الناس، زُخرف الحال الزهد والتنسُّك والتعبُّد، والعامة هوام، وزخرف المقال الرموز؛ بحيث لا يدري أحدٌ ماذا يُريدون إلا بعد أن يُلقِّنوه هم ما يريدون بكلامهم، فلذلك اغترَّ الناس بهم كثيرًا، وإلا مُجرَّد ما يسمع الإنسان هذا القول – والعياذ بالله – ينفُر منه، ويعرف أنه باطل.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩٥– والكُفرُ عِندَهُمْ هُدًى وَلَو أنَّهُ
دِينُ المجُوسِ وعَابِدِي الأوثَانِ

٢٩٦– قَالُوا وَمَا عَبَدُوا سِوَاهُ وإنَّمَا
ضَلُّوا بِمَا خَصُّوا مِنَ الأعيَانِ

٢٩٧- وَلَـوَ أَنَّهُـم عَمُّـوا وقـالُوا كلُّهَـا
معبُــودَةٌ مَــا كَــانَ مِــن كُفــرَانِ

٢٩٨- فالكُفرُ سَترُ حَقِيقَةِ المعبودِ بالتْـ
ـتَخصِيصِ عِنــدَ مُحَقِّــقٍ رَبَّــانِي

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هم يقولون: إن الكفر هدى دين المجوس والنصارى والمشركين، ولم يعبدوا أحدًا سوى الله، الذي يعبد عيسى والنار والبقر والشجر والحجر ما عبَدَ إلا الله؛ لأنَّهم يقولون: كل الوجود هَو الله، فهم ما عبدوا إلا الله، لكن ضلُّوا من جهةٍ واحدة، وهو أنهم خصَّصوا؛ حيث عبدوا واحدًا من هذا الكون، ولو أنهم عبدوا الكون كله لكانوا أكمل هداية، لكن نقول للذي يعبد هُبَل واللات والعُزَّى[١]: أنتَ خصَّصتَ، تعبد هذه بأعيانها، اعبُد كل شيء حتى تكون مُحَقِّقًا في العبادة، أما أن تُخصِّص، فهذا ضلال، وذاك هو قولهم – والعياذ بالله.

فالكفر هو: سترُ حقيقة المعبود بالتخصيص، ما حقيقة المعبود عندهم؟ كل شيء، فإذا عبدتَ واحدًا فأنتَ كفرتَ؛ لأنَّك سترتَ حقيقة المعبود؛ لأنَّ المعبود هو كل شيء.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩٩- قَـالُوا وَلَـم يَـكُ كـافِرًا فِـي قَولِـهِ
أَنَــا رَبُّكُــم فِرعَــونُ ذُو الطُّغيَــانِ

٣٠٠- بَـل كَـانَ حَقًّـا قَولُـه إذ كَـانَ عَيـ
ـنَ الحَــقِّ مُضــطَلِعًا بهــذَا الشَّــانِ

---

(١) من أصنام العرب في الجاهلية.

٣٠١-وَلِذَا غَدَا تَغرِيقُهُ في البَحرِ تَطْـ
ـــهِيرًا مِـــنَ الأوهَـــامِ والحُســبَانِ

الشَّـرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هم الآن يقولون: إن فرعون لما قال: أنا ربكم الأعلى لم يكن كافرًا؛ لأنَّ هذا هو الحق، فإن المخلوق عين الخالق فيكون هو الرب، لكن هو ظنَّ لما خصَّصَ نفسَه أنَّ هناك شيءٌ مُتخصِّص مُتعيِّن، فأُغرِقَ تطهيرًا له من هذا الظن والوَهْم، فيكون هذا الإغراق -على زعمهم- ليُطهِّرَه؛ حيث توهَّمَ وظنَّ التعدُّد، وقال: أنا ربكم؛ يعني: وأنتم مربوبين ومعبودين، ولو أنَّه وحَّدَ تمامًا لقال: أنا وأنتم كلنا ربٌّ.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٠٢-قَالُوا وَلَم يَكُ مُنكِرًا مُوسَى لِمَا
عَبَــدُوهُ مِــن عِجــلٍ لِــذِي الخَــوَرانِ

٣٠٣-إلَّا عَلَـى مَـنْ كَـانَ لَـيسَ بعابِـدٍ
مَعهُــم وأصــبَحَ ضَــيِّقَ الأعطَــانِ

٣٠٤-وَلِذَاكَ جَرَّ بِلحيَةِ الأخِ حَيثُ لَم
يَــكُ وَاسِــعًا فِــي قَومِــهِ لِبِطَــانِ

٣٠٥-بَـل فَـرَّقَ الإنكَـارُ منـهُ بينَهُم
لَمَّــا سَــرَى فِــي وَهمِــهِ غيــرَانِ

الشَّـرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن شطَحَاتهم: قالوا: إن موسى لم يكُ مُنكِرًا على الذين عبَدوا العجل، إنما أنكَرَ على

الذين لم يعبدوه؛ لأنهم كانوا ضيِّقِي الأعطان؛ حيثُ ظنُّوا أنه لا يُعبَد إلا الله، والواقع عندهم: أنَّ كل شيءٍ يُعبَد؛ لأن كل شيء إله، وأن موسى ما أنكر على أخيه هارون إنكاره عليهم عبادة العجل، وإنما أنكر عليه لماذا يُنكِرُ عليهم ؟ وهم الذين فعلوا الواقعة، وكان ضيِّق العَطَن عليهم؛ يعني: ما تحمَّلَت نفسُه فِعل هؤلاء الذين فعلوا الحقيقة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٠٦-وَلَقَد رَأى إبليسَ عارِفُهُم فَأهـ
ـوى بالسُّجُودِ هُوِيَّ ذِيَّ خُضعَانِ

٣٠٧-قَالُوا لَهُ مَاذَا صَنَعتَ فَقَالَ هَل
غَيرُ الإلَهِ وأنتُمَا عَميَانِ

٣٠٨-مَا ثَمَّ غَيرٌ فاسجُدُوا إن شِئتُمُ
للشَّمسِ والأصنَامِ والشَّيطَانِ

٣٠٩-فَالكُلُّ عينُ اللهِ عِندَ مُحَقِّقٍ
وَالكُلُّ مَعبُودٌ لِذي العِرفَانِ

٣١٠-هَذَا هُوَ المعبُودُ عِندَهُم فقُل
سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ ذا السُّبحَانِ

٣١١-يَا أمَّةً مَعبُودُهَا مَوطوؤهَا
أينَ الإلَهُ وثُغرَةُ الطَّعَّانِ

٣١٢-يَا أمَّةً قَد صَارَ مِن كُفرَانِهَا
جزءًا يَسِيرًا جُملَةَ الكُفرَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا عارِفُهم يقال: إنه هو ابن عربي الخبيثُ، إنه ذُكِر الشيطان عنده مرة، فسَجَدَ

للشيطان، قال له صاحبُه: كيف تسجُد للشيطان؟ قال: هل غيرُ الإله؟ يعني: أنا ما سجدتُ إلا للإله؛ لأنه يزعم أن كل شيء هو الله، فأنتم الذين أنكرتم عليَّ، أنتم العُمْيان، والمعرفة عنده وهو أنه سَجَد للشيطان - والعياذ بالله -، وقال لهم أيضًا: اسجُدوا إن شئتُم للشمس، والأصنام، والشيطان، والكلب، والحمار، والذئب، والضبع، والنار، والثلج، والماء، وكل شيء، اعبُدوا كل شيء من الموجودات، هذا هو التوحيد عندهم.

ومن الغريب: أنَّ زوجته التي يُجامِعُها هي ربُّه، وزوجُها هو ربُّها، وحمارُه الذي يركبُه هو ربُّه، وهو ربُّ الحمار، هو عابدٌ معبودٌ، ربٌّ مربوبٌ، يقول:

يَا أُمَّةً مَعبُودُهَا مَوطوؤهَا ... أيـنَ الإِلَـهُ وثُغرَةُ الطَّعَّانِ

يَا أُمَّةً قَد صَارَ مِـن كُفرَانِهَا ... جزءًا يَسيـرًا جُملَـةَ الكُفـرَانِ

كل الكفر الذي في الدنيا جزءٌ يسيرٌ من كُفران هذه الأمة، وهم ينسبُون إلى الإسلام هذه المشكلة، محسوبين على الإسلام، وهم صوفية، وبهذا نعرف أنَّ مذهب الصوفية من أخطر المذاهب على الإسلام وأشدِّها هجمًا؛ لأنَّ الصوفي يصل إلى حالةٍ يقول: ما ثَمَّ إلا الله؛ يعني: كل الكون هو الله، ويقول: ما في الجُبَّة إلا الله، ويقول: الجُبَّة هي الله، ومَن في الجُبَّة هو الله.

الذين يعبدون المسيح ابن مريم، عبَدوا واحدًا من المخلوقات، لكن هؤلاء يعبدون كل شيء، فكل شيء فهو معبود؛ لأنهم يرَون أن الكون كله خالقَه ومخلوقَه شيءٌ واحدٌ، العابدُ والمعبودُ شيءٌ واحدٌ، والربُّ والمربوب شيءٌ واحدٌ، والواطئ والموطوء شيءٌ واحدٌ - والعياذ بالله -.

مذهب لولا أنه سُطِّر ما كان الإنسان يُصدِّق به إطلاقًا، وموجود أيضًا في كُتُبِهم، وأئمة الحق لا يفتَرون عليهم في ذلك؛ بل كُتُبُهم بين أيدينا معروفة ومقروءة، وسيأتي - إن شاء الله - للمؤلف بيان أنَّ هذا أمرٌ واقعٌ، ومَن أراد أن يقرأه في كُتُبهم فليقرأه.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في قدوم ركب آخر

وهذا الوصف الذي ذكره المصنف ينطبق على مذهب الجهمية الأولين الذين حقيقة مذهبهم يزعمون أن الله في كل مكان، وأنه حالٌّ في الأمكنة حلول الروح في الجسد، وهؤلاء الذين ناظرهم الإمام أحمد وغيره، فهؤلاء لم يصونوه عن الأمكنة الطيبة والخبيثة، وهؤلاء غير الجهمية الذين ذكرهم بقوله.

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في قدوم ركب آخر

٣١٣-وَأَتَـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قـالَ وَجَدتُـهُ
بالــذَّاتِ مَوجُــودًا بِكُــلِّ مَكَــانِ
٣١٤-هُــو كــالهَواءِ بعينِـهِ لا عينُـهُ
مَــلأ الخُلُــوَّ ولا يُــرَى بِعِيَــانِ
٣١٥-والقَـومُ مـا صَـانُوهُ عـن بِئـرٍ ولاَ
قَبــرٍ ولاَ دَاخِــلَ هَــذِهِ الأبــدَانِ
٣١٦-بَـل مِـنهُمُ مَـن قَـد رَأى تَشـبِيهَهُ
بــالرُّوحِ دَاخِــلَ هَــذِهِ الأبــدَانِ
٣١٧-مَـا فِـيهِمُ مَـن قَـالَ لَـيسَ بِـدَاخِلٍ
أو خَــارِجٍ عــن جُملــةِ الأكــوَانِ
٣١٨-لَكِـنَّهُم حَـامُوا عَلَـى هَـذا وَلَـم
يَتَجَاسَــرُوا مِــن عَســكَرِ الإِيمَــانِ
٣١٩-وَعَلَــيهِمُ رَدَّ الأئِمَــةُ أحمَــدٌ
وَصِــحَابُهُ مِــن كُــلِّ ذِي عِرفَــانِ
٣٢٠-فَهُمُ الخُصُوم لِكُلِّ صَاحِبِ سُنَّةٍ
وهُــم الخصُــومُ لِمُنــزِلِ القُــرآنِ
٣٢١-وَلَهُـم مقَـالاَتٌ ذَكَـرتُ أصولَهَا

لَمَّــا ذَكَــرتُ الجَهــمَ فِــي الأوزَانِ(١)

الشَــرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا الرَّكْبُ هم الجهمية، ومَن قال بقولهم، يقولون: إن الله تعالى بذاته في كل مكان، لا

---

١) [٣١٣: ٣٢١] قال العلامة محمد خليل هراس:

بعد أن فرغ المؤلف من ذكر مقالة ابن عربي وأضرابه من القائلين بمذهب وحدة الوجود شرع في بيان مقالة الحلولية. وينبغي أن يعلم أن أصحاب الحلول فريقان: فريق يقول بالحلول الخاص في بعض أفراد البشر، كما ذهب إليه النصارى في عيسى عليه السلام، حيث زعموا أن اللاهوت وهو الله حل في الناسوت. أي في جمد عيسى. وكما ادعاه في الإسلام السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي قال هو وأتباعه بألوهية علي رضي الله عنه. وقد حرقهم علي بالنار، وكذلك الخطابية في جعفر الصادق. وكان الحسين بن منصور الحلاج يزعم أن الله حل فيه. ويقول في بعض شعره:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنــا
فــإذ أبصرتـني أبصرتــه ... وإذا أبصرتــه أبصرتنــا

وكان يرى قبحه الله أن الإنسان إذا بلغ درجة من الصفاء والمحبة بالرياضة والمجاهدة فإنه يكون أهلًا لأن يحل الله فيه، ومن شعره في ذلك:

سبحان من أظهــر ناسوتــه ... ســر سنــا لاهوته الثـاقب
ثم بدا فـــي خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عــاينه خلقــه ... كلحظك الحاجب بالحاجب

وقد أفتى علماء عصره بردته ووجوب قتله حين ظهر بتلك المقالة الشنيعة فقتل لعنه الله.

وأما الفريق الثاني من القائلين بالحلول، وهم الذين تعرض المؤلف لذكر مذهبهم هنا فيرون أن الله عز وجل حال بذاته في كل جزء من أجزاء العالم. بحيث لا يخلو منه مكان ويشبهونه ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ بالهواء الذي يملأ الخلاء، ومع ذلك لا يراه أحد، ومنهم من يقول: إن هذا العالم جسم كبير، والله عز وجل هو الروح الكامنة في هذا الجسم المدبرة له، فهو سار في جميع أجزائه، كحلول الروح في البدن الإنساني والحيواني، وقد رد المؤلف على هؤلاء الحلوليين بأنهم حكموا على ربهم بالحلول في الأماكن القذرة، كالآبار والقبور والحشوش والأعطان، وبين أن هذا المذهب غير مذهب المعطلة الذين نفوا عن الله الجهة والحيز، وقالوا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، وأن هؤلاء الحلولية قد حاموا حول ذلك القول، ولكنهم لم يجرؤوا على إظهاره خوفًا من عسكر الإيمان. وهم أهل السنة والجماعة وقد رد عليهم الإمام أحمد وغيره بما بين فساد مقالتهم وشناعة نحلتهم.

ولاشك أن هؤلاء الحلولية خصوم ألداء لأهل السنة والجماعة الذين ينزهون ربهم عز وجل أن يكون حالًا في شيء من أجزاء العالم، ويؤمنون بأنه سبحانه فوق سماواته مستو على عرشه بائن من خلقه كما أخبر هو عن نفسه.

بعلمه، في المسجد، وفي السوق، وفي البيت، وفي السيارة، وفي الطائرة، وفي الكنيف، وفي الحمام – أعوذ بالله –، فكل مكان خبيث، الله بذاته فيه، ولا ريبَ أنَّ هذا كفرٌ محضٌ – والعياذ بالله –، ولا أحد يستطيع أن يصف الله تعالى بهذا الوصف وله مُسْكةٌ من عقل أو دين، والنصارى – عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة – قالوا: إن الله تعالى حلَّ في عيسى ابن مريم، حتى صار عيسى إلهًا فنزل إلى الأرض يفدي المساكين والمظلومين، وينشر المحبة بين العالمين، هذه هي عقيدتهم.

هؤلاء ما قالوا: إنه حالٌّ في واحدٍ من المخلوقات، حالٌّ في كل مكان، وهذا بلا شك يلزم عليه: إما تعدُّد الخالق، أو تجزُّؤ الخالق، إما أنه أجزاء وأوصاف كل جزءٍ منه في جهة، وإما أنه مُتعدِّد، لا واحد، هذا بقطع النظَر عن أنَّ تصوُّر هذه القضية نقصٌ عظيمٌ في جانب الله، فإنَّ هذا القول يستلزم النقص العظيم في جانب الله.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: إن لهم مقالات أخرى غير هذه (ذكرتُ أصولها لَمَّا ذكرتُ الجهم في الأوزان)؛ لأنه سيُفرِدُ الكلام على الجهمية في فصلٍ واحدٍ.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في قدوم ركب آخر

وهؤلاء هم الجهمية الصرف الذين نفوا علو الله على خلقه، ونفوا جميع صفاته كما تقدم بيان مذهبهم، فنفوا ما تواترت به الآيات القرآنية والنصوص النبوية، من علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، فرارًا بزعمهم من تشبيهه بالمعدومات، ولذلك قال بعض الفضلاء: لو قيل: صِفُوا لنا العدم لم نصفه بأبلغ من قول الجهمية في الله أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ثم من الغرائب استدلال بعض من يشار إليه منهم بقوله ﷺ: «لَا تُفَضلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى» يقول هذا الفاضل منهم: إن محمدًا عُرِج به إلى فوق السماوات السبع ويونس ابتلعه الحوت في قرار البحر وكلاهما في قربه من ربه سواء، فهذا يدل على نفي العلو. فانظر إلى هذا التعصب العظيم الذي أداه إلى هذا التحريف لهذا الحديث الذي لم يقله أحد ممن ينتسب للعلم. وهذه حال الذين يتبعون المتشابه، مع أن هذا الحديث واضح ليس بمتشابه، ويدعون النصوص الكثيرة المحكمة المصرحة بعلوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه. فاحمد الله أيها السني على العافية من هذا البلاء، وسله الثبات في الأم

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصلٌ
في قدوم ركب آخر

٣٢٢-وأتـى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـارَبَ وَصـفَهُ
هَـــذَا وَلَكِـــن جـدَّ فـــي الكُفـــرَانِ

٣٢٣-فأسَـرَّ قَـولَ مُعَطِّـلٍ وَمُكَـذِّبٍ
فـــي قَالَـــبِ التَّنزيـــهِ للـــرَّحمَنِ

٣٢٤-إذ قَـالَ لَـيسَ بـداخِلٍ فِينَـا وَلاَ
هُـــوَ خَـــارِجٌ عَـــن جُملَـــةِ الأكـــوَانِ

٣٢٥-بَـل قَـالَ لَـيسَ ببائِنٍ عَنهَـا وَلاَ
فِيهَـــا ولا هُـــوَ عَينُهَـــا بِبَيَـــانِ

٣٢٦-كَـلاَّ وَلاَ فَـوقَ السَّـمواتِ العُلَـى
والعَـــرشِ مِـــن رَبٍّ وَلاَ رَحمَـــنِ

٣٢٧- والعَرشُ لَيسَ عَلَيهِ معبُودٌ سِوَى الـ
ـــعَدَمِ الـــذي لاَ شَـــيءَ فـــي الأعيَـــانِ

٣٢٨-بَـل حَظُّـهُ مِـن رَبِّـهِ حَـظُّ الثَّرَى
مِنـــهُ وحَـــظُّ قَوَاعِـــدِ البُنيَـــانِ

٣٢٩-لَو كَانَ فَوقَ العَرشِ كَانَ كَهذِهِ الـ
أجسَـــامِ سُـــبحَانَ العظِـــيمِ الشَّـــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأبيات تتضمَّن قولًا آخر كلَّه تعطيلٌ محضٌ للرب عز وجل، وإنكارٌ لوجوده في الواقع، وهو عكس القول الأول الذي قبله، القول الذي قبله يقول: إنه بذاته في كل مكان، ذاك يقول: ليس بداخل، ولا خارج، ولا ببائن، ولا هو عينه، ولا مُتَّصل، ولا مُنفصِل بالمخلوقات.

ولو قال قائل: ما هو العدم ؟ لم تجد شيئًا أدقَّ وصفًا من هذا الوصف، ولهذا يعتبر قولُهم هذا تناقُضًا مع قولهم بأنَّ الله موجود ليس بداخلٍ في العالم، ولا خارج منه، ولا فوقه، ولا تحته، ولا يمين، ولا شِمال، ولا مُتَّصل، ولا مُنفَصِل، ولهذا يعتبر قولهم متناقضًا؛ لأنهم إذا قالوا: إنه موجود، ثم وَصَفوه بهذه السلوك فهذا هو النفي المَحض، والعدم المَحض، لكن مع ذلك يقولون هذا، ويعبدون معبودًا لا يدرون أين هو، ما يدرون هل هو فوق أو تحت؛ بل يعتقدون أنه لا فوق ولا تحت، ولا يمين، ولا شِمال، ولا مُتَّصل، ولا مُنفصِل، ثم يقولون: هذا الرب، وهؤلاء هم طائفة من الجهمية، وهم المتأخِّرون منهم.

وكذلك المعتزلة يقولون: ليس بداخل العالم... إلخ.

الجهمية انقسموا قسمين:

أوائلهم: قالوا بالقول الأول أنه بذاته في كل مكان.

والمتأخِّرون: نفَوا هذا وعطَّلوه، وقالوا: ليس بداخل ولا خارج، لماذا يقولون هذا القول؟ لأنهم قالوا: لو قلنا: إنه فوق السماوات أو على الأرض لزِمَ أن يكون جسمًا، والله مُنزَّه عن الأجسام.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٣٠- وَلَقَد وَجَدتُ لفاضِلٍ مِنهُم مَقَا
مًا قَامَهُ في النَّاسِ مُنذُ زَمَانِ

٣٣١- قَالَ اسمَعُوا يَا قَومُ إنَّ نَبِيَّكُم
قَد قَالَ قَولًا وَاضِحَ البُرهَانِ

٣٣٢- لاَ تَحكُمُوا بالفَضلِ لي أصلًا عَلى
ذِي النُّونِ يُونُس ذَلِكَ الغَضبَانِ

٣٣٣- هَذَا يَرُدُّ عَلَى المُجَسِّمِ قَولَهُ
الله فَوقَ العَرشِ والأكوانِ

٣٣٤- وَيَدُلُّ أنَّ إلَهَنَا سُبحَانَهُ
وبِحَمدِهِ يُلقَى بِكُلِّ مَكَانِ

٣٣٥- قَالُوا لَهُ بَيِّن لَنَا هَذَا فَلَم
يَفعَل فَأعطَوهُ مِنَ الأثمَانِ

٣٣٦- ألفًا مِنَ الذَّهَبِ العَتيقِ فَقَالَ في
تبيَانِهِ فاسمَع لِذَا التِّبيَانِ

٣٣٧- قَد كَانَ يُونُس في قَرَارِ البَحرِ تَحـ
ـتَ المَاءِ في قَبرٍ مِنَ الحِيتَانِ

٣٣٨- ومحَمَّدٌ صَعِدَ السَّمَاءَ وَجَاوَزَ الـ
ـسبعَ الطِّبَاقَ وَجَازَ كُلَّ عَنَانِ

٣٣٩- وَكِلاَهُمَا في قُربِهِ مِن رَبِّهِ
سُبحَانَهُ إذ ذَاكَ مُستَوِيَانِ

٣٤٠- فَالعُلوُ والسُّفلُ اللَذانِ كِلاَهُمَا
في بُعدِهِ مِن ضِدِّهِ طَرَفَانِ

٣٤١- إن يُنسَبَا لله نُزِّه عَنهُمَا
بالاِختِصَاصِ بَلَى هما سِيَّانِ

٣٤٢- فِي قُربِ مَن أضحَى مُقِيمًا فِيهِمَا
مِـــن رَبِّـــهِ فَكِلَاهُمَـــا مِـــثلَانِ

٣٤٣- فَلأجلِ هَذَا خُصَّ يُونُسَ دُونَهُم
بالـــذِّكرِ تَحقِيقًـــا لهَـــذَا الشَّـــانِ

٣٤٤- فـأتَى النَّشَارُ عَلَيـهِ مِـن أصحَابِهِ
مِـــن كُـــلِّ نَاحِيـــةٍ بِـــلاَ حُســـبَانِ(١)

---

(١) [٣٣٠: ٣٤٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
أورد الشيخ هنا هذه الحكاية التي تدل على جهل ذلك الجهمي وعدم بصره بمواقع الاستدلال، فقد أراد أن يستدل بقوله عليه السلام (لا تفضلوني على يونس بن متى) على أنه ليس فوق العرش إله، وأن محمدًا لم يكن وهو فوق السبع الطباق بأقرب إلى الله من يونس، وهو في جوف الظلمات، وهو استدلال فاسد، فإن نهيه عليه السلام أمته عن تفضيله على يونس لم ينف أنه أفضل منه في الواقع، وهذا النهي عن التفضيل لا صلة له بالقرب والبعد، وإنما هو إرشاد لأمته أن يتأدبوا في حق الأنبياء، وألَّا يفضلوا أحدًا منهم بخصوصه على آخر بخصوصه وإن كان المفضل هو محمد، والمفضل عليه هو يونس عليهما الصلاة والسلام، وإنما خص يونس بالذكر لأن بعض الأوهام قد يسبق إليها هبوط درجته عليه السلام عن إخوانه من المرسلين حيث أخبر الله عز وجل عنه (أنه التقمه الحوت وهو مليم) أي: فاعل ما يُلام عليه. وقال في حقه ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] على أن الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) وفي رواية (من قال أني خير من يونس بن متى فقد كذب).
ومعلوم أنه ليس في هذه الروايات تعرض للمفاضلة بين محمد وبين يونس عليهما السلام، ولا نهي للمسلمين أن يفضلوا محمدًا على يونس، بل هو نهي عام لكل أحد أن يفضل ويفتخر على يونس، وهل يقول من له ذرة من عقل أو لمحة من إيمان، أن مقام الذي أسرى به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي ألقي في بطن الحوت وهو مليم ـ وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟ ولو جاز أن يتخذ من مثل ذلك الحديث دليلًا على نفي علوه تعالى على خلقه فهل يقوى مثله في احتماله وبعد الاستدلال به أن يقاوم الأدلة الصريحة القطعية من الكتاب والسنة والعقل والفطرة على علوه تعالى والتي بلغت من الكثرة أن زادت على ألف دليل.
فانظر إلى حال الجهمي الجاهل الذي يتجرأ على الناس بسخافة حمقاء ثم انظر إلى قبولهم ذلك منه، وفرحهم به بجهلهم وقلة علمهم بكلام الله وكلام رسوله. فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، وهدانا صراطه المستقيم.

الشـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا الفاضل الذي أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، قيل: إنه أبو المعالي الجُوَيْني [١]، وهو من أئمة الشافعية، وما أدري عن صحة النقل؛ لأنَّ الرجل ما أظنُّ أنه يبلُغُ بالأمر إلى هذا الحد.

القصة: يقول: أنا أريد أن أُبيِّنَ لكم أن الله سبحانه وتعالى ليس موجودًا بذاته فوق العرش، لحديثٍ يرُدُّ على أهل التجسيم الذين يقولون: إن الله بذاته فوق العرش، وهو أنَّ الرسول ﷺ قال: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [٢] يعني: لا تُفضِّلوني في القُرْبِ من ربِّي - على زعمه - على يونس بن مَتَّى، أنا وإياه عند الله تعالى سِيَّان حين كان هو في بطن الحوت وأنا فوق السماوات السبع، وهذا يدل على أن العلو والسُّفْل لا يُنسَبان إلى الله عز وجل، هما يُنسَبان إلينا، والضِّدُّ وهو السُّفْل ضِدّ العُلُو، والعُلُو في طرف وهذا في طرف لا يلتقيان، لكنهما بالنسبة لله سِيَّان، ولكنَّه جاء بهذا الشرح على صيغة إلغاز حتى يتشوَّق الناس إليه، فقالوا: افتح لنا هذا، فقال: لا، ما أفتحه، حتى أعطَوه ألفًا من الذهب العتيق، لَمَّا أعطَوه ألف دينار بيَّنَ لهم وشرح ما يقول، وأن الله ليس فوق السماوات، لو كان فوق السماوات لكان قُرب محمد إليه أقرب من يونس، لكن هو في كل مكان، يونس ومحمد وغيرهما على حدٍّ سواء.

يقول: ويدل لذلك: أن الرسول ﷺ ما قال: لا تُفضِّلوني على موسى، أو على إبراهيم، أو على غيره من الأنبياء، بل قال: على يونس؛ لأنَّ يونس هو الذي صار في قاع البحر، ولا شكَّ أنَّ هذا القول من التحريف الذي يحمل عليه الهوى، فهو تحريفٌ من أبطَلِ الباطِلِ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يتعرَّض إطلاقًا للعلو والسُّفْل، لكن لما كان يونس عليه الصلاة والسلام خرج مُغاضِبًا من قومه ظانًّا أن الله لا يقدِرُ عليه، وحصل ما حصل، ربما يقع في نفس بعض الناس تنزيل رُتبة يونس والنَّيْل من قدره، فنهى الرسول عليه الصلاة والسلام أن

---

(١) إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني الفقيه الشافعي، توفي بنيسابور سنة ثمان وسبعين وأربع مئة عن تسع وخمسين سنة. «توضيح المشتبه» (٢/ ١١٩).

(٢) قال العلامة الألباني رحمه الله في تعليقه على شرح الطحاوية (١٧٢): لا أصل له بهذا اللفظ عن النبي ﷺ.

يُفضَّل على هذا النبي الذي قد يتصوَّر الإنسان أنه عليه الصلاة والسلام قد نزل قدرُه بسبب ما حصل منه؛ لأنك عندما تقول: محمد أفضل من يونس، وقد ذهب الذهن إلى ما حصل من يونس، ما الذي يقع في ذهنك ؟ التقليل من شأنه وتنزيله، فلهذا نهى أن يُفضَّل محمد على يونس، وإلا فقد ثَبَتَ أن الله يقول: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٤٥- فاحمَـد إلهَـكَ أيُّهَـا السُّـنِّيُّ إذ
عَافَـاكَ مِـن تَحرِيـفِ ذِي بُهتَـانِ

٣٤٦- واللهِ مَـا يَرضَـى بِهَـذَا خَـائِفٌ
مِـن رَبِّـهِ أمسَـى عَلَـى الإيمَـانِ

٣٤٧- هَذَا هُوَ الإلحَادُ حَقًّا بَل هُوَ التَّـ
ـحرِيفُ مُحضًـا أبـرَدُ الهَـذَيَانِ

٣٤٨- واللهِ ما بُلِيَ المُجَسِّمُ قطُّ ذِي الـ
ـبَلوَى وَلاَ أمسَـى بِـذِي الخُـذلاَنِ

٣٤٩- أمثَالُ ذَا التَّأويـلِ أفسَـدَ هَـذِهِ الـ
أديَـانِ حِـينَ سَـرَى إلَـى الأديَـانِ

٣٥٠- وَاللهِ لَـولاَ اللهُ حَـافِظُ دِينِـهِ
لتهـدَّمت منـهُ قُـوَى الأركَـانِ(١)

(١) [٣٤٥: ٣٥٠] قال العلامة محمد خليل هراس:
بعد أن حكى المؤلف هذه الأكذوبة التي تفتق عنها ذهن ذلك الجهمي المارق، والتي تدل على مبلغ جهل الجهمية وضلالهم حيث أنكروا أن يكون بعض العباد والمخلوقات أقرب إلى الله من بعض، وزعموا أن جميع الجهات والأمكنة بالنسبة إليه سواء. توجه إلى كل معتصم بالسنة وعقيدة السلف أن يحمد الله الذي عافاه من تحريف هؤلاء الكذابين، وأخبر أنه لا يرضى بمثل هذا التحريف والتعطيل

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في قدوم ركب آخر

وهؤلاء طائفة من أذكياء الفلاسفة مضمون مذاهبهم وخلاصتها أنهم لما رأوا مذاهب الجهمية والمتكلمين متناقضة متضاربة: ينفون الشيء ويثبتون نظيره وما هو أولى منه. ويقطعون بالشيء في موضع وبضده في موضع آخر. ورأوها مناقضة للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح. ورأوا مذاهب أهل السنة والجماعة محكمة متناسبة دائرة مع ما جاء به الكتاب والسنة، فعرفوا بذكائهم وحرية فكرهم أن القول الحق هو قول أهل السنة والجماعة وما سواه فمعروف بطلانه ببداهة العقول، ولكن حال بينهم وبين اتباع هذا القول تنفير للناس عنه وتلقيبهم لأهله بأنهم مجسمة مشبهة حشوية ونحوها من الألقاب الشنيعة التي ينفر من أهلها أكثر الناس ويهابونها، فلم يكن عندهم من القوة والبصيرة التامة ما يوجب لهم اتباعهم ومخالفة الجمهور، وهم قد عرفوا بطلان مذهب الجهمية ونحوهم، فانحلوا بذلك من الشرائع كلها وصرحوا بمذاهب ملاحدة الفلاسفة وقالوا صريحًا: إذا لم نتبع المجسمة ـ يعنون أهل السنة المثبتين لما جاء به الرسول من الصفات ـ فلا نرضى

إلا قلب فارقه الخوف من مولاه وبات على غير إيمان به، وإلا لما اجترأ على القول بتلك الشناعات في حق الله عز وجل التي هي محض الإلحاد وعين التحريف والهذيان. ثم أخبر أن المجسمة الذين يدعي الجهم وأصحابه الفرار من الوقوع في تجسيمهم بالتأويل ما ابتلوا قط بمثل هذه البلوى التي هي تأويل الجهمي. ولا خذلوا هذا الخذلان الشنيع. وأن أمثال هذه التأويلات الفاسدة هي التي أفسدت الأديان حين سرت إليها. وقد وجد في اليهودية والنصرانية جهمية كهذا الجهم الذي أصيب به الإسلام حرفوا التوراة والإنجيل وتناولوهما بالتغيير والتبديل حتى أفسدوا هاتين الديانتين على أهلهما، كما حاول الجهم إفساد الإسلام على أهله، ولولا أن الله حافظ دينه وكتابه لكانت بدعة الجهم ومقالاته سببًا في هدم بنيان هذا الدين وتصدع أركانه.

لأنفسنا بمذهب الجهمية وأهل الكلام المتناقضين، فانظر كيف صارت بدعة التجهم من أعظم الأسباب لتمسك الملحدين في إلحادهم، لظنهم أن ما عليه أهل الكلام هو ما جاء به الرسول، فأساءوا الظن بالشريعة، وصار مع ذلك هؤلاء المبتدعون يخضعون للفلاسفة في بحوثهم ومناظراتهم معهم، لأنهم وافقوهم في كثير من أصولهم الفاسدة، وإلا فلو قابل هؤلاء الفلاسفة أهل السنة والجماعة الذين سلاحهم ما جاء به الكتاب والسنة وما دلت عليه صرائح العقول لم يثبتوا لهم بوجه من الوجوه، ولقامت الحجة عليهم واهتدى من كان قصده الهدى، لأن المناظرة بالحق وبطرقه الحقيقية هو السبب الوحيد للرشاد والإرشاد.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في قُدُومِ رَكْبٍ آخر

٣٥١-وأتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَارَبَ وَصفُهُ
هَذَا وَزَادَ عَلَيهِ فِي الميزَانِ

٣٥٢-قَالَ اسمَعُوا يَا قَومُ لا تُلهِيكُمُ
هَذِي الأمَانِي هُنَّ شَرُّ أمَانِي

٣٥٣-أتعبتُ رَاحلَتي وَكَلَّ مطيَّتي
وَبَذَلتُ مَجهُودِي وَقَد أعيَانِي

٣٥٤-فَتَّشتُ فوقَ وَتحتَ ثُمَّ أمَامَنَا
وَوَرَاءَ ثُمَّ يَسَارِ مَع أيمَانِ

٣٥٥-مَا دَلَّنِي أحَدٌ عليهِ هُنَاكُمُ
كَلَّا وَلاَ بَشَرٌ إليهِ هَدَانِي

٣٥٦-إلاَّ طَوائِفُ بِالحَدِيثِ تَمَسَّكَت
تُعزَى مَذاهِبُهَا إِلَى القُرآنِ

٣٥٧-قَالُوا: الَّذي تَبْغيهِ فَوْقَ عِبَادِه
فَوقَ السَّمَاءِ وفَوقَ كُلِّ مكَانِ

٣٥٨- وهو الَّذِي حَقًّا عَلَى العَرشِ استَوَى
لَكِنَّهُ استَولَى عَلَى الأكوانِ

٣٥٩-وإلَيهِ يَصعَدُ كُلُّ قَولٍ طَيِّبٍ

وَإِلَيْـــهِ يُرفَــعُ سَــعيُ ذِي الشُّــكرَانِ

٣٦٠-والـروحُ والأمـلاكُ مِنـهُ تَنزلَـت

وإِلَيـــهِ تَعـــرُجُ عِنـــدَ كُـــلِّ أوَانِ

٣٦١-وإليـه أيـدِي السَّـائِلِينَ تَوجَّهَـت

نَحـــوَ العُلُـــوِّ بِفِطـــرَةِ الـــرَّحمَنِ

٣٦٢-وإليهِ قَد عَرجَ الرسُولُ فقُدِّرَت

مِـــن قُربِـــه مِـــن رَبِّـــه قَوسَـــانِ

٣٦٣-وإلَيـهِ قَـد رُفِـعَ المسِيحُ حَقِيقَةً

ولسَـــوفَ يَنـــزِلُ كَـــي يُـــرَى بِعِيَـــانِ

٣٦٤-وإليـه تصـعَدُ رُوحُ كـلِّ مُصَـدِّقٍ

عِنـــدَ المَمَـــاتِ فَينثَنِـــي بأمـــانِ

٣٦٥-وإليـــهِ آمـــالُ العِبَـــادِ توجَّهَـــت

نَحـــوَ العُلُـــوِّ بِـــلاَ تَـــواصٍ ثَـــانِ

٣٦٦-بَـل فِطـرةُ الله التَـي لَـم يُفطـرُوا

إلاَّ عَليهَـــا الخلـــقُ والـــثَّقلاَنِ

٣٦٧-وَنَظِيـرُ هَـذَا أنَّهـم فُطِـرُوا عَلَـى

إقـــرَارِهم لاَ شَـــكَّ بالـــدَّيَّانِ

٣٦٨-لَكِن أُولُو التعطيلِ مِنهُم أصبَحُوا

مَرضَـــى بـــدَاءِ الجَهـــلِ والخُـــذلاَنِ(١)

---

(١) [٣٦٣: ٣٦٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذه من جملة كلام أهل السنة والجماعة في إثبات الفوقية لله عز وجل على الحقيقة؛ حيث أخبر سبحانه أنه رفع عيسى عليه السلام إليه بجسده وروحه حيًّا، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ وكما قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ

٣٦٩- فَسألْتُ عَنهم رِفقَتي وأحبتي
أصحَاب جَهمٍ حِزبَ جِنكيزخَانِ

٣٧٠- مَن هؤلاءِ وَمن يُقالُ لهُم فقَد
جَاؤُوا بِأمرٍ مَالِىءِ الآذانِ

٣٧١- وَلَهُم علينَا صَولَةٌ مَا صَالَهَا
ذُو بَاطِلٍ بَل صَاحِبُ البُرهَانِ

٣٧٢- أوَ مَا سَمعتُم قَولَهُم وَكَلاَمَهُم
مِثلَ الصواعِقِ لَيسَ ذَا لِجَبَانِ

٣٧٣- جَاؤوكُم من فَوقكُم وَأتيتُم
مِنْ تَحتِهِم مَا أنتُم سِيَّانِ

٣٧٤- جَاؤُوكُمُ بالوَحي لَكِن جِئتُمُ
بِنُحَاتَةِ الأفكَارِ والأذهَانِ

٣٧٥- قَالُوا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ فَلاَ

ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] فإضافة الرفع إلى ضمير عيسى عليه السلام في الآيتين يدل على أنه رفع كله. ويرد على من زعم أن الرفع إنما هو لروحه وحدها. وأن جسده قد مات ودفن. وهو زعم باطل. فإنه لا يظهر حينئذٍ لتخصيص عيسى عليه السلام بذلك الرفع معنى. إذ كل ميت هو كذلك ترفع روحه إلى السماء، وقد ورد في الحديث الصحيح أن عيسى سينزل قرب قيام الساعة. وأنه سيقتل المسيح الدجال ويكسر الصليب ويضع الجزية على أهل الكتاب، وتمتلئ الدنيا في عهده خيرًا وعدلًا.
وكذلك ورد الحديث بأن أرواح المؤمنين تعرج بها ملائكة الرحمة حتى تمثل بين يدي الله عز وجل فيبشرها بما أعد لها من نعيم فترجع آمنة مطمئنة.
وهو سبحانه كذلك الذي تتجه إليه آمال عباده نحو العلو دون أن يوصي بعضهم بعضًا بذلك. بل فطرة فطرهم الله عليها كما فطرهم على الإقرار بوجوده. لكن أهل التعطيل قد فسدت فطرهم فجحدوا هذه الضرورات التي يجدها الناس من أنفسهم بالتوجه دائمًا في الدعاء والرجاء نحو العلو. وأصبحوا مرضى بداء الجهل والخذلان. أعاذنا الله مما ابتلاهم به بمنه وكرمه.

تَسـمَعِ مَقَـالَ مُجَسِّـمٍ حَيَـوَانِ

٣٧٦- والعَـنهُمْ لَعنًـا كَبيـرًا واغـزُهُم

بِعَسَـاكِرِ التَّعطِيـلِ غيـرَ جَبَـانِ

٣٧٧- وَاحكُم بسَفكِ دِمَائِهِم وَبِحَبسِهِم

أو لاَ فشَـرِّدهُم عَـنِ الأوطَـانِ

٣٧٨- حَذِّر صِحَابَكَ مِنهُمْ فَهُمْ أَضَلْ

لُ مِـنَ اليَهُـودِ وعَابِـدِي الصُّـلبَانِ

٣٧٩- وَاحـذَر تُجَـادِلَهُم بقَـالَ الله أو

قَـالَ الرسُـولُ فَتَنثَنـي بِهَـوَانِ

٣٨٠- أنَّـى وَهُـم أولـى بِـهِ قَـد أنفَـذُوا

فِيـهِ قُـوَى الأذهَـانِ والأبـدَانِ

٣٨١- فإذا ابتُلِيتَ بِهم فَغَالِطهُم عَلَى التـ

تَـأويلِ للأخبَـارِ وَالقُـرآنِ

٣٨٢- وكذَاكَ غَالِطهُم عَلَى التكذِيبِ للـ

آحَـادِ ذَانِ لِصَـحبِنَا أصـلاَنِ

٣٨٣- أوصَـى بِهَـا أشـيَاخَنا أشـيَاخُهُم

فَاحفَظهُمَـا بِيَـدَيكَ والأسـنَانِ

٣٨٤- وإذا اجتَمعتَ وهم بمشهَدِ مَجلِسٍ

فَابـدَر بـإيرَادٍ وشُـغلِ زَمَـانِ

٣٨٥- لا يَملِكُـوهُ عَلَيـكَ بالآثَـارِ والـ

أخبَـارِ والتفسِـيرِ للفُرقَـانِ

٣٨٦- فَتَصِـيرَ إن وَافقـتَ مِـثلَهُمُ وإن

عَارَضْــتَ زِنْــدِيقًا أخَــا كُفْــرَانِ

٣٨٧-وإذا سَـكَتَّ يُقَـالُ هَـذَا جَاهِـلٌ
فَابْــدَر ولَــو بِالفَشْــرِ والهَــذَيَانِ

٣٨٨-هَـذَا الَّـذِي واللهِ أوْصَـانَا بِـهِ
أَشْــيَاخُنَا فِــي سَـالِفِ الأَزْمَــانِ

٣٨٩- فرجعتُ مِن سَفَرِي وقلتُ لصَاحِبي
وَمَطِيَّتِــي قَــد آذنــت بِجِــرَانِ

٣٩٠-عَطِّل رِكَابَكَ وَاسترِح مِن سَيرِهَا
مَــا ثَــمَّ غيــرُ ذِي الأكــوَانِ

٣٩١-لَـو كَـانَ للأكـوَانِ ربٌّ خَـالِقٌ
كَــانَ المُجَسِّــمُ صَــاحِبَ البُرهَــانِ

٣٩٢-أو كَان رَبٌّ بائنٌ عَن ذِي الوَرَى
كَــانَ المُجَسِّــمُ صَــاحِبَ الإيمَــانِ

٣٩٣- وَلَكَانَ عِندَ النَّاسِ أَوْلَى الخَلقِ بالـ
إســلاَمِ والإِيمَــانِ والإِحسَــانِ

٣٩٤- وَلَكَانَ هَذَا الحِزبُ فَوقَ رؤوسِهِم
لَــم يَختَلِــف مِــنهُم عَلَيــهِ اثنَــانِ[1]

---

(١) [٣٨٩: ٣٩٤] قال العلامة محمد خليل هراس: يقول ذلك الرائد الأحمق: إني بعد أن طوفت بين أهل المذاهب فسمعت كلام أهل السنة والجماعة، ثم سمعت كلام رفقتي من أصحاب جهم فيهم شككت في المذهبين جميعًا ورجعت من سفري بخيبة وإخفاق قلت لصاحبي، وقد كلت دابتي من السير حتى أعلمت بجرانها وامتناعها عن المسير: عطل ركابك واسترح من سيرها فإنه لا حاجة بك إلى كثرة التجوال وطول الكلام فقد جئتك من هناك بالخبر اليقين وهو أنه لا شيء وراء هذه الأكوان.
ثم أخذ يدلل على قضيته الخاسرة، فقال: لو كان للأكوان رب خالق موجود لكان مذهب المجسمة هو أصح المذاهب وأقواها برهانًا وأولاها بالقبول، فإن القول بوجوده داخل هذا العالم لما يلزم عليه من

٣٩٥-فَـدَعِ التَّكـالِيفَ الَّتِـي حُمِّلتَهَـا
وَاخلَــعْ عِــذَارَكَ وَارمِ بالأرسَــانِ

٣٩٦-مَا ثَمَّ فَوقَ العرشِ مِن رَبٍّ وَلَـم
يَــتَكَلَّمِ الــرَّحمَنُ بــالقُرآنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

على كل حال، هذا الركب الآخر يقول: إنه ذهب يطلُبُ الله، وفتَّش يمينًا وشِمالًا، ولكنه لم يجِد أحدًا هداهُ إليه إلا أهلُ الحديث هم الذين هدَوهُ إليه، وبيَّنوا أنه سبحانه وتعالى فوق السماوات العُلَى، واستدلَّ المؤلف على عُلُو الله تعالى بعدَّة أدلَّة:

قالوا: فوق عباده فوق السماء وفوق كل مكان، وهو الذي حقًّا على العرش، لكنَّه استولى على الأكوان، استوى على العرش واستولى على الأكوان، «استولى» ليس هي للعرش، بل استولى لكل الأكوان، أما «استوى» فهي خاصة بالعرش، ثم بيَّن الأدلة.

ثم استدل المؤلف على علو الله بقوله: (إليه يصعَدُ كلُّ قولٍ طيِّبٍ)، وذلك في القرآن: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وإليه يُرفَعُ سعيُ ذي الشُّكْران، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، والروح والأملاك منه تنزَّلَت، والنزول لا يكون إلا من أعلى، هذا النوع الثاني من الدلالة على العلو، علو الأشياء إليه تدل على عُلُوِّه، ونزولها منه تدلُّ على عُلُوِّه أيضًا.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وإليه أيدي السائلين توجَّهَت نحو العلو) هذا دليل فِطْري، ما قال قائلٌ قطُّ: «يا الله» إلا رفع يديه إلى السماء.

أن تكون الحوادث ظرفًا له محيطة به فلابد من القول بأنه بائن عن الورى منفصل عنهم، أما القول بأنه موجود لا في مكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه، فإنه ينطوي على التناقض كأنه قيل هو موجود معدوم، فالحكم بوجود رب خالق للعالم بائن عنه يقتضي انتصار مذهب التجسيم، وأن يكون أهله أحق الناس بالإسلام والإيمان والإحسان وأن يكون حزبهم هو الأعز الأغلب فوق رؤوس المذاهب جميعًا.

وقوله: (وإليه قد عَرَجَ الرسول) هذا مثل الأول، تعرُجُ الأشياء إليه؛ لأنه فوق، لكنَّ قوله (من قُربِه من ربِّه قَوسَان) هذا كلامه هنا، لكن كلامه في «التبيان في أقسام القرآن»[1] يُخالِفُ ذلك؛ حيث ذكَرَ أن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨] أن المراد به: جبريل، وهذا هو الصواب، أن المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ جبريل، وليس الله عز وجل، ولكن المؤلف كغيره من المُجتهدين يكون له في المسألة قولان أو أكثر، وهذه من مسائل الأصول التي اختلف فيها السلف رحمهم الله.

وقوله: (وإليه قد رُفِعَ المسيحُ حقيقةً ولسوف ينزل كي يُرى بعِيَانِ) هذه أيضًا من النوع الأول، أنه تصعدُ الأشياء إليه.

وقوله: (وإليه تصعدُ روح كل مُصدِّقٍ) هذه من النوع الأول.

وقوله: (وإليه آمال العباد توجَّهَت) من النوع الثالث، وهو الفطرة، ولهذا قال: (بل فِطْرَةُ الله).

يقول: (فسألتُ عنهم رُفقَتي وأحبَّتي أصحاب جهمٍ) هذا يدل على أن الرجل كان جهميًّا.

وقوله: (أصحاب جهمٍ حزب جِنْكِيز خان) هذا هو سلطان المغول، وهو أول مَن مَلَكَ من المغول بهذا الاسم.

قال: مَن هؤلاء ؟ إلى ذكر من أوصافهم، حتى قال: (جاؤوكم بالوحي لكن جئتُم بنُحَاتة الأفكار والأذهان).

ماذا قال أصحاب جهمٍ في جوابه ؟ قالوا: مُشبِّهة مُجَسِّمة فلا تسمع مقال مُجسِّمٍ حيوان، والعنهمُ لعنًا كبيرًا واغزُهُم بعساكِرِ التعطيل غير جبان) وهذا خطأ، هم المُستحقُّون لهذا الكفر.

ثم أمَروا: احكم بسفك دمائهم أي: بقتلهم، هذا حكم، وبحبسهم حبسًا مُؤبَّدًا، هذا حكمٌ آخر، والثالث أولَى – يعني: إن لم تحكم بذلك – فشَرِّدْهُم، هذا الحكم الصادر من أصحاب الجهم، وأصحاب جنكيز خان على أهل السنة والجماعة.

---

(١) ص ١٥٨.

وقوله: (حذِّر صِحابَك منهم فهم أضلُّ من اليهود وعابدي الصُّلْبان) والعياذ بالله، كيف يقولون لأهل السنة والجماعة هذا ؟ لأنهم يُنفِّرون الناس منهم.

وقوله: (واحذر تجادلهم بقال الله أو قال الرسول فتنثني بهوان) إذا جادَلتَهم بالكتاب والسنة تنثني؛ يعني: تنهزم ويغلبونك؛ لأن الكتاب والسنة معهم.

وقوله: (أنَّى) يعني: أنَّى تغلِبُهم.

وقوله: (وهم أولى به قد أنفذوا فيه قوى الأذهان والأبدان)، (فإذا بُلِيتَ بهم) يعني: إن قُدِّر أنَّك بُلِيتَ بهم في مجلس (فغالطهم على التأويل) أو التكذيب، التأويل متى ؟ إذا لم يمكن التكذيب؛ يعني: لو جاؤوا بآية ما استطعتَ تفسيرها، أوِّلْها، جاءوا بحديث متواتر أَوِّلْهُ أوِّل، فإذا لم يُمكن (وكذاك غالِطْهُم على التكذيب للآحاد) إذا كان الخبر خبر آحاد، فقل: هذا كذِب.

وإذا اجتمعتَ أنتَ وإياهم في مجلس لا تجعلهم يتكلَّمون، ابدأ أنتَ بالتكلُّم، واملأ المجلس كذِبًا وهذَيَان حتى يضيعَ المجلِس؛ لأنهم إذا بادَروا بالكلام غلبوه.

وقوله: (لا يملكوه عليك بالآثار والأخبار والتفسير للفرقان) لأنك إما أن تُوافِق أو تُخالِف أو تُفَسِّر، فإذا جاؤوا بالوحي تُكذِّب إن كان أحاديث، وتُؤوِّل إن لم يكن أحاديث ليست متواترة أو من القرآن، وإذا جلَستَ أنتَ وإياهم، فاشغَلْهُم بالكلام البعيد عن هذه الأشياء، كذِب وهَذَيَان... إلخ، وإذا مَلَكوا المجلس عليك، وصاروا أقوى منك في الكلام، استعمِل واحدًا من ثلاثة أمور إما أن تُوافِق، أو تُخالِف، أو تسكُت، إن سكتَّ قالوا: هذا جاهل، وإن وافقتَ فأنتَ مثلهم، ونحن ما نريدُ أن نكون مثلهم، وإن خالفتَ بالقرآن والسنة صِرْتَ زِنديقًا عند أهل المجلس الآخرين.

فهذا الرجل أوصَى صاحبه، أو هذا الحِزب أوصَوا صاحِبَهم بأن يكون الكلام له أولًا، فإن ملَكُوه عليه فليَحذَر؛ لأنه لا تخلو حالُه من هذه الأحوال الثلاث.

مسألة: كيف يقول: استولى على الأكوان ؟

فالجواب: أن يُقال: إن الله استولَى على الأكوان حقيقةً، فهو وليُّها، وهي مُلكُه بلا شكٍّ، والذي أنكرَه أهلُ السنة على أهل التعطيل لما قالوا: استوى بمعنى: استولى على العرش،

فقال لهم أهلُ السنة: إذًا العرش قبل استيلائه عليه كان لغيره؛ لأن الاستواء المذكور أتى بـ (ثُمَّ) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]، فيقولون: استيلاءُ الله عليه استيلاءً بعد خلق السماوات والأرض، فيكون قبل ذلك لغير الله.

أما إذا قلنا: إن الله استولى على الأكوان بدون (ثُمَّ) ليس بمحذور.

لو قال قائل: لماذا اختار ابن القيِّم كلمة (استولى) ؟

نقول: ليُبيِّن لهؤلاء الذين قالوا: استوى على العرش بمعنى استولى عليه أنهم أخطأوا، فإن الاستيلاء على كل شيء؛ فهل تقولون: إن الله استوى على العرش ؟ يقولون: ما نقول هذا. نقول: يلزمكم أن تقولوا: استوى على العرش؛ لأنكم تُفسِّرون استوى بـ (استولى)، والله تعالى مُستولٍ على كل شيء، يلزمكم أن تقولوا: إن الله تعالى استولى على الأرض، وعلى الإنسان، وعلى كل شيء، وهم لا يقولون بذلك؛ لأنه كُفْر.

فقولنا: إن الله تعالى استولى على كل شيء؛ بمعنى صارت له الولاية على كل شيء.

قد يقول قائل: إنه حق، ونحن أنكَرنا على الذين فسَّروا الاستواء بالاستيلاء ؟

فالجواب: أننا أنكَرنا عليهم؛ لأن (استوى) ليس معناها (استولى)، هذه واحدة.

ثانيًا: لأن الاستواء قُرِنَ بـ (ثُمَّ) الدالَّة على أن هذا حادِث – يعني: الاستواء – بعد خلق السماوات والأرض؛ فهل تقولون: إن الله لم يستوِ على العرش إلا بعد خلق السماوات والأرض.

الجواب: نحن نقول: لا، أما هم يقولون: (ثم استولى) أي: بعد خلق السماوات والأرض، وهذا وجه الإنكار عليهم.

فالحاصل: أنَّ كلمة (استولى على المُلك) ليس فيها إشكال، أو (استولى على الخلق) ما فيها إشكال، الإشكالُ: تفسيرُ (استوى) بـ (استولى) من وجهين:

الوجه الأول: أنهم فسروا (استوى) بـ(استولى) وهذا كان بعد خلق السموات والأرض، أما الصواب بأن الله كان مستوٍ على العرش قبل خلق السموات.

والثاني: أنه يقتضي أن العرش كان قبل استوائه عليه لغير الله وهذا خطأ لعدم ثبوت معنى (استوى) بـ (استولى) لغويًّا وشرعيًّا، فهذا هو وجه الإنكار عليهم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٩٦-مَا ثَمَّ فَوقَ العرشِ مِن رَبٍّ وَلَم
يَتَكَلَّمِ الرَّحمَنُ بالقُرآنِ
٣٩٧-لَو كَانَ فَوقَ العرشِ رَبٌّ نَاظِرٌ
لَزِمَ التحيُّزُ وافتقارُ مَكَانِ
٣٩٨-أو كان ذا القُرآنُ عَينَ كَلامِهِ
حَرفًا وَصَوتًا كَانَ ذَا جُثمَانِ
٣٩٩-فإذَا انتفَى هَذَا وَهَذا مَا الَّذِي
يَبقَى عَلَى ذَا النَّفيِ مِن إيمَانِ
٤٠٠-فَدَعِ الحَلاَلَ مَعَ الحرَامِ لأهلِهِ
فهُمَا السِّيَاجُ لَهُم عَلَى البُستَانِ
٤٠١-فاخرَقهُ ثمَّ ادخُل تَرَى فِي ضِمنِهِ
قَد هُيِّئَت لَكَ سَائِرُ الألوَانِ
٤٠٢-وتَرَى بِهَا ما لاَ يَرَاهُ مُحَجَّبٌ
مِن كُلِّ ما تهوَى بِهِ زَوجَانِ
٤٠٣-واقطَع عَلائِقَكَ الَّتِي قَد قَيَّدَت
هَذَا الوَرَى مُذْ سَالِفِ الأزمَانِ
٤٠٤-لِتَصِيرَ حُرًّا لَستَ تحتَ أوَامِرٍ
كَلَّا وَلاَ نَهيٍ وَلاَ فُرقَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول فيما سبق: لو كان للأكوان ربٌّ خالقٌ، وذكَرَ من صفاته المُتعدِّدة، فلو كان هذا أمرًا

ثابتًا لكان الحق مع أهل التجسيم، وأهل التجسيم هم أهلُ السنة والجماعة، وأنتم تقولون: إن التجسيم باطلٌ، فإذا بَطَلَ التجسيم بطَلَ أن يوجد الرَّبُّ، وأن يوجد كلامه، وأن يكون مُستوٍ على عرشه، وأن يتصف بالصفات، وحينئذٍ فأحسنُ شيءٍ أن تدَعَ هذه الأمور وهذه التقديرات، وأن تُنكِرَ الخالق، وتُنكِرَ البَعْث، وتُنكِر كلَّ شيء، وتكون حُرًّا طليقًا من كل شيء، وتدَعَ الحلالَ والحرام؛ يعني: تدَعَ الالتزام بهما، لا تقُل: هذا حلال أفعله، وهذا حرام أترُكُه، كن حُرًّا، اخرق هذا السِّيَاج - الذي هو الحلال والحرام -؛ لأنَّ التحليل والتحريم سِياج بمنزلة الحائط على البستان يحميه ويحُوطه، فالحلال والحرام هو عبارة عن حائط يحُوطُ الإيمان ويمنعه من أن يناله سوءٌ من الخارج، ولذلك تجد الإنسان إذا ترَكَ الحرام لله عز وجل يقوى إيمانُه، وإذا فعل الواجِب تقرُّبًا لله يقوى إيمانُه، فهذه الحُدُود تحفظ القلب، وكلما كان هذا السِّيَاج أقوى كان الإيمان أحفظ، يقول المؤلف:

فاخرَقهُ ثمَّ ادخُل ترَى فِي ضِمنِهِ قَد هُيِّئَت لَكَ سَائِرُ الألوَانِ

يعني: إذا خرقتَ هذا الشيء وجدتَ قد هُيِّئَ لك سائر الألوان مما يهوى من زخارف الدنيا ولذَّاتها التي ليس لها حُدُود، وحينئذٍ إذا انتحل هذا الوصف يكون زِندِيقًا مُلْحِدًا لا يعترف بربٍّ، ولا بحلال، ولا بحرام.

تأمَّل كيف جرَّ التعطيل الناس الأذكياء أن يكفروا بالله؛ لأن هؤلاء الأذكياء فلاسفة، كما يظهر من كلام المؤلف، نظروا في مذهب أهل التعطيل ووجدوه غير صحيح، ونظروا في مذهب أهل السنة والجماعة ووجدوه أيضًا ـ على قول أهل التعطيل ـ غير صحيح أيضًا، فقالوا: لا نكون مع هؤلاء ولا هؤلاء، إذًا ارمِه بالأركان، واترُك كل شيء، ولا تُحلِّل شيئًا، ولا تُحرِّم شيئًا، وكن طليقًا، وهذا - والعياذ بالله - هو غاية الزندقة والجحود.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٤٠٥- لَكِن جَعَلتَ حِجَابَ نَفسِكَ إذ تَرَى

فَوقَ السَّمَا للنَّاسِ مِن دَيَّانِ

٤٠٦-لَو قُلتَ مَا فَوقَ السَّماءِ مُدَبِّرٌ
وَالعَرشَ تُخلِيهِ مِنَ الرَّحمَنِ

٤٠٧-والله ليسَ مُكَلِّمًا لِعبَادِهِ
كَلَّا وَلاَ مُتَكَلِّمًا بِقُرَانِ

٤٠٨-مَا قَالَ قَطُّ ولا يقولُ ولاَ لَهُ
قَولٌ بَدَا مِنهُ إلَى إنسَانِ

٤٠٩-لَحَلَلتَ طِلّسمًا وَفُزتَ بكَنزِهِ
وعَلِمتَ أنَّ النَّاسَ فِي هَذَيَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني: لو قلتَ هذا القول، وأنكرتَ هذا الإنكار لحُزتَ على الصواب، وحَلَلتَ الطَّلَسَم؛ يعني: هذا الطَّلسَم المُعقَّد الذي ما يُدرَى الحق فيه، ما ندري الحق مع أهل السنة الذين يُسمِّيهم أهلُ التعطيل: مُجسِّمة، أو مع أهل التعطيل، إذًا نُنكِر.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤١٠-لَكِن زَعَمتَ بأَنَّ ربَّكَ بَائِنٌ
مِن خلقِهِ إذ قُلتَ مَوجُودَانِ

٤١١-وَزَعَمتَ أنَّ الله فوقَ العرشِ والـ
ـكُرسِيِّ حقًّا فوقَهُ القَدَمَانِ

٤١٢-وَزَعَمتَ أنَّ الله يَسمَعُ خلقَهُ
وَيَرَاهُمُ مِن فَوقِ سَبعِ ثَمَانِ

٤١٣-وَزَعَمتَ أنَّ كلاَمَهُ مِنهُ بَدَا

وإلَيــــهِ يَرجِـــعُ آخـــرَ الأزمَـــانِ

٤١٤-ووصَـفتَهُ بالسَّمعِ والبَصَرِ الـذِي
لا يَنبَغِـــي إلا لِـــذِي الجُثمَـــانِ

٤١٥-ووصَـــفتَهُ بِـــإرَادَةٍ وَبِقُـــدرَةٍ
وكَرَاهَـــةٍ ومحبَّـــةٍ وَحَنَـــانِ

٤١٦-وزَعَمـتَ أنَّ الله يعلَـمُ كُـلَّ مَـا
فـي الكَـونِ مِـن سِـرٍّ وَمِـن إعـلانِ

٤١٧-والعِلـمُ وصـفٌ زائِـدٌ عَـن ذَاتِـهِ
عَــرَضٌ يَقُــومُ بغَيــرِ ذِي جُثمَــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأشياء كلُّها من مذهب أهل السنة والجماعة، فنحن نُؤمن بأن الله بائنٌ من خلقه، ويكون ثَمَّ موجودان: خالق ومخلوق، ونؤمن بأن الله فوق العرش استوى عليه، وأنَّ الكُرسيَّ موضع القدَمَيْن، ونؤمن بأن الله تعالى يجمعُ خلقَه، ولو كانوا في قعر البحار، ونُؤمن بأن الله عز وجل يراهم من فوق سبع سماوات وهو على عرشه سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم، ونُؤمنُ بأن القرآن كلامُه منه بدأ وإليه يعود، منه بدأ؛ لأنه ابتدأ به والذي تكلَّمَ به ابتداءً، وإليه يعود في آخر الزمان كما ورَدَ في بعض الآثار أنَّه يُرفَع من المصاحِف والصُّدُورِ حتى يُصبِح الناس وليس بين أيديهم قرآن، ولا في صُدُورهم قرآن، وذلك حينما يُعرِضُ الناس عنه إعراضًا كليًّا لا تلاوةً ولا عملًا، ولا تصديقًا، فإن الله تعالى يُكرِمُ كلامه أن يبقى بين أُناسٍ هذه حالُهم، وهذا نظيرُ تسليط الحبشي على الكعبة يهدِمُها حجرًا حجرًا لا ينالُه سوءٌ، مع أن الله تعالى حماها من أبرهة ملك الحبشة حينما قدِمَ لهدم الكعبة، لكن في آخر الزمان يكون هتَكَ الناس حُرمَةَ هذا البيت وهو عندهم ليس بشيء، فإنه يُسلَّطُ عليه هذا الرجل الحبشي وينقُضه حجرًا حجرًا، حتى إن جنوده يتهادَّون أحجاره

من مكة إلى البحر.

ونُؤمن أيضًا بأن الله تعالى موصوفٌ بالسمع والبصر، لكن هو يقول: إن السمع والبصر لا يكون إلا لذي الجُثمان؛ يعني: لمن له جسم، وكذلك نُؤمن بأن من صفاته الإرادة، والقدرة، والإرادة والقدرة يؤمن بها أيضًا الأشاعرة، ويؤمنون بالسمع والبصر، لكن نُؤمن أيضًا بأن من صفاته الكراهة والمحبة، فهو يكره ويُحب، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[التوبة:٢٢٢]، ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤]، الكراهة والمحبة يُنكرها الأشاعرة وغيرُهم من أهل التعطيل، بماذا يُفسِّرونها ؟ إما بالمخلوق، وإما بالإرادة، يُفسِّرونها بالإرادة؛ لأنهم يُثبِتون الإرادة، فهم يقولون: إن الله يكره؛ أي: يُعذِّب الكافرين، أو يقولون: يُريدُ تعذيبَهم، ولا يُثبِتون الكراهة، ولكن نقول لهم: ماذا تقولون في قوله: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، هل يمكن أن يُفسَّر كرِهَ بمعنى: عذَّب ؟ عذَّبَ انبعاثهم ؟ ما يستقيم، أو أراد تعذيبَ انبعاثهم ؟ لا يستقيم.

قالوا: إن الأقل لا يدل عليه، لا يدل على أن الله يتصف بالكراهة.

نقول: الجواب من وجهين:

أحدهما: إذا فرَضْنا أنَّ العقل لا يدلُّ فإن السمع - يعني: الكتاب والسنة - دلَّ على ذلك، والدليل لا يتعيَّنُ بدليلٍ واحدٍ، قد يكون للشيء عدَّة أدلَّة، ولهذا من القواعد المعروفة عندهم أنَّ انتفاء الدليل المُعيَّن لا يستلزِمُ انتفاء المدلول، وإذا انتفى هذا الدليل لا يمتنع أن يُجاب على الشيء بدليلٍ آخر.

فمثلًا: كم لها من طرق كثيرة، إذا قدَّرنا أن هذا الطريق مقفول، هل معناه امتنع الوصول إلى مكة ؟ لا، هناك طرق أخرى.

فإذا قدَّرنا أن العقل - كما زعموا - لا يدل على الكراهة، فعندنا السمع.

الجواب الثاني: أن نقول: بل العقل يدل على ثبوت الكراهة لله، فإن انتقام الله تعالى من العاصين يدل على كراهة المعصية، ولو كان يُحبُّها هل يُعذِّبهم ؟ أبدًا، وكذلك نقول في المحبة، ولهذا الأشاعرة وغيرهم ممن يُحكِّمون العقل في صفات الله هم بلا شكٍّ مُخالِفون

للعقل، لأن كون العقل دليلًا لم يثبُت إلا بطريق السمع، فإذا أنكروا دلالة السمع لزِمَ إنكار دلالة العقل.

وجه كون العقل دليلًا دائمًا يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة:٥٨]، ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[النحل:١٣]، وما أشبه ذلك.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤١٨- وَزَعَمْـتَ أَنَّ اللهَ كلَّـمَ عَبـدَهُ
موسَـى فَاسـمَعَهُ نِـدَا الـرَّحمَنِ

٤١٩- أفتسمَعُ الآذانُ غيرَ الحرفِ وَالصْـ
ـصَـوتِ الَّـذِي خُصَّـت بـهِ الأذُنَـانِ

٤٢٠- وكَـذَا النِّـدَاءُ فَإنَّـهُ صَـوت بِإجـ
ـمَاعِ النُّحَـاةِ وَأهـلِ كُـلِّ لِسَـانِ

٤٢١- لَكِنَّـهُ صَـوتٌ رَفِيـعٌ وَهُـوَ ضِـدْ
دُ لِلنِّجَـاءِ كَلاَهُمَـا صَـوتَانِ

٤٢٢- فَزَعَمْـتَ أنَّ اللهَ نَـادَاه وَنَـا
جَـاهُ وَفِـي ذَا الـزَّعمِ مَحـذُورَانِ

٤٢٣- قُربُ المَكَانِ وَبُعدُهُ والصَّوتُ بَل
نَوعَـاهُ مَحـذُورَانِ مُمتَنِعَـانِ

٤٢٤- وَزَعَمـتَ أنَّ مُحَمَّـدًا أسـرَى بِـهِ
لَـيلًا إلَيـهِ فَهـوَ مِنـهُ دَانِ

٤٢٥- وَزَعَمـتَ أنَّ مُحَمَّـدًا يَـومَ اللِّقَـا
يُدنِيـهِ رَبُّ العَـرشِ بالرِّضـوَانِ

٤٢٦-حَتَّى يُرَى المُخْتَارُ حَقًّا قَاعِدًا
مَعَهُ عَلَى العَرْشِ الرَّفِيعِ الشَّانِ
٤٢٧-وَزَعَمتَ أنَّ لعرشِهِ أطًّا بِهِ
كالرَّحلِ أطَّ بِراكِبٍ عَجلَانِ
٤٢٨-وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ أبدَى بَعضَهُ
للطُّورِ حتَّى عَادَ كَالكُثبَانِ
٤٢٩-لَمَّا تَجلَّى يَومَ تَكلِيمِ الرِّضَا
موسَى الكلِيمِ مُكلَّمِ الرَّحمنِ
٤٣٠-وَزَعَمتَ لِلمعبُودِ وَجهًا بَاقِيًا
وَلَهُ يَمِينٌ بَل زَعَمتَ يَدَانِ
٤٣١-وَزَعَمتَ أنَّ يَدَيهِ للسَّبعِ العُلَى
والأرضِ يَومَ الحشرِ قَابِضَتَانِ[1]

---

(١) [٤٢٤ : ٤٣١] قال العلامة محمد خليل هراس:
وزعمت كذلك أن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم أسرى به ربه ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به إلى السماء حتى تجاوزها ووصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى، وأنه يدنيه كذلك يوم القيامة حين ينزل سبحانه لفصل القضاء بين عباده فيجلسه معه على العرش العظيم، وزعمت أن لعرشه سبحانه أطيطًا به، أي تويتًا كأطيط الرَّحل الجديد من ثقله كما روى الحديث بذلك عن عمر رضي الله عنه.
وزعمت أنه سبحانه وتعالى تجلى للجبل المسمى بالطور عندما سأله موسى عليه السلام الرؤية فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾، فلما تجلى سبحانه للجبل وظهر له من نوره مقدار أنملة أصبع ـ كما ورد في الحديث ـ لم يطق الجبل ذلك وصار كثيبًا مهيلًا وخر موسى صعقًا من هول الموقف، فلما أفاق قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.
وزعمت أن للمعبود سبحانه وجهًا باقيًا لا يفنى ولا يزول، أخذًا من قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وزعمت أن له يمينًا كما قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وكما قال عليه السلام «إِنَّ يَمِينَ الله مَلأى لَا تَغِيضُها نَفَقَةٌ سَحاء اللَّيلِ والنَّهارِ» بل زعمت أكثر من ذلك أن له يدين لقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ

٤٣٢- وزَعَمتَ أنَّ يمينَهُ مَلأى مِنَ الـ
ـخَيرَاتِ مَا غَاضَت عَلَى الأزمَانِ

٤٣٣- وَزَعَمتَ أنَّ العدلَ في الأخرَى بِهَا
رَفعٌ وَخَفضٌ وَهوَ بِالميزَانِ

٤٣٤- وَزَعَمتَ أنَّ الخَلقَ طُرًّا عِندَما
يَهتَزُّ فَوقَ أصَابِعِ الرَّحمنِ

٤٣٥- وَزَعَمتَ أيضًا أنَّ قَلبَ العبدِ مَا
بَينَ اثنَتَينِ مِنَ الأصَابِعِ عَانِ

٤٣٦- وَزَعَمتَ أنَّ الله يَضحَكُ عِندَمَا
يَتَقَابَلُ الصَّفَّانِ يقتَتِلَانِ

٤٣٧- مِن عَبده يَأتي فَيُبدِي نَحرَهُ
لِعَدُوِّهِ طَلَبًا لِنَيلِ جِنَانِ

٤٣٨- وَكَذَاكَ يضحَكُ عِندَمَا يَثِبُ الفَتَى
مِن فُرشِهِ لِتِلاوَةِ القُرآنِ

٤٣٩- وَكَذَاكَ يَضحَكُ مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ
إذ أجدَبُوا وَالغَيثُ مِنهُم دَانِ(١)

كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٤٦] وقوله لإبليس حين امتنع من السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وزعمت أنه يوم الحشر يجعل السموات في إحدى يديه وهي اليمين، ويجعل الأرض في الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ثم يقول: أنا الله، أنا الملك أين ملوك الأرض؟

(١) [٤٣٢: ٤٣٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

قوله وزعمت أن يمينه ملآى، البيت إشارة إلى الحديث السابق، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن يمين الله ملآى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار ألا ترون إلى ما أنفق منذ خلق السموات

٤٤٠- وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ يَرضَى عَن أُولي الـ
ـحُسنَى ويغضَبُ مِن أولي العِصيَانِ

٤٤١- وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ يَسمَعُ صَوتَهُ
يَومَ المَعَادِ بَعِيدُهُم والدَّاني

٤٤٢- لَمَّا يُنادِيهِم أنَا الدَّيَانُ لاَ
ظُلمٌ لَدَيَّ فَيَسمَعُ الثَّقَلاَنِ

٤٤٣- وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ يُشرِقُ نُورُهُ
فِي الأرضِ يومَ الفصلِ والميزانِ

٤٤٤- وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ يَكشِفُ سَاقَهُ
فَيَخِرُّ ذَاكَ الجمعُ للأذقَانِ

٤٤٥- وَزَعَمتَ أنَّ اللهَ يَبسُطُ كَفَّهُ
لِمُسِيئِنَا لِيَتُوبَ مِن عِصيَانِ

٤٤٦- وَزَعَمتَ أنَّ يَمِينَهُ تَطوِي السَّمَا

والأرض فإنه لم يبغض مما في يده».

وأما قوله في البيت بعده، وزعمت أن العدل في الأخرى بها خفض ورفع، فهو إشارة إلى قوله عليه السلام في الحديث الذي رواه أبو موسى رضي الله عنه «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه» وأما قوله: وزعمت أيضًا أن قلب العبد، البيت فهو إشارة إلى قوله عليه السلام: «إن قلوب بَنِي آدَم بَين أُصْبعَيْن مِن أَصَابِعِ الرَّحْمن يقلِّبُها كَيْفَ شَاءَ» ولذلك كان أكثر دعائه عليه السلام: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

وأما قوله وزعمت أن الله يضحك إلى آخر الأبيات فكلها إشارة إلى أحاديث وردت بإثبات صفة الضحك له سبحانه في هذه الأحوال وفي غيرها، كما في الحديث: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة» وكما في الحديث الذي أشار إليه بالبيت الأخير وهو قوله عليه السلام: «يضحك الله من قنوط عباده وقرب خيره ينظر إليهم أزلين قنطين يظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب».

طَـيِّ السِّـجِلِّ عَلَـى كِتَـابِ بَيَـانِ[1]

٤٤٧- وَزَعمتَ أَنَّ اللهَ يَنزِلُ في الدُّجَى
فــي ثُلــثِ لَيــلٍ آخِــرٍ أو ثــانِ

٤٤٨- فيَقُـولُ: هَـل مِـن سَـائِلٍ فَأُجِيبَـهُ
فَأَنَــا القَرِيــبُ أُجِيــبُ مَــن نَــادَاني

٤٤٩- وَزَعمـتَ أَنَّ لَــهُ نُــزُولًا ثَانِيًــا
يَــومَ القِيَامَــةِ لِلقَضَــاءِ الثَّــانِي

٤٥٠- وَزَعمــتَ أَنَّ اللهَ يَبــدُو جَهــرَةً

---

(١) [٤٤٠ : ٤٤٦] قال العلامة محمد خليل هراس:
قوله وزعمت أن الله يرضى، البيت إشارة إلى ما في الآيات والأحاديث من إثبات صفتي الرضى والغضب لله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] وهو في القرآن والسنة كثير. وقوله في البيت الذي بعده، وزعمت أن الله يسمع صوته، إشارة إلى ما ورد في الأثر من أن الله عز وجل ينادي يوم القيامة بصوت يسمعه أهل الموقف، فيقول: أنا الديان، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم.
وأما قوله: وزعمت أن الله يشرق نوره، البيت فهو إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] وقوله في البيت بعده: (وزعمت أن الله يكشف ساقه إلخ) فهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وقد جاء في الحديث أن الله عز وجل يكشف عن ساقه فيخر أهل الموقف سجدًا على الأذقان إلا المشركين فإنهم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون فتصير ظهورهم طبقًا واحدًا.
وقوله: (وزعمت أن الله يبسط كفه)، فهو إشارة إلى قوله عليه السلام: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». وقوله: (وزعمت أن يمينه إلخ)، البيت إشارة إلى قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ مع قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] والحاصل أن هذه الأبيات السابقة تضمنت إثبات صفات الرضى والغضب والنداء بالصوت والنور والساق والكف واليمين، وكلها صفات موجودة في المخلوق.

لِعبَادِهِ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٤٥١- بَل يَسمَعُونَ كَلامَهُ وَيَرَونَهُ
فَالمُقلَتَانِ إليهِ نَاظِرَتَانِ

٤٥٢- وَزَعَمتَ أنَّ لربِّنَا قَدمًا وَأنْ
ن الله وَاضِعُهَا عَلَى النِّيرَانِ

٤٥٣- فَهُنَاكَ يَدنُو بَعضُهَا مِن بَعضِهَا
وَتَقُولُ قَط قَط حَاجَتِي وَكَفَانِي(١)

٤٥٤- وَزَعَمتَ أن النَّاس يَومَ مَزِيدِهِم
كُلٌّ يُحَاضِرُ رَبَّهُ ويُدَانِي

---

(١) [٤٤٧ : ٤٥٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
قوله في البيت الأول: وزعمت أن الله ينزل في الدجى إلخ هو والبيت الذي بعده إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من داع فأستجيب له هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له؟ ولا يزال هكذا حتى يطلع الفجر» وقد ورد الحديث بعدة روايات بينها اختلاف يسير في الألفاظ مثل ذكر الشطر الأول بدل الثلث الآخر، والحديث صريح في إثبات صفة النزول فيجب الإيمان بها مع اعتقاد أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوقين فلا يقتضي هبوطًا ولا انتقالًا ولا شغل مكان وخلو آخر كما أن استواءه ليس كاستواء المخلوق فلا يقتضي مماسة ولا محايثة ولا اتكاء إلخ.
وأما قوله: (وزعمت أن له نزولًا ثانيًا) فهو النزول لفصل القضاء بين عباده وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله جل شأنه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وإذا نزل سبحانه هذا النزول فإنه يظهر لعباده جهرة ويرونه بأبصارهم ويسمعون كلامه، وقد جاء في الحديث «ما من عبد إلا ويكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه تَرْجُمانٌ» ولا ينافي هذا قوله سبحانه في شأن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] فإن المقصود من الآية الأولى أنهم يحجبون في النار عن النظر إلى وجه ربهم كما ينظر إليه أهل الجنة، والمقصود من عدم تكليمه إياهم أنه لا يكلمهم كلامًا يسرهم، ولكن كلام إهانة وتقريع، وأما قوله وزعمت أن لربنا قدمًا إلخ هذا البيت وما بعده إشارة إلى قوله عليه السلام: « ما تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك».

٤٥٥-بالحَاءِ مَع ضَادٍ وَجَامِعِ صَادِهَا
وَجهَانِ فِي ذَا اللَّفظِ مَحفُوظَانِ

٤٥٦-فِي التِّرمِذِيِّ وَمُسنَدٍ وَسِوَاهُمَا
مِن كُتبِ تَجسِيمٍ بِلاَ كِتمَانِ

٤٥٧-وَوَصفتَهُ بِصِفَاتِ حَيٍّ فَاعِلٍ
بالاختِيَار وذَانِكَ الأصلاَنِ

٤٥٨-أصلُ التَّفرُّقِ بينَ هَذَا الخَلقِ فِي الـ
ـبَارِي فكُن فِي النَّفي غيرَ جَبَانِ

٤٥٩-أو لاَ فَلاَ تَلعَب بِدِينِكَ نَاقِضًا
نَفيًا بإثبَاتٍ بِلاَ فُرقَانِ

٤٦٠-فَالنَّاسُ بَينَ مُعَطِّلٍ أو مُثبِتٍ
أو ثَالِثٍ مُتنَاقِضٍ صَفعَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

كلُّ ما ذُكِرَ فالمقصود به إثباتُ صفات الله.

وقولُ المؤلف: (زَعمتَ) هذا يقوله المُعطِّل يُنكِر على المُثبِت، وهذه الأشياء المزعومة كلها جاءت في الكتاب والسنة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والرضا عن المؤمنين، والغضب على الكافرين، وما أشبه ذلك، لكن كل هذه الأشياء منكرة عند أولي التعطيل لا يُثبِتونها، وهم فيها على مسلكَين هما:

المَسلكُ الأول: إذا أمكنهم أن يطعنوا في الأحاديث ويُكذِّبوها كذَّبوها؛ مثل: خبر الآحاد، يقولون: إنه لا تثبُتُ به العقائد، وهذه قاعدة باطلة مهدومة،

المسلك الثاني: وإذا لم يتمكَّنوا من الردِّ ذهبوا إلى التحريف، فهم لا يستطيعون أن

يقولوا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] إنها غير ثابتة، لكن يقولون بالتحريف.

فهم في النصوص المُثبِتة لهم طريقتان: طريقة الرد إذا أمكن، وإن لم يمكن فالتحريف، أما الإنكار المطلق فهذا لا يمكن في مثل القرآن والمتواتر؛ لأنه ثابت، لكن يقولون: نُحرِّف، المراد باليد: القوة أو النعمة، أمَّا نحن ما نُنكِر أنَّ لله يدًا، لكن ليست هي اليد المعروفة الحقيقية، وإذا سألناهم هل لله وجه؟ قالوا: نعم، له وجه، لكن ليس الوجه الحقيقي؛ بل المراد به الثواب مثلًا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ثوابه؛ لأن الجنة مؤبَّدة.

فالمهم: أن كل ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ: (وزعمتَ) كله صفاتٌ ثابتة لله عند أهل السنة والجماعة، لكن عند هؤلاء المُحرِّفة ليس بثابت، ومَسلكُهم في هذا أنه إن كان النص يمكن ردُّه ردُّوه، وقالوا: هذا خبر آحاد لا نقبله، وإذا كان لا يمكن حرَّفوه، وقالوا: المراد به كذا وكذا، هذه طريقتهم في النصوص.

ليس فقط في الصفات، حتى فيما يُخالِفُ قولَهم في العقائد الأخرى، مثلًا: الجبرية يُنكِرون كل حديث يُثبت للعبد إرادة حقيقية، وإذا أمكن أن يرُدُّوه ردُّوه، وإذا لم يمكن حرَّفوه.

فمثلًا: مُحاجَّة آدم لموسى[(١)]، القدَرية قالوا: هذا حديثٌ كذِب، ما يمكن، ولا نقبل أنَّ آدم يحتجّ بالقدر؛ لأنَّ الإنسان له إرادة، فهذا الحديث مُخالفٌ للعقل، وطريقُه آحاد، فلا نقبله، وردُّوه، والذي لا يمكن أن يرُدُّوه يُحرِّفونه، يقولون: المراد به كذا وكذا بناءً على أصول مذاهبهم.

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَزَعَمتَ أن النَّاس يَومَ مَزيدِهِم ... كُلٌّ يُحَاضِرُ رَبَّهُ ويُدَانِي
بالحَاءِ مَع ضَادٍ وَجَامِعِ صَادِهَا ... وَجهَانِ في ذَا اللَّفظِ مَحفُوظَانِ
في التِّرمِذِيِّ وَمُسنَدٍ وَسِوَاهُمَا ... مِن كُتبِ تَجسِيمٍ بِلاَ كِتمَانِ

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٤٠٩) من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الذي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ».

يعني: أنَّ لفظ الحديث جاء بهذا وبهذا.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤٦٠- فَالنَّاسُ بَينَ مُعَطِّلٍ أو مُثبتٍ
أو ثَالِثٍ مُتنَاقِضٍ صَفعَانِ

٤٦١- وَالله لَستَ بِرَابعٍ لَهُمُ بَلَى
إمَّا حِمَارًا أو مِنَ الثِّيرَانِ

٤٦٢- فَاسمَح بإنكَار الجَمِيعِ وَلاَ تَكُن
مُتَنَاقِضًا رَجُلًا لَهُ وَجهَانِ[1]

٤٦٣- أو لاَ فَفرِّق بَينَ مَا أثبتَّهُ
وَنَفَيتَهُ بِالنَّصِّ والبُرهَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُفهم من كلام المؤلف أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام في باب الصفات: مُثبِتٍ للجميع، أو نافٍ للجميع، والثالث مُتناقِض يُثبِتُ البعض وينفي البعض، ومن المعلوم أنَّ

(١) [٤٦٢] قال العلامة محمد خليل هراس:
يقول هذا الأحمق لصاحبه: إذا كان الناس قد افترقوا في ربهم إلى هذه المذاهب الثلاثة، فهم بين الإثبات والتعطيل والتناقض بإثبات البعض ونفي البعض، وكان العقل لا يطمئن إلى شيء منها، إذ الإثبات تجسيم والتعطيل جحد وإنكار لصريح النصوص، وإثبات بعضها دون البعض الآخر تناقض، فما عليك إلا أن تطيب نفسًا بإنكارها جميعًا، وأن تقنعها بهذا الإنكار، فإذا أبت نفسك عليك ذلك ولم تجبك إليه، فتخير من هذه المذاهب أبعدها عن التناقض وأقربها إلى النصوص وهو مذهب أهل الإثبات، حتى لا تعيش متناقضًا ذا وجهين أما إذا سمحت لنفسك أن تكون مع المعطلة النفاة أو مع الملفقة المتحذلقين فيجب عليك في كلتا الحالتين أن تقيم الدليل القاطع على أن ما نفيته مغاير لما أثبته، وأن هناك فرقًا بينهما، فإن الباب واحد في النفي والإثبات عند العقل وفي قانون المنطق.

هذا الثالث هم: الأشاعرة ومَن سلَكَ سبيلَهم، يثبتون لله تعالى بعض الصفات ويُنكِرون بعضًا مع إثباتهم الأسماء على أنهم في إثباتهم لهذه الصفات التي يُثْبِتونها لا يوافقون السلف فيما يُثْبِتونه، والذي يُثْبِتونه من الصفات سبق لنا بيانهم، وأنهم سبعٌ مجموعة في بيت ذكره السَّفاريني[1]:

لَـهُ الْحَيَاة والكَـلَام والبَصْرْ سَمْعٌ إِرَادْة وعِلْـمٌ واقتـدَر

والباقي لا يُثْبِتونه: الرحمة، والرضا، والغضب، والسَّخَط، والكراهة، والبُغْض، والمحبة، والوجه، وما أشبه ذلك، كلها عندهم ليست بثابتة لله على وجه الحقيقة، بل يجب عندهم أن يُؤَوَّل؛ لماذا ؟

لأن منهم من قال: لأن العقل لا يدلُّ عليه، ونحن لا نُثْبِت إلا ما دلَّ عليه العقل، ومنهم من قال: لأن إثباته يستلزم التجسيم؛ لأننا لا نُشاهِد ما يتَّصِف بذلك إلا ما هو جِسم، فإذا أثبتنا حقيقته لله لزِمَ أن يكون جسمًا، ثم قالوا: الأجسام مُتماثلة، وكل ما استلزم باطلًا فهو باطل؛ لأنَّ المُماثلة باطلة.

نقول لهم: ما دليلكم على إثبات العقل لهذه الصفات السبع، قالوا: الإيجاد يدلُّ على القدرة، وكل السماوات والأرض، والحيوان، والبشر، كله مُوجَد لله، فهو دليلٌ على القدرة، وهذا صحيح.

التخصيص يدلُّ على الإرادة؛ يعني: كون هذه سماء، وهذه أرض، وهذا إنسان، وهذا جمل، وهذه شمس، وهذا قمر يدلُّ على أن هناك إرادة فرَّقَتْ بين الموجُودِين، ولولا الإرادة لكان الخلق كلهم شيئًا واحدًا، إذًا تخصيص المخلوقات كل واحدٍ بما يختصُّ به دليلٌ على الإرادة.

فإذا نظرنا إلى هذه المخلوقات وجَدنا أنها مُحْكَمة مُتقنة ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، قالوا: إحكام هذه الأشياء وإتقانُ هذه الأشياء يدلُّ على العلم؛ لأن الجاهل لا يُتقِن، قالوا: فهذا الإتقان البديع، والإحكام يدلُّ على العلم.

فاجتمع عندنا الآن ثلاثة صفات، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، قالوا: وهذه الصفات لا تقوم إلا بحيٍّ؛ لأن الميت ليس عنده قدرة، ولا عنده إرادة ولا علم، إذًا نُثبِتُ

(١) هو العلامة محمد بن أحمد بن سالم السَّفاريني المتوفى عام ١١٨٨ هـ - صاحب العقيدة السفارينية.

صفة الحياة بهذه الطريقة؛ لأن من لازم كونه عليمًا قادرًا مُريدًا، أن يكون حيًّا.

فالحي إما أن يكون أعمى أصم أخرس، أو بصيرًا سميعًا مُتكلِّمًا، والأول ممتنع على الله، فبقي الثاني فلزِم الثاني، وهو أنه سميعٌ بصيرٌ مُتكلِّمٌ، وليتَهم قالوا: والمُريد إما أن يكون سفيهًا، وإما أن يكون حكيمًا، والأول ممتنع، فلزِمَ الثاني وهو الحكمة، لكن ما قالوا هذا، مع العلم أنَّ هذا من أظهر ما يكون، ولهذا يقولون: فعل الله، وحكم الله، وتشريع الله لغير حكمة، لكن لمُطلق الإرادة.

هذا دليل العقل بإثبات هذه الصفات السبع، ونرُدُّ عليهم بأشياء كثيرة:

أولًا: نقول: اعتمادُكم على العقل فيما يثبُت لله، ويُنفَى عنه هذا باطل من أصله؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، والصحابة، والأئمة من بعدهم ما جعلوا مدار هذه الأشياء كلها على العقل، فالاعتماد على العقل مُحدَثٌ بِدعيٌّ يؤدي إلى الضلال في هذه السمعيات، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «كل بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ، وكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»[1].

ثانيًا: اعتمادُكم على العقل مُخالِفٌ للعقل، لكن كيف يكون مخالفًا للعقل ؟ لأنه معلوم لكل أحد أنَّ طريق الإثبات في هذه الأمور هو السمع، فالعقل إذًا يؤيِّد أننا لا نعتمِدُ في إثبات هذه الأمور أو نفيِها إلا على السمع لا على العقل، فصار تحكيمُ العقل في هذه الأمور مخالفًا للعقل.

ثالثًا: يمكن أن نُثبِتَ ما نفيتموه بالعقل، كما أثبتُّم ما أثبتُّموه بالعقل، ونقول مثلًا: جَلْبُ النعم، ودفعُ النِّقَم دليلٌ على الرحمة، فلْتُثبَت، كما استدللتُم بالتخصيص على الإرادة.

ونقول: عُقوبة المجرمين، ومثوبة الطائعين دليلٌ على كراهة الأولين، ومحبة الآخرين، إذًا لا يمكن لشخصٍ أن يُمسِك إنسانًا ويجلِدَه ويضربه ضربًا مُبرِّحًا، ويقول: والله إني أحبك أكثر من الناس ـ وهو يضربك ـ فتلك العقوبة تدلُّ على الكراهة، لكن رجل يضرب شخصًا ضربًا مُبرِّحًا ويجلِده، ويقول والله إني أكرَهُك، هل صادقٌ أم لا ؟ صادق.

إنسانٌ آخر دعا شخصًا إلى بيته، وأكرمه غاية الإكرام، وألبَسَه من خير اللباس، وأركبَه من خير المركوب، وقال: تدري لما فعلتُ بك هذا، قال: نعم، قال: لأني أكرهُك، فهذا لا

---

(١) صحيح: رواه النسائي (١٥٧٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٣٥٣).

يمكن؛ إذًا مثوبة الطائعين، وعقوبة المجرمين دليلٌ واضح على أن الله يحب الأولين ويكره الآخرين.

فنقول لهم: يمكن أن نُثبِتَ ما نفيتموه بطريق العقل، كما أثبتُّم أنتم ما أثبتُّموه بطريق العقل؛ بل إن إثباتنا قد يكون أوضح.

رابعًا: أن نقول لهم: هَبْ أنَّ العقل لا يدلُّ على ما نفيتُم، أي: ما يدلُّ على إثبات الرحمة لله، أو إثبات الرضا أو الغضب، أو ما أشبه ذلك، ولكنَّ السمع أثبتَها، فإذا انتفى الدليل العقلي – على زعمكم –، فقد أثبتَه الدليلُ السمعي.

والقاعدة التي أطبق عليها جميع العُقلاء أنَّ انتفاء الدليل المُعيَّن لا يستلزم انتفاء المدلول؛ لأنَّ المدلول قد يثبُت بدليلٍ آخر، فهَبْ أنَّ هذا الدليل انتفى، لكن هناك دليلٌ آخر، وكما أنَّ هذا في المعقولات فهو أيضًا في المحسوسات، فإذا كانت هذه الصفات – كما زعمتُم – لا يدلُّ عليها العقل، فالسمع يدلُّ عليها، فوَجَبَ إثباتُها بالدليل السمعيّ القائم السالم عن المُعارِض المُقاوِم، فتبيَّن بهذا أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول لهؤلاء الجماعة: أنتم مُتناقِضون، والمُعتزلة أقرب منكم في القاعدة، فالمُعتزلة ينكِرون الصفات كلها، ما لله صفة، لا قدرة، ولا علم، ولا حياة، ولا حكمة، ولا كلام، أمَّا الجهمية يُنكِرون الأسماء والصفات، فالجهمية قالوا: دعونا من التناقُض ذلك، لا تقولوا: لماذا أثبتُّم الأسماء، ونفيتُم الصفات، وهؤلاء قالوا: نُنكِر الصفات، ونُثبِت الأسماء، والثالث: قالوا: نُثبِتُ الأسماء وبعض الصفات، ونُنكِرُ الباقي، وأهل السنة قالوا: نُثبِت كل ما أثبتَه الله لنفسه في كتابه أو على ألسنة رسله، وهذا هو الحق؛ لأن هذه الأمور غَيبيَّة لا تُدرَك بالعقل، فوَجَبَ تلقِّيها من الكتاب والسنة.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٤٦٥ – فَمَتَى أقرَّ بِبعضِ ذَلِكَ مثبتٌ
لَزِمَ الجَمِيعَ أو ائتِ بالفُرقَانِ

٤٦٦ – وَمَتَى نَفَى شَيئًا وأثبتَ مِثلَهُ

فمجسِّــــمٌ مُتَنَــــاقِضٌ دَيصَـــانِ(١)

٤٦٧- فذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بمذَاهِبِ الـ
قُـدَمَاءِ وانسَـلِخُوا مِـنَ الإيمَـانِ

٤٦٨- أو قَـاتِلُوا مَـع أمَّـةِ التَّشْـبِيهِ والتْـ
ـتجسيم تحـتَ لِـوَاءِ ذِي القـرآنِ

٤٦٩-أو لَا فَـلَا تَتَلاَعَبُـوا بِعُقُـولِكُم
وَكِتَـــابِكُم وَبِسَـــائِرِ الأديَـــانِ

٤٧٠-فَجَمِيعُهَـا قَـد صَـرَّحَت بِصِـفَاتِهِ
وَكَلاَمِــــهِ وعُلُــــوِّهِ بِبَيَــــانِ

٤٧١-وَالنَّـاسُ بَـينَ مصَـدِّقٍ أو جَاحِـدٍ
أو بَــينَ ذَلِــكَ أو شَــبِيهُ أَتَــانِ

٤٧٢-فَاصنَع مِنَ التَّنزِيه تُرسًا مُحكَمًا
وَانــفِ الجَمِيــعَ بِصَــنعَةٍ وَبَيَــانِ

٤٧٣- وَكَذَاكَ لَقِّب مَذهَبَ الإِثبَاتِ بِالتْـ
ـتَجسِيمِ ثُـمَّ احمِـل عَلَـى الأقـرَانِ

---

(١) [٤٦٥: ٤٦٦] قال العلامة محمد خليل هراس:
وكذلك يقال لمن يثبت الأسماء دون الصفات كالمعتزلة، أو يثبت بعض الصفات دون بعض كالأشاعرة، إذا كنتم تثبتون له سبحانه الأسماء دون الصفات أو بعض الصفات دون بعض مع أن كلًّا منهما مما يشاركه فيه المخلوق، فإن كان مجرد الاشتراك عندكم في الاسم أو في الصفة موجبًا للتشبيه فيجب أن تطردوا الباب على وتيرة واحدة في النفي ، وإن كان غير موجب لذلك فقولوا فيما نفيتم مما أثبته الله ورسوله نظير قولكم فيما أثبتموه، وإذًا فلا مناص من أحد أمرين: إما ترك المراء والجدل والتصريح بمذاهب قدماء الطبيعيين من الفلاسفة في جحد الصانع والانسلاخ من الإيمان أو الانضواء تحت لواء المجسمة أهل القرآن والقتال معهم، فهذا أولى من التلاعب بالعقول وبالنصوص وبما أجمعت عليه سائر الملل والشرائع من إثبات صفاته وكلامه وعلوه على خلقه ببيان شاف ولفظ صريح.

٤٧٤- فَمَتَى سَمَحتَ لَهُم بِوَصفٍ وَاحِدٍ
حَمَلُـوا عَلَيـكَ بِحَملَـةِ الفُرسَـانِ

٤٧٥- فَصُرِعت صِرعَةَ مَن غَدَا متلَبِّطًا
وَسَـطَ العَـرِينِ مُمـزَّقَ اللُّحمَـانِ

٤٧٦- فَلِذَاكَ أنكَرنَا الجَمِيعَ مَخَافَةَ التَّـ
ـجسِيمِ إن صِـرنَا إلـى القُـرآنِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأبيات في الردِّ على الأشاعرة الذين يُثبتون بعضًا وينفون بعضًا، يقول: كيف تُثبتُ شيئًا وتنفي مثلَه، والباب بابٌ واحدٌ، إما أن تُثبتَ الجميع، وإما أن تنفي الجميع، إذا أقرَّ ببعض ذلك مُثبتًا له لزِمَه الجميع، أو أن يأتي بالفرقان، فيقول: أثبتُّ كذا لكذا، ونفيتُ كذا لكذا، وقد سبق لنا أنَّ الأشاعرة لهم شُبْهة فيما أثبتوه، ولهم شُبْهة فيما نفوه، وسبق أنَّ شُبهَتهم التي احتجُّوا بها باطلةٌ من أربعة أوجه:

أولًا: الاعتماد على العقل غير صحيح.

ثانيًا: العقل يقتضي عدم الاعتماد على العقل.

ثالثًا: إذا قُدِّرَ أنَّ العقل لم يدلَّ، فقد دلَّ عليه السمع، وانتفاء الدليل المُعيَّن لا يستلزم انتفاء المدلول.

رابعًا: أن العقل قد دلَّ على ما نفوه بالعقل.

ويمكن أيضًا أن نستدلَّ على بُطلان مذهبهم بالتناقُض، فنقول: مذهبكم مُتناقِض إذ لا فرق بين ما نفيتُمُوه وأثبتُّموه، ونقول أيضًا: إن نفيَكم يلزمُ منه محذوران:

أولًا: أنكم فررتم مما أثبتَه الله لنفسه، ووقعتُم في نقيض ما فررتُم منه، ولكنَّكم على وجهٍ أقبح، وهو تحريفُكم للنصوص عن ظاهرها إلى هذا المعنى الذي أبدَيْتموه.

يقول المؤلف:

ومتى نفى شيئًا وأثبتَ مثلَه فمُجَسِّمٌ مُتَنَاقِضٌ دَيْصَـانِ

مُجسِّمٌ: ذلك من أجل الإثبات، مُتناقِضٌ: حيث نفى شيئًا قد أثبتَ مثلَه، أما كلمة (دَيْصَان) فهي لغة لا أعرف معناها، لكن أظن معناها: المُتذَبذِب الذي ليس عنده أساس.

يقول:

فذَرُوا المِرَاءَ وَصَرِّحُوا بمذَاهِبِ الـ ـقُدَمَاءِ وانسَلِخُوا مِنَ الإيمَـانِ

يعني: اتركوا المُجادلة ماذا يفعلون؟ يقول: (وصرِّحوا بمذاهب القدماء وانسلِخوا من الإيمان)، يقول: إذا كان الأمر على هذا الوجه، والعقيدة على هذا الوجه المُتناقِض فاتركوها، وانسلِخوا من الإيمان.

وبهذا نعرف ضلال مَن قال من الناس: إن الأشاعرة الذين حكَّموا العقل هم الذين سدُّوا الباب على الفلاسفة والمناطقة، أمَّا ابن القيم على العكس من هذا الرأي، حيث يرى أنَّ هؤلاء هم الذين فتحوا الباب للفلاسفة والمناطقة والمُلْحِدين، لأنهم قالوا: إذا كنتم متناقضين في عقيدتكم - وهذه عقيدة ما هو كلامٌ يُقال -، كيف تُثبِتون الإرادة وتنفون الرحمة، والباب واحد، إذًا هذه عقيدة باطلة مُتناقِضة لا نرضاها، فبماذا نرضى على زعمهم؟ الكفر؟! أم أن ننسلخ من الإيمان؟! وهذه بلا شك عقائد متناقضة فاسدة، وقالوا: ما نؤمن بشيءٍ أبدًا، فتبيَّنَ بهذا أنَّ تناقُضَ هؤلاء واضطرابهم هو الذي فتح للملاحدة الباب، فقالوا: إنَّ الإنسان يبني عقيدته التي عليها محياه ومماته على أمورٍ مُتناقِضة، فهذا لا يمكن.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

أو قَاتِلُوا مَـع أُمَّـةِ التشبيـه والتْـ ـتَجسيم تـحتَ لِـوَاءِ ذِي القرآنِ

من هم أمة التجسيم؟ أهل السنة، عند الأشاعرة يقولون: أنتم يا أهل السنة مُجسِّمة، أما الفلاسفة يقولون: لكم أمران: إما أن تنسلخوا من الإيمان، وإلا كونوا مع أهل التجسيم والتشبيه؛ لأن أهل التشبيه والتجسيم - أهل السنة على زعمهم - كلامهم متناقض، مضطرب.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

أو لاَ فَلاَ تَتَلاَعَبُوا بِعُقُولِكُم وَكِتَابِكُـم وَبِسَائِـرِ الأديَـانِ

فَجَمِيعُهَا قَد صَرَّحَت بِصِفَاتِهِ وَكَلامِهِ وعُلُوِّهِ بِبَيَانِ

يعني: إذا لم تكونوا مع أمة التشبيه، فأنتم مُتلاعِبون بكتابكم وعقولكم، وبسائر الأديان؛ لأنها كلها صرَّحَت بصفاته وكلامه وعُلُوِّه ببيان، ثم قال:

وَالنَّاس بَينَ مصدِّقٍ أو جَاحِدٍ أو بَينَ ذَلِكَ أو شَبِيهُ أَتَانِ

الناس أربعة أقسام؛ بين مُصدِّق: كأهل السنة، أو جاحِدٍ: كأهل التعطيل، أو بين ذلك: كالأشاعرة مُصدِّق ببعض، وجاحد ببعض، أو شبيه أتان: ما عنده عقيدة، حمار، ولهذا قال:

فَاصنَع مِنَ التَّنزِيه تُرسًا مُحكَمًا وَانفِ الجَمِيعَ بِصَنعَةٍ وَبَيَانِ

وَكَذَاكَ لَقِّب مَذهَبَ الإِثبَاتِ بِالتـ ـتجسِيمِ ثُمَّ احمِل عَلَى الأَقرَانِ

فَمَتَى سَمَحتَ لَهُم بِوَصفٍ وَاحِدٍ حَمَلُوا عَلَيكَ بِحَملَةِ الفُرسَانِ

خُذ من التنزيه - الذي هو الجحد - تُرسًا مُحكمًا، وقل نُنزِّه الله بأن نُثبِتَ له شيئًا؛ لأننا إذا أثبَتنا له شيئًا شبَّهْناه بالأجسام، (وانفِ الجميع)، يقول: ولا تسمح بالإقرار ولو بصفة واحدة؛ لأنك لو سمحتَ بصفة ألزموك بالباقي، وحملوا عليك - كما قال رَحِمَهُ اللهُ -، قال:

فَمَتَى سَمَحتَ لَهُم بِوَصفٍ وَاحِدٍ حَمَلُوا عَلَيكَ بِحَملَةِ الفُرسَانِ

فَصُرِعت صِرعَةَ مَن غَدَا متلَبِّطًا وَسطَ العَرِينِ مُمزَّقَ اللُّحمَانِ

فَلِذَاكَ أنكَرنَا الجَمِيعَ مَخَافَةَ التـ ـتَجسِيمِ إن صِرنَا إلَى القُرآنِ

وَلِذَا خَلَعنَا رِبقَةَ الأديَانِ مِن أعنَاقِنَا فِي سَالِفِ الأزمَانِ

هذا الكفر بالله عز وجل، وإنكارهم؛ لأنهم رأوا الناس على هذه الحال، وقالوا: يتخلَّى الناس من كل شيء.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٤٧٦- فَلِذَاكَ أنكَرنَا الجَمِيعَ مَخَافَةَ التـ

ـتَجسِيمِ إن صِرنَا إلَى القُرآنِ

٤٧٧- وَلِذَا خَلَعنَا رِبقَةَ الأديَانِ مِن

أعنَاقِنَـــا فِـــي سَـــالِفِ الأزمَـــانِ

٤٧٨- وَلَنَـا مُلُـوكٌ قَـاوَمُوا الرُّسـلَ الألَـى

جَـــاؤُوا بإِثبَـــاتِ الصِّـــفَاتِ كَمَـــانِ

٤٧٩- فـــي آلِ فِرعَـــونٍ وَقَـــارُونَ ونمـــ

ـــرُودٍ وهَامَـــانٍ وَجِنكِســـخَانِ

٤٨٠- وَلَنَـا الأئمَّـةُ كالفَلاَسِـفَةِ الألَـى

لَـم يَعبَـؤُوا أصـلًا بِـذِي الأديَـانِ

٤٨١- مِـنهُم أرسـطُوا ثُـمَّ شِـيعَتُهُ إلَـى

هَـــذَا الأوَانِ وعِنــدَ كُــلِّ أوَانِ

٤٨٢- مَـا فِـيهُمُ مَـن قَـالَ: إنَّ الله فَـو

قَ العَـرشِ خَـارِجَ هَـذِهِ الأكـوَانِ

٤٨٣- كَـلاَّ وَلاَ قَـالُوا بِـأنَّ إلهَنَـا

مُـتَكَلِّمٌ بِـالوَحيِ والقُـرآنِ

٤٨٤- وَلأجـلِ هَـذَا رَدَّ فِرعَـونٌ عَلَـى

مُوسَـى وَلَـم يقـدِر عَلَـى الإيمَـانِ

٤٨٥- إذ قَـالَ مُوسَـى رَبُّنَـا مُـتَكَلِّمٌ

فَـوقَ السَّـمَاءِ وَإنَّـهُ نَـادَانِي

٤٨٦- وَكَذَا ابنُ سِينَا لَم يَكُن مِنكُم وَلاَ

أتبَاعُـهُ بَـل صَـانَعُوا بِـدِهَانِ

٤٨٧- وَكَـذَلِكَ الطُّوسِـيُّ لَمَّـا أن غَـدَا

ذَا قُـدرَةٍ لَـم يَخـشَ مِـن سُـلطَانِ

٤٨٨- قَتلَ الخليفَـةَ والقُضَـاةَ وحَـامِلي الـ
ــــقُرآنِ والفُقَهَــاء فــي البُلــدَانِ (١)

٤٨٩- إذ هُــم مشَــبِّهَةٌ مُجَسِّــمَةٌ وَمَــا
دَانُــــوا بِــدِين أكَــابِرِ اليُونَـــانِ

٤٩٠- وَلَنَا الملاَحِـدَةُ الفُحُـولُ أئِمَّـةُ التْـ
تَــــعطِيلِ والسِّــكِّينِ آلُ سِــنَانِ

٤٩١- وَلَنَــا تَصَــانِيفٌ بِهَــا غَــالبتُمُ
مِثــلَ الشِّــفَا وَرَسَــائِلِ الإِخــوَانِ

٤٩٢- وَكَذَا الإشَـارَاتُ التي هِيَ عِندكُم
قَــد ضُــمِّنَت لِقَوَاطِــعِ البُرهَـــانِ

٤٩٣- قَد صَرَّحَت بالضِّدِّ مِمَّا جَاءَ فِي التْـ
ـــــوراةِ والإنجِيـــلِ والفُرقَــانِ

٤٩٤- هِيَ عِندَكُم مِثلُ النُّصُوصِ وَفوقَهَا

---

(١) [٤٨٦ : ٤٨٨] قال العلامة محمد خليل هراس:
وكذلك ابن سينا وهو الفيلسوف الإسلامي المشهور مؤلف كتاب «الشفاء» في الفلسفة. و«القانون» في الطب «والاشارات» وغيرها في المباحث العقلية لم يكن منكم يا معشر أهل الإثبات، ولا أتباعه في فلسفته كذلك، ولكنهم كانوا يصانعونكم بالمداهنة والحيلة حتى لا ينكشف أمرهم، ولا تعرف زندقتهم فابن سينا كان يتظاهر أمام العامة بأنه يريد أن يخدم الدين من طريق التوفيق بينه وبين الفلسفة اليونانية مع أنه في قرارة نفسه لا يحمل للدين أي قدسية وكل عنايته في كتبه، إنما كانت بتقرير نظريات أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان.
وكذلك الخواجة نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ كان من شيعة ابن سينا في الزندقة والتعطيل وكتبه ومؤلفاته مثل «المحاكمات» و«شرح المحصل» و«شرح الإشارات» شاهدة بزندقته وإلحادة، وكان شديد البغض والكراهية لأهل السنة والجماعة، وكان يضمر للدولة الإسلامية العداء والشر حتى يقال أنه هو الذي أغرى قائد التتر بغزو البلاد الإسلامية، وكان مساعدًا له في ذلك.
وهذا معنى قول المؤلف (لما أن غدا ذا قدرة لم يخش من سلطان. قتل الخليفة) يعني: الخليفة العباسي المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد، وقتل القضاة وحاملي القرآن والفقهاء في البلدان.

فِـــي حُجَّـــةٍ قَطعِيَّـــةٍ وَبَيَـــانِ

٤٩٥-وَإِذَا تَحَاكَمنَـــا فَـــإِنَّ إِلَـــيهِمُ
يَقَـــعُ التَّحَـــاكُمُ لاَ إِلَـــى القُـــرآنِ

٤٩٦-إذ قَـــد تَسَـــاعَدنَا بِـــأَنَّ نُصوصَـــهُ
لَفظِيَّـــةٌ عُزِلَـــت عَـــنِ الإِيقَـــانِ

٤٩٧-فَلِـــذَاكَ حَكَّمنَـــا عَلَيـــهِ وأنـــتُم
قَـــولَ المعَلِّـــمِ أولًا والثَّـــانِي[1]

٤٩٨-يَا وَيحَ جَهمٍ وابنِ دِرهَمَ والأُلَى
قَـــالُوا بِقَولِهِمَـــا مِـــنَ الخَـــوَرَانِ

٤٩٩-بَقِيَـــت مِـــنَ التَّشـــبِيهِ فِيـــهِ بَقِيَّـــةٌ
نَقَضَـــت قَوَاعِـــدَهُ مِـــنَ الأَرْكَـــانِ

٥٠٠-يَنفِـي الصِّـفَاتِ مَخَافَـةَ التَّجسِـيمِ لاَ
يَلـــوِي عَلَـــى خَبَـــرٍ وَلاَ قُـــرآنِ

٥٠١-ويقُـــولُ إِنَّ اللهَ يَســـمَعُ أو يَـــرَى
وكَـــذَاكَ يَعلَـــمُ سِـــرَّ كُـــلِّ جَنَـــانِ

---

(١) [٤٩٤ : ٤٩٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
ومن العجيب أن هؤلاء الملاحدة أشياع هذا الفيلسوف يقدسون هذه الإشارات ويجعلونها في مرتبة النصوص القرآنية، بل فوقها في إفادة الحجج القاطعة التي يسمونها البراهين، وإذا تحاكموا في مسألة من المسائل الإلهية، فإنما يرجعون إليها ويحكمونها دون كتاب الله عز وجل، لأنهم زعموا وبئس ما زعموا أن نصوص القرآن لفظية، ودلالة الألفاظ عندهم ظنية، فنصوص القرآن عندهم بمعزل عن إفادة اليقين ولهذا نراهم لا يأخذون عقائدهم من القرآن، ولا يعتمدون على أدلته في إثبات العقائد؛ لأن المطلوب في العقائد هو الجزم واليقين، وأدلة القرآن عندهم خطابية لا تنتج اليقين، وإنما قصارها أنها تفيد الإقناع والتأثير، فهي لا تفيد إلا غلبة الظن، وذلك غير كافٍ في الاعتقاد، ومن أجل هذا اتبعوا أنفسهم في تركيب الأدلة العلية المثبتة للعقائد الإيمانية، وما هي في الواقع إلا ترهات وأباطيل إلا ما يرجع منها إلى أدلة القرآن البينة الواضحة.

٥٠٢- ويقُــولُ إنَّ اللهَ قَــد شَــاءَ الَّــذِي
هُــوَ كَــائِنٌ مِــن هَــذِهِ الأكــوَانِ

٥٠٣- وَيقُــولُ إنَّ الفِعــلَ مقــدُورٌ لَــهُ
وَالكَــونَ يَنسِــبُهُ إلَــى الحِــدثَانِ

٥٠٤- وبِنَفيهِ التَّجسِيمَ يَصرخُ في الوَرَى
واللهِ مَــا هَــذَانِ يتَّفِقَــان

٥٠٥- لَكِنَّنَــا قُلنــا مُحَــالٌ كُــلُّ ذَا
حَــذَرًا مِــنَ التَّجسِــيمِ وَالإمكَــانِ[1]

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على مذاهب هؤلاء المُعطِّلة، وذكر مُستنداتهم من القائلين، والكتب التي حدَّدها، وأئمتهم، وقال: إنهم نفَوا الصفات مخافة التجسيم، فهم في الحقيقة وقعوا في التجسيم، ووقعوا في التشبيه؛ لأنهم ظنُّوا أنَّ مدلول النصوص هو التجسيمُ والتشبيه، لَمَّا ظنُّوا هذا الظنَّ صاروا ينفون ذلك، وقالوا: إنه لو ثبَتَ أنَّ له كذا لكان هذا

(١) [٤٩٨: ٥٠٥] قال العلامة محمد خليل هراس:
يتحسر هذا الملحد على اثنين من أسلافه، وهما الجهم بن صفوان والجعد بن درهم ومن ذهب مذهبهما حيث منعهم الجبن والخور من التصريح بالنفي والإنكار، فبقيت فيهم بقية من تشبيه أتت على مذهبهم من القواعد، فهم ينفون الصفات مخافة التجسيم دون أن يكترثوا لما جاء من النصوص في الكتاب والسنة بإثباتها، ثم هم مع ذلك يثبتون له السمع والرؤية والعلم بما تخفيه الصدور وتسره القلوب، ويثبتون له كذلك المشيئة العامة والقدرة الشاملة فلا يخرج كائن عندهم عن مشيئته، ولا يحدث إلا بقدرته، ويقولون إن الفعل مقدور له، فكيف يتفق هذا الإثبات مع تصريحهم بنفي التجسيم والله ما هذان متفقان.
ولكنا نحن لم نتردد كما تردد جهم، ولم نجبن عن التصريح بالنفي الشامل فلم نثبت لا سمعًا ولا بصرًا، ولا علمًا ولا كلامًا، ولا مشيئة ولا قدرة على الفعل، ولا قلنا بحدوث العالم عن مشيئته وقدرته، بل قلنا: إن كل ذلك محال حذرًا من الوقوع في التجسيم والإمكان.

جسمًا، والأجسام مُتماثلة، فنقول: أنتم الآن فهِمتُم النصوص على وجه التجسيم والتمثيل، وهذا خطأ، فالنصوص ما دلَّتْ على هذا، وإنَّما دلَّتْ على صفاتٍ لله عز وجل تليق به، ولا تُماثِل صفات المخلوقين؛ وذلك لأن الصفة تابعةٌ للموصوف، فأنت إذا أردتَ أن يصفه إلى موصوفها فإن ذلك يمنع أن تكون مثل الصفة المُضافة إلى موصوفٍ آخر؛ لأنها مُقيَّدة، نقول مثلًا: وجه الله، ولم نقُل: وجه، وإطلاقنا وجه الله يكون لائقًا بذاته، كما لو قلت: وجه الفرس، أو وجه الهِرّ، هل تفهم من قولك: وجه الفرس أنه مثل وجه الهِرّ ؟ أبدًا؛ لأنَّ هذا ليس وجهًا مطلقًا، بل وجهًا مُضافًا، فالصفات إذًا إثباتُها لا يستلزمُ التمثيل أبدًا، وجه ذلك: أنها صفات مُضافة إلى الله، أو إلى موصوفٍ مُعيَّن، والصفات تتبع الموصوف، ولا يمكن أن يفهم أحدٌ من الناس أن صفات أحد الحيوانات كصفات الحيوان الآخر؛ لأنهما من غير الجنس، لكن لو قلت: يد فلان ويد فلان، نفهم التمثيل أم لا ؟ تفهم؛ لأن الجنس واحد، والاختلاف هنا بالعين، أما الخالق والمخلوق فبينهما أكبر من أي بينونيَّة فيما بين المخلوقات بعضها مع بعض، فإذا كانت المخلوقات بعضها مع بعض مُتباينة مُتفرِّقة، فالبَيْن والتفرُّق بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في قدوم رَكْب الإيمان وعسكر القرآن

ذكر المصنف أن هذا الركب لما قدموا من سفرهم، وعرضوا بضاعتهم وتجارتهم فأخبروا أن مذهبهم مبني على الحق والصدق واليقين، مؤسس على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان من القرون المفضلة، ومع ذلك فهو الحق الذي يؤيده العقل الصريح ويعترف به أولوا الألباب، والعقول الوافية لما كانت مبنية على هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم، لم يتفرع عنها إلا كل خير مُزَكٍّ للنفوس مصلح للعقائد منمٍّ للأخلاق الفاضلة مكمل للأعمال الصالحة، وهاك تفصيل عقيدتهم:

فإنهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الله متفرد بالخلق والملك والسلطان والتدبير، فليس له في ذلك شريك ولا عوين، وأنه الإله الحق الذي لا معبود سواه، وأن كل من عبد من دونه من ملك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك، ويقومون بعبودية ربهم بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، يخلصونها لله، ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذُّل الكامل، فإن عبادة الله مبنية على هذين الأصلين:

الإخلاص والمتابعة الناشئين عن محبة الله وتعظيمه. فعبودية الله الظاهرة والباطنة تدور على هذا، ولا نجاة ولا فلاح إلا بذلك.

ويرون أعظم التقربات إلى الله الجد في إحسان الأعمال وإكمالها وإيقاعها على أكمل الوجوه، مع استحضار مقام المراقبة لله وقت تلبس العبد بها ، فيجتهدون في اتقان العمل وتنقيته من جميع المنقصات، ويعلمون أن هذا مراد الله من عباده كما قال تعالى:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

ويُقِرُّون ويعتقدون بجميع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته وأفعاله، ويقولون إنه عليٌّ على خلقه، مستوٍ على عرشه، يدبِّرُ أمر العباد ويراهم ويسمعهم ويشاهد حركاتهم وسكناتهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى خائنة الأعين ويعلم ما تخفي الصدور، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين، وهو العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا فيعلم ما توسوس به الصدور، والخفيات والجليات من الأمور، وما فوق السماوات السبع وتحت الأرضين السبع، والقريب والبعيد عنده سواء، ويعلم العالم العلوي والسفلي وما احتوت عليه من أصناف المخلوقات.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو القدير على كل شيء، فجميع الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيئته، لا تستعصي عليه ولا تمتنع منه.

قالوا: وهذا العموم يتناول كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، فيدخل في ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي فإنها داخلة تحت قدرة الله ومشيئته، وكما أنه المريد لها القادر عليها فإنهم هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم، كما جمع الله بين هذين الأصلين في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩].

لكن الجبرية والقدرية لم يوفقوا للجمع بين إثبات القدر والقضاء وبين إثبات أفعال العباد، فالجبرية تقدم مذهبهم أنهم يثبتون القدر وعمومه ويعتقدون أنهم مجبورون مقهورون على أفعالهم وقابلهم القدرية النفاة فزعموا أن قدرة الله لا تتناول أفعال العباد، وكل من الطائفتين نظرت نظرًا قاصرًا، فلم يؤمنوا بالكتاب كله الدَّالُّ على إثبات عموم قضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن الأفعال واقعة من العباد بقدرتهم ومشيئهم، فلو وفقوا

لذلك كما وُفِّقَ له أهل السنة والجماعة لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله: «القدر هو قدرة الله» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد وقال: إنه شفى بهذه الكلمة ووفى، فإن هذه الحقيقة هي التي افترق الناس فيها كما تقدم التفصيل.

والحاصل أن أهل السنة: أثبتوا عموم قدرة الله وتمام حكمته وشرعه وقدره، ويعتقدون أنه الحي القيوم، فالحي: له صفات الحياة كلها من السمع والبصر والعلم والقدرة وغير ذلك من المعاني العظيمة والنعوت الكاملة التي لا تتم الحياة الكاملة بدونها، وإثباتها لله على أكمل الوجوه، فلا يعرض لها ما يضادها من الموت والنوم والسِّنَة والعجز والنقص بوجه من الوجوه. والقيوم :الذي له العظمة كلها، الذي قام بنفسه وقام به كل شيء. الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون. وكل الصفات الفعلية والمجد والعظمة والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين. ولذلك ورد الحديث أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئِل به أعطى.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

لاشتمالها على جميع الكمالات، فصفات الذات ترجع إلى (الحي) ومعاني الأفعال ترجع إلى (القيوم). ويعتقدون أن له الإرادة النافذة في جميع الموجودات، وبها خصص ما شاء من المخلوقات بالصفات المتباينة والنعوت المتنوعة، وأنه يحب الصالحين من عباده، المتقين المحسنين، ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الكفر والفسوق وأهلهما، وأن إرادته ومشيئته غير كراهته ومحبته، فالإرادة عامة لكل ما وجد من محبوب ومكروه، والمحبة والكراهة خاصتان كما تقدم، وأن له الرحمة الواسعة والإحسان العظيم الذي ملأ جميع المخلوقات، فهو الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، وله الكمال المطلق التام الذي لا يعتريه نقص ولا يشابهه ولا يماثله أو يقاربه في كماله أحد، فإنه الكامل الذي ليس كمثله شيء في كماله وتفرُّده به. ومن الأدلة العقلية على كماله أنه تعالى خلق أجناس المخلوقات وأودعها ما اقتضته حكمته وحمده من الكمال اللائق بها، ومن أعطى الكمال فهو أحق بالكمال من المعطى، وهذا بخلاف اللوازم البشرية اللازمة لنقص البشر التي لا ينفك الإنسان عنها، كالنوم والأكل والشرب والجماع والحاجات ونحوها من لوازم المخلوق المحدث،فإن الله

يتقدس عنها ويتنزه عن جميع خصائص البشر.

ومن قول أهل السنة والجماعة قولهم في الكلام بأن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا، فإن الكلام من صفات الكمال، والله تعالى لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق فكلامه القرآن هو المقروء بالألسنة المحفوظ في الصدور المسموع بالآذان، وكلامه من جملة صفاته الفعلية، فهو متصف به، وهو متعلق بمشيئته وقدرته، وليس مخلوقًا لأن الكلام صفة المتكلم:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام١١٥].

صدقًا في أخبارها وعدلًا في أحكامها وأوامرها ونواهيها، وكلماته لا تنفد ولا تبيد:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان٢٧]

وهذا الوصف لا يكون للمخلوق، والنبي ﷺ قد استعاذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وهذا يدل على أنه من صفاته، لأن كل مخلوق ينفد ويبيد، والمخلوق لا يستعاذ به وإنما يستعاذ بالله وأسمائه وصفاته، والقرآن كلام ا لله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه، وأما أفعال العباد كأصواتهم ومِدادهم الذي به يكتبون القرآن والرق الذي يكتبون عليه فإن ذلك من جملة المخلوق، ولذلك يقولون الكلام كلام الباريء والصوت صوت القاريء والمداد مداد الكاتب والكتابة فعل الكاتب، هذا كله إذا أخبر عن كلام الله الذي يكون بهذه الوسائط، فأما إذا سمع من الله تعالى كما سمعه موسى بن عمران فإن المخلوق في هذه الحال هو سمع العبد، وأما الكلام وصوت المتكلم به فإنه من نعوت الله وصفاته، وهذا الفرق ثابت عن الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة، واتفق على ذلك أصحابهم وأتباعهم، وخالفهم في هذا طائفتان من الناس إحداهما الجهمية كما تقدم قولهم إن القرآن مخلوقٌ ألفاظه ومعانيه. والثانية الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية القائلين بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعان: فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة في النفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلًا، وهذا القول تصوُّره كافٍ بمعرفة بطلانه، وليس لهم دليل ولا شبهة على هذا القول الذي لم يقله

أحد غيرهم إلا استدلالهم ببيت يقال إنه للأخطل النصراني وهو قوله إن ثبت وإلا فكثير من النحويين ينكرون أنه له:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلًا

وهذا البيت معروف معناه، وأن الكلام يخرج من القلب ويعبر عنه اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط فهذا يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما؛ وهَبْ أنه دلَّ على القول الذي قالوه فكيف يتركون لأجله أدلة الكتاب والسنة، والذي يعقله العقلاء بعقولهم أن الكلام صفة للمتكلم، وأنه الكلام المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمعى كلامًا بوجه من الوجوه، وأيضًا فإن النصارى غلطهم في الأصول والفروع معروف فإنهم غلطوا في معنى الإله أظهر الأشياء وأجلاها حيث قالوا في وصف المسيح أقوالًا عظيمة وافتراء كبيرًا فزعموا أن في عيسى وصفين متباينين كل المباينة: وصف الإلهية وهي المعبر عنها عندهم باللاهوت ووصف الإنسانية وهي المعبر عنها عندهم بالناسوت، فهو عندهم قديم محدث بما فيه من هذين الوصفين. وقول الكلابية من هذا الجنس أن القرآن شطره قديم وهو المعنى النفسي وشطره محدث وهو هذا الموجود في المصحف، فهو عندهم عبارة أو حكاية عن كلام الله، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول وبين بطلانه في «رسالته التسعينية»، فبين تسعين وجهًا كل واحد منها يدل على بطلانه أدلة نقلية وأدلة عقلية، وبعض هؤلاء الكلابية والأشعرية قالوا إنه خمسة معان: الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي، والإخبار بكل خبر ، والاستفهام عن المعاني، ومجموع هذه وهو المعنى الخامس. فتكون هذه أنواعًا للكلام، وعلى قول الأولين تكون أوصافًا له، ولكن اتفقت الطائفتان أن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ وبلَّغه محمد أمته مخلوق كقول المعتزلة سواء، فمنهم من قال خلقه في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال إن جبريل ألهمه إلهامًا، ومنم من قال بل محمد، وهذا القول كما قال من اعترف منهم أنه لا فرق بينه وبين قول المعتزلة إلا في اللفظ، وإلا فهو معنى قولهم، وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة: أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق، نزل به جبريل من عند الله وسمعه من الله، فنزل به على محمد ﷺ، فهو كلام الله حقًا حيث تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون، وهو المعجز بلفظه ومعناه.

❀ ❀ ❀

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في قدوم ركب الإيمان وعسكر القرآن

٥٠٦-وَأتَى فَرِيقٌ ثُمَّ قَالَ ألاَ اسمَعُوا
قَـد جئـتُكُم مِـن مَطلَـعِ الإِيمَـانِ

٥٠٧-مِن أرضِ طَيبَةَ مِن مُهَاجَرِ أحمَدٍ
بـالحقِّ والبُرهَـانِ والتِّبيَـانِ

٥٠٨-سافرتُ في طَلَبِ الإِلَـهِ فَدَلَّني
الهَـادِي عَلَيـهِ ومُحكَـمُ القُـرآنِ

٥٠٩-مَع فِطرَةِ الرَّحمَنِ جَلَّ جَلاَلُهُ
وَصَـرِيحِ عَقـلٍ فَـاعتَلَى بِبَيَـانِي

٥١٠-فَتَوافَقَ العقلُ الصَّرِيحُ وَفِطرَةُ الرَّ
حمَـنِ والمنْقُـولُ فـي إيمَـانِي

٥١١-شَـهِدُوا بـأنَّ الله جَـلَّ جَلاَلُـهُ
مُتَفَـرِّدٌ بِالمُلْـكِ والسُّـلطَانِ

٥١٢-وَهُـوَ الإِلَـهُ الحَـقُّ لاَ مَعبُـودَ إلاَّ
وَجهُـهُ الأعلَـى العَظِـيمُ الشَّـانِ

٥١٣-بَـل كُـلُّ مَعبُـودٍ سِـوَاهُ فَبَاطِـلٌ
مِـن عَرشِـهِ حَتَّـى الحَضِـيضِ الـدَّانِي

٥١٤-وَعِبَـادَةُ الـرَّحمنِ غَايَـةُ حُبِّـهِ

مَـــع ذُلِّ عَابِـــدِهِ هُمَـــا قُطبَـــانِ

٥١٥-وَعَلَيهِمَـــا فَلَـــكُ العِبَـــادَةِ دَائِـــرٌ

مَـــا دَارَ حَتَّـــى قَامَـــتِ القُطبَـــانِ

٥١٦-ومَـــدَارُهُ بـــالأمرِ أمـــرِ رسُـــولِهِ

لاَ بِـــالهَوَى والـــنَّفسِ والشَّـــيطَانِ

٥١٧-فَقِيَـامُ دِيـنِ الله بـالإخلاَصِ وَالــ

إحسَـــانِ إنَّهُمَـــا لَـــهُ أصـــلاَنِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكَرَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فصل قُدُوم ركْبِ الإيمان وعسكر القرآن)، وذَكَرَ أنَّ هذا الرَّكْب جاء من أرض طَيْبَة، من المدينة مُهَاجَر أحمد عليه الصلاة والسلام، وأنَّه طلب منَّا أن نستمع إليه في شرح مذهبه الذي هو عليه، وبيَّنَ أنَّ مذهبه مبنيٌّ على القرآن والسنة والعقل والفطرة، وأن هذه الأربعة كلها توافقَت عليه، شهِدُوا بأنَّ الله سبحانه وتعالى واحد مُنفرِدٌ بالمُلْك والسلطان والألوهية، وأنَّ عبادته سبحانه هي الحق، وما سواه فهي عبادةٌ باطلة، كما قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢]، وذكر أن عبادة الله مبنيَّةٌ على أصلَيْن تدور عليهما: غاية الحب، وغاية الذُّل من الإنسان؛ يعني: أن يكون مُحبًّا لله عز وجل، طالبًا الوصول إليه، وبتحقُّق هذا الحب والأصل يندفع الإنسان إلى فعل المأمورات؛ لأنه يطلب حبيبًا، وطالبُ الحبيب يسعى إلى الوصول إليه بكل طريق، الذُّل يستلزمُ الخوف من الله عز وجل، وبناء العبادة على الخوف من الله يستلزمُ الهرب من نواهيه؛ لأنَّ الإنسان يخشى إذا وقع في المناهي أن يأخُذَهُ الله تعالى بذنبه، فإذا اجتمع في قلب الإنسان المحبة التامة لله مع التعظيم استقام تمامًا على شرع الله؛ لأنه بحبِّه لربِّه يطلبُ ربَّه، وبتعظيمه لله يخاف منه، فيكون فاعلًا للمأمور تاركًا للمحذور، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومَدَارُهُ بالأمــرِ أمــرِ رسُولِــهِ لاَ بِالهَوَى والنَّفسِ والشَّيطَانِ

فَقِيَامُ دِينِ الله بالإخلاَصِ وَالــ إحسَانِ إنَّهُمَــا لَــهُ أصــلاَنِ

مدارُه بأمر الله ورسوله، هذه الرَّحَى يُديرها أمرُ الله ورسوله، فإذا قال: افعل دارَت، وإذا قال: لا تفعل، وقفَت، فهذا هو في الحقيقة حقيقةُ العبادة، أن تعبُدَ الله عز وجل بغاية الحب، وبغاية الذل.

والمستكبر عن عبادة الله؛ هل يمكن أن يعبد الله ؟ لا ؛ لأنه لا يعبده ولا يذل له أبدًا؛ بل من رأى نفسَه استغنى عن الله فإنه لن يعبُدَ الله، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦-٧]، وأكثر الناس الذين أُترِفوا في الدنيا يرَون أنهم استغنوا، وأن هذا هو الغاية التي يقصدونها، ومن ثَمَّ جاءت النصوص بالحَذَر من الترف في الدنيا والتنعُّم فيها، لا بما أباحه الله منها، فإن الله يحب أن نفعله وأن نأتيه، لكن الانغماس في الترف حتى يكون الإنسان كأنَّما خُلِقَ لِيُترِف نفسَه، هذا لا شكَّ أنه سوف يكون في قلبه من الاستكبار عن عبادة الله بقدر ما في قلبه من عبادة الدنيا.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥١٨-لَم يَنجُ مِن غَضَبِ الإلَهِ وَنَارِهِ
إلاَّ الَّــذِي قَامَــت بِــهِ الأصــلاَنِ

٥١٩-وَالنَّــاسُ بَعــدُ فَمُشــرِكٌ بإلهِــهِ
أو ذُو ابتِــدَاعٍ أو لَــهُ الوَصــفَانِ

٥٢٠-واللهُ لا يَرضَــى بِكَثــرَةِ فِعلِنَــا
لَكِــن بِأحسَــنِهِ مَــعَ الإيمَــانِ

٥٢١-فالعَــارِفُون مُــرادُهُم إحسَــانُهُ
والجَــاهِلُونَ عَمُــوا عَــنِ الإحسَــانِ[1]

(١) [٥١٨: ٥٢١] قال العلامة محمد خليل هراس:
والحاصل أن العبادة لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا إذا توافر لها شرطان: الإخلاص والمتابعة

٥٢٢- وَكَذَاكَ قَد شَهِدُوا بِأَنَّ اللهَ ذُو
سَمعٍ وَذُو بَصَرٍ هُمَا صِفَتَانِ
٥٢٣- وَهُوَ العَلِيُّ يَرَى وَيسمَعُ خَلقَهُ
مِن فَوقِ عَرشٍ فَوقَ سِتِّ ثَمَانِ
٥٢٤- فَيرى دَبِيبَ النَّملِ في غَسَقِ الدُّجَى
وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأجفَانِ
٥٢٥- وَضَجِيجُ أصوَاتِ العِبَادِ بِسَمعِهِ
وَلَدَيهِ لاَ تَتَشَابَهُ الصَّوتَانِ
٥٢٦- وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا يُوَسوِسُ عَبدُهُ
فِي نَفسِهِ مِن غَيرِ نُطقِ لِسَانِ
٥٢٧- بَل يَستَوِي في عِلمِه الدَّانِي مَعَ
قَاصِي وَذُو الإِسرَارِ والإِعلاَنِ
٥٢٨- وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا يَكُونُ غَدًا وَمَا
قَد كَانَ وَالمعلُومُ فِي ذَا الآنِ
٥٢٩- وَبِكُلِّ شَيءٍ لَم يَكُن لَو كَانَ كَيـ
ـفَ يَكُونُ موجُودًا لِذِي الأعيَانِ(١)

لرسول الله ﷺ، فلا منجاة لأحد من غضب الله وناره إلا إذا قامت عبادته على هذين الأصلين، إخلاص بريء من سائر ألوان الشرك من الرياء وغيره، وموافقة للسنة بلا ابتداع، والناس بعد هذا فإما مشرك لا يخلص العبادة لله، وإما ذو بدعة لا يتوخى في عبادته إصابة السنة، وإما جامع للوصفين معًا، وليست العبرة بكثرة العبادة والانهماك فيها، ولكن بتوخي الإحسان مع ابتنائها على الإيمان الصحيح، وهذا هو ما يطلبه أهل المعرفة ويجدونه فيه. وأما أهل الجهل والحماقة فهم بمعزل عن طلب الإحسان.

(١) [٥٢٢: ٥٢٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

يعتقد أهل السنة والجماعة بأن الله سميع بسمع، هو صفة له قائمة بذاته، وأنه كذلك بصير ببصر زائد

٥٣٠-وَهُوَ القَدِيرُ فَكُلُّ شَيءٍ فَهوَ مَقـ
ـدُورٌ لَـهُ طَوعًـا بِـلاَ عِصيَانِ

٥٣١-وَعُمُـومُ قُدرَتِـهِ يَـدُلُّ بِأَنَّـهُ
هُـوَ خَـالِقُ الأفعَـالِ للحَيَـوَانِ

٥٣٢-هِـيَ خَلقُـهُ حَقًّـا وأفعَـالٌ لَهُـم
حَقًّـا وَلاَ يَتنَـاقَضُ الأمـرَانِ

٥٣٣-لَكنَّ أهلَ الجبرِ والتَّكذِيبِ بِالـ
أَقـدَارِ مَـا انفَتَحَـت لهُـم عَينَـانِ

٥٣٤-نَظَـرُوا بِعَينَـي أعـوَرٍ إذ فَـاتَهُم
نَظَـرُ البَصِـيرِ وَغَـارَتِ العَينَـانِ

على ذاته، فالسمع والبصر صفتان ثابتتان له سبحانه لا كما تزعم الجهمية نفاة الأسماء، من كونه ليس سميعًا ولا بصيرًا، ولا كما تزعم المعتزلة من كونه سميعًا بذاته لا يسمع، وبصيرًا بذاته لا يبصر، فإن نفي الأسماء تكذيب بصريح القرآن، وهو كفر، وإثبات الموصوف بدون الصفة أو ادعاء أن الصفة عين الموصوف سفسطة.

ويعتقد أهل السنة كذلك أن سمع الله يتعلق بكل مسموع مهما دق وخفت، وأن بصره يتعلق بكل مرئي مهما لطف لا يؤثر فيهما بعد مسافة، ولا يمنعهما حجب وأستار، فهو سبحانه مع كونه فوق عرشه عاليًا على خلقه يرى أصغر مخلوقاته وهي النملة ويسمع دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى تحرك أجفان خلقه في إغماضها وفتحها، ويسمع كذلك ضجيج أصوات عباده ويميز بينها فلا تتشابه الأصوات عنده ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يشغله شأن عن شأن. ويعتقدون أن الله عليم بعلم كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ وكما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وأن علمه متعلق بكل ما من شأنه أن يعلم لا يعزب عنه من ذلك شيء، فهو يعلم ما يحدث به المرء نفسه، وما يرد على خاطره من الهواجس وإن لم يحرك به لسانه، ويستوي في علمه ما قرب وما بعد، وما أسر وما أعلن كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] بل يستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل فهو يعلم ما سيكون مستقبلًا، كما يعلم ما قد كان في الماضي، وكما يعلم ما هو كائن الآن، فالأشياء كلها حاضرة لديه، وهو يعلم الكيفيات التي ستكون عليها الأشياء قبل وجودها، فيعلم ما لم يوجد من الأشياء لو وجد، فعلى أي كيفية يكون وجو ه في عالم الأعيان.

٥٣٥- فَحَقِيقَةُ القَدَرِ الَّذِي حَارَ الوَرَى
فِـي شَـأنِهِ هُـوَ قُـدرَةُ الـرَّحمنِ

٥٣٦- واستَحسَنَ ابنُ عَقِيلٍ ذَا مِن أحمدٍ
لمَّـا حَكَـاهُ عَـنِ الرِّضَـا الرَّبَّـانِي

٥٣٧- قَالَ الإمَامُ شَفَا القُلُوبَ بلَفظَةٍ
ذَاتِ اختِصَـارٍ وَهـيَ ذَاتُ بَيَـانٍ[1]

---

(١) [٥٣٠: ٥٣٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
ويعتقد أهل السنة والجماعة أن الله قدير بقدرة، وأن قدرته عامة تتعلق بجميع الممكنات إيجادًا وإعدامًا، فلا يخرج شيء منها عن نطاق قدرته، ومهما أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، دون معاندة أو إباء، وعموم قدرته سبحانه لكل شيء من الأعيان والصفات والأفعال يرد على القدرية في قولهم أن الحيوان يخلق أفعال نفسه وأنها ليست مخلوقة لله.
والحق الذي عليه أهل السنة أن أفعال الحيوانات تنسب إلى الله عز وجل على أنه خالقها وموجودها كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وتنسب إليها على أنها أفعال لها صادرة عن قدرها وإدارتها الحادثة، ولا تنافي بين الأمرين ، فإن معنى كونها مخلوقة لله أن الله خلق جميع الأسباب التي وجدت بها مثل القدر والإرادات والحواس والآلات والمواد الخارجية التي تقع عليها الأفعال.
ومعنى كونها أفعالًا للعباد أنهم هم الذين باشروها بقدرهم وإراداتهم مباشرة تجوز اتصافهم بها على الحقيقة فيقال: صلى وصام وزنى وسرق.
هذا هو مذهب الأمة الوسط الذي يجمع بين الآيات الدالة على عموم خلقه سبحانه مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وبين الآيات الدالة على نسبة الأفعال إلى العباد، وهي كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .
ولكن أهل الجبر الذين ينفون عن العبد القدرة على الفعل ولا يسمونه فاعلًا إلا على جهة المجاز، والقدرية الذين يزعمون أن العبد مستقل بخلق أفعاله دون أن تتعلق بها قدرة الله ومشيئته نظروا إلى المسألة بعين أعور حين أخذ كل منهم بجانب من الحق دون جانب فالمجبرة غلبوا عموم القدرة والمشيئة، فلم يجعلوا للعبد فعلًا ولا جعلوه مسئولًا عما يصدر منه، إذ لا يسأل عما ليس من فعله.
والقدرية غلبوا جانب التكليف والأمر والنهي فخصصوا في القدر والمشيئة، وعزلوا أفعال العباد عن الدخول تحتها تحقيقًا لمسئولية العبد وتصحيحًا للتكليف.
وهكذا نظرت كل من الطائفتين نظرًا قاصرًا، فلم يؤمنوا بالكتاب كله الدال على إثبات عموم

فصل

٥٣٨- وَلَـهُ الحَيَـاةُ كَمَالُهَـا فلأجـلِ ذَا
مَـا للمَمَـاتِ عَلَيـهِ مِـن سُـلطَانِ

٥٣٩- وَكَـذلِكَ القَيُّـومُ مِـن أوصَـافِهِ
مَـا لِلمَنَـامِ لَدَيْـهِ مِـنْ غَشَـيَانِ

٥٤٠- وَكَذَلِكَ أوصَافُ الكَمَالِ جَمِيعُهَا
ثبتَـت لَـهُ ومَـدَارُهَا الوَصـفَانِ

٥٤١- فَمُصَحّحُ الأوصَافِ وَالأفعَالِ وَالـ
أسـمَاءِ حَقًّـا ذَانِـكَ الوَصـفَان

٥٤٢- وَلأجـلِ ذَا جَـاءَ الحَـدِيثُ بِأنَّـهُ
فِـي آيَـةِ الكُرسِـي وَذِي عِمـرَانِ

٥٤٣- اسمُ الإلَهِ الأعظَمُ اشتَمَلاَ عَلَى اسـ
ـمِ الحَـيّ والقَيُّـومِ مُقتَرِنَـانِ

٥٤٤- فالكُلُّ مرجِعُهَا إِلَى الاِسمَين يَد
رِي ذاكَ ذُو بَصَـرٍ بِهَـذَا الشَّـانِ[1]

قضاء الله وقدره ومشيئته. وعلى أن أفعال العباد واقعة منهم بقدرتهم ومشيئتهم. فلو وفقوا لذلك كما وفق له أهل السنة والجماعة لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله: (القدر هو قدرة الله) واستحسن ابن عقيل هذه الكلمة من الإمام أحمد وقال: إنه شفي بهذه الكلمة ووفى.

(١) [٥٣٨: ٥٤٤] قال العلامة محمد خليل هراس:
ولأجل هذا ورد هذان الاسمان الكريمان مقترنين في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، وورد في

الشَّـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله عز وجل له كمال الحياة، وأنه لا سلطان للموت عليه جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وكذلك له القيُّوميَّة التي تضمَّنها قوله تعالى: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وهذه القيُّومية تمنع النوم، فالنوم مُستحيلٌ في حق الله عز وجل، لكمال حياته وقيُّوميته، ولهذا قال: (ما للمنام لديه من غِشْيان)؛ يعني: لا يمكن أن يناله النوم لكمال قيُّوميته، فهنا حي وقيوم، الحي فيه كمال الأوصاف، والقيوم فيه كمال الأفعال، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَذَلِكَ أوصَافُ الكَمَالِ جَمِيعُهَا ثبتَت لَـهُ ومَدَارُهَـا الوَصفَانِ

ما هما الوصفان ؟ الحياة والقيومية، كل أوصاف الكمال تدور على هذين الوصفَيْن، ففي الحياة كمال الصفات، وفي القيُّومية كمال الأفعال لله عز وجل، وهذان الاسمان هما اسم الله الأعظم، وقد جاءا في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه، فقال الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، وقال في سورة طه: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، فقد ذُكِرَ هذا الاسم في القرآن في ثلاثة مواضع، وهو اسم الله الأعظم؛ لأن هذين الاسمين يتضمَّنان جميع معاني أسماء الله، ووجه

الحديث ما يدل على أنهما اسم الله الأعظم حيث أجاب النبي عليه الصلاة السلام من سأله عنه بأنه في آية الكرسي وأول آل عمران، لأنهما اشتملا على هذين الاسمين مقترنين، ففي آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله يقول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي أول آل عمران يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

ومن هنا يعلم أن على هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها وإليهما ترجع معانيها فإن حياته إذا كانت أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة. وأما القيوم فإنه متضمن كمال غناه، وكمال قدرته فإنه القيوم بنفسه الذي لا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، ولا قيام لغيره إلا بإقامته فانتظم هذان الاسمان الكريمان صفات الكمال أتم انتظام يعرف ذلك أهل البصر بهذه الشئون الإلهية العالية وأهل العلم بأسماء الله وصفاته.

ذلك ما شرحتُه أولًا أنَّ الحي يتضمَّن كمال الأوصاف، والقيوم يتضمَّن كمال الأفعال.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٥٤٥- وَلَـهُ الإِرَادَةُ وَالكَرَاهَـةُ والرِّضَـا
وَلَـــهُ المَحَبَّـــةُ وهـــوَ ذُو الإحسَـــانِ

٥٤٦- وَلَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ العَارِي عَنِ التَّـ
ـــشبيهِ والتَّمثِيـــلِ بالإنسَـــانِ

٥٤٧- وَكَمَالُ مَن أعطَى الكَمَالَ ومَالَهُ
أولَـــى وَأقـــدَمُ وهـــوَ أعظَـــمُ شَـــانِ

٥٤٨- أيكُونُ مَن أعطَى الكَمَالَ بِنَفسِهِ
ذَاكَ الكَمَـــالُ أذاكَ ذُو إمكَـــانِ

٥٤٩- أيكُـونُ إنسَـانٌ سَـمِيعًا مُبصِـرًا
مُتَكَلِّمًـــا بِمَشِـــيئَةٍ وَبَيَـــانِ

٥٥٠- وَلَـــهُ الحَيَـــاةُ وَقُـــدرَةٌ وإرَادَةٌ
والعِلـــمُ بِـــالكُلِّيِ والأعيَـــانِ

٥٥١- والله قَـد أعطَـاهُ ذَاكَ وَلَـيسَ هَـ
ـذَا وَصـفَهُ فاعجَـب مِـنَ البُهتَـانِ(١)

---

(١) [٥٤٥: ٥٥١] قال العلامة محمد خليل هراس:
ونفى الفلاسفة والمعتزلة صفة الإرادة عن الله عز وجل، أما الفلاسفة فنفوا عنه القصد إلى الفعل وقالوا إن الفاعل بالقصد مستكمل، وأن الإرادة تغير وانفعال وميل إلى الملائم وهو نقص يستحيل على الله، ولهذا قالوا: إن العالم صدر عنه بطريق الإيجاب والتعليل لا بطريق القدرة والاختيار.
وأما المعتزلة فبعد أن اتفقوا على نفي الإرادة فاختلفت عباراتهم في ذلك. فمنهم من ذهب إلى أن معنى الإرادة أنه لا مكره له فهي ترجع إلى معنى سلبي، ومنهم من قال إنه مريد بإرادة حادثة لا في

الشـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الأبيات أن لله الإرادة، وهي موجودة في كتاب الله بكثرة، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والإرادة عند أهل العلم تنقسِم إلى قسمين:

إرادةٍ كونية، وإرادةٍ شرعية، والفرق بينهما من وجهين:

أولًا: الإرادة الكونية تكون بما يحبه الله، وبما لا يُحبُّه، والإرادة الشرعية لا تكون إلا بما يُحبُّه.

ثانيًا: الإرادة الشرعية قد يقع فيها المراد وقد لا يقع، والإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد.

ولهذا نقول: إن الله تعالى قد أراد إيمان المؤمن كونًا، وأراد كفر الكافر كونًا، الأول بما يحب، والثاني بما لا يحب.

الإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد، والإرادة الشرعية قد يقع وقد لا يقع، فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت إرادة قَدَرية لوجَبَ أن تقع؛ أي: أن يقع مراده وهو التوبة، ولكنَّ الله تعالى يتوب على من تاب فقط، والإرادة الكونية لابد فيها من وقوع المراد ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

كذلك له الكراهة، الله تعالى يكره ما يستحق الكراهة من أفعال وأقوال ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، هذا فعل، «إِنَّ الله كَرِهَ لَكُمْ قِيْلَ وَقَالَ» (١)، هذا قول، فالله تعالى له الكراهة، وكذلك أيضًا له الرضا، يرضى الأقوال، ويرضى الأفعال، ويرضى عن المؤمنين.

وكذلك أيضًا له المحبة، يحبُّ ويُحَبُّ، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

محل إلخ، وكلا المذهبين مخالف للنصوص الصريحة الدالة على ثبوت المشيئة والإرادة ونفوذها في جميع الموجودات.

(١) رواه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

(وهو ذو الإحسان) وإحسانُ الله تعالى لا يمكن أن يُعدَّ أو يُحصَى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وَلَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ العَارِي عَنِ التَّـ ـشبِيهِ والتَّمثِيلِ بالإنسَانِ

ثم ذكر المؤلف دليلًا عقليًا على أن الله له الكمال، فقال:

وَكَمَالُ مَن أعطَى الكَمَالَ بِنَفسِهِ أولَى وَأقدَمُ وهوَ أعظَمُ شَانِ

من أعطى الكمال فهو حقُّه الكمال، وهذا دليل عقلي، ولهذا قال:

أيكُونُ مَن أعطَى الكَمَالَ بِنَفسِهِ ذَاكَ الكَمَالُ أذَاكَ ذُو إمكَانِ

كيف يُعطي الكمال مَن ليس بكامل؟ هذا شيءٌ مستحيل، فكمال الله قد دلَّ عليه السمع والعقل، ومن الأدلة العقلية على كمال الله: أنَّه مُعطِي الكمال، ومُعطِي الكمال أولَى بالكمال.

وقال:

أيَكُونُ إنسَانٌ سَمِيعًا مُبصِرًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ

هذا معلوم، الإنسان يتكلَّم بمشيئته، ويتكلَّم كلامًا فصيحًا بيِّنًا.

وَلَهُ الحَيَاةُ وَقُدرَةٌ وإرَادَةٌ والعِلمُ بِالكُلِّيِّ والأعيَانِ

أي: للإنسان.

وَلَهُ الحَيَاةُ وَقُدرَةٌ وإرَادَةٌ والعِلمُ بِالكُلِّيِّ والأعيَانِ

يعني: كيف يكون الإنسان مُتصفًا بهذه الصفات الكاملة، والله هو الذي أعطاه إياها، وليس هذا وصفًا لله، يقول: (فاعجب من البُهتان)، كأنَّ مُورِدًا أوردَ على المؤلف فقال: النوم، والأكل، والنكاح من كمال الإنسان، فهي بالنسبة للإنسان كمال؛ فهل هي كذلك في حق الله!!؟ أنت تقول: إنَّ مَن أعطى الكمال أولَى بالكمال، والله تعالى قد أعطى الإنسان هذا، ولهذا لا يدع الإنسان النوم إلا من مرض، ولا يدع الأكل إلا من مرض، ولا يدع النكاح إلا من مرض، فمن كمال الإنسان: النوم، والأكل، والشرب، والنكاح، إذًا يلزمُ على قاعدتك أن يكون الله مُتصفًا بهذا.

❀ ❀ ❀

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٥٢- بِخِلاَفِ نَـومِ العَبـد ثُـمَّ جِمَاعِـهِ
والأكــلِ مِنــهُ وَحَاجَــةِ الأبــدَانِ

٥٥٣- إذ تِلكَ مَلزُومَاتُ كَونِ العَبدِ مُحـ
ـتَاجًا وَتِلــكَ لَــوازِمُ النُّقصَــانِ

٥٥٤- وَكَـذَا لَـوَازِمُ كَونِـهِ جَسَـدًا نَعَـم
وَلَــوَازِم الإحــدَاثِ والإمكَــانِ

٥٥٥- يتقـدَّسُ الـرَّحمنُ جَـلَّ جَلاَلُـهُ
عَنهَــا وَعَــن أعضَــاءِ ذِي جُثمَــانِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

أجاب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك بقوله:

بِخِلاَفِ نَومِ العَبد ثُمَّ جِمَاعِهِ والأكلِ مِنهُ وَحَاجَةِ الأبدَانِ
يتقدَّسُ الرَّحمنُ جَلَّ جَلاَلُهُ عَنهَا وَعَن أعضَاءِ ذِي جُثمَانِ

الأكل للإنسان كمال، والجِماع كمال، والشرب كمال، والنوم كمال؛ لماذا ؟ لأنَّ كماله بهذه من أجل نقصِه، فإنَّ هذه النواقِص تُكمِّلُه؛ لأنه مُحتاجٌ إليه، فلو لم يأكل ويشرب لهلك، ولو لم ينَم لتهدَّمَت صحَّتُه، ولو لم يُجامِع ما بقِي النسل، إذًا هو في حاجة، والله سبحانه وتعالى مُنزَّهٌ عن الحاجة، فهو ليس بحاجة إلى أكل ولا شُرب، ولا جِماع، ولا غير ذلك، أما العبد فهذا من كماله لاحتياجه إليه ليقوم به كماله.

كذلك يقول: لوازم كونه جسدًا وكونه حادثًا هذه مُنزَّهٌ عنها الله عز وجل، فلوازم كونه جسدًا أن يكون مُحتاجًا، فالجسد يحتاج إلى شيءٍ من الراحة، وكذلك الإحداث والإمكان، فالإنسان حادِث ممكن الوجود، وليس بواجب الوجود، والله عز وجل ليس بحادث، وهو واجب الوجود.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يتقدَّسُ الرحمن جلَّ جلاله عنها) يعني: عن هذه اللوازم، ويتقدَّس أيضًا عن أعضاء ذي جِثْمان، وكلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا مُوهِمٌ ما ليس بمُرادٍ له قطعًا؛ لأن قوله: (عن أعضاء ذي جِثمان) يشمل الوجه، واليد، والعين، والقدم، والساق، فإن هذه من أعضاء ذي الجِسم، فهل الله مُنزَّه عنها ؟ إن نظرنا إلى ظاهر كلام المؤلف قلنا: إنه يدلُّ على ذلك، لكن لعِلْمنا بحال المؤلف، وأنه يُثبِت هذه الصفات لله عز وجل: الوجه، واليد، والعين، والساق، والقدم، لعِلْمنا بذلك كما نعلمُ الشمس في رابعة النهار نعلمُ أنه لم يُرِد نفي هذا عن الله، وإنما أراد نفي خصائص هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان، فخصائصُ هذه الأعضاء بالنسبة للإنسان يجوز أن تنفصِلَ من جسمه وأن لا تنفصِل، لكن اليد بالنسبة لله عز وجل، والساق، والقدم، والعين هل يجوز أن يكون فيها هذا أو لا ؟ لا يجوز أبدًا، ولهذا قال العلماء: لا يجوز أن تُطلِقَ على يد الله أنها بعض الله؛ لأن البعض: ما زال اتصالُه عن الكل، وهذا بالنسبة إلى الله أمرٌ مُستحيل، ولهذا نجِد دِقَّة تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال في «التدمرية»[1]: إن من صفات الله ما هو معانٍ، وما مُسمَّاه أعضاءٌ بالنسبة إليه، مثل: اليد مُسمَّاها بالنسبة لنا: عُضو من الأعضاء، لكن بالنسبة لله لا تقول: هي عضو من أعضاء الله، حاشا وكلا، ولا بعضٌ منه، ولا جزءٌ منه، إنما تقول: هذه صفات ثابتة لله عز وجل على وجه الحقيقة، مُسمَّاها بالنسبة لنا أبعاضٌ وأجزاءٌ وأعضاءٌ، أما بالنسبة لله فلا يُطلَقُ عليها ذلك.

إذًا كلام ابن القيم يجب أن يُحمَل على أعضاء ذي الجِثْمان خصائص هذه الأعضاء، وهي جوازُ انفصالها عن الكل، فأعضاء البشر يجوز أن تنفصِل عن الكل، أما بالنسبة لهذه الأسماء أو لهذه الصفات بالنسبة إلى الله فإنه لا يمكن أن يكون فيها ذلك.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٥٦- والله رَبـيِّ لَـم يَـزَل متكلِّمًـا
وَكَلامُــهُ المَســمُوعُ بـــالآذانِ

---

(١) ص ٣١.

٥٥٧- صِدقًا وعَدلًا أحكمَت كَلِمَاتُهُ
طَلَبًا وإخبَارًا بِلاَ نُقصَانِ

٥٥٨- وَرَسُولهُ قَد عَاذَ بالكلمَاتِ مِن
لَدغٍ وَمِن عَينٍ ومِن شَيطَانِ

٥٥٩- أيعوذُ بالمخلُوقِ حَاشَاهُ مِنَ الـ
إشرَاكِ وَهُوَ مُعَلِّمُ الإيمَانِ

٥٦٠- بَل عَاذَ بالكَلِمَاتِ وَهيَ صِفَاتُهُ
سُبحَانهُ لَيسَت مِنَ الأكوانِ

٥٦١- وَكَذَلِكَ القرآنُ عَينُ كَلاَمِهِ الـ
مَسمُوعِ مِنهُ حقِيقَةً بِبَيَانِ

٥٦٢- هُوَ قَولُ رَبِّي كُلهُ لاَ بَعضُهُ
لَفظًا وَمَعنًى مَا هُمَا خَلقَانِ

٥٦٣- تَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ وَقولُهُ
اللَّفظُ والمعنَى بِلاَ رَوَغَانِ(١)

٥٦٤- لَكِنَّ أصوَاتَ العِبَادِ وَفِعلَهُم

(١) [٥٥٦: ٥٦٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
هذا بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في صفة كلام الرب جل شأنه فالله عندهم لم يزل متكلمًا؛ لأن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم من المخلوقين أكمل ممن لا يتكلم، والله لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال كلها ومنها الكلام، والكلام من صفات الأفعال التابعة لمشيئته وإرادته، فهو يتكلم متى شاء وكيف شاء، فهو من الأفعال الاختيارية التابعة لمشيئته وحكمته.
وهو سبحانه يتكلم بحروف وأصوات يسمعها من يكلمه كما كلم موسى عليه السلام عند مجيئه للميقات وناداه من جانب الطور الأيمن وقربه نجيًا، وكما يكلم عباده المؤمنين يوم القيامة ويسلم عليهم ويبشرهم برحمة منه ورضوان، وقد تمت كلماته سبحانه وأحكمت، صدقًا في إخباره وعدلًا في أحكامه، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.

كَمِـــدَادِهِم والــــرَّقِّ مَخلوقَـــانِ

٥٦٥- فالصَّـوتُ للقَـارِى وَلَكِـنَّ الكَـلاَ

مَ كَـلاَمُ رَبِّ العـرشِ ذِي الإحسَـانِ

٥٦٦- هَـذَا إِذَا مَـا كَـانَ ثَـمَّ وَسَـاطَةٌ

كَقِـــرَاءَةِ المخلُـــوقِ لِلقُـــرآنِ

٥٦٧- فإذَا انتفت تِلكَ الوَسَاطَةُ مِثلَمَا

قَــد كلَّــمَ المولُــودَ مِــن عِمــرَانِ

٥٦٨- فَهُنالِكَ المخلُوقُ نَفسُ السَّمع لاَ

شَــيءٌ مِــنَ المسـمُوعِ فَــافهَم ذَانِ

٥٦٩- هَـذِي مَقَالَـةُ أحمـدٍ ومُحَمَّـدٍ

وخُصُــومُهُم مِــن بَعــدُ طَائِفَتَــانِ[1]

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الأبيات ما يتعلَّق بصفات الله عز وجل بالكلام، فقال:

واللــه رَبــيّ لَـم يَــزَل متكلِّمًا وَكَلامُــهُ المَسمُــوعُ بــالآذَانِ

لم يزَلْ؛ يعني: فيما مضى، ولا يزال كذلك في المستقبل، مصداقًا لقول الرب عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ

(١) [٥٦٤: ٥٦٩] قال العلامة محمد خليل هراس:
وهذا الذي ذكره في حكم أصوات القارئين ومداد الكاتبين وأنها مخلوقة، إنما يتأتى إذا كان ثمة واسطة في الأداء والتبليغ، كقراءة المخلوق للقرآن، وأما إذا انتفت تلك الواسطة وكان الكلام مسموعًا من الله عز وجل مباشرة كما في تكليم موسى عليه السلام، فالمخلوق هنالك هو نفس السمع الذي هو إدراك المسموع، وأما المسموع نفسه فهو كلام الله لا شيء منه بمخلوق، فإنه نعت الله وصفته.
هكذا فرق الإمام أحمد والإمام البخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة بين كلام الله الذي هو غير مخلوق، وبين ما هو من فعل العباد من القراءة أو الكتابة أو الحفظ أو السماع الذي هو مخلوق.

ﱡﭐﱁﱠ [لقمان: ٢٧]، لو أن ما في الأرض من أشجار صارت أقلامًا يُكتَب بها: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، ولا نفاد لها؛ لأن الله عز وجل لم يزَل ولا يزال مُريدًا خالقًا، وكلما أراد شيئًا قال له: كُن، فيكون، فلا نفاد لكلمات الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال: لم يزَل ولا يزال مُتكلِّمًا، (وكلامُه المسموع بالآذان) فكلامُه يُسمع، وليس يخلق أصواتًا تُسمَع تُعبِّرُ عن كلامه؛ بل كلامُه هو عز وجل مسموعٌ بالآذان، سمعه موسى، وسمعه محمد ﷺ، وسمِعَه من قبلهما آدم، وغير ذلك، فكلام الله مسموع يُسمع بالآذان، لكنَّ صوته لا يُشبِه أصوات المخلوقين، فما يقوم له إلا مَن ثبَّتَه الله عز وجل، ولهذا إذا تكلَّم بالوحي ارتجفت السماوات، وصَرخت الملائكة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

صِدقًا وعَدلًا أحكمَت كَلِمَاتُهُ   طَلَبًا وإخبَارًا بِـلاَ نُقصَـانِ

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وفي قراءة: ﴿وتمَّتْ كلماتُ ربِّك﴾، طلبًا بالنسبة للعبد، وإخبارًا بالنسبة للصدق، فأخبارُه كلها صِدق، وأحكامُه كلها عدل، ثم قال:

وَرَسُولهُ قَد عَاذَ بالكلِمَاتِ مِن   لَدغٍ وَمِن عَينٍ ومِـن شَيطَانِ

قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّات»(١) ، فعاذ بالكلمات من لدغ الحية، ومن عين العائن، ومن الشياطين؛ هل يمكن أن يعوذَ النبيُّ ﷺ بمخلوق ؟ لا يمكن، ولكن يمكن أن يُستعاذَ بمخلوقٍ فيما يقدر عليه، ويكون مخلوقًا حيًّا، ولهذا لما قال عليه الصلاة والسلام عما تحدَّث عنه من الفتن، قال: «مَنْ وَجَدَ مُعَاذًا فلْيَعُذْ بِهِ» (٢)، لكن أن يستعيذه على شيءٍ غائب فلا وما يمكن أن يعوذ بمخلوق عليه الصلاة والسلام.

أيعوذُ بالمخلُوقِ حَاشَاهُ مِنَ الـ   إِشرَاكِ وَهُـوَ مُعَلِّـمُ الإِيمَـانِ
بَل عَاذَ بالكَلِمَاتِ وَهيَ صِفَاتُهُ   سُبحَانَـهُ لَيسَت مِـنَ الأَكـوانِ

خلافًا للجهمية الذين قالوا: إن كلام الله مخلوق من جملة المخلوقات.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧١).
(٢) رواه البخاري (٣٦٠٢)، ومسلم (٢٨٨٦).

وَكَذَلِكَ القرآنُ عَينُ كَلامِهِ الـ ... ـمَسمُوعِ مِنهُ حقِيقَةً بِبَيَانِ

القرآن كلام الله، عينُ كلامه، سمعه منه جبريل، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ.

هُوَ قَولُ رَبِّي كُلُّهُ لاَ بَعضُهُ ... لَفظًا وَمَعنًى مَا هُمَا خَلقَانِ

سيأتي - إن شاء الله - في كلام المؤلف أن من الناس من قال: إن القرآن كلام الله معنًى لا لفظًا، ومنهم من قال: إنه كلام الله لفظًا ومعنًى، لكنه مخلوق.

تَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ وَقولُهُ ... اللَّفظُ والمعنَى بِلاَ رَوَغَانِ

هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، يؤمنون بأن القرآن كلام الله لفظًا ومعنًى.

لَكِنَّ أصوَاتَ العِبَادِ وَفِعلَهُم ... كَمِدَادِهِم والرَّقِّ مَخلوقَانِ

هذه أربعة أشياء: الصوت، والفعل، والرَّق، والمِداد.

الصوت: النطق، والفعل: حركات الفم واللسان، والمِداد: الحِبْر، والرَّق: الورق المكتوب عليه، ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ [الطور: ٣]، هذه الأربعة مخلوقة، ولهذا قال:

لَكِنَّ أصوَاتَ العِبَادِ وَفِعلَهُم ... كَمِدَادِهِم والرَّقِّ مَخلوقَانِ

فالصَّوتُ للقَارِى وَلَكِنَّ الكَلاَ ... مَ كَلاَمُ رَبِّ العرشِ ذِي الإحسَانِ

هَذَا إِذَا مَا كَانَ ثَمَّ وَسَاطَةٌ ... كَقِرَاءَةِ المخلُوقِ لِلقُرآنِ

هذا القول هو قول ربي، أما إذا كان وساطة؛ كقراءة المخلوق للقرآن.

فإِذَا انتفَت تِلكَ الوَسَاطَةُ مِثلَمَا ... قَد كلَّمَ المولُودَ مِن عِمرَانِ

موسى بن عمران كلَّمه الله تكليمًا.

فَهُنالِكَ المخلُوقُ نَفسُ السَّمع لاَ ... شَيءٌ مِنَ المسمُوعِ فَافهَم ذَانِ

هنا إذا كلَّم الله عز وجل أحدًا بلا وساطة، فكلامُ الله غير مخلوق وهو المسموع، والسمع الذي أثبتَ الكلام مخلوق، ولهذا قال:-

فَهُنالِكَ المخلُوقُ نَفسُ السَّمع لاَ ... شَيءٌ مِنَ المسمُوعِ فَافهَم ذَانِ

هَذِي مَقَالَةُ أحمدٍ ومُحَمَّدٍ ... وخُصُومُهُم مِن بَعدُ طَائِفَتَانِ

أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري رحمهما الله، قالوا: إن هناك فرقًا بين المقروء والقراءة، وبين القارئ والمُتكلِّم بالمقروء، المقروء غير مخلوق، أمَّا القراءة مخلوقة، والقارئ

كذلك والمُتكلِّم للمخلوق - وهو الله - غير مخلوق، كلامه غير مخلوق، وبهذا التفصيل يزول الإشكال، فهنا فرَّق بين الكلام والمُتكلِّم، وبين القارئ والمقروء، ولهذا قال بعض السلف: الصوت صوت القاري، والكلام كلام الباري، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٦٩- هَـذِي مَقَالَـةُ أحمـدٍ ومُحَمَّـدٍ
وخُصُـومُهُم مِـن بَعـدُ طَائِفَتَـانِ

٥٧٠- إحـدَاهُمَا زَعَمَـت بِـأنَّ كَلاَمَـهُ
خَلـقٌ لَـهُ ألفَاظُـهُ ومَعَـانِي

٥٧١- والآخَـرُونَ أبَـوا وَقَـالُوا شَـطرُهُ
خَلـقٌ وَشَـطرٌ قَـام بـالرَّحمنِ

٥٧٢- زَعَمُـوا القُـرآنَ عِبَـارَةً وَحِكَايَـةً
فَلنَـا كَمَـا زَعَمُـوهُ قُرآنَـانِ

٥٧٣- هَـذَا الَّـذِي نَتلُـوه مخلُـوقٌ كَمَـا
قَـالَ الوَلِيـدُ وَبَعـدَهُ الفِئَتَـانِ

٥٧٤- والآخَـرُ المعنَـى القَـدِيمُ فقَـائِمٌ
بـالنَّفسِ لَـم يُسـمَع مِـنَ الـدَّيَّانِ

٥٧٥- والأمـرُ عَـينُ النَّهـيِ واستِفهَامُهُ
هُـو عَـينُ إخبَـارٍ وَذو وِحـدَانِي

٥٧٦- وَهُـوَ الزَّبُـورُ وَعَـينُ تَـورَاةٍ وإنـ
ـجِيلٍ وَعَـينُ الـذِّكرِ والفُرقَـانِ

٥٧٧- الكُـلُّ معنًـى وَاحِـدٌ فـي نَفسِـهِ

لاَ يَقبَــلُ التبعِــيضَ فــي الأذهَــانِ

٥٧٨- مَا إن لَهُ كُلٌّ ولاَ بَعضٌ وَلا لفظٌ
ولا حَــرفٌ وَلاَ عَرَبِــي وَلاَ عِبرَانِــي

٥٧٩- وَدَلِــيلُهُم فــي ذَاكَ بيــتٌ قَالَــهُ
فِيمَــا يُقَــالُ الأخطَــلُ النَّصــرَانِي

٥٨٠- يَا قَومُ قَد غَلِطَ النَّصَارَى قَبلُ في
مَعنَــى الكَــلاَمِ ومَــا اهتــدَوا لِبَيَــانِ

٥٨١- وَلأجلِ ذَا ظَنُّوا المَسِيحَ إلَهَهُم
إذ قِيــلَ كِلمَــةُ خَــالِقٍ رَحمــنِ

٥٨٢- ولأجـلِ ذَا جَعَلُـوهُ نَاسُـوتًا وَلاَ
هُوتًــا قَــدِيمًا بَعــدُ مُتَّحِــدَانِ

٥٨٣- وَنَظِيـرُ هَـذَا مَـن يَقُـولُ كَلاَمُـهُ
مَعنًــى قَــديمٌ غيــرُ ذِي حِــدثَانِ

٥٨٤- والشَّطرُ مَخلُوقٌ وَتِلكَ حُرُوفُهُ
نَاسُــوتُهُ لَكِــن هُمَــا غيــرَانِ

٥٨٥- فَــانظُر إلَــى ذَا الاتِّفَــاقِ فَإنَّــهُ
عَجَــبٌ وَطَــالِع سُــنَّةَ الــرَّحمنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر قول الإمام أحمد، وقول البخاري رحمهما الله، قال: (وخُصومهم من بعدُ طائفتان):

أمَّا الطائفة الأولى: زعَمَت أنَّ كلام الله تعالى مخلوقة؛ ألفاظُه ومعانيه، وهؤلاء هم

المعتزلة والجهمية، يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لم يتكلَّم بكلام ووصف، ولكنه خلق كلامًا فنَسَب هذا الكلام إليه، كما خلق ناقته فنسَبَها إليه، وكما خلق بيتًا ونسَبَه إليه، فنسبةُ الكلام إلى الله ليست نسبة صفة إلى الموصوف، ولكنَّها نسبة الخلق إلى خالقه، وهؤلاء - أي المعتزلة والجهمية - جعلوا القرآن ألفاظه ومعانيه مخلوقة.

وناظَروا على ذلك، وحصَلَت فيه محن كثيرة في زمن الإمام أحمد وبعده وقبله.

والطائفة الثانية: أبَوا ذلك القول، وقالوا: ما يمكن، فكلام الله صفة من صفاته، ولكن جعلوا الألفاظ مخلوقة، والمعنى هو الصفة، فصار كلام الله على رأي هؤلاء شطرَيْن: شطرًا مخلوقًا، وشطرًا غير مخلوق، أمَّا الشطر المخلوق الألفاظ، والشطر غير المخلوق المعاني، فشطَّروا الكلام، وقالوا: الألفاظ مخلوقة، خلقها الله عز وجل في الهواء، في الجو فسمعها جبريل، فنزل بها إلى الرسول ﷺ، أما المعاني فهي قائمة بنفس الله، ليست مخلوقة.

هؤلاء في الحقيقة تناقَضوا، فجعلوا اللفظ له جهة والمعنى له جهة، والمعتزلة خيرٌ منهم في الطرد؛ لأنهم طردوا الكلام، وقالوا: كله مخلوق، ولا يُتصوَّر أن ينفصل لفظ عن معناه، ولا معنىً عن لفظه؛ كيف نقول: هذا المعنى غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمعنى كلام، واللفظ حدَث ؟ ما يستقيم؛ بل الكل مُحدَث، والكل مخلوق.

فأيُّهما أقعَد ؟ مذهب المعتزلة أقعَد؛ لأنه مُضطرب، ولا يُعقَل أن كلامًا من مُتكلِّمٍ واحدٍ يكون لفظه له وجه، ومعناه له وجهٌ آخر.

قال:

زَعَمُوا القُرآنَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً فَلَنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرآنَانِ

قرآن حكاية، وقرآن قول، وصفة، أمَّا القرآن الذي هو صفة المعنى، والقرآن الذي هو حكاية وعبارة اللفظ، إذًا عندنا قرآنان، القرآن الذي هو المعنى القائم بنفس الرب عز وجل، والقرآن الذي هو المسموع، ولهذا قال: (قلنا: كما زعموه قرآنان، هذا الذي نتلوه مخلوق)، يقول: الذي نتلوه مخلوق، والمعنى القائم بنفس الله هذا غير مخلوق، ولها قال بعض المُحقِّقين منهم: نحن والمعتزلة على حدٍّ سواء، كلنا متفقون على أنَّ ما بين دفَّتي المصحف مخلوق، لكن الأشعرية - وهم أصحاب هذا القول - يقولون: هذا عبارة عن

كلام الله، والمعتزلة يقولون: هٰذا كلام الله، وهؤلاء يقولون: عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله، واتفق الجميع على أنه مخلوق.

والحقيقة أنه ليس أحد يتفطَّن لهذا المعنى، فالأشاعرة يقولون: هذا ليس كلام الله، وهو مخلوق، والمعتزلة يقولون: هذا كلام الله، وهو مخلوق، ونحن نقول: كلام الله غير مخلوق.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أو حكاية) الفرق بين العبارة والحكاية: أنَّ العبارة يخلق الله أصواتًا تُعبِّر، والحكاية حكاية القول مثل ما يكون في الصدى، أي: صدى يحكي الصوت، لكن المعروف عند الأشاعرة أنهم يقولون: إنه عبارة، والكُلَّابيَّة يقولون: إنه حكاية.

يقول:

هَذَا الَّذِي نَتلُوه مخلُوقٌ كَمَا قَالَ الوَلِيدُ وَبَعدَهُ الفِئَتَانِ

الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد، قال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥]، هم يقولون: هذا قول البشر، فهم يقولون: مخلوق، مثل كلامي مخلوق، هذا مخلوق أيضًا.

وقوله: (كما قال الوليد وبعده الفئتان) الفئتان الأشاعرة والمعتزلة كلاهما يقول: الكلام الذي بين أيدينا القرآن وهو مخلوق.

وقوله: (والآخر المعنى) المسموع الذي يُسمَع ويُتلَى هذا مخلوق وليس كلام الله؛ بل هو عبارة.

والآخَرُ المعنَى القَدِيمُ فقَائِمٌ بالنَّفسِ لَم يُسمَع مِنَ الدَّيَّانِ

هذا كلام الله عند الأشاعرة، المعنى القديم، ولهذا يقولون: كلام الله قديم، هذه الكلمة خطأ ما هي صواب، ولا يجوز أن نقول: كلام الله قديم؛ بل كلام الله مُتعلِّق بالمشيئة، متى شاء تكلَّم، لكن هم يقولون: الكلام هو المعنى القديم، والمعنى الآخر القديمُ قائمٌ بالنفس، لم يُسمَع من الديَّان، أي: لم يسمعه لا جبريل، ولا موسى، ولا محمد؛ لأنه هو المعنى القائم بالنفس، وكلُّ أحد يعرف أنَّ المعنى القائم بالنفس لا يُسمَّى كلامًا أبدًا، لكن هم يقولون: هذا هو الكلام، ولهذا قالوا: إن كلام الله قديم؛ لأن الله عز وجل يعلم أنه سيتكلَّم بهذا

الكلام إلى يوم القيامة، وأعجبُ من هذا: (والأمرُ عينُ النهي) كلام لا يقوله إنسان يعقِل؛ لا يقول، الأمرُ عين النهي، ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] هو عينُ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] عينُ ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، ما أعتقدُ أنَّ عاقلًا يقول هذا الكلام، عين الأمر هو النهي، لكن هم يقولون: نعم؛ لأنَّ الكلام معنى، لكن إن عبَّرتَ عنه بالأمر صار أمرًا، وإن عبَّرتَ عنه بالنهي صار نهيًا، والمعنى واحد، لا يتجزَّأ، ولا يتبعَّض، لكن الصورة التي تُخلَق لتُعبِّر عن هذا هي التي يُقال عنها: إنها أمر أو نهي.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(واستفهامُه هو عينُ إخبارِه) الاستفهام: هل قام زيدٌ ؟ بمعنى: قام زيدٌ، عندهم هذا هو هذا، الاستفهام هو الخبر، استفهَمَ أو أخبَرَ بمعنىً واحد، فيجعلون العالم كالجاهل، العالم الذي يُظهِرُ الأخبار كالجاهل الذي يسأل عن الأخبار، ولهذا قال: (واستفهامه هو عين أخبار وذو وحدان) يعني: شيئًا واحدًا لا يتجزَّأ.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الزَّبُورُ وَعَينُ تَوراةٍ وإن ... جيلٍ وَعَينُ الذِّكرِ والفُرقَانِ

أربعة كتب: الزَّبُور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن، يقول: هذه شيءٌ واحدٌ، التوراة هي القرآن، والقرآن هو الإنجيل، والإنجيل هو الزَّبُور، كلها شيءٌ واحدٌ، لكن اختلفت في الصورة، إن عُبِّرَ عنه بالعربية سمَّيناه قرآنًا، وإن عبر عنه بالعِبْرية سميَّناه توراة، وإن عُبِّر عنه بالسِّرْيانيَّة سميناه إنجيلًا، وإن عبِّر عنه بالداودية سميَّناه زَبُورًا، وإلا فهو شيءٌ واحدٌ، ولهذا قال ابن القيم:

وَهُوَ الزَّبُورُ وَعَينُ تَوراةٍ وإن ... جيلٍ وَعَيـنُ الذِّكـرِ والفُرقَـانِ
الكُلُّ معنًى وَاحِـدٌ فـي نَفسِهِ ... لاَ يَقبَلُ التبعِيضَ فـي الأذهَـانِ
مَا إن لَهُ كُلٌّ ولاَ بَعضٌ وَلا لفظٌ ... ولا حَرفٌ وَلاَ عَرَبِي وَلاَ عِبرَانِـي

كله شيءٌ واحدٌ.

وَدَلِيلُهُم في ذَاكَ بَيتٌ قَالَـهُ ... فِيمَا يُقَالُ الأخطَلُ النَّصرَانِي

الأخطل معروف من الشعراء، قال قولًا فبنَوا عليه.

قال:

إنَّ الكَلَّامَ لَفِي الفُؤَادِ وإنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ على الفُؤاد دَلِيلَا

الحقيقة أنه استدلالٌ بما لا دليل فيه من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا البيت لا يُرادُ به هذا المعنى الذي يقولون؛ بل معنى قوله: إن الكلام لفي الفؤاد معناه: إن الإنسان الذي يتكلَّم بعقل يُقدِّرُ الشيء في قلبه أولًا، ثم بعد ذلك يُعبِّرُ عنه، فكل إنسان عاقل يُريد أن يكون لقوله وزنٌ ومعنىً، ونظيرُ استدلالهم بهذا البيت استدلالُهم بأن استوى بمعنى استولى في قول الرجل المجهول:

اسْتَوى بشرٌ عَـلَى العِـرَاقْ ... مِنْ غَيْرِ سيفٍ أو دمٍ مِهْراق

معناه: استولى عليه، فإذًا حوِّل كل كلمتين، في القرآن استوى حوِّلها لهذا البيت.

على كل حال؛ دليل الأشاعرة على أن المعنى القائم بالنفس هو قول نصراني، وسبحان الله ! أن جعل الله إمامهم نصرانيًّا، ونجد المؤلف قارَنَ بين قولهم هذا، وبين قول النصارى في أن عيسى مُركَّب، فالكلام مُركَّب من لفظ ومعنىً، فالمعنى صفة، واللفظ مخلوق، ثم الدليل على هذا قول الرجل النصراني. يقول ابن القيم:

يَا قَومُ قَد غَلِطَ النَّصَارَى قَبلُ في ... مَعنَى الكَلاَمِ ومَا اهتَدَوا لِبَيَانِ

وَلأجلِ ذَا جَعَلُوا المَسِيحَ إلَهَهُم ... إذ قِيلَ كِلمَةُ خَالِـقٍ رَحمنِ

إما أن يُخاطِبَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أهلَ السنة، أو يُخاطِب هؤلاء، ليُبيِّن لهم أن استدلالهم بما يقول النصراني خطأ؛ لأنَّ النصارى غلِطوا في أعظم من هذا، لأن الله تعالى لَمَّا قال في المسيح ابن مريم: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، قالوا: إذًا المسيح كلمة، والكلمة وصف المُتكلِّم، فالمسيحُ جزءٌ من المُتكلِّم، وهو الله؛ لأنه كلمتُه، ولهذا قال:

يَا قَومُ قَد غَلِطَ النَّصَارَى قَبلُ في ... مَعنَى الكَلاَمِ ومَا اهتَدَوا لِبَيَانِ

وَلأجلِ ذَا جَعَلُوا المَسِيحَ إلَهَهُم ... إذ قِيلَ كِلمَةُ خَالِـقٍ رَحمنِ

لما قيل: إنه كلمة الله، قالوا: إذًا هو وصفٌ مُشتقٌّ منه، والوصف لازمُ الموصوف، فهو إذًا إله.

ولأجلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلاَ ... هُوتًا قَدِيمًا بَعدُ مُتَّحِدَانِ

الناسوت من الإنسان، واللاهوت من الإله، وقالوا: إن إلههم مُركَّبٌ من ناسوتٍ ولاهوتٍ، أمَّا اللاهوت قديم، وأمَّا الناسوت حادِث حلَّ فيه، كالكلام: المعنى قديم، واللفظ حادِث مخلوق، وسُمِّيَ الكلام كلام الله مع أنه مُركَّب من شيئين معنىً ولفظ، واللفظ مخلوق، والمعنى صفة، قال:

ولأجلِ ذَا جَعَلُوهُ نَاسُوتًا وَلاَ … هُوتًا قَدِيمًا بَعدُ مُتَّحِدَانِ

يعني: الناسوت واللاهوت اتَّحدا فكانا إلهًا.

وَنَظِيرُ هَذَا مَن يَقُولُ كَلاَمُهُ … مَعنًى قَدِيمٌ غَيرُ ذِي حِدثَانِ

والشَّطرُ مَخلُوقٌ وَتِلكَ حُرُوفُهُ … نَاسُوتُهُ لَكِن هُمَا غَيرَانِ

ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قارَنَ بين قول النصارى في عيسى ابن مريم: إنه كلمة، والكلمة صفة، فهو إله بهذا المعنى، مخلوق جسدًا، لكنه صفة لله عز وجل، وبين الكلام حيث يقولون: اللفظ مخلوق، والحروف مخلوقة، والمعنى صفة، فيقول ابن القيم: هذا نظيرُ هذا،

وَنَظِيرُ هَذَا مَن يَقُولُ كَلاَمُهُ … مَعنًى قَدِيمٌ غَيرُ ذِي حِدثَانِ

والشَّطرُ مَخلُوقٌ وَتِلكَ حُرُوفُهُ … نَاسُوتُهُ لَكِن هُمَا غَيرَانِ

هؤلاء الأشاعرة، والمعنى صفة، والشطر مخلوق، والحروف ناسوتًا؛ لأن الحروف عند الأشاعرة في الكلام كالناسوت عند النصارى في الإله، (لكن هما غَيْران)؛ لأنَّ اللفظ غير المعنى، وعيسى غير الله، لكن اتَّحدا.

فَانظُر إِلَى ذَا الاتِّفَاقِ فَإِنَّهُ … عَجَبٌ وَطَالِع سُنَّةَ الرَّحمنِ

اتفاق عجيب أن يستدلُّوا على الكلام بقول نصراني، ثم إذا طبَّقتَ هذا وهذا وجدتَ أنهما متشابهان، إن لم يكونا مِثلَيْن، فهما مُتشابهان، فقول النصارى في المسيح: جسده مخلوق، ومعناه -حقيقته- غير مخلوق؛ لأنه كلمة الله، وهؤلاء يقولون: اللفظ مخلوق، والمعنى غير مخلوق صفة.

يقول: (فإنه عجبٌ وطَالِع سنة الرحمن) كل مَن ضلَّ عن الحق ففيه شَبَهٌ من غير المسلمين، هذه قاعدة عامة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ اليَهُودَ افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى عَلَى ثِنتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً، وَهَذِهِ الأُمَّةُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِيْنَ

فِرْقَةً»[1]، ما من شيءٍ في هؤلاء إلا وسيحدث في هذه الأمة، فيركبون سَنَن من كان قبلهم، فكل مَن خالف ما عليه الرسول وأصحابه سوف يأخذ بنصيبٍ من موافقة اليهود والنصارى، الحسد، الكذِب، الخِداع، كله موجودٌ في اليهود والنصارى.

إذًا قضية الكلام تُشبِه من بعض الوجوه إن لم تُماثِل قضية عيسى ابن مريم في مُعتَقَد النصارى.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٨٥- فَـانظُر إِلَـى ذَا الاتِّفَـاقِ فَإِنَّـهُ
عَجَـبٌ وَطَـالِع سُـنَّةَ الـرَّحمنِ

٥٨٦- وتَكَايَسَـت أخـرَى وقَالَـت إنَّ ذَا
قَـولٌ مُحَـالٌ وَهـوَ خَمـسُ مَعَـانِ

٥٨٧- تِلكَ التي ذُكِرَت ومَعنًى جَامِعٌ
لِجَمِيعِهَـا كـالأُسِّ للبُنيَـانِ

٥٨٨- فَتَكُـونُ أنواعًـا وعِنـدَ نَظِيـرِهِم
أوصَـافُهُ وهُمَـا فمُتَّفِقَـانِ

٥٨٩- إنَّ الـذِي جَاءَ الرسُولُ بِهِ فمَخْـ
ـلُوقٌ وَلَـم يُسـمَع مِـنَ الـدَّيانِ

٥٩٠- والخُلـفُ بيـنَهُم فقيـل مُحَمَّـدٌ
أنشَـاهُ تَعبِيـرًا عَـنِ القُـرآنِ

٥٩١- والآخـرُونَ أبَـوا وَقَـالُوا إنَّمَـا

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٤٠)، وأبوداود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٨٣).

جبرِيـــلُ أنشَــاهُ عَــنِ المنَّــانِ

٥٩٢-وتكَايَسَـت أُخْـرَى وَقَالَـت إنَّـهُ
نَقْـلٌ مِـنَ اللَّـوحِ الرَّفِيـعِ الشَّـانِ

٥٩٣-فـاللَّوحُ مَبـدَاهُ وربُّ اللَّـوحِ قَـد
أنشَــاهُ خَلقًــا فِيــه ذَا حِــدثَانِ

٥٩٤-هَـذِي مقَـالاَتٌ لَهُـم فـانظر تَـرَى
فِـي كُتـبِهِم يَـا مَـن لَـهُ عَينَـانِ

٥٩٥-لَكِـنَّ أهـلَ الحَـقِّ قَـالُوا إنَّمَـا
جِبرِيـــلُ بلَّغَـــهُ عَـــنِ الـــرَّحمَنِ

٥٩٦-ألقَـاهُ مَسـمُوعًا لَـهُ مِـن رَبِّـهِ
للصَّـــادِقِ المَصْـــدُوقِ بالبُرهَـــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه تكَايَسَت أخرى؛ يعني: ادَّعَت الكَيْس، والكَيْس هو الفِطْنة والجِدّ والعدل، كما في قوله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»[(١)]، تكَايَسَت؛ يعني: قالت: أنا الذي أعلم، أنا الذي عندي الذكاء.

وقالت: (إنَّ ذا قولٌ مُحالٌ) الإشارة إلى قول الأشعرية: إنَّ الأمر والنهي، والخبر والاستخبار شيءٌ واحد، وإنَّ القرآن والتوراة والإنجيل والزَّبُور شيء واحد، قالوا: هذا شيء مُحال؛ كيف يقول: افعل أي: لا تفعل، وكيف يقول: هل أنتَ ؟ كمثل أنت، هذا أمرٌ غير معقول، ولكن الكلام خمس معان تلك التي ذُكِرَت، وهي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والخبر هذه أربعة، الخامس: ومعنىً جامعٍ لجميعها كالأُسِّ للبُنْيان؛ يعني: كأنَّ

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

الكلام شجرة له أصل، وله فروع، الأصل الجامع، والفروع أربعة؛ أمر، ونهي، وخبر، واستخبار.

وهذا التقسيم في الحقيقة تقسيمٌ ذِهْني، لا يمُتُّ إلى الحقيقة بصِلَة؛ لأنَّ هذا التقدير الذي قدَّروه وهمي، لا معنى له، ولهذا يقول: (فيكون أنواعًا) أي: تكون هذه الأربعة أنواعُه، وعند الآخرين (وعند نظيرهم أوصافُه) ومعلومٌ أنَّ الصفات تتعدَّد على موصوفٍ واحدٍ، لكن الأنواع لا تتنوَّع على شيءٍ واحد؛ لأنَّ قولك: هذا نوع، وهذا نوع؛ يعني: التبايُن، فصار الأولون الذين جعلوه شيئًا واحدًا قالوا: إن الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار أوصاف ثلاثة، أما الذين قالوا: هذا خطأ، جعلوا هذه الأربعة أنواعًا للكلام، فيكون كل واحدٍ منها قسيمًا للآخر وليس هو الآخر.

يقول: (وهما فمتفقان) يعني: أنَّ الطائفتين مُتفقتان على ما يأتي.

إنَّ الذِي جَاءَ الرسُولُ بِهِ فمَخْـ ـلُوقٌ وَلَم يُسمَع مِـنَ الدَّيـانِ

إذًا كل الخلاف الآن انصبَّ في أن القرآن المكتوب في المصاحف المسموع بالآذان مخلوق، كما قال المعتزلة، ثم اختلفوا أيضًا إذا كان مخلوقًا؛ فمن أين مصدره ؟ ثلاثة أقوال:

والخُلفُ بَينَهُم فقيـل مُحَمَّـدٌ أنشَـاهُ تَعبيـرًا عَـنِ القُـرآنِ

يعني: محمد عليه الصلاة والسلام هو الذي تكلَّم بالقرآن تعبيرًا عن كلام الله، أما هذا المسموع الذي سمعناه من رسول الله ﷺ فليس كلام الله.

والآخرُونَ أبَـوا وَقَالُـوا إنَّمَـا جِبرِيـلُ أنشَـاهُ عَـنِ المنَّـانِ

أي: ألهَمَ الله سبحانه جبريل فتكلَّم، بهذا القرآن.

الأول يقول: أُلِهَمَ إياه محمد، وعبَّر عن كلام الله الذي في نفس الله، والثاني يقول: لا، جبريل؛ لأن جبريل ينزل بكلام، فالذي أنشأه جبريل.

وتكَايَسَت أخرَى وَقَـالَت إنَّـهُ نَقلٌ مِنَ اللَّوحِ الرَّفِيعِ الشَّـانِ

اللوح المحفوظ، قالوا: إن الله قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، إذًا ليس من جبريل، ولا من محمد؛ بل من اللوح المحفوظ، جبريل أخذه من اللوح المحفوظ، وتكلَّم به على محمد.

فاللَّوحُ مَبدَاهُ وربُّ اللَّوحِ قَد ... أنشَاهُ خَلقًا فِيه ذَا حِدثَانِ

قالوا: إن الله خلق كلامًا في اللوح المحفوظ، فجاء جبريل فأخذ الكلام من اللوح المحفوظ، ثم نزل به إلى محمد، فإذًا الخلاف بينهم: هل أنشأه محمد ؟ أو هل أنشأه جبريل؟ أو هل أخذه جبريل من اللوح المحفوظ بدون إنساء، وجده مخلوقًا في اللوح المحفوظ، وأخذه من اللوح المحفوظ ونزل به؟ هذه ثلاثة أقوال.

هَذِي مقَالاَتٌ لهُم فانظر تَرَى ... فِي كُتبِهِم يَا مَن لَـهُ عَينَانِ

هذي مقالات لهم فانظر ترى في كتبهم يا من له عينان.

يعني: يقول: نحن ما كذبنا عليهم، هذا الكلام موجود في كتبهم، وإذا شئتَ أن تنظر فانظر.

لَكِنَّ أهلَ الحَقِّ قَالُوا إنَّمَا ... جِبرِيلُ بلَّغَهُ عَـنِ الرَّحمَـنِ

ألقَاهُ مَسمُوعًا لَـهُ مِـن رَبِّـهِ ... للصَّادِقِ المَصدُوقِ بالبُرهَانِ

هذا هو الحق، أن القرآن صدر من عند الله عز وجل، تكلَّم به ربُّ العزة والجلال، وسمعه جبريل، ونقله بأمانة إلى محمد ﷺ، ولهذا أضافه الله إلى الرسول البشري والرسول الملكي، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، أوصافٌ عظيمةٌ، كل هذا من أجل حماية القرآن، رسول كريم، ذي قوة يحفظ، عند ذي العرش له مكانة، يسمع من الرب جل وعلا مباشرة، مكين؛ يعني: له مكانة، مُطاعٍ ثَمَّ أمين، ولهذا يقول للملائكة: إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، قوي وأمين، وهذان الوصفان هما الركنان اللَّذيْن يتمُّ بهما الشيء ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وأضافه إلى الرسول البشري في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٢]، وأضافه إلى نفسه ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ومن المعلوم أنه لا يمكن أن يكون كلام الرسول وكلام جبريل وكلام الله، لا يمكن أن يكون الكلام الواحد لثلاثةٍ من المُتكلِّمين، إذًا إلى مَن يُنسَب حقيقةً ؟ إلى الأول أي: إلى الله، ويكون

منسوبًا إلى جبريل؛ لأنه بلَّغَه عن الله، وإلى محمد؛ لأنه بلَّغَه عن جبريل، بلَّغَه إلى الأمة.

فهم يقولون: (ألقاه مسموعًا له) ألقاه للصادق المصدوق بالبرهان، مسموعًا له من الله عز وجل، هذا مذهب أهل السنة والجماعة.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في مجامع طُرُقِ أهل الأرض واختلافهم في القرآن

استوعب المصنف أقوال أهل الأرض في هذه المسألة، وذكر أصلًا جامعًا تنبني عليه أقوالهم في القرآن، وأن أقوال الناس في القرآن سبعة أقوال تدور على أصلين أحدهما: هل قوله متعلق بقدرته ومشيئته أم لا؟. الثاني: هل قوله وكلامه قائم بذاته ومتصف به أم هو خارج عن الذات ومنفصل عنه؟. فعن هذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن، فالقائلون إنه لا يتعلق بمشيئته وإرادته طائفتان: إحداهما: الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية كما تقدم قولهم قريبًا، وأنه معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأن الموجود عبارة أو حكاية كما تقدم، فالحكاية قول أبي سعيد بن كلاب الذي تنسب إليه الكلابية، والعبارة قول أبي الحسن الأشعري وبعض أصحاب هؤلاء يقولون هذا الخلاف لفظي لا طائل تحته.

والطائفة الأخرى من القائلين إنه لا يتعلق بمشيئته قالوا إن ألفاظه ومعانيه قديمة قائمة بالنفس لا تقبل الحدوث، والحروف كلها قديمة ما زالت موجودة في الأزل والقدم. فلما قيل لهم هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن حروف الكلام طبعًا لا بد أن يسبق بعضها بعضًا، قالوا إنما ترتيبها بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي ما زالت متصاحبة مقترنة، ولا شك أن هذا القول إلى التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان، و هذا المذهب قول طائفة يقال لهم الاقترانية نسبة لهذا القول الذي انفردوا به، وهو مخالف لأصل الأئمة وموافق لبعض قول الكلابية. وذكر المصنف أن ابن الزاغوني من هذه الطائفة فرق بين ذوات هذه الحروف وبين حروفها، وزعم أنها مقترنة ذواتها مترتبة بوجودها،

وهذا التفريق باطل، فإن ذات الشيء وحقيقته وماهيته شيء واحد، ولا فرق بين هذه الحقائق سواء قدّرت في الأعيان أو في الأذهان، ولكن إذا اختلف التقدير أمكن افتراق التعبير، فإذا قيل الحقائق الخارجية غير الوجودات الذهنية فهذا صحيح، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده المتكلمون كالرازي وغيره وهو هل وجود الباري غير ذاته أو غير حقيقته أم لا؟ وأن الواجب أن يقال إذا اتحدت الاعتبارات فهما شيء واحد وإذا اختلفت العبارات اختلفت وفُرّق بين الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي والوجود الخارجي، فهذا غير هذا وهذا غير هذا. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن

٥٩٧- وَإِذَا أَردتَ مَجَامِعَ الطُّرقِ الَّتِي
فِيهَا افتِرَاقُ النَّاسِ فِي القُرآنِ

٥٩٨- فمَدارُهَا أصلانِ قَامَ عَلَيهِمَا
هَذَا الخِلافُ هُمَا رُكنَانِ

٥٩٩- هَل قولُهُ بمشِيئَةٍ أم لاَ وَهَل
في ذَاتِهِ أم خَارِجٌ هَذَانِ

٦٠٠- أصلا اختِلاَفِ جَمِيعِ أهلِ الأرضِ في الـ
ـقُرآنِ فاطلُب مُقتضَى البُرهَانِ

٦٠١- ثُمَّ الأُلَى قَالُوا بِغيرِ مَشِيئَةٍ
وَإِرَادَةٍ مِنهُ فَطَائِفَتَانِ

٦٠٢- إحدَاهُمَا جَعَلَتهُ مَعنًى قَائِمًا
بالنَّفسِ أو قَالُوا بِخَمسِ مَعَانِ

٦٠٣- وَاللهُ أحدَثَ هَذِهِ الألفَاظَ كَي
تُبدِيهِ مَعقُولًا إِلَى الأذهَانِ[1]

(١) [٥٩٧: ٦٠٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
هذا شروع من المؤلف في بحث اختلاف الطوائف في مسألة الكلام وقد أولاها هنا عناية خاصة، وأفاض في معالجتها نظرًا لما لها من أهمية كبرى، فقد كثر تنازع الفرق حولها واختلفت مذاهب الناس فيها، وكانت السبب في المحنة التي وقعت على أهل السنة في زمن المأمون والمعتصم حتى ضرب

٦٠٤- ولِـذَاكَ قَـالُوا إنَّهَـا لَيسَـت هـيَ الـ
ـــقُرآنُ بَـل دَلَّـت عَلَـى القــرآنِ

٦٠٥- ولربَّمـا سُـمِّي بِهَـا القُـرآنُ تَســ
ـــمِيَةَ المَجَـازِ وذَاكَ وَضـعٌ ثَـانِ

٦٠٦- وَلِـذلِكَ اختَلَفُـوا فقِيـلَ حِكَايَـةٌ
عَنـــهُ وقِيـــلَ عِبَـــارَةٌ لِبَيَـــانِ

٦٠٧- إذ كَـانَ مَـا يُحكَـى كَمحكِّـيٍ وَهَـ
ـــذَا اللَّفـظُ والمعنَـى فمُختَلِفَـانِ

٦٠٨- ولـذَا يُقَـالُ حَكَـى الحَـدِيثَ بعَينِـهِ
إذ كَـــانَ أوّلُـــهُ نَظِيـــرَ الثَّـــاني

٦٠٩- فَلِــذَاكَ قَــالُوا لاَ نَقُــولُ حِكَايَــةٌ
وَنَقُـــولُ ذَاكَ عِبَـــارَةُ الفُرقَـــانِ

٦١٠- والآخَـرُونَ يَـرَونَ هَـذَا البَحـثَ لَفـ
ـــظِيًّا ومَـــا فِيـــهِ كَبِيـــرُ مَعَـــانِ

الشَّـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ذكر في هذا الفصل مجامع طرق أهل الأرض، واختلافهم في القرآن الكريم وذلك على أصلَيْن:

هما: هل قول الله بمشيئةٍ، أو لا ؟ وهل هو في ذاته، أم خارجٌ عن ذاته ؟ هذان قولان،

الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وطيف به من أجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وقد حصر المؤلف الأقوال في هذه المسألة حصرًا مفيدًا حين رد الخلاف فيها إلى أصلين هما كالأساس له. أما الأصل الأول فهو: هل قوله تعالى متعلق بمشيئته وقدرته أم لا. وأما الأصل الثاني فهو: هل قوله وصف له قائم بذاته أم خارج عنها، فهذان الأصلان عليهما يدور كل خلاف بين أهل الأرض حول هذه المسألة.

هذان هما الأصلان الذي ينبني عليهما اختلافُ الناس في كلام الله عز وجل؛ هل هو بمشيئته أو لا؟ وهل هو في ذاته أم خارج ذاته ؟

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

ثُمَّ الأُلَى قَالُوا بِغيرِ مَشيئَةٍ وَإِرَادَةٍ مِنْـــهُ فَطَـائِفَتَـانِ

إِحدَاهُمَا جَعَلَتهُ مَعنًى قَائِمًا بالنَّفسِ أو قَالُوا بِخَمسِ مَعَـانِ

الفرقة الأخرى قالت: إنه لفظٌ ومعنىً... إلخ.

هذا الفصل ذكر فيه الأصلَيْن اللَّذَيْن يدُور عليهما اختلاف الناس في القرآن، ثم ذكر فيه مذهب الأشاعرة والكُلَّابيَّة فقط، فقالت: إن الذين قالوا: بغير مشيئة طائفتان:

إحداهما: جعلَتْه المعنى القائم بالنفس، وهم الأشاعرة، لكن اختلف الأشاعرة – كما سبق –، فقالوا: إنه معنىً واحد، وقال آخرون: إنه خمس معان، أمَّا الذين جعلوه معنىً واحدًا يقولون: الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار شيء واحد، والقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزَّبُور شيء واحد، وإذا أمَر الله تعالى بالشيء كونًا فقال: كن، فهو كالذي في القرآن بمعنى: أقيموا الصلاة، كلها شيء واحد.

وَالله أحدَثَ هَذِهِ الألفَاظَ كَي تُبدِيهِ مَعقُولًا إِلَى الأذهَانِ

إذًا فالألفاظ والأصوات المسموعة مخلوقة أم لا ؟ مخلوقة، وقالوا: إنها ليست هي القرآن، وإنما هي مخلوقة لتدلَّ على القرآن، إذًا لماذا سُمِّي القرآن كلام الله ؟ فقال: إنه مجاز، ولهذا قال:

ولربَّما سُمِّى بِهَا القُرآنُ تَس مِيَةَ المَجَازِ وذَاكَ وَضعٌ ثَانِ

ثم اختلفوا، فالأشاعرة قالوا: إنه عبارة، والكُلَّابيَّة قالوا: إنه حكاية، وتنازعوا.

وكذلك اختلفوا فقيل: حكاية عنه؛ أي: عن كلام الله؛ لأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وما يُسمَع فليس كلام الله، فقيل: حكاية عنه، وهذا مذهب الكُلَّابيَّة [١]، أتباع عبد

---

(١) الكلابية نسبة إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان التميمي البصري المتكلم رئيس الطائفة الكلابية وهو من المنتسبين إلى السنة وكانت بينه وبين المعتزلة مناظرات في زمن المأمون وتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، ويقال له ابن كلاب لشدة مجادلته في مجلس المناظرة وهو لقب له مأخوذ من الكلاب الذى هو المهماز وهو الحديدة التي على خف رائض الخيل لا أن كلابًا جده، ولهذا يصح أن يقال الكلابى بدل

الله بن سعيد بن كُلَّاب، حيث قالوا: لا نقول: إنه كلام الله حقًّا، ولا إنه عبارة عنه؛ بل هو حكاية عنه، لكن الأشاعرة قالوا: لا، نقول: عبارة عنه؛ لأنك إذا قلتَ: حكاية، فإنَّ الحكاية تجعل المحكيَّ كالمحكيِّ منه، ولهذا قال:

إذ كَانَ مَا يُحكَى كَمَحكِيٍّ وَهـ ـذَا اللَّفظُ والمعنَى فمختَلِفَانِ

الأشاعرة قالوا للكُلَّابيَّة: لا نوافقكم على أنه حكاية؛ لأن الحكاية تجعل ما يُحكَى كمَحْكِيٍّ، كما يقال: حكَى الحديث بعينه إذْ كان أوله – وهو المَحكِيُّ – نظير الثاني – وهو ما يُحكَى –، وعلى هذا فلا يصح أن نقول: إنه حكاية؛ لأن المسموع لفظ، والكلام معنى، واللفظ غير المعنى.

على كل حال؛ عندهم دقَّة، لكن كلهم على خطأ، فصار الأشاعرة يقولون للكُلَّابيَّة: لا نُوافقكم على أنه حكاية؛ لأن حكاية الشيء تقتضي أن يكون المَحْكِيَّ هو المُحْكَى، وهذا لا يمكن؛ لأن الكلام معنى، والمسموع لفظ غير معنى، فالكلام غير مخلوق، والمسموع مخلوق، فلا يمكن أن نقول: إنه حكاية لعدم الاتفاق.

ولذَا يُقَالُ حَكَى الحَدِيثَ بعَينِهِ إذ كَـانَ أولُـهُ نَظِيـرَ الثَّـانـي
فَلِذَاكَ قَالُوا لاَ نَقُـولُ حِكَايَـةٌ وَنَقُـولُ ذَاكَ عِبَـارَةُ الفُرقَـانِ

فجاء قومٌ آخرون أهل الإصلاح، وقالوا: كل هذا النزاع نزاع لفظي، إن قلتَ: حكاية أو عبارة فالمعنى واحد، لا تجعلوا بأسَكم بينكم، فتُسلِّطوا عليكم خصومكم، اصطلِحوا، فقال:

والآخَرُونَ يَرَونَ هَذَا البَحثَ لَفـ ـظِيًا ومَـا فِيـهِ كَبِيـرُ مَعَـانِ

فجرى الصلح بين الأشاعرة والكُلَّابيَّة، كل هذا الخلاف لفظي، وما تحته كبير معان، وإذا كان لفظيًّا صار البحث فيه مُتعبًا للأفكار مُضيِّعًا للأوقات، فلا حاجة، اتفقتم الآن أن هذا المسموع ليس كلام الله، واتفقتم أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، فقولوا: المعنى

ابن كلاب، وابن كلاب هذا الذى سلك الأشعري منهجه في كثير من الأقوال الكلامية حين جرى بينه وبين أستاذه الجبائى المعتزلي مناظرة في مسائل الصلاح والأصلح متخاصمًا، وانحاز الأشعرية إلى هذه الطائفة فأيد مقالتهم بمناهج كلامية. معجم ألفاظ العقيدة (ص ٢٣٧ و ٢٣٨).

واحد؛ لأن الحكاية والعبارة معناهما واحد؛ لأننا جميعًا متفقون على أن ما يُسمَع ليس كلام الله؛ بل هو مخلوق، وعلى أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وحينئذٍ يُجرَى الصلح بيننا ولا نختلف.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مذهب الاقترانية[1]

٦١١- وَالفِرقَةُ الأخرَى فقَالَت إنَّهُ
لَفظٌ وَمَعنًى لَيسَ ينفصِلاَنِ

٦١٢- واللَّفظُ كالمعنَى قَدِيمٌ قَائِمٌ
بالنَّفسِ لَيسَ بقَابِلِ الحِدثَانِ

٦١٣- فَالسِّينُ عِندَ البَاءِ لا مَسبُوقَةٌ
لَكِن هُمَا حَرفَانِ مُقتَرِنَانِ

٦١٤- والقَائِلُون بِذَا يقولُون إنَّمَا
تَرتِيبُهَا فِي السَّمعِ بالآذَانِ

٦١٥- وَلَهَا اقتِرانٌ ثَابِتٌ لِذَوَاتِهَا
فاعجَب لِذَا التَّخلِيطِ والهَذَيَانِ

٦١٦- لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُم قَد قَالَ إنَّ
ذَوَاتَهَا وَوُجُودَهَا غَيرَانِ

٦١٧- فترتَّب بِوُجُودِهَا لاَ ذَاتِهَا
يَا لَلْعُقُولِ وَزَيغَةِ الأذهَانِ

٦١٨- لَيسَ الوُجُودُ سِوى حَقِيقَتَهَا لِذِي الـ

(١) هي فرقة تقول في كلام الله عزوجل إنه حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم، وجمهور هؤلاء يقولون إن تلك الأصوات هي الأصوات المسموعة من القراء. معجم ألفاظ العقيدة (ص ٤٧).

أذهَـانِ بَـل فـي هَـذِهِ الأعيَـانِ

٦١٩- لَكِـن إذَا أخَـذَ الحقيقَـةَ خَارجًـا
وَوُجُودَهَـا ذِهنًـا فمُختَلِفَـانِ

٦٢٠- وَالعَكـسُ أيضًـا مِثـلُ ذَا فـإذَا هُمَـا
اتَّحَـدَا اعتبَـارًا لَـم يَكُـن شَـيئَانِ

٦٢١- وَبِـذَا تـزُولُ جَمِيـعُ إشـكَالاتِهِم
فـي ذَاتِـهِ وَوُجُـودِهِ الـرَّحمنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه فرقة الاقترانية، قالوا أيضًا: إن الكلام لا يتعلَّقُ بمشيئتِه وإرادته، وأنَّ اللفظ والمعنى قديم، وإذا جعلوا المعنى واللفظ قديمًا لزِمَ أن تكون الكلمات بعضها لا يسبِقُ بعضًا؛ لأنه لو سبق بعضُها بعضًا صار المتأخر حادثًا بعد الأول، وبطَلَ قولنا: إنه قديم، لذلك قالوا: إن الكلمات مُقترِنة، السين عند الباء لا مسبوقة، السين من قولك: بسم الله الرحمن الرحيم عند الباء لاصقة بها، ما تكون قبلها ولا بعدها؛ لأنك لو قلتَ: إن السين بعد الباء لزِمَ أن يكون الحادِث، حدَثَت السين بعد الباء، فبطَلَ قولُنا: إنه قديم، إذًا نقول بهذا القول المُضحِك كل الكلمات من أول ما تكلَّم الله إلى ما لا نهاية له، كلها جاءت واحدة، ما تقدَّم بعضُها على بعض، فالله عز وجل في القرآن قاله بحروفه، قاله بحرفٍ واحد، لم يتقدَّم بعضُها على بعض، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أول سورة البقرة، ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] آخر سورة البقرة، وما بينهما كله جاء دُفْعة واحدة، ما في بعض مُتقدِّم على بعض، حذَرًا من أن نقول: إنه حادِث، نقول: إنه قديم.

هؤلاء في الحقيقة أبعدُ وأبعدُ عن المعقول من الذين قبلهم، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاعجب لذا التخليط والهذيان)، يُسمَّى هؤلاء: الاقترانية الذين يَرَون أن حروف الكلمات والكلمات بعضُها مُقترِن ببعض لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، إذًا هؤلاء الاقترانية، والذين قالوا: إنه

حكاية، والذين قالوا: إنه عبارة، والذين قالوا: إنه معنى واحد، والذين قالوا: خمسة معان كلُّهم فرُّوا من شيءٍ واحد، قالوا: لو قلنا: إنَّ الكلام حادِث لزِمَ قيام الحوادث بذات الله عز وجل، وما قامت به الحوادث فهو حادِث، وحُدُوث الله ممتنع، فلزِمَ أن تقوم به الحوادث.

أتعجب: هل هذه القاعدة صحيحة أم باطلة؟ باطلة، إذا قلنا: إن القرآن كلام الله باللفظ والمعنى، فلزِمَ أن يكون حادِثًا باعتبار أصلِه وجِنْسِه؛ لأن أصل الكلام وجِنسَه أزلي قديم؛ لأن الله لم يزَل ولا يزَال عز وجل مُتكلِّمًا، ثم على فرض أننا قلنا بالحُدُوث، فإنه لا يلزم من قيام الحادِث بالموصوف به أن يكون الموصوف به حادثًا، ضرورة أن الموصوف بالكلام أو الفعل متقدِّم على الوصف.

الفرقة الأخرى باعتبار القول بأن الكلام لا يتعلَّقُ بمشيئته، وليس خارجًا عن ذاته، قالت: (إنه لفظًا ومعنىً ليس ينفصِلان، واللفظ كالمعنى قديم)، وإذا كان اللفظ قديمًا لزِمَ أن تكون الحروف مُقترِنة، ولكان الثاني حادثًا، والذي قبله حادثًا بالنسبة لما قبله، ولهذا قال:

واللَّفظُ كالمعنَى قَدِيـمٌ قَائِمٌ ... بالنَّفسِ لَيسَ بقَابِـلِ الحِدثَـانِ
فَالسِّينُ عِندَ البَـاءِ لا مَسبُوقَـةٌ ... لَكِن هُمَـا حَرفَـانِ مُقترِنَـانِ

حتى في الإمالة الذين يقولون ﴿مَجْرِبهَا﴾ [هود: ٤١] بين الألف والهاء.

والقَائِلُون بِـذَا يقُولُـوا إنَّمَـا ... تَرتِيبُهَا فـي السَّمـعِ بـالآذَانِ

يعني: نحن نسمعها مُرتَّبة، ولكنَّ حقيقتها أنها غير مُرتَّبة، لكن سمعك هو الذي يسمعها مُرتَّبة.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ولها اقتران ثابت لذواتها) هي باعتبار الذات والحقيقة مُقترِنة، لكن الترتيب في السمع (فاعجب لذا التخليط والهذيان).

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لكن زَاغُونِيَّهم قد قال) الزاغوني هنا أحد علماء الكلام، اسمه ابن الزاغوني، لكنَّه ليس علي بن الزاغوني المعروف الفقيه الأصولي، الذي من أصحاب الإمام أحمد، وينقلون عنه في الفقه، قال ابن الزاغوني كذا، هذا غيره.

لَكِنَّ زَاغُونِيَّهُم قَـد قَـالَ إنَّ ذَوَاتِهَـا وَوُجُـودَهَـا غَيـرَانِ

يقول: إنَّ ذواتها ووجودها متغاير (فترتبت بوجودها لا ذاتها)، الأولون يقولون: ترتَّبت بالسمع، أما وجودها وذاتها فلم تترتَّب، لكن هذا جعل لها ذات ووجود وسمع، لم يتكلَّم عن السمع، بل تكلَّمَ عن الذات والوجود، يقول:

فترتَّبتْ بِـوُجُودِهَـا لاَ ذَاتِهَـا يَـا لَلْعُقُولِ وَزَيغَـةِ الأذهَـانَ

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّ عقولهم هوى، وأذهانَهم زائغة.

لَيسَ الوُجُودُ سِوى حَقِيقَتِهَا لِذِي الـ أذهَانِ بَـل فـي هَـذهِ الأعيَـانِ

وجود هذه الفروق هو حقيقته في الواقع، فكيف تُفرِّق يا ابن الزاغوني بين الوجود والحقيقة ؟ الواقع أنَّ حقيقته هو وجوده، ولا يوجد حرف إلا إذا وُجِدَت حقيقته؛ يعني: لا يُقال: هذه تاء إلا إذا وُجِدَت، كيف نقول لها حقيقة وهي لم توجد، وجودها وحقيقتها سواء، ولهذا قال المؤلف:

لَيسَ الوُجُودُ سِوى حَقِيقَتِهَا لِذِي الـ أذهَانِ بَـل فـي هَـذهِ الأعيَـانِ

يعني: أنَّ وجود الحرف هو حقيقته سواءٌ قدَّرتَه في الذِّهْن، أو رأيتَه في الخارج.

لَكِن إذَا أخَذَ الحقِيقَةَ خَارجًا وَوُجُودَهَـا ذِهنًـا فمُختَلِفَـانِ

وَالعَكسُ أيضًا مِثلُ ذَا فإذَا هُمَا اتَّحَدَا اعتبَارًا لَم يَكُن شَيئَانِ

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: يمكن أن نُفرِّق بين الحقيقة والوجود بأن نقول: إن الحقيقة قد تكون في الذِّهْن، والخارج في العين؛ بمعنى: أنَّ الإنسان قد يُقدِّر في ذهنه حرفًا، فإذا برزَ ونطق به أو كَتَبَه صار الآن موجودًا، يقول: يمكن أن نُفرِّق بين الحقيقة والوجود باعتبار الذهن والخارج، أما باعتبار الحقيقة فلا يمكن أن نُفرِّق؛ بل نقول: وجود الشيء هو عين ذاته، لكن باعتبار الذهن والوجود عينًا يمكن أن نُفرِّق.

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مُنصِف، لَمَّا أنكرَ عَلَى ابن الزاغوني جعْلَه الوجود غير الحقيقة، قال: ممكن أن نجعل الوجود غير الحقيقة باعتبار الذهن والخارج، فالذهن الذي عندك، والخارج الذي في أمريكا، أما الخارج ما وُجِدَ عينًا؛ يعني: عين الشيء؛ لأن الشيء له وجود في الذهن ووجود في الخارج، وجوده في الذهن تصوُّر الإنسان له، ووجوده في الخارج أن يكون مقروءًا

إن كان قولًا، أو مكتوبًا إن كان كتابة، أو مخروقًا إن كان مخروقًا، المهم: أنه يبعُد.

لَكِن إِذَا أَخَذَ الحقيقَةَ خَارِجًا وَوُجُودَهَا ذِهنًا فمُختَلِفَانِ

صار الوجود غير الحقيقة، إذا جعلتَ المراد بالوجود وجوده في الذهن، والحقيقة موجودة في الخارج، والعكس أيضًا مثل ذلك؛ يعني: وجودها خارجًا، وحقيقتها ذهنًا.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فإذا هما اتَّحدا اعتبارًا لم يكن شيئان) وهذا هو الذي أراده ابن الزاغوني، وأنكر عليه ابن القيم، باعتبار الحقيقة والوجود لا الذهن والخارج هل يمكن أن نقول: هما شيئان؟ لا، ولهذا قال: (فإذا هما اتَّحدا اعتبارًا لم يكن شيئان).

وَبِذَا تَزُولُ جَمِيعُ إشكَالاَتِهِم فِي ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ الرَّحمنِ

يعني: أنَّ الفلاسفة اختلفوا واضطربوا؛ هل وجود الله عين حقيقته ؟ أو وجود الشيء والحقيقة شيء آخر ؟ اضطربوا في هذا، وألَّفوا المُجلَّدات والكتب، والذي يقرأ كتب شيخ الإسلام يرى كيفية الخلاف في هذا؛ هل وجود الله عين حقيقته أو خلاف حقيقته ؟

نقول: أما إذا أردتَ الأمر الواقع، فالوجود هو الحقيقة، أما إذا أردتَ الذهن والخارج، فهما شيئان، وكذلك نضربه مثلًا في الإنسان، فالإنسان وجوده هل هو حقيقته أم لا ؟ إن أردتَ باعتبار الحقيقة فهما شيء واحد، لا يختلفان، وجوده هو عدمه، وإن أردتَ في الذهن بأن تُقدِّر أنَّ شيئًا يوجد ثم وُجِد فهما شيئان.

انتهى الكلام على القائلين بأنَّ الكلام لا يتعلَّق بالمشيئة، فصاروا ثلاث طوائف: الأشاعرة، والكُلَّابيَّة، والاقترانيَّة، والفرق بينهم:

الأشاعرة يقولون: إن الكلام المسموع عبارة عن كلام الله، والكُلَّابيَّة يقولون: حكاية، إذًا ما هو الكلام ؟ اتفقوا على أنَّ الكلام هو المعنى الأزلي القديم القائم بنفس الله عز وجل، وما يُشبِه فهو إما عبارة، وإما حكاية، ثم اختلفوا أيضًا هل هو شيءٌ واحدٌ، أو أشياء مختلفة، وهل هذه أنواع أو أوصاف ؟ كما مرَّ.

الاقترانية قالوا: كلام الله هو اللفظ والمعنى، لكنَّ اللفظ والمعنى كلاهما قديم، ولَمَّا أَسَّسوا هذه القاعدة اضطُّرُّوا إلى أن يقولوا بالاقتران؛ لأنهم لو قالوا بالترتيب لزِمَ الحدوث؛

إذ يقع الحرف الثاني بعد الأول، والكلمة الثانية بعد الأولى، فقالوا: نَسْلَم من هذا كله، ونقول بقول المجانين، مُقترِنان، الباء والسين شيء واحد مُقترِنان، ما يمكن أن تكون السين بعد الباء.

أما ابن الزاغوني الذي تحَذْلَق قال: هذا باعتبار الحقيقة والوجود، فالوجود مُترتِّب، والحقيقة مُقترِنة.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

وأما ا لقائلون بأن القرآن متعلق بمشيئة الله وقدرته فهم أيضًا طائفتان: إحداهما: الجهمية المعتزلة القائلون بأن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق السموات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول، فلما قال الناس لهم هذا أمر معلوم بطلانه، فإن الكلام صفة المتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة صفة إلى موصوفها، فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله وبيت الله وعبد الله، فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه، فقالوا إن الإضافة نوعان:

أحدهما: ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله وناقة الله ونحوهما فهذه الإضافة لبعض مخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بما امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة.

والثاني: إضافة معانٍ وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه، فهذه الإضافة من باب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات.

وهذا القول الذي ذكره في هذا الفصل مقالة الجهمية ومتأخري المعتزلة، وأما متقدمو المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأصحابهم الذين اعتزلوا عن مجلس الحسن البصري حين قرر مذهب الحق في الإيمان وأنه اسم جامع للعقائد والأقوال والأفعال، وأنه يزيد وينقص، وأن الفاسق الملي مؤمن ناقص الإيمان غير مخلد في النار، فلم يرتضوا هذا لأن مذهبهم شبيه بمذهب الخوارج من جهة المعنى لتخليدهم أهل الكبائر في النار، ولكنهم يخالفونهم في اللفظ فيقولون: إن صاحب الكبيرة الذي لم يتب منها ليس بمؤمن ولا كافر بل هو منزلة بين منزلتين، ومع ذلك تناقضوا فخلدوه في النار. من ذلك الوقت سماهم

الحسن البصري بالمعتزلة لهذا السبب؛ فهؤلاء قولهم في القرآن يوافق قول أهل السنة والجماعة أنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بُدِيَء وإليه يعود، وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام في أهل البدع، وانقسامهم إلى كافر وفاسق وضال ودون ذلك. والله أعلم.

الفرقة الثانية من القائلين إنه يتعلق بمشيئته وإرادته انقسموا إلى طائفتين:

إحداهما: الكرامية قالوا إن كلامه تعالى متعلق بمشيئته وقدرته، وصدقوا في هذا ولكن قالوا إنه حادث النوع، وأخطأوا خطأ كبيرًا. والذي أوجب لهم هذا الخطأ الفاحش كونهم ظنوا أنهم إذا أثبتوا قدم النوع أن ذلك يوجب التسلسل الذي يفسد عليهم الطريق الذي أثبتوا به وجود الخالق، فلذلك قالوا إنه حادث النوع، وجعلوا أفعال الله وكلامه في هذا سواء كلها حادثة بعد أن لم تكن، ولكنها بعد ذلك لا تزال ولا تفنى ولا تبيد.

قالت الكرامية: ولم ينصف خصومنا من الكلابية والأشعرية حيث شنعوا علينا بهذا القول وأقاموا علينا القيامة بسببه، فلو فكروا في أنفسهم لعرفوا أن غلطهم أكبر منا وأشد جرمًا، فإنهم قالوا: إن الفعل عين المفعول، فهل في تعطيل أفعال الله أعظم من هذا التعطيل، فإذا لم يقم بالله لا قول ولا فعل فهذان التعطيلان أبلغ من قولنا بحلول الحوادث حيث عبروا بهذا اللفظ البشع.

وحقيقة الأمر أن الطائفتين منحرفتان، ولكن الكرامية أهون خطأً من الأشعرية ومن تبع الجهمية في هذا الأصل، ولم يبق على الكرامية إلا مرتبة لو قالوها واعتقدوها لهدوا إلى الرشد وهي موافقتهم لأهل السنة والجماعة كالإمام أحمد والبخاري وبقية الأئمة، وإنما نص المصنف على هذين الإمامين لأنهما ابتليا في هذه المسألة وأظهرا من السنة والتفاصيل فيها ما لم يكن لغيرهما، فلهذا عقد لمذهبهم فصلًا فقال:

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل في مذاهب القائلين بأنه متعلّق بالمشيئة والإرادة

٦٢٢- وَالقَـــائِلُونَ بِأَنَّـــهُ بِمَشِـــيئَةٍ
وَإِرَادَةٍ أيضًـــا فَهُـــم صِـــنفَانِ

٦٢٣- إحـدَاهمَا جَعَلَتـهُ خَـارِجَ ذَاتِـهِ
كَمَشِـــيئَةٍ لِلخَلـــقِ والأكـــوَانِ

٦٢٤- قَـالوا وَصَـارَ كَلامُـهُ بِإضَـافَةِ التَّـ
ـــشرِيفِ مِثـلَ البيـتِ ذِي الأركَـانِ

٦٢٥- مَـا قَـالَ عنـدَهُمُ ولا هُـوَ قَائِـلٌ
والقَـولُ لَـم يُسـمَع مِـنَ الـدَّيَّانِ

٦٢٦- فَـالقَولُ مَفعُـولٌ لَـدَيهِم قَـائِمٌ
بِـــالغَيرِ كَـــالأعرَاضِ والأكـــوان

٦٢٧- هَـذِي مَقَالَـةُ كُـلِّ جَهمِـيٍّ وهُـم
فِيهَـــا الشُّـــيُوخُ مُعَلِّمُـــو الصِّـــبيَانِ(1)

---

(١) [٦٢٢: ٦٢٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
وأما قولهم إن إضافة الكلام إلى الله إنما هي إضافة تشريف، كإضافة البيت والناقة فغلط صريح، بل هي إضافة صفة إلى موصوف؛ لأن الإضافة نوعان: أحدهما ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان المخلوقة، كالبيت والناقة ونحوهما. فهذه الإضافة تفيد تشريف المضاف والتنويه بها امتاز به من الصفات العظيمة، والثاني ما يضيفه الله إلى نفسه من المعاني والصفات التي لا تقوم بنفسها، كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه إلخ.
فهذه الإضافة تقتضي قيام هذه المعاني بالمضاف إليه واتصافه بها، وهذا فرق بديهي، ويلزم عل مذهب

٦٢٨- لَكِـنَّ أهـلَ الاعتِـزَالِ قَـدِيمَهُم
لَـم يـذهَبُوا ذَا المَـذهَبِ الشَّـيطَانِي

٦٢٩- وَهُم الأُلَى اعتزَلُوا عَنِ الحسَنِ الرِّ
ضَـا البَصـرِيِّ ذَاكَ العَـالِمِ الربَّـاني

٦٣٠- وَكَـذَاكَ أتبَـاعٌ عَلَـى مِنهَـاجِهِم
مِـن قَبـلِ جَهـمٍ صَـاحِبِ الحِـدثَانِ

٦٣١- لَكِنَّمَـا متـأخِّرُوهم بَعـدَ ذَ
لَـكَ وافقُـوا جهمًـا عَلَـى الكُفـرانِ

٦٣٢- فَهُـمُ بـذَا جَهمِيَّـةٌ أهـلُ اعتِـزَا
لٍ ثَـوبُهُم أضـحَى لَـه عَلَمَـانِ

٦٣٣- وَلَقَد تَقَلَّدَ كُفرَهُم خَمسُونَ في
عَشـرٍ مِـنَ العُلَمَـاءِ فـي البُلـدَانِ

٦٣٤- وَاللالَّكَـائِيُّ الإمَـامُ حَكَـاهُ عَنـ
ـهُم حَكَـاهُ قَبلَـهُ الطَّبَرَانِـي

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هؤلاء القائلون بأن القرآن يتعلَّق بمشيئة الله صِنفان:

صِنْف جعلَتْه مخلوقًا بائنًا عن الله عز وجل كسائر المخلوقات، وقالوا: إن مشيئته لكلامه كمشيئته لخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وقالوا: والإضافة في الكلام إضافة

هؤلاء أن الله لم يتصف بالقول أبدًا، فلا هو قال في الماضي، ولا هو قائل الآن أو مستقبلًا، وأنه لم يسمع منه قول، إذ كان القول عندهم مفعوله الذي خلقه في الغير على أنه عرض له كسائر الأعراض القائمة بالأجسام، وهذا هو مذهب الجهمية في الأصل، وهم شيوخه وأساتذته، وعنهم أخذه من اقتدى بهم من الصبيان، يعني متأخري المعتزلة.

تشريف كإضافة البيت إلى الله في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وإضافة الناقة إلى الله في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، فعلى هؤلاء يقول المؤلف: (ما قال عندهم ولا هو قائل) حقيقة الأمر أنَّ هؤلاء نفَوا قولَ الله؛ لأنهم إذا جعلوه شيئًا بائنًا منفصلًا عنه مُتعلِّقًا بمشيئته صار لا يُنسَبُ إلى الله على اعتبار أنَّه صفة، فإذا كان لا يُنسبُ إليه على اعتبار أنه صفة صار الله تعالى لم يقُل، ولا يقول، إذًا فهو عندهم مُعطَّلٌ عن الكلام؛ لأن الكلام شيء منفصل بائن عن الله وليس من وصف الله.

مَا قَالَ عندَهُم ولا هُوَ قَائِلٌ والقَولُ لَم يُسمَع مِنَ الدَّيَّانِ

إنما سُمِع من مخلوقاته، سُمِع من جبريل، خلق الله فيه الصوت، أو من الشجرة التي نادى منها موسى، أو ما أشبه ذلك، قال: (فالقول مفعولٌ لديهم قائمٌ) يعني: قول بمعنى مقُول؛ أي: مخلوق (قائمٌ بالغير كالأعراض والأكوان) يعني: ليس قائمًا بالله؛ بل هو قائمٌ بغيره، وإذا قلنا: من أين سمِعَ موسى الصوت ؟ قالوا: سمِعَه من الشجرة، ومن أين سمِع محمد الصوت ؟ من جبريل، خلق الله صوتًا في جبريل، ومن أين سمِع جبريل الصوت ؟ من الهواء، خلق الله تعالى أصواتًا في الهواء، فسمِعَها جبريل - نسأل الله العافية -، أما قول يُنسَبُ إلى الله فلا.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا القول قول كل جهمي، فكل جهمي يقول بهذا القول، والجهمية أتباعُ جهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم، وأصلُ مقالة التعطيل من الجعد بن درهم، فإن الجعد بن درهم خرج بمقالته البِدْعيَّة وقال: إن الله لم يُكلِّم موسى تكليمًا، ولا اتَّخذ إبراهيم خليلًا، وهذا ما هو صحيح، ولما اتَّخذ هذه المقالة لم يجعل له ولاة الأمر فُسْحة ينشرها، بل حبَسوه ثم قتلوه، حيث خرج به خالد بن عبد الله القَسْري في يوم العيد، وخطَبَ الناس، وأعلَمَهم بالأُضْحِية، وأحكامها، وقال في آخر خطبته: ضحُّوا تقبَّلَ الله ضحاياكم، فإنِّي مُضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعَمَ أنَّ الله لم يتَّخِذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسى تكليمًا، ثم نزل فذبحه، شأن ولاة الأمور فيما سبق، الأمراء والسلاطين، يخرجون بالضحايا في الخارج، كما أن النبي ﷺ يفعل، يقول ابن القيم في هذا:

وَلأجلِ ذَا ضَحَّى بجعدٍ خالدُ الـ ـقَسرِيُّ يَومَ ذَبائِحِ القُربَانِ

إذ قَـالَ إبرَاهِيـمُ لـيسَ خِـليلَـهُ   كلا ولا مُوسى الكليـمَ الـداني
شكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صاحِبِ سُنَّـةٍ   لـلـهِ درُّكَ مِـن أخِـي قُـربَـانِ

كل صاحب سنة شكر الله أن جعل موت هذا الرجل على يد هذا الشجاع البطل، الحاصل: أن الجعد بن درهم نبا بهذه الكلمة – والعياذ بالله –، وأصل التعطيل مبنيٌّ على هذين الكلمتين: نفي المحبة، ونفي الكلام، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان، وكان فصيحًا بليغًا، فنشر المذهب ونُسِبَت الجهمية إليه مع أنه ثاني من قال به.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذِي مَقَالَةُ كُلِّ جهميٍّ وهُم   فِيهَـا الشُّيوخُ مُعَلِّمـو الصِّبيَـانِ

انتقاد بليغ، ما عندهم عقول.

لَكِنَّ أهـلَ الاعتِـزَالِ قَـدِيمَـهُم   لَم يـذهَبُوا ذَا المَذهَبِ الشَّيطانِي
وَهُم الألَى اعتزَلُوا عَنِ الحسَنِ الرِّ   ضَـا البَصرِيِّ ذَاكَ العالِمِ الربَّانِي

أهل الاعتزال: عمرو بن عُبَيْد[(١)]، وواصل بن عطاء[(٢)] ما ذهبوا هذا المذهب في أول الأمر؛ يعني: ما ذهبوا إلى هذا التعطيل، تعطيل الكلام، وتعطيل المحبة، ولكن فيما بعد نحوا هذا المَنْحَى، مثل الرافضة كانوا أول أمرهم مُشبِّهة، وهشام بن الحكم الرافضي[(٣)] هو

---

(١) عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ) عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء، أبو عثمان البصري: شيخ المعتزلةِ في عصره، ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين، كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجًا ثم شرطيا للحجاج في البصرة، واشتهر عمرو بعلمه وزهده وأخباره مع المنصور العباسي وغيره. الأعلام (٥/ ٨١).

(٢) واصل بن عطاء البصري الغزال المتكلم البليغ المتشدق الذي كان يلثغ بالراء نقل عنه أنه هجر الراء وتجنبها في خطابه سمع من الحسن البصري وغيره قال أبو الفتح الأزدي رجل سوء كافر، قلت كان من أجلاء المعتزلة ولد سنة ثمانين بالمدينة، وله من التصانيف كتاب أصناف المرجئة وكتاب التوبة وكتاب معاني القرآن وكان يتوقف في عدالة أهل الجمل ويقول إحدى الطائفتين فسقت لا بعينها فلو شهد عندي علي وعائشة وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم مات سنة إحدى وثلاثين ومائة. لسان الميزان ٦/ ٢١٤).

(٣) هشام بن الحكم أبو محمد الشيباني من أهل الكوفة سكن بغداد وكان من كبار الرافضة ومشاهيرهم وكان مجسمًا يزعم أن ربه طوله سبعة أشبار بشبر نفسه ويزعم أن علم الله محدث ذكر ذلك ابن حزم وقال قتيبة في مختلف الحديث كان من الغلاة ويقول بالجبر الشديد ويبالغ في ذلك ويجوز المحال الذي

أول مَن قال بالتشبيه، لكن فيما بعد تركوا التشبيه – وهو الغلو في الإثبات –، وذهبوا إلى التعطيل – وهو الغلو في التنزيه –، وصاروا على مذهب المعتزلة في نفي الصفات.

وَكَذَاكَ أتبَاعٌ عَلَى مِنهَاجِهِم مِن قَبلِ جَهمٍ صَاحِبِ الحِدثَانِ
لَكِنَّمَا متأخِّرُوهم بَعدَ ذَ لَكَ وافَقُوا جَهمًا عَلَى الكُفرانِ

علمان يعني: خطَّان، خط أحمر، وخط أسود، اعتزال من وجه، وتجهُّم من وجهٍ آخر، ولهذا كان المعتزلة يوافقون الجهمية في نفي الصفات، لكن يخالفونهم في مسألة الوعيد والأحكام؛ ففي مسألة الوعيد والأحكام الجهمية يقولون: كل فاسق مارد شيطان فهو مؤمن كامل الإيمان، ولا يمسّه عذاب، أمَّا المعتزلة يقولون: لو فعل الإنسان كبيرةً واحدة صار من أهل النار، فبينهما فرق عظيم، فهؤلاء يقولون: مؤمن كامل الإيمان، لن يمسَّه العذاب، وهو في الجنة، وهؤلاء يقولون: خارجٌ من الإيمان، ومُستوجِبٌ للخلود في النيران – والعياذ بالله – فصار لهم ثوبان: ثوب جهم في الصفات مُعطِّلة، وثوب اعتزال في مسألة الأسماء والأحكام.

وَلَقَد تَقَلَّدَ كُفرَهُم خَمسُونَ في عَشرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلدَانِ

خمسمائة عالم تقلَّدوا هذا القول، ولكن أيضًا تولَّد من الخمسمائة عالم من كل عالم خمسمائة، وكثُرَ مذهب الاعتزال، حتى إنه كان بعض الناس يُسَمُّونهم العُقلاء، وهم الجُهلاء، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (أُعطُوا ذكاءً، وما أُوتُوا زكاءً).

❁ ❁ ❁

لا يتردد في بطلانه ذو عقل وكان يسكن الكرخ وينقطع إلى يحيى بن خالد قال محمد بن إسحاق النديم كان عارفًا بصناعة الكلام له فيه مصنفات كثيرة وكان من أصحاب جعفر بن محمد الصادق ومات بعد نكبة البرامكة بمديدة مستترًا ويقال عاش إلى خلافة المأمون. لسان الميزان (٦/ ١٩٤).

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مذهب الكرامية (١)

٦٣٥- وَالقَـــائِلونَ بِأَنَّـــهُ بمشِـــيئَةٍ
فـــي ذَاتِـــهِ أيضًـــا فَهُـــم نوعَـــانِ

٦٣٦- إحــدَاهُمَا جَعَلَتــهُ مَبــدُوءًا بِــهِ
نَوعًـــا حِـــذَارَ تسلسُـــلِ الأعيَـــانِ

٦٣٧- فَيَسُــدُّ ذَاكَ عَلَيهِمُ فـي زَعمِهِـم
إثبَـــاتَ خَـــالِقِ هَـــذِهِ الأكـــوَانِ

٦٣٨- فَلِــذَاكَ قَــالُوا إنَّــهُ ذُو أوَّلٍ
مَـــا لِلفَنَـــاءِ عَلَيـــهِ مِـــن سُـــلطَانِ

٦٣٩- وَكَلاَمُـــهُ كَفِعَالِـــهِ وَكِلاَهُمَـــا
ذُو مَبـــدءٍ بَـــل لَـــيسَ يَنتَهِيَـــانِ

٦٤٠- قَالُوا وَلَم يُنصِف خُصُومٌ جَعجَعُوا
وَأتَـــوا بتَشـــنِيعِ بِـــلاَ بُرهَـــانِ

---

(١) هم أتباع محمد بن كرام المتوفى سنة (٢٥٥ هـ)، وهم طوائف عدة اشتهروا بالتشبيه في صفات الله والقول في الإرجاء، ومذهب الكرامية أن كلام الله حادث ، قائمًا بذات الله بعد أن لم يكن متكلمًا بكلام، بل ما زال عندهم قادرًا على الكلام وإلا فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع كوجود الأفعال عندهم وعند من وافقهم كالمعتزلة، وهم يقولون إنه حروف وأصوات حادثة بذات الرب بقدرته ومشيئته، ولا يقولون: إن الأصوات المسموعة والمداد الذى في المصحف قديم بل يقولون إن ذلك محدث، وقالوا ذلك خوفًا من التسلسل، فشاركوا الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في الاستدلال على حدوث العالم. معجم ألفاظ العقيدة (ص ٣٣٣ و ٣٣٤).

٦٤١- قُلنَـا كَمَـا قَـالُوهُ فـي أفعَالِـهِ
بَـل بَينَنَـا بَـونٌ مِـنَ الفُرقَـانِ

٦٤٢- بَل نَحنُ أسعَدُ مِنهُمُ بِالحقِّ إذ
قُلنَـا هُمَـا بِـالله قَائِمَتَـانِ

٦٤٣- وَهُـمُ فَقَـالُوا لَـم يَقُـم بـالله لاَ
فِعـلٌ وَلاَ قَـولٌ فَتَعطِيـلاَنِ

٦٤٤- لِفِعَالِـهِ وَمَقَالِـهِ شَـرٌّ وأبـ
ـطَلُ مِـن حُلُـولِ حَـوَادِثٍ بِبَيـانِ

٦٤٥- تَعطِيلُـهُ عَـن فِعلِـهِ وَكَلاَمِـهِ
شَـرٌّ مِـنَ التشـنِيعِ بِالهَـذَيَانِ

٦٤٦- هَـذِي مَقَـالاتُ ابـنِ كَـرَّامٍ وَمَـا
رَدُّوا عَلَيـهِ قَـطُّ بالبرهَـانِ

٦٤٧- أنَّـى وَمَـا قَـد قَـالَ أقـرَبُ مِـنهُمُ
لِلعَقـلِ وَالآثَـارِ والقُـرآنِ

٦٤٨- لَكِـنَّهُم جَـاؤُوا لَـهُ بِجَعَـاجِعٍ
وَفَرَاقِـعٍ وَقَعَـاقِعٍ بِشَـنَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هؤلاء يرون القائلين بالمشيئة نوعان:

النوع الأول: مَن جعلَته مبدوءًا به؛ يعني: جعلت كلامه حادث النوع، ليست هذه الآحاد، ولهذا قال: مبدوءًا به نوعًا؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى في الأول لم يكن يتكلَّم، ثم صار يتكلَّم، فصار الكلام عنده حادثًا نوعًا، وهم لو قالوا: إنه حادِثٌ عينًا لكان الأمر

صريحًا، لكن قالوا: إنه حادِثٌ نوعًا؛ يعني: أنَّ الله لم يكن يتكلَّم، ثم صار يتكلَّم، فعطَّلوا الله عن كلامه في أول الأمر، وأثبَتوه له في ثاني الحال، وجعلوا كلامه ليس خارج ذاته؛ بل في ذاته، فهذا هو الفرق بينهم وبين أهل الاعتزال جميعهم، والجهمية؛ لأن أولئك جعلوه خارج ذاته، جعلوه مخلوقًا منفصلًا، مثل: السماء، والأرض، والشمس، والقمر، أما هؤلاء فقالوا: لا، هو من صفاته لكنَّه حادث النوع والآحاد؛ لماذا ؟ قال: حِذَار تسلسُل الأعيان؛ لأنهم قالوا: لو أثبتنا أنه أزلي النوع لزِمَ أن تكون آحاده أيضًا أزليَّة، وتَسَلسل؛ إذ ما من كلام إلا وقبله كلام إلى ما لا نهاية له، وظنُّوا أنَّ هذا شيءٌ ممتنع، لكن ليس بممتنع، كما سيأتي -إن شاء الله- في الفرقة الثانية.

فَيَسُدُّ ذَاكَ عَلَيهِمُ في زَعمِهِم ... إثبَاتَ خَالِقِ هَذِهِ الأكوَانِ

يقولون: إذا جعلنا الكلام لم يزَل موجودًا نوعًا وهو مُتعلِّقٌ بالمشيئة لزِمَ أن يكون الموصوف به أيضًا حادثًا، وجوده بمشيئته، وهذا يسُدُّ علينا إثبات الله عز وجل؛ يعني: إثبات الله أزليَّته سبحانه وتعالى، ولكنَّ هذا ليس بصحيح؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ الموصوف سابقٌ على الوصف وعلى الصفة، فالمُتكلِّم لابد أن يكون سابقًا للكلام، وإذا قلنا بأنَّ الكلام أزليّ لم يلزَم أن يكون مُقال من الخارج؛ لأنه لابد أن يكون المتكلِّم سابقًا على المسبوق.

فَلِذَاكَ قَالُوا إنَّهُ ذُو أوَّلٍ ... مَا لِلفَنَاءِ عَلَيهِ مِن سُلطَانِ

يعني: جعلوا الكلام ليس أزليًّا؛ بل له مبدأ، ذو أول؛ يعني: ذو ابتداء، لكنه أزلي، يقول: (ما للفناء عليه من سلطان) فصار الفرق بينهم وبين أهل السنة بسيطًا، هو أن أهل السنة يقولون: إن كلام الله أزلي النوع، وهم يقولون: إنه حادِثُ النوع والآحاد، ويتفقون هم وأهل السُنَّة على أنه أبدي، فإن كلام الله لن ينقطِع أبد الآبدِين، ولهذا قال: (ما للفناء عليه من سلطان) إذًا هو أبدي.

وَكَلامُهُ كَفِعَالِهِ وَكِلاهُمَا ... ذُو مَبدءٍ بَل لَيسَ يَنتَهِيَانِ

يعني: ذو مبدأ لكنهما أبديَّان، ولهذا قال: بل، وهذه للعطف ولكنها ليست للإغراء إلا أن يُقال: إنه يُراد انتقاله من كلام إلى كلام لا من معنىً إلى معنىً؛ يعني: ذو مبدأ؛ بل ليس ينتهيان.

قَالُوا وَلَم يُنصِف خُصُومٌ جعجعُوا وَأتَوا بتَشنِيعٍ بِلاَ بُرهَانِ

الجَعْجَعة هي الكلام الصاخب الذي لا يُراد به إلا التنفير والتشنيع، وهم يعنونَ بهؤلاء المعتزلة والجهمية.

قُلنَا كَمَا قَالُوهُ فِي أفعَالِهِ بَل بَينَنَا بَونٌ مِنَ الفُرقَانِ

هؤلاء يقولون في أفعاله: إنها ليست أزليَّة؛ بل كان فاعلًا بعد أن كان مُعطَّلًا، وهؤلاء قالوا في كلامه كما قال هؤلاء في أفعاله؛ يعني: أن الكلام حادِث بعد أن لم يكن، والأفعال حادِثة بعد أن لم تكن، لكن يختلفون، فهؤلاء يقولون: إن أقواله وأفعاله خارج ذاته، وهؤلاء يقولون: بل مُتعلِّقةٌ بذاته.

قُلنَا كَمَا قَالُوهُ فِي أفعَالِهِ بَل بَينَنَا بَونٌ مِنَ الفُرقَانِ

بَل نَحنُ أسعَدُ مِنهُمُ بِالحقِّ إذ قُلنَا هُمَا بِاللهِ قَائِمَتَانِ

هما: الضمير يعود على الأقوال والأفعال، فهؤلاء يقولون: الكلام قائم بالله، والفعل قائم بالله، وأولئك يقولون: قائم بغير الله منفصل عن الله؛ فأيُّهما أقرب للصواب ؟ الكرَّامية الذين قالوا: إن الأفعال والأقوال قائمة بالله.

وَهُمُ فَقَالُوا لَم يَقُم بِاللهِ لاَ فِعلٌ وَلاَ قَولٌ فَتَعطِيلاَنِ

تعطيل للقول وتعطيل للفعل.

لِفِعَالِهِ وَمَقَالِهِ شَرٌّ وأبـ ـطَلُ مِن حُلُولِ حَوَادِثٍ بِبيَانِ

يعني: تعطيل أفعاله وأقواله أشَرّ وأبطل من حُلول حوادث ببيان؛ لأن الجهمية والمعتزلة إنما نفَوا أفعاله التي في القيامة، أفعاله الاختيارية بذاته خوفًا من حُلول الحوادث بذاته؛ لأن من أصول المُعطِّلة أنه لا يقوم الحادِث إلا بحادِث، فإذا قام بالحوادث بذاته لزِمَ أن يكون حادِثًا، ولهذا أنكروا أن تقوم الأفعال الاختيارية بذاته، وقالوا: ليس له فعل، وليس له قول.

يقول هؤلاء الكرَّامية: إن تعطيل أفعاله ومقاله شرٌّ وأبطل من حلول الحوادث به؛ يعني: لو قالوا: إن الله يفعل فعلًا يتعلَّق بذاته، ويقول قولًا يتعلَّقُ بذاته لكان هذا أهون من أن نقول: إن الحوادث تتعلَّق بذاته؛ لأننا إذا قلنا: إن الحوادث تتعلَّق بذاته لم يلزم عليها

شيء، وإذا قلنا: إنه مُعطَّل عن الفعل والقول، فهذا من أقبح ما يُوصَف به الله عز وجل.

تَعطِيلُهُ عَن فِعلِهِ وَكَلَامِهِ ... شَرٌّ مِنَ التشنِيعِ بِالهَذَيَانِ

هَذِي مَقَالاتُ ابنِ كرَّامٍ وَمَا ... رَدُّوا عَلَيهِ قَطُّ بِالبرهَانِ

ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يُدافِع عن ابن كرَّام، ولا شكَّ أن المُدافعة عن شخصٍ شرُّه أهون من غيره أنها أمرٌ طيِّب.

أنَّى وَمَا قَد قَالَ أقرَبُ مِنهُم ... لِلعَقلِ وَالآثَارِ والقُرآنِ

ما قاله ابن كرَّام أقرب مما قاله المعتزلة والجهمية للعقل، والآثار التي فيها السنن، والقرآن كلام الله عز وجل؛ لأن ابن كرَّام لم يختلف عن أهل السنة إلا في شيءٍ واحد هو حُدوث الكلام نوعًا، لو قال: حُدُوثه آحادًا وافق أهلَ السنة، لكنه قال: حدوثه نوعًا؛ فيخشى من القول بحُدُوثه نوعًا، والكلام مُترتِّبٌ بعضه على بعض، لكنه لو قال بأزليته نوعًا يخشى من القول بأزليته نوعًا من تسلسل الحوادث، وهذا - على زعمه - يستلزم نفي الخالق عز وجل، أزلية الخالق.

لَكِنَّهُم جَاؤُوا لَـهُ بِجَعَاجِعٍ ... وَفَرَاقِعٍ وَقَعَاقِعٍ بِشِنَانِ

الجعاجع: هي الأصوات الصاخبة التي يُراد بها التنفير وإبعاد الناس عن هذا الشيء، أمَّا الفراقع: إما فرقعة الأصابع، وإما الفراقع التي تُفرقع من الصبيان، الشَّنة: القِرْبة اليابسة القديمة.

يقول: هؤلاء ما ردُّوا على ابن كرَّام بشيء؛ بل هو أقرب إلى الحق منهم.

وَلَقَد تَقَلَّدَ كُفرَهُم خَمسُونَ في ... عَشرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلدَانِ

ذكرنا أنَّ تقلَّد كفرَهم خمسون في عشر؛ يعني: أنه كفَر ككُفْرِهم، ولكن المعنى الذي ذكره الشُّرَّاح يقول: تقلَّدَ كُفرَهم؛ أي: حكَمَ بكفرهم خمسون في عشر؛ أي: خمسمائة عالم كفَّروا أهلَ الاعتزال والجهمية بقولهم هذا؛ أي: بقولهم: إن كلام الله مخلوق.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رحمه الله:

فصل

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما دل عليه الكتاب والسنة من الأصلين:

أحدهما: أن الله موصوف بالكلام وكلامه نعته ووصفه.

والثاني: أنه متعلق بمشيئته وقدرته فيتكلم إذا شاء كيف يشاء بما يشاء ولم يزل متكلمًا ولا يزال متكلمًا، فالكلام من صفات الذات لقيامه بها واتصافه به فإنه كلامه، ومن صفات الأفعال الواقعة بمشيئته وقدرته، والله لم يزل كاملًا والكلام بلا ريب من صفات الكمال، فكيف يتصور أن يخلو في وقت من الأوقات من هذا الكمال ويعود ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا. ويقولون: إن تعاقب الكلمات ثابت لها لذواتها مثل ثبوت تعاقب الأزمنة، فكما أن كل زمان قبله زمان وقبل هذا الزمان زمان إلى غير غاية ونهاية والتسلسل فيها ثابت وهي من جملة الواقع بإرادة الله وقدرته فكذلك الكلام والأحرف مترتبة كل كلام قبله كلام وقبل ذلك كلام إلى غير نهاية وغاية، فترتبها في ذاتها كترتبها في سماعها،فإن هذا الوصف من لوازم الكلمات لا تكون إلا كذلك، خلاف ما يقوله الاقترانية فإن الاقتران غير معقول كما أن قول القائلين بأن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأعيان يقتضي عقلًا ولغة وعرفًا أن صفة الكلام قائمة بذلك المحل، وأن ذلك المحل هو الذي يتكلم، فهذا أيضًا محال في العقل كما أنه باطل في النقل فلا يعقل الكلام إلا لمن قام به وتكلم به حقيقة، كما أنه لا يكون حيًا عالمًا سامعًا مبصرًا إلا لمن قامت به هذه الصفات فلو وصف المحل بحياة أو علم أو سمع أو بصر قائم بغيره لعلم الناس أن هذا محال ممتنع، وهكذا جميع الصفات.

والله تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وقد شهدت بذلك العقول الصحيحة والفطر السليمة والبراهين القواطع، وكلامه من جملة

صفاته قائم بذاته، فلو لم يقم بذاته لم يكن في الحقيقة متكلمًا.

وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول والنداء والنجاء، فالنداء الصوت الرفيع والنجاء الصوت الخفي، وهذه الأمور لا تعقل إلا لمن اتصف بها وقامت به وأسمعها غيره، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما وردت الآثار بهذه الأوصاف له وكما هو معروف بين الناس، وهو كله كلام الله منزل غير مخلوق والله أعلم.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في ذكر مذهب أهل الحديث

٦٤٩- وَالآخَرُونَ أولُوا الحَدِيثِ كأحمَدٍ
ومُحَمَّـــدٍ وأئمـــةِ الإِيمَـــانِ
٦٥٠- قَـالُوا بِـأنَّ الله حَقًّـا لَـم يَـزَل
مُتَكَلِّمَـــا بِمَشِـــيئَةٍ وَبَيَـــانِ
٦٥١- إنَّ الكَلاَمَ هُوَ الكَمَالُ فَكَيفَ يَخ
ـــلُو عَنــهُ فِــي أزلٍ بِــلاَ إمكَــانِ؟
٦٥٢- وَيَصِـيرُ فِيمَـا لَـم يَـزَل مُتَكَلِّمَـا
مَــاذَا اقتَضَــاهُ لَــهُ مِــنَ الإمكَــانِ؟
٦٥٣- وَتَعَاقُـبُ الكَلِمَـاتِ أمـرٌ ثَابِـتٌ
لِلـــذَّاتِ مِثــلَ تَعَاقُــبِ الأزمَــانِ
٦٥٤- والله رَبُّ العــرشِ قَــالَ حَقِيقَــةً
«حـــم» مَــع «طَــهَ» بِغَيــرِ قِــرَانِ
٦٥٥- بَــل أحــرُفٌ مترتِّبَــاتٌ مِثلَمَــا
قَــد رُتِّبَــت فــي مَســمَعِ الإِنسَــانِ
٦٥٦- وَقتَـانِ فـي وَقـتٍ مُحَـالٌ هَكَـذَا
حَرفَـــانِ أيضًـــا يُوجَـــدَا فـــي آنِ
٦٥٧- مِـن وَاحِـدٍ مُـتَكَلِّمٍ بَـل يُوجَـدَا

بالرَّسْـــمِ أو بَـــتَكَلُّمِ الـــرجُلاَنِ

٦٥٨- هـذَا هُـوَ المعقُـولُ أمَّـا الإِقتِـرَا

نُ فَلَـيسَ مَعقُـولًا لِـذِي الأذهَـانِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا مذهب أهل الحديث، وأهل الحديث يُرادُ بهم صِنفان: رواة الحديث، وفُقهاء الحديث، فذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مَن كان من الصِّنفَيْن جميعًا، فقال: (والآخرون أُولو الحديث كأحمد ومحمد) أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن حنبل لا شكَّ أنه من رواة الحديث وفقهاء الحديث، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لا شكَّ أنه من رواة الحديث، ولكنَّه في فقه الحديث ليس كالإمام أحمد، ولهذا يُعتبرُ من المُحدِّثين، والإمام أحمد يُعتبر من المُحدِّثين الفقهاء (وأئمة الإيمان).

قَالُوا بِأَنَّ الله حَقًّا لَم يَزَل مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ

لم يزَل: هذا في الأزل (إن الكلام هو الكمال) ولا شكَّ في ذلك، هو الذي يتكلَّم به المُتكلِّم ليأمُر وينهى ويعِظ، فالله عز وجل من كماله كلامُه، ومن المعلوم: أنَّ الأخرس لا يُعدُّ كاملًا، ولذلك كان زكريا عليه الصلاة والسلام طلب من الله آية، قال: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، ولما كان هذا يُخشَى منه العيب - وهو عيب -، قال الله له في آية أخرى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]؛ لأنه لا شكَّ أن عدم الكلام عيب، فالكلام كمال (فكيف يخلو عنه في أزلٍ بلا إمكان).

وَيَصِيرُ فِيمَا لَم يَزَل مُتَكَلِّمًا مَاذَا اقتَضَاهُ لَهُ مِنَ الإمكَانِ

هذا ردٌّ على الكرَّامية الذين يقولون في الأول: لا يمكن، وفي الثاني صار ممكنًا، يقول: (ماذا اقتضاه له من الإمكان) ما الذي جعله في الأول مُستحيلًا، وفي الثاني ممكنًا، ثم قال:

وَتَعَاقُبُ الكَلِمَاتِ أمرٌ ثَابِتٌ لِلذَّاتِ مِثلَ تَعَاقُبِ الأزمَانِ

ردٌّ على الاقترانية، تعاقُب الكلمات والحروف أيضًا أمرٌ ثابتٌ مثل تعاقُبِ الأزمان.

والله رَبُّ العرشِ قَالَ حَقِيقَةً ‏ ‏ ‏ «حم» مَع «طَهَ» بِغَيرِ قِرَانِ

هذا أيضًا ردٌّ على الجهمية والمعتزلة والاقترانية، قال حقيقة، أما عند المعتزلة والجهمية فلم يقُل حقيقة، بل قالوا: إضافة الكلام إليه على سبيل المجاز؛ لأنه خلق الكلام.

بَل أحرُفٌ مترتِّبَاتٌ مِثلَمَا ‏ ‏ ‏ قَد رُتِّبت في مَسمَعِ الإنسَانِ

يعني: ليست مُقترِنة؛ بل هي أحرف مُتعاقبة.

وَقتَانِ في وَقتٍ مُحَالٌ هَكَذَا ‏ ‏ ‏ حَرفَانِ أيضًا يُوجَدَا في آنِ

يعني: ما يمكن يقول: أصبح هو العصر، كذلك أيضًا: (حرفان أيضًا يوجدا في آن) يعني: مستحيل، هل يمكن أن يوجد الحرفان في حرفٍ واحد ؟ غير ممكن، من واحد متكلِّم يوجد منه حرفان في كلامٍ في آنٍ واحد مستحيل، إذا نطق بالباء في بسم الله ما يمكن أن ينطق بالسين، وإذا تعدَّى الباء جاءت السين، ما يمكن أن ينطق بالباء (بل يوجدا بالرسم أو بتكلُّم الرجلان) يمكن بالرسم قد يوجدان، ترسم الباء على السين فتقترِن بها، أو بتكلُّم الرجلان.

هذا هُوَ المعقُولُ أمَّا الإقترَا ‏ ‏ ‏ نُ فَلَيسَ مَعقُولًا لِذِي الأذهَانِ

نقول: لم يزل، ولا يزال متكلِّمًا بدلالة عقلية، وذلك أن أفعال الله لم تزَل، وكل فعل من أفعال الله فإنه مقرونٌ بقول: كُن، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

كذلك الكلام بمشيئة، وليس معنىً قائمًا بنفسه لا يتعلَّق بمشيئته، كما قالت الأشاعرة؛ بل هو بالمشيئة، وفيه أدلة؛ منها:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ والمراد هل يكون بمشيئة أو بغير مشيئة ؟ نقول: بمشيئة، إذًا الكلام المُقترِن بالمراد يكون كذلك بالمشيئة، وهناك أيضًا أدلة واقعية: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] متى كان الكلام ؟ بعد المشيئة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ متى كان قول الثاني ؟ بعد قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وابن القيم يقول: (وبيان) هذا يقتضي أن يكون كلام الله بحرفٍ وصوتٍ؛ لأنه ما يكون

ببيان إلا إذا سُمِعَ الكلام، ولا يُسمَع إلا بصوت، ولا يُفهَم إلا بحروف، فكلام الله أيضًا يكون بحرفٍ وصوتٍ، أما كونه بحرف فلأنَّ كل الكلام الذي تكلَّم الله به كله حروف، القرآن حروف، ومَن قرأه فله بكل حرفٍ منه عشر حسنات.

أيضًا لما قال الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ اللام والنون والتاء والراء والألف والنون والياء هذه حروف.

بصوت أم بغير صوت ؟ بصوت؛ لأن موسى سمِعَ كلام الله، وكذلك النبي ﷺ سمِعَ كلام الله في ليلة المعراج [1]، إذًا كلام الله بحرفٍ وصوتٍ متعلِّق بمشيئته سبحانه وتعالى، ولم يزَل ولا يزال متكلمًا.

أما كونه مخلوقًا فهذا باطل؛ لأن الله قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهذان قسيمان، وليسا قسمَيْن، والأمر غير الخلق؛ لأن الأصل في العطف المُغايَرة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] أي: من وحينا، فدلَّ هذا على أن القول ليس مخلوقًا.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٩- وَكَـذَا كَـلامٌ مِـن سِـوَى مُـتَكَلِّمٍ
أيضًــا مُحَــالٌ لَــيسَ فــي إمكَــانِ

٦٦٠- إلاَّ لِمَـن قَـامَ الكَـلامُ بِـهِ فَـذَا
كَ كَلاَمُــهُ المعقُــولُ فِــي الأذهَــانِ

٦٦١- أيكـونُ حَيًّـا سَامِعًا أو مُبصِـرًا
مِــن غَيــرِ مَــا سَــمعٍ وَغَيــرِ عِيَــانِ

٦٦٢- وَالسَّـمعُ والإبصَـارُ قَـامَ بِغَيـرِهِ
هَــذَا المُحَــالُ وَوَاضِــحُ البُهتَــانِ

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧).

٦٦٣- وَكَـذَا مُرِيـدٌ وَالإِرَادَةُ لَـم تَكُـن
وَصـفًا لَــهُ هَــذَا مِــنَ الهَـذَيَانِ

٦٦٤- وَكَـذَا قَـدِيرٌ مَالَـهُ مِـن قُـدرَةٍ
قَامَــت بِـهِ مِــن واضِـحِ الـبُطلاَنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما ردَّ على مذهب الاقترانية وردَّ على مذهب المعتزلة، فقال:

وَكَذَا كَلامٌ مِن سِوَى مُتَكَلِّمٍ أَيضًا مُحَالٌ لَيسَ فِي إِمكَانِ

والمعتزلة يقولون: إن الله له كلام لكن ليس هو المتكلِّم؛ لأن كلامه مخلوق، إما في الشجرة، وإما في الهواء، وإما في جبريل، وإما في محمد، فكيف يصحُّ أن نقول: هو مُتكلِّم، والكلام ليس وصفًا له ؟ بل وبائنٌ منه ؟ ولهذا قال: (ليس في إمكان، إلا من قام الكلام به) فمن قام الكلام به هو الذي يكون مُتكلِّمًا، فإن قال قائل: ألستم تقولون: إن السماوات والأرض، والإنسان، والشجر، والحجر مخلوق، وهو بائنٌ عن الله عز وجل ؟

قلنا: نعم، نقول بذلك، لكنَّ هذه أعيانٌ قائمةٌ بنفسها، والكلام صفة لا يمكن أن يكون قائمًا بنفسه، فإذا وصف الله نفسَه بأنَّه مُتكلِّم علِمنا أن الكلام وصفه، فإذا وصف نفسه بأنه خالق فقد يُلبِّس هؤلاء ويقولون: خالق يعني: مخلوق، وليس الخلق صفةً له، لكن نقول في الردِّ عليهم: إن المخلوقات أعيان قائمة بنفسها، بخلاف الكلام، فلا يمكن أن يُوصَف الله بأنه متكلِّم ويُعنَى به أنَّ هناك كلامًا مخلوقًا خلقه الله، وإلا لا يزِن أن يكون كلامك وكلامي وكلام فلان وفلان كلامًا لله، ولهذا صار قول الجهمية والمعتزلة بأن كلام الله مخلوق صار سُلَّمًا سهل الصعود للقائلين بوحدة الوجود.

ثم انتقل من الكلام إلى أصل المذهب، وذلك أن المعتزلة يُثبِتون لله الأسماء ولا يُثبِتون ما دلَّت عليه من الصفات، فيقولون: إن الله تعالى سميعٌ ولا سمع له، بصير ولا بصر له، قدير ولا قدرة له، مُريد ولا إرادة له.

أيكونُ حَيًّا سَامِعًا أو مُبصِرًا ... مِن غيرِ مَا سَمعٍ وَغيرِ عِيَانِ
وَالسَّمعُ والإِبصَارُ قَـامَ بِغيرِهِ ... هَـذَا المُحَالُ وَوَاضِحُ البُهتَانِ
وَكَذا مُرِيدٌ وَالإِرَادَةُ لَـم تَكُن ... وَصفًا لَـهُ هَذَا مِنَ الهَذَيَانِ
وَكَذَا قَدِيرٌ مَالَـهُ مِـن قُـدرَةٍ ... قَامَت بِـهِ من واضح البُطلاَنِ

لأَنَّك لو أثبتَّ له قدرة كانت القدرة قديمة، ولزِمَ من ذلك تعدُّد القدماء، قدرة قديمة، وقادر قديم، وسمعٌ قديم، وسميعٌ قديم، وبصر قديم، وبصير قديم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٥- والله جَـلَّ جَلاَلُـهُ مُـتَكَلِّمٌ
بِالنَّقـلِ وَالمَعقُـولِ والبُرهَـانِ
٦٦٦- قَد أجمعَت رُسلُ الإلَهِ عَلَيهِ لَم
يُنكِـرهُ مِـن أتبَـاعِهِم رَجُـلاَنِ
٦٦٧- فَكَلاَمُـهُ حَقًّـا يَقُـومُ بِـهِ وإلاَّ
لَـم يَكُـن مُتَكَلِّمًـا بِقُـرآنِ
٦٦٨- والله قَـالَ وَقَائِـلٌ وَكَـذَا يَقُـو
لُ الحَـقَّ لَـيسَ كَلاَمُـهُ بِالفَـانِي
٦٦٩- وَيُكَلِّـمُ الثقلَـينِ يَـومَ مَعَـادِهِم
حَقًّـا فَيَسـمَعُ قَولَـهُ الثَّقَلاَنِ
٦٧٠- وَكَـذَا يكلِّـمُ حِزبَـهُ فـي جَنَّـةِ الـ
ـحَيَوَانِ بِالتَّسـلِيمِ والرِّضـوَانِ
٦٧١- وَكَـذَا يُكَلِّـمُ رُسـلَهُ يَـومَ اللِّقَـا
حَقًّـا فَيَسـأَلُهُم عَـنِ التِّبيَـانِ

٦٧٢- وَيُراجِعُ التَّكلِيمَ جَلَّ جَلالُه
وَقتَ الجِدَالِ لَهُ مِنَ الإنسانِ

٦٧٣- وَيُكَلِّمُ الكُفَّارَ في العَرَصَاتِ تَو
بِيخًا وَتَقرِيعًا بِلاَ غُفرَانِ

٦٧٤- ويُكَلِّمُ الكُفَّارَ أيضًا فِي الـ
ـجَحِيمِ أن اخسَؤُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ

٦٧٥- والله قَد نَادَى الكَلِيمَ وَقبلَهُ
سَمِعَ النِّدَا في الجَنَّةِ الأبَوَانِ

٦٧٦- وأتَى النِّدَا فِي تِسعِ آياتٍ لَهُ
وَصفًا فرَاجِعهَا مِنَ القُرآنِ(١)

٦٧٧- وَكَذَا يكلِّمُ جبرَئِيلَ بأمرِهِ

(١) [٦٦٩: ٦٧٦] قال العلامة محمد خليل هراس:
وقد وصف الله نفسه بالنداء في تسع مواضع من القرآن:
الأول: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٢].
الثاني: قوله في سورة مريم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].
الثالث: قوله في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ الآية [طه: ١١، ١٢].
الرابع: قوله في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].
الخامس: قوله في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].
السادس: قوله في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠].
السابع: قوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].
الثامن: قوله في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].
التاسع: قوله في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].
العاشر: قوله في سورة الصافات: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].
الحادي عشر: قوله في سورة النازعات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

حَتَّــــى يُنَفِّـــذَهُ بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

٦٧٨-واذكر حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ

ذَاكَ البُخَـــارِيُّ العظـــيمُ الشَّـــانِ

٦٧٩-فِيـــهِ نِـــدَا الله يَـــومَ مَعَادِنَـــا

بالصَّـــوتِ يَبلُـــغُ قَاصِـــيًا والـــدَّاني

٦٨٠-هَـب أنَّ هَـذَا اللَّفـظَ لَيسَ بِثَابتٍ

بَـــل ذِكـــرُهُ مَـــع حَذفِـــهِ سِـــيَّانِ

٦٨١-وَرَواهُ عِنـدَكُمُ البُخَارِيُّ المُجَسِّـ

ـــمُ بَـــل رَوَاهُ مُجسِّـــمٌ فَوقَـــانِي

٦٨٢-أيصِحُّ فِي عَقـلٍ وَفِي نَقـلٍ نِـدَا

ءٌ لَـــيسَ مَســـمُوعًا لَنَـــا كَـــأذَانِ

٦٨٣-أم أجمَـــعَ العُقَـــلاءُ مِـــن

أهـــلِ اللِّسَـــانِ وأهـــلِ كُـــلِّ لِسَـــانِ

٦٨٤-أنَّ النِّدَا الصَّوتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ

فَهُـــوَ النِّجَـــاءُ كِلاَهُمَـــا صَـــوتَانِ

٦٨٥-والله مَوصُـــوفٌ بِـــذَاكَ حَقِيقَـــةً

هَـــذَا الحَـــدِيثُ ومُحكَـــمُ القُـــرآنِ

٦٨٦-وَاذكُر حَدِيثًا لابنِ مسعودٍ صَرِيـ

ـــحًا أنَّـــهُ ذُو أحـــرُفٍ بِبَيَـــانِ

٦٨٧-للحَرفُ مِنهُ في الجَزا عَشرٌ مِنَ الـ

ـــحَسَنَاتِ مَـــا فِـــيهنَّ مِـــن نُقصَـــانِ

٦٨٨-وانظُر إلَى السُّورِ الَّتِي افتُتِحَت بأحـ

ـــرُفِهَا تَـرَى سِـرًّا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٦٨٩-لَـم يـأتِ قَـطُّ بسُـورَةٍ إلاَّ أتَـى
فـي إثرِهَـا خَبَـرٌ عَـنِ القُـرآنِ

٦٩٠-إذ كَـانَ إخبَـارًا بِـهِ عَنهَـا وَفـي
هَـذَا الشِّـفَاءُ لِطَالِـبِ الإيمَـانِ

٦٩١-وَيَـدُلُّ أن كَلاَمَـهُ هُـوَ نَفسُـهَا
لاَ غيرُهَـا والحَـقُّ ذُو تِبيَـانِ

٦٩٢-فانظُر إلى مَبدَا الكِتَابِ وَبَعدَها الـ
أعـرَافِ ثُـمَّ كَـذَا إلـى لُقمَـانِ

٦٩٣-مَع تِلوِهَـا أيضًـا وَمَـع «حَـم» مَـع
«يَـس» وافهَـم مُقتَضَـى القُـرآن(١)

---

(١) [٦٨٦: ٦٩٣] قال العلامة محمد خليل هراس:
مما يدل على أن القرآن الذي هو كلام الله هو هذا المؤلف من الحروف والألفاظ التي نتلوه بألسنتنا، ونحفظه في صدورنا ونكتبه بالمداد في صحفنا ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ من قوله: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولا حرف وميم حرف» وكذلك إذا تأملنا السور التي افتتحت بالفواتح من مثل الم والمص والر والمر، وحم ويس ون، وق.. إلخ. نرى سرًّا عجيبًا وهو أنه لم تفتتح سورة ببعض هذه الفواتح إلا ورد على أثرها خبر عن القرآن إذ كان القرآن مخبرًا به عنها مما يدل أعظم دلالة على أن القرآن هو نفس هذه الفواتح وأنه مركب من الحروف التي اشتملت عليها، نرى ذلك من أول سورة البقرة أعني قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] ثم في الأعراف، أعني قوله سبحانه ﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ونراه كذلك في أول لقمان هكذا ﴿الٓمٓ ① تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١، ٢] ثم في السورة التي تتلوها، أعني سورة السجدة: الم تنزيل ، وهو قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ونراه في الحواميم وفي سورة يس، قال تعالى: ﴿يسٓ ① وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وقال ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ و ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلخ.

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن الله جلَّ جلاله متكلم، وذكر أنه متكلم بالنقل والعقل والبرهان، النقل والعقل كلاهما دليل، والبرهان وصفٌ للدليل، ويُعنَى بالبرهان: ما برْهَنَ على الشيء وأثبته بدون احتمال، فكلما كان الدليل صريحًا واضح الدلالة سُمِّي برهانًا.

ثم ذكر أن الرسل أجمعوا على أن الله متكلم، وأنه لم يُنكِرهُ من أتباعهم رجُلان، والمراد بقوله: (لم يُنكره) يعني: لم يختلف فيه رجُلان، وإنما قلنا ذلك لئلا يُقال: وأنكره رجل؛ لأن نفي الاثنين لا يمنع إنكار الواحد، ولكنَّ مراده: (لم يُنكِره من أتباعهم رجُلان) أي: لم يختلف فيه رجُلان، فكل أتباع الرسل مُجمِعون على أن الله مُتكلِّم، كما ذكر المؤلف رحمه الله.

فَكَلَامُهُ حَقًّا يَقُومُ بِهِ وإلاَّ   لَـم يَكُـن مُتَكَلِّمًـا بِقُـرآنِ

يعني: لولا أن كلامه متعلِّقٌ به عز وجل وقائمٌ به ما صحَّ أن نقول: إن القرآن كلامه، لو كان الكلام غير قائم به ما صحَّ أن نقول: إن القرآن كلامه؛ لأن الذين يقولون: إن كلامه غير قائم به، يجعلون الكلام إما لجبريل، أو محمد، أو الهواء، فلا يجعلون الكلام كلام الله، وعلى رأيهم نقول: إن القرآن ليس كلام الله عز وجل.

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

(والله قال وقائل وكذا يقول) جاء المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بالفعل والوصف، فالله سبحانه وتعالى فاعلٌ للقول، موصوفٌ به، (ليس كلامه بالفاني) مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، لو جُمِع كل ما في الأرض من الأشجار، وجُعِل أقلامًا، وجُعِلَ البحر ومن ورائه سبعة أبحر مدادًا ما نفِدَت كلمات الله، بل تكسَّرت الأقلام، ونفِدَ المداد، ولم تنفد كلمات الله عز وجل؛ لأنه لم يزل ولا يزال متكلِّمًا خالقًا ما يشاء.

وَيُكَلِّمُ الثقلَينِ يَومَ مَعَادِهِم   حَقًّـا فَيَسمَعُ قَولَـهُ الثَّقَـلَانِ
وَكَذَا يكلِّمُ حِزبَهُ في جَنَّةِ الـ   ـحَيَوَانِ بِالتَّسلِيمِ والرِّضوَانِ

فيُسلِّم عليهم، ويقول: أحلَلتُ عليكم رضاي.

وَكَذَا يُكَلِّمُ رُسلَهُ يومَ اللِّقَا ... حقًّا فَيسألُهُم عَنِ التِّبيَانِ

يعني: يسأل الله الرسل: هل بيَّنتُم؟ حتى يُقيم الحُجَّة على الأمم.

وَيُراجِعُ التَّكليمَ جَلَّ جَلاَلُه ... وَقتَ الجِدَالِ لَهُ مِنَ الإِنسَانِ

فإن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن ويُقرِّره بذنوبه حتى يُقِرَّ بها.

وَيُكَلِّمُ الكُفَّارَ في العَرَصَاتِ تَو ... بيخًا وَتَقريعًا بِـلاَ غُفـرَانِ

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

ويُكَلِّمُ الكُفَّارَ أيضًا فِي الـ ... ـجَحِيمِ أن اخسَؤُوا فِيهَا بِكُلِّ هَوَانِ

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

واللـه قَـد نَادَى الكَلِيمَ وَقَبلَـهُ ... سَمِعَ النِّدَا فـي الجَنَّةِ الأبـوَانِ

وأتى النِّدَا فِي تِسعِ آيـاتٍ لَـهُ ... وَصفًـا فَراجِعهَـا مِـنَ القُـرآنِ

وَكَـذَا يكـلِّمُ جبرَئِيلَ بـأمـرِهِ ... حَـتَّـى يُنَفِّـذَهُ بِكُـلِّ مَكَـانِ

واذكر حَدِيثًا فِي صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... ذَاكَ البُـخَـارِيِّ العظيمُ الشَّـانِ

فِيـهِ نِـدَا اللـه يـومَ مَعَادِنَـا ... بالصَّوتِ يَبلُـغُ قَاصِيًـا والـدَّاني

يقول الله تعالى: «يا آدم! فيقول: لبَّيْك وسَعْدَيْك، فيُنادي بصوتٍ: إن الله يأمُرك أن تُخرِجَ من ذُرِّيَّتك بَعْث النار»(١).

قال: (هب أن هذا اللفظ ليس بثابت) يعني: كلمة بصوت؛ لأن الذين يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس ما يقولون: بصوت، والذين يقولون: خلقه، ما يقولون بصوت، هم يدَّعون أنَّ الله ليس له صوت (بل ذكره مع حذفه سيان) يعني: حتى وإن لم يثبُت فالصوت معلومٌ من النداء.

وَرَواهُ عِندَكُم البُخَارِيُّ المُجسِّـ ... ـمُ بَل رَوَاهُ مُجسِّمٌ فوقَاني

وهو أعلى طبقات السند وهو الصحابي، فالصحابي عندهم مُجسِّم؛ بل النبي ﷺ مُجسِّم،

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٤١).

والبخاري مُجسِّم، ولهذا يصِفون أهلَ السنة بأنهم مُجسِّمة حشَوِيَّة نوابت، والمُجسِّم هو الذي يقول: إن الله جسم، والحَشَوي الذي على الحواشي والأطراف، حواشي الأمة، ما فيهم خير، أمَّا النوابت هي ما ينبُت في الزرع من الشُّجَيْرات التي تُرمَى وليس فيها خير، أو غُثاء.

أيصِحُّ فِي عَقلٍ وَفِي نَقلٍ نِدَا ءٌ لَيسَ مَسمُوعًا لَنَا كَأَذَانِ

ما يصح، لو حذفنا: بصوت، فيُنادي إن الله يأمُرك.

أم أجمَعَ العُقَلاءُ مِن أهلِ اللِّسَانِ وأهلِ كُلّ لِسَانِ

يعني: أهل اللسان العربي، وأهل كل لسان غير لغة العرب.

أنَّ النِّدَا الصَّوتُ الرَّفِيعُ وَضِدُّهُ فَهوَ النِّجَاءُ كِلاهُمَا صَوتَانِ

وقد وصف الله نفسه بذلك في آية واحدة: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] هذا من البُعْد، ﴿وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا﴾ هذا من القرب.

واللهُ مَوصُوفٌ بِذَاكَ حَقِيقَةً هَذَا الحَدِيثُ ومُحكَمُ القُرآنِ

إذًا ثبت أن الله يتكلَّم بصوت.

وَاذكُر حَدِيثًا لابنِ مسعودٍ صَرِيـ ـحًا أنَّهُ ذُو أحرُفٍ بِبَيَانِ

وهو أنَّ «مَن قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات»(١).

للحَرفِ مِنهُ في الجَزا عَشرٌ مِنَ الـ حَسَنَاتِ مَا فِيهِنَّ مِن نُقصَانِ

وانظُر إِلَى السُّورِ الَّتِي افتُتِحَت بأحـ ـرُفِهَا تَرَى سِرًّا عَظِيمَ الشَّانِ

لَم يَأتِ قَطُّ بسُورَةٍ إلاَّ أتَى في إثرِهَا خَبَرٌ عَنِ القُرآنِ

السور المُفتتحة بالحروف الهجائية اختلف العلماء فيها؛ منهم من قال: علينا أن نُفوِّض المعنى إلى الله، ومنهم من قال: إنها رموز لأسماء الله الحسنى، أو رموز لوقائع تحدث، أو رموز يُفسِّرونها بما يُفسِّرونها به، ولكنَّ الصحيح أنه ليس لها معنى في حدِّ ذاتها؛ لأن القرآن عربي ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وهذه الحروف هجائية بلغة العرب ليس لها معنىً في ذاتها، لكن لها مَغْزى، والمغزى أشار إليه المؤلف هنا، قال:

لَم يَأتِ قَطُّ بسُورَةٍ إلاَّ أتَى في إثرِهَا خَبَرٌ عَنِ القُرآنِ

---

(١) صحيح: رواه الترمذى (٢٩١٠)، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٤٦٩).

إذ كَانَ إخبَارًا بِـهِ عَنهَـا وَفـي هَــذَا الشِّفَــاءُ لِطَـالِـبِ الإِيمَانِ

يعني: إشارة إلى أنَّ هذا القرآن من هذه الحروف؛ يعني: ما أتى الله في القرآن بحروف جديدة حتى تقولوا أيها العرب: إن هؤلاء يُعجِزُنا لأن الحروف ما هي حروفنا، إنما أتى بحروف هي الحروف التي تُركِّبون منها كلامَكم، ومع ذلك أعجَزَكم، ويدلُّ على هذا أنه لم يأت سورة مبتدأة بحرفٍ من حروف الهجاء إلا وفيها ذكرٌ عن القرآن، لكن قد يقول قائل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣].

نقول: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ ليس فيها ذكرٌ للقرآن، لكن فيها ذِكر أهل القرآن أنهم يصبرون على الأذى، أما ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ ففيه خبر عن أمر غيبي، وهذا لا يكون إلا عن طريق الوحي.

وَيَدُلُّ أن كَـلامَـهُ هُــوَ نَفسُهَــا لاَ غيرُهَــا والحَــقُّ ذُو تِبيَــانِ

فانظر إلى مبدأ الكتاب وبعدها الـ أعرافِ ثم كــذا إلى لقمــانِ

مبدأ الكتاب البقرة، (وبعدها الأعراف) لكن المؤلف ترك آل عمران، إلا أن يُقال: آل عمران مثل البقرة ﴿الٓمٓ﴾.

وقوله: (ثم كذا إلى لقمان) لقمان مثل البقرة (مع تلوها) (تنزيل السجدة)، (ومع حم) والمراد بـ(حم) الجنس، فيشمل كل الحواميم.

وقوله: (مع يس وافهم مقتضى القرآن) إذًا المؤلف ما أراد الحصر، إنما أتى بشيءٍ للتمثيل.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رحمه الله:

فصل

في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

هذا الفصل مشتمل على أمرين:

أحدهما: أن الرسالة والنبوة من أكبر الأدلة على أن الله متكلم، لأن حقيقة رسالة الرسل صلى الله عليهم وسلم تبليغ كلام الله للخلق: أخباره وأوامره ونواهيه وتوابع ذلك، فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت صفة الكلام، ومن نفيها نفي الكلام.

وهذا هو الأمر الثاني: وهو إلزام أهل الكلام الباطل الذين نفوا كلام الله وزعموا أنه مخلوق أو أنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، يلزم من هذا القول نفي الرسالة.

ومن المعلوم أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وفساد القول بنفي الرسالة أمر معلوم، وأنه جحد للرسل والكتب والشرائع.

ويوضح هذا أن الرسالة هي خطابه للرسل إما بغير واسطة كخطابه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ومحمد وجبريل وغيرهم ممن كلمه الله، وإما بواسطة وهو أيضًا نوعان:

إما يوحي إلى الرسول ويلقي الوحي إليه وفي قلبه.

وإما يرسل إليهم الملك كما ذكر الله ذلك بقوله:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام

٦٩٤- والله عَزَّ وَجَلَّ مُوصٍ آمِرٌ
نَاهٍ مُثيبٌ مرسِلٌ لِبَيَانِ

٦٩٥- وَمُخَاطِبٌ ومُحَاسِبٌ ومُنَبِّىءٌ
وَمُحَدِّثٌ ومُخَبِّرٌ بالشَّانِ

٦٩٦- ومُكَلِّمٌ مُتَكَلِّمٌ بَلْ قَائِلٌ
وَمُحَذِّرٌ ومُبَشِّرٌ بأمَانِ

٦٩٧- هَادٍ يقُولُ الحقَّ مُرشِدُ خَلقِهِ
بِكَلاَمِهِ لِلحَقِّ والإيمَانِ

٦٩٨- فَإذَا انتفَت صِفَةُ الكَلاَمِ فَكُلُّ هَـ
ـذَا مُنتَفٍ مُتَحَقِّقُ البُطلاَنِ

٦٩٩- وإذَا انتفَت صِفَةُ الكَلاَمِ كَذَلِكَ الـ
إرسَالُ مَنفِيٌّ بِلاَ فُرقَانِ

٧٠٠- فَرِسَالَةُ المَبعُوثِ تَبلِيغُ كَلاَ
مِ المُرسِلِ الدَّاعِي بِلاَ نُقصَانِ

٧٠١- وَحقِيقَةُ الإرسَالِ نَفسُ خِطَابِهِ
لِلمُرسَلِينَ وإنَّهُ نوعَانِ

٧٠٢- نَوعٌ بِغَيرِ وَسَاطَةٍ كَكَلاَمِهِ

مُوسَى وَجبرِيلَ القريبِ الدَّاني

٧٠٣- مِنهُ إليهِ مِن وَرَاءِ حِجَابِهِ
إذ لاَ تَرَاهُ هَا هُنَا العَينَانِ

٧٠٤- وَالآخَرُ التَّكلِيمُ مِنهُ بالوَسَا
طَةِ وَهوَ أيضًا عِندَهُ ضَربَانِ

٧٠٥- وَحيٌ وإرسَالٌ إلَيهِ وَذَاكَ في الشُّـ
ـورَى أتَى فِي أحسَنِ التِّبيَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا الفصل عقَدَه المؤلف ليُبيِّن أنه إذا انتفت صفة الكلام عن الله عز وجل انتفَت صفة الرسالة، ووجهُ ذلك: أنَّ الله آمرٌ ناهٍ، مُرْسِل، مُخاطِب، مُحاسِب، مُنذِر، مُحذِّر، مُكلِّم، قائل، مُبشِّر، كل هذه من صفات الله عز وجل، وهل تمكن هذه الأشياء إلا بكلام؟ لا تمكن إلا بكلام، الرسالة لا تمكن إلا بكلام؛ لأن الرسالة تبليغُ كلام المُرسِل، فالرسول يُبلِّغ كلام المُرسِل، وإذا كان يُبلِّغُ كلام المُرسِل ثم قلنا: كلام، فمعناه: لا رسالة، فصار انتفاءُ الكلام ليس بالأمر الهيِّن، إذا نفَيْنا الكلام عن الله، انتفَت الرسالة، وانتفَى الأمر والنهي، والإخبار، والإنذار، والإنباء، والتبشير، والتنذير، وغير ذلك.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن إرسال الله الرسلَ، أو تكليم الله للرُّسُل ينقسِم إلى قسمين:

قسم بلا واسطة، وقسمٌ بواسطة، والقسم الذي بواسطة يكون بواسطة الرسول، والذي بغير واسطة ينقسم إلى: وحي، وإلى مُخاطَبة.

نَوعٌ بِغَيرِ وَسَاطَةٍ كَكلامِهِ ... مُوسَى وَجِبرِيلَ القريبِ الدَّاني
مِنهُ إليهِ مِن وَرَاءِ حِجَابِهِ ... إذ لاَ تَرَاهُ هَا هُنَا العَينَانِ
وَالآخَرُ التَّكلِيمُ مِنهُ بالوَسَا ... طَةِ وَهوَ أيضًا عِندَهُ ضَربَانِ
وَحيٌ وإرسَالٌ إلَيهِ وَذَاكَ في الشُّـ ... ـورَى أتَى فِي أحسَنِ التِّبيَانِ

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] الوحي: أن يُكلِّمه الله تعالى بلا واسطة؛ مثل: ما حصل لموسى ومحمد ﷺ ليلة المعراج.

والواسطة أحيانًا يأتيه المَلَك على صورة إنسان، أو على الصورة التي خُلِق عليها، فجبريل أتى النبيَّ ﷺ على الصورة التي خُلِقَ عليها مرتين [١]، مرة وهو في غار حراء، ومرة وهو عند سِدْرة المُنتَهى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، أو يكون يُلقَى في رُوعِ الرسول الوحي؛ يعني: يُلقَى في قلبه من غير أن يرى ملكًا، فهذه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: بلا واسطة.

الثاني: بواسطة المَلَك على صورة البشر، أو على الصورة التي خُلِقَ عليها.

الثالث: بواسطة المَلَك، لكن يأتيه يُلقَى في رُوعِه الوحي، فيَعِي ما يقول.

وعلى كلٍّ فكلُّها من كلام الله، سواء كان بلا واسطة، أو كان بواسطة.

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضى الله عنها.

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رحمه الله:

فصل

في إلزامهم التشبيه للربّ

بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام

وهذا الإلزام الذي ألزمه أهل السنة والجماعة للجهمية ومن تبعهم معروف مشهور، وهو واضح إلزامه جدًّا، فإنه إذ لم يكن الله متكلمًا ولا موصوفًا بالكلام، ومعلوم أن الكلام صفة مدح، لزم أن يكون الحيوان الذي يتكلم أكمل منه، ولزم من ذلك مشابهته للجمادات التي لا تتكلم، فانظر كيف فرُّوا من تشبيهه بالإنسان فوقعوا في تشبيهه بالجمادات التي لا تتكلم. ولما عرفوا شنعة هذا الإلزام عليهم قالوا: إن نفي الكلام يكون نقصًا إذا نفي عمن هو قابل له ولضده كالإنسان، فإنه إذا كان أخرس نقص بكثير عن المتكلمين. وأما الذي لا يقبل الكلام ولا يصح منه فليس في إثبات الكلام ونفيه عنه نقص، فيقال لهم كلامكم هذا مما زاد الأمر شرًّا وبطلانًا.

فإن نفي الكلام عنه نقص، ونفي القبول منه للكلام نقص آخر، فإن الحيوان المتكلم معلوم أنه أكمل من الجماد الذي لا يتكلم، فنزلوا عن تشبيهه بالإنسان إلى تشبيهه بالجماد فصاروا مشبهين بفهمهم معطلين باعتقادهم.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: ثبوت ما دل عليه الوحي من جميع الصفات لا يقتضي تشبيهًا ولا تمثيلًا، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام

٧٠٦-وَإِذَا انتفَت صِفَةُ الكَلَامِ فَضِدُّهَا
خَـــرَسٌ وَذَلِـــكَ غَايَـــةُ النُّقصَـــانِ

٧٠٧-فَلَئِن زَعَمتُم أَنَّ ذَلِك في الذِي
هُـــو قَابِـــلٌ مِـــن أُمَّـــةِ الحَيَـــوَانِ

٧٠٨-والرَّبُّ ليسَ بقابِلٍ صِفةَ الكَلاَ
مِ فَنفيُهَـــا مَـــا فِيـــهِ مِـــن نُقصَـــانِ

٧٠٩-فَيُقَـالُ: سَـلْبُ كَلَامِـهِ وَقَبُولِـهِ
صِـــفَةَ الكَـــلَامِ أَتَـــمُّ لِلْنُقْصَـــانِ

٧١٠-إذ أخـرَسُ الإِنسَانِ أكمَلُ حَالَـةً
مِـــن ذَا الجَمَـــادِ بأوضَـــحِ البُرهَـــانِ

٧١١- فَجَحَدتَ أوصَافَ الكَمَالِ مَخَافَةَ التَّـ
ـــجسِيمِ والتَّشـــبِيهِ بالإِنســـانِ

٧١٢-ووقَعـتَ فِـي تَشـبِيهِهِ بِالجَامِـدا
تِ الناقِصَـــاتِ وذَا مِـــنَ الخُـــذلاَنِ

٧١٣-اللهُ أَكبَـــرُ هُتِّكَـــت أســـتَارُكُم
حَتَّـــى غَـــدَوتُم ضُـــحكَةَ الصِّـــبيَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا أيضًا إلزامٌ آخر؛ لأنه إذا انتفَت صفة الكلام انتفَت صفة الكمال، وقد سبق أن الكلام هو الكمال، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الكمال، وذلك أن الكلام إذا انتفى حلَّ محلَّه الخَرَس، والخَرَس نقصٌ، فإذا قلتُم: إن الله لا يتكلَّم، فقد وصفتموه بالنقص، فيُجِيبون عن هذا ويقولون: إن انتفاء صفة الكلام نقصٌ إذا كان المحلُّ قابلًا له، أما إذا كان المحلُّ غير قابلٍ له فإن نفي الكلام عنه لا يُعتبَر نقصًا، كما لو قلتَ: إن الجدار لا يتكلَّم، فإن ذلك لا يُعتَبر نقصًا في الجدار؛ لماذا ؟ لأنه غير قابلٍ للكلام، فإذا كان غير قابلٍ له لم يكن نفي الكلام عنه نقصًا؛ بل لو قلتَ: إن الجدار لا يتكلَّم لضحِكَ عليك الناس، وقالوا: كيف تقول: إن الجدار لا يتكلَّم، هذا شيءٌ معروف، قل: إن الجدار ليس فيه تصدُّع، فنفي صفة الكلام عنه كنفي صفة الكلام عن الجدار؛ يعني: جعلوا قبول الجدار للكلام وقبول الله للكلام على حدٍّ سواء.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَلَئِن زَعَمتُم أنَّ ذَلِك في الذِي ... هُو قَابِلٌ مِـن أمَّـةِ الحَيَـوَانِ

يعني: أن الكلام يكون نفيُه نقصًا إذا نُسِيَ عمَّن يكون قابلًا له من الحيوان.

والرَّبُّ ليسَ بقابِلٍ صِفةَ الكَلَا ... مِ فَنفيُهَا مَـا فِيـهِ مِـن نُقصَـانِ

هذا كلامُهم، وهذا تمويه – لا شكَّ –، إذا قالوا: نفي الكلام عن الشيء إذا كان قابلًا له نقص، وإذا كان غير قابلٍ له فليس بنقص، والربُّ ليس بقابلٍ للكلام، فنفيُ الكلام عنه ليس بنقص.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا قلتُم هذا.

فَيُقَالُ: سَلْبُ كَلَامِهِ وَقَبُولِـهِ ... صِفَةَ الكَـلَامِ أَتَمُّ لِلْنُقْصَـانِ

يعني: إذا قلتُم: إنه لا يقبل أن يتكلَّم صار أشدَّ نقصًا مما إذا قلتُم: إنه يقبل الكلام ولكن لم يتكلَّم؛ لأن مَن لا يقبل الكمال أصلًا دون الذي يقبل الكلام ولكن لم يكن فيه الكمال؛ يعني: إذا قلتَ: إنه لا يقبل الكمال صار ليس أهلًا لأَن يكون كاملًا، بخلاف ما إذا قلتَ:

إنه أهلٌ للكمال، ولكن سُلِبَ عنه لسببٍ من الأسباب.

ثم ضرب مثلًا، فقال:

إذ أخرَسُ الإنسَانِ أكمَلُ حَالَةً ... مِن ذَا الجَمَادِ بأوضَحِ البُرهَانِ

الإنسان الأخرس أكمل من الجدار؛ لأن الإنسان الأخرس قابلٌ للكلام وهو صفة كمال، والجدار ليس بقابل أصلًا، مهما قلتَ ما يمكن أن يقبل، ولا يرِدُ على هذا أن يوم القيامة تُحدِّثُ أخبارها.

فَجَحَدتَ أوصَافَ الكَمَالِ مَخَافَةَ التَّـ ... ـجسِيمِ والتَّشبِيهِ بالإنسانِ

ووقَعتَ فِي تَشبِيهِهِ بِالجَامِدا ... تِ النَاقِصَاتِ وذَا مِنَ الخُذلاَنِ

يقول: نفَيتَ صفة الكلام مخافة أن تُشبِّهَه بالإنسان، وأيُّهما أولَى: أن يُشبَّه الشيء بالإنسان، أو بالجماد ؟ بالإنسان، ولهذا يُقال: فلان حجر؛ يعني: صلب ما يلين، فلا يُشبَّه بالجماد إلا مَن هو أنقص ممن يُشبَّه بالإنسان.

الـلـهُ أَكبَرُ هُتِّكَت أستَارُكُم ... حَتَّى غَدوتُم ضُحكَةَ الصِّبيَانِ

هتك الله أستارهم حتى صاروا ضُحْكَةً للناس، وعلى هذا فنقول: إذا انتفت صفة الكلام عن الله انتفت صفة الكمال؛ لأن عدم الكلام نقص، فإذا قالوا: عدمُ الكلام نقصٌ لمن يقبل الكلام، وأما مَن لا يقبل الكلام فليس انتفاء الكلام عنه نقصًا.

قلنا: إذا قلتُم: إن الله ليس بقابلٍ للكلام، صار أشدَّ نقصًا مما إذا قلتُم: إنه قابلٌ للكلام؛ لأن مَن يقبل صفة الكمال أعلى حالًا ممن لا يقبل صفة الكمال، وحينئذٍ فرَرتُم من تشبيهه بالإنسان، ووقعتُم في تشبيهه بالجماد، فصار ما وقعتُم فيه أعظم تنقيصًا لله ما فرَرتُم منه.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقُّه وباطله عينُ كلام الله

قد قامت الأدلة والبراهين من وجوه متعددة كثيرة جدًّا أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن جميع أفعالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وجميع أحوالهم مخلوقة لله، فيلزم على قول الجهمية أن يكون كلام الخلق كله حقه وباطله كلام الله لأنه منسوب إلى الله من جهة خلقه، فإن نسبة الكلام إلى الله علي قولهم - كنسبة بيت الله وناقة الله ونحو ذلك من الأعيان التي يعلم أن نسبتها إلى الله نسبة تشريف وتكريم، ولا تخرج بذلك أن تكون مخلوقة، فالقرآن كذلك. وهذا اللازم لزومه لقولهم واضح جدًّا، وهو أبطل ما يكون ويلزم منه شر الأقوال، ولهذا التزم هذا القول شر الطوائف وهم الاتحادية، وهو كفر بالله العظيم وتعطيل لوجوده. فإن زعم الجهمية أن هذا غير لازم لهم لأنهم خصصوا، فيقال ما تقدم أن هذا التخصيص لا ينفي التعميم، كما خصص ربوبيته بالعرش وبالبيت الحرام مع أنه رب العالمين، فهكذا قولهم إن هذا التخصيص للقرآن لا يمنع التعميم، ولما كان أهل السنة قولهم حقًّا لم يلزم منه إلا كل حق. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق، حقه وباطله، هو عين كلام الله سبحانه

٧١٤- أوَليسَ قَد قَامَ الدَّليلُ بأنَّ أفـ
ـعَالَ العِبادِ خَليقَةُ الرَّحمنِ

٧١٥- مِن ألفِ وَجهٍ أو قَرِيبِ الألفِ يُحـ
ـصِيهَا الذِي يُعنَي بهَذَا الشَّانِ

٧١٦- فيكُونُ كلُّ كَلامِ هَذَا الخَلقِ عَيـ
ـنَ كَلامِهِ سُبحَانَ ذِي السُّلطَانِ

٧١٧- إذ كَانَ مَنسُوبًا إليهِ كَلامُهُ
خَلقًا كبَيتِ اللهِ ذِي الأركَانِ

٧١٨- هَذَا ولازِمُ قَولِكُم قَد قَالَهُ
ذُو الاتِحَادِ مُصَرِّحًا بِبَيَانِ

٧١٩- حَذَرَ التَّنَاقُضِ إذ تَنَاقَضتُم وَلَـ
ـكِن طَردُهُ فِي غَايَةِ الكُفرَانِ

٧٢٠- فَلَئِن زَعَمتُم أنَّ تَخصِيصَ القُرا
نِ كَبَيتِهِ وكِلاَهُمَا خَلقَانِ

٧٢١- فَيُقَالُ ذَا التَّخصِيصُ لا يَنفِي العُمُو
مَ ولا الخصوصَ كربِّ ذِي الأكوَانِ

٧٢٢- ويُقَالُ رَبُّ العَرشِ أيضًا هَكَذَا

تَخصِيصُــــهُ لإِضَــــافَةِ القُــــرآنِ

٧٢٣- لاَ يَمنَعُ التَّعمِيمَ فِي البَاقِي وذَا

فِــي غَايَــةِ الإِيضَــاحِ والتِّبيَــانِ

الشَّـرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ألزمناهم فيما سبق بأن نفي الكلام يتضمَّن نفي الرسالة، وبأن نفي الكلام يتضمَّن النقص، ألزمناهم بإلزامٍ ثالث؛ وهو بأن نفي الكلام يتضمَّن أن يكون كلام الخلق كلهم حتى نباح الكلاب ونهيق الحمير كلام الله؛ لأنهم إذا قالوا: إن كلامه مخلوق، وكلام المخلوقات مخلوق، وإذا كان الكلام المخلوق يُضافُ إلى الله لزِمَ أن يكون كلام المخلوقات كلامًا لله؛ لأنكم تقولون: يُضاف الكلام إلى الله وإن كان مخلوقًا له، إذًا كلام البشر، وكلام الطير، وكلام الحمير، وكلام الكلاب، كله كلام الله – على زعمهم –؛ لأنه مخلوقٌ لله.

الاتحادي الذي يقول باتحاد الخالق والمخلوق.

وكل كلام في الوجود كلامُه سواءٌ علينــا نثرُه ونظامُــه

فصار أقرب قاعدةٍ منهم؛ لأنه طرد قولًا، لم يتناقض، كل ما خلق الله فهو كلامُه، وهو يتناقض، فجعلوا الكلام الذي أضافه الله إليه كلامَه، وكلام الناس ليس كلامه.

يقول: يلزمكم إذا قلتُم بأن الله لا يتكلَّم وأن الكلام مخلوق، يلزمكم أن تقولوا بأن كلام جميع الناس كلامٌ لله؛ لأن كلام الناس كلامٌ لله؛ لأنه مخلوق، وإضافة كلامه إليه لا يمنع أن يكون غيره مخلوقًا، كما أضاف إليه البيت – وهو خلقُه –، ولا يمنع أن تكون البيوت الأخرى مخلوقةً له، وكما أضاف إليه الناقة، ولا يمنع أن تكون النُّوق الأخرى مخلوقة له، كذلك أيضًا أضاف الكلام إليه – وهو مخلوقٌ له – ، فكلام الناس مخلوقٌ له، فعلى زعمكم يكون كلام الناس كلام الله لأنه مخلوق، فإذا قلتُم: إن الكلام وإن كان مخلوقًا فهو كلامه لزِمَكم أن تقولوا: إن كلام المخلوقات كلام الله.

نقول لهم: إذا قلتُم بأن الله لا يتكلَّم وأن كلامه مخلوق، قلنا: يلزمُكم بأن تقولوا بأن

كلام الناس كلام الله؛ لأنه مخلوق؛ حيث جعلتُم ما خلق الله من الكلام كلام الناس، فيلزمُكم على هذا أن يكون كلام المخلوقات كلامًا لله؛ لأنها مخلوقة، فأيُّ فرق بين الكلام الذي هو كلام الله وأنتم تقولون: مخلوق، وبين الكلام الآخر ؟ كلها مخلوقة، فإذا كانت الإضافة عندكم لأنه مخلوق، فهذا يشمل جميع الكلام حتى كلام الخلق، ولهذا أهل الوحدة والاتحاد قالوا: نعم، كلامُ الورَى كلامٌ للخالق، وقالوا في البيت المشهور:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواءٌ علينا نثرُه ونظامُه

قال المؤلف:

أَوَليسَ قَد قَامَ الدَّليلُ بأنَّ أفـ ... ـعَالَ العِبادِ خَليقَةُ الرَّحمنِ

فالجواب: بلى، دليل واحد، قال المؤلف:

مِن أَلفِ وَجهٍ أو قَرِيبِ الألفِ يُحـ ... ـصِيهَا الذِي يُعنَي بهَذَا الشَّانِ

تسعمائة دليل تدلُّ على أن أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل؛ يُحصِيها الذي يُعنَى بهذا الشان، يعتني به، ويلتمس الأدلة النقلية والعقلية من الكتاب والسنة، والعقل والحِسّ.

فيكُونُ كلُّ كَلاَمِ هَذَا الخَلقِ عَيـ ... ـنَ كَلامِهِ سُبحَانَ ذِي السُّلطَانِ

لماذا كان عين كلامه ؟ لأنه مخلوقٌ له، فأنتم تقولون: كلام الله مخلوقٌ له، فجعلتُم الكلام المخلوق عين كلام الخالق، نقول لهم: وكلام البشر مخلوق، فعلى رأيكم يكون عين كلام الخالق، قال: (سبحان ذي السلطان).

إذ كَـانَ مَنسُوبًـا إليـهِ كَـلاَمُـهُ ... خَلقًا كبيتِ اللـهِ ذِي الأركَانِ

يعني: كلام الخلق، ويجوز أن يكون كلامه أي: كلام الله؛ يعني: إذا كان كلام الله منسوبًا إليه؛ لأنه خلقَه، فليكُن كلام البشر منسوبًا إلى الله لأنه خلقَه، فهم يقولون: نُسِبَ إلى الله لأنه خلَقَه، وإضافته إليه كإضافة ناقة الله وبيت الله إلى الله، يقول: إذا كان منسوبًا إليه لأنه خلَقَه، فقولوا أيضًا بأن كلام الناس كلام الله منسوبٌ إليه لأنه خلَقَه، يلزمُهم هذا، ما داموا يجعلون القاعدة: كل كلام خلَقَه الله فهو يُنسَبُ إليه، فليكُن كلام الخلق منسوبًا إلى الله.

إذ كَـانَ مَنسُوبًـا إليـهِ كَـلاَمُـهُ ... خَلقًا كبيتِ اللـهِ ذِي الأركَانِ

بيتُ الله أضافه الله إليه خلقًا، لكنه أضافه للتشريف، لما أضاف الله البيت إليه خلقًا؛ هل منع أن يكون غير بيت الله خلقًا له ؟ هو خلَق المساجد الأخرى، خلق الجبال، خلق الأنهار، لما أضاف الله البيت إلى نفسه خلقًا لم يكن هذا مانعًا بأن يُنسَبَ إليه المخلوقات أيضًا؛ بل كلها مخلوقات الله، هذا الجبل خلق الله، هذه الشمس خلق الله، هذا البيت خلق الله، فلما نُسِبَ إلى الله خلقًا لم يمنع أن يُنسَب إليه الآخر.

هَذَا ولاَزِمُ قَولِكُم قَـد قَـالَـه ... ذُو الاِتحَـادِ مُصَرِّحًـا بِبَيَـانِ
حَذَرَ التَّنَاقُضِ إذ تَنَاقَضتُم وَلَـ ... ـكِن طَـردُهُ فِـي غَايَـةِ الكُفـرَانِ

الاتحادي الذي قال بوحدة الوجود، وقال: إن كلام الخلق هو كلام الخالق؛ لأن الله خلَقَه فهو كلامُه، يقول ابن القيم: إن الاتحادي التزَمَ بهذا وطَرَده، وأنتم تناقضتُم، فقلتُم: كلام البشر لا يُنسَب إلى الله، وإن كان خالقَهم، والكلام المخلوق الذي نُسِبَ إلى الله يُنسَب إلى الله؛ لأنكم إذا جعلتُم نسبتَه إلى الله، أو وجه نسبته إلى الله أنه خلَقَه لزِمَكم أن تنسبوا كلام الخلق إلى الله لأن الله خلَقَه، ولا فرق، يقول: إن الاتحادي طَرَده (لكن طَرْدُه في غاية الكُفْران) نحن نُكفر، وأنتم تُكفِّرون، الاتحادي الذي يقول: كلام الخلق هو عين كلام الخالق كافر، نحن نُكفِّره، وهم يُكفِّروننا، وهذا الاطِّراد اطِّرادٌ في باطل، غير مقبول.

فَلَئِـن زَعَمتُم أنَّ تَخصِيصَ القُرا ... نِ كَبيتِـهِ وكِـلاهُمَـا خَلقَـانِ
فَيُقَـالُ ذَا التَّخصِيصُ لا يَنفِي العُمُو ... مَ ولا الخصوصَ كربِّ ذِي الأكوَانِ

لو زعمتُم أن تخصيص القرآن كتخصيص بيته؛ يعني: أن الله أضافه إليه تشريفًا وتعظيمًا كما أضاف البيت إليه تشريفًا وتعظيمًا، نقول: هذا لا يمنع أن يكون غير البيت مخلوقًا لله عز وجل ومنسوبًا إليه، كذلك لا يمنع لما أضاف الكلام إلى نفسه أن يكون كلام غيره منسوبًا إليه ومخلوقًا، فالحقيقة أن الكلام باعتبار ما أُضِيف إلى الله، وما أُضِيفَ إلى البشر كالبيت باعتبار إضافته إلى الله وكغيره من الأكوان، فتخصيص البيت بأنه بيت الله، وهو الذي خلَقَه لا يمنع أن يكون خلق غيره أيضًا، ويُنسَبُ إلى الله خلقًا.

ويُقَالُ رَبُّ العَرشِ أيضًا هَكَـذَا ... تَخصِيصُـهُ لإِضَافَـةِ القُـرآنِ
لاَ يَمنَعُ التَّعمِيمَ فِـي البَاقِي وذَا ... فِـي غَـايَـةِ الإيضَـاحِ والتِّبيَانِ

الله أضاف الربوبية للعرش فقال: ربُّ العرش العظيم؛ هل إضافته الربوبية للعرش يقتضي أنها خاصة بالعرش، أو هي عامة ؟ ولهذا قال:

لاَ يَمنَعُ التَّعمِيمَ فِــي البَاقِي وذَا فِــي غَــايَـــةِ الإِيضَاحِ والتِّبيَانِ

فكذلك إذا أضاف الله الكلام الذي زعمتُم أنه مخلوق إلى نفسه لا يمنع أن يكون غيره من الكلام منسوبًا إلى الله أيضًا؛ لأنه خلْقُه، فالتخصيص لا يمنع التعميم، هذا خلاصة كلام ابن القيم.

فصار الآن أنه يلزمُ – على قولهم –: إن كلام الله مخلوق، أن يكون كل كلامٍ في الوجود كلامًا لله منسوبًا إليه؛ لأن العِلَّة في نسبة كلام الله إليه أنه مخلوقٌ له.

فنقول: هذه العِلَّة ثابتة في كلام الناس، فإن كلام الناس مخلوقٌ لله، فيلزمُكم على هذا أن يكون كلام الناس كلامًا لله، كما قلتُم في الكلام المخلوق أنه منسوبٌ إلى الله، فأيضًا هذا كلامٌ مخلوق فيُنسَب إلى الله، فإذا قالوا: إن نسبته إلى الله كنسبة البيت إلى الله، قلنا لهم: ونسبة البيت إلى الله لا يقتضي التخصيص، فإن الله تعالى أضاف البيت إليه على سبيل التشريف، وأما على سبيل الخلق فإن غير البيت أيضًا داخلٌ في كونه مخلوقًا لله، كربِّ العرش؛ هل نقول: إن الله لما أضاف ربوبيَّته للعرش اقتضى ذلك أن لا يكون ربًّا لغيره ؟ لا، ما نقول هذا، فالتخصيص لا يمنع التعميم.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل
في التفريق بين الخلْق والأمر

اعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الخلق غير الأمر، وأن الفعل غير المفعول، فالفعل صفة لله والمفعول هو المخلوق، والأمر تنشأ عنه المأمورات والشرائع، والخلق تنشأ عنه المخلوقات كلها.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحة بأن الخلق غير الأمر كما هو الأصل أن المعطوف غير المعطوف عليه، ويمتنع أنهما شيء واحد، فإنه صرح فيها أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وذلك بعد ما أخبر أنه خلقها، فخلقها ثم سخرها بأمره، والأمر سواء قيل: إنه مصدر أو اسم مفعول فالغرض حاصل، فإن كان مصدرًا وهو الأظهر فهو وصف ظاهر، وإن كان اسم مفعول بمعنى المأمور فإن المأمور ناشيء عن الأمر كالمصنوع ناشيء عن ا لصنعة، فيلزم من وجود المأمور وجود الأمر ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كما يلزم من وجود المخلوق صفة الخلق الذي هو الفعل وبه وجد المخلوق، ومن نفيه انتفاء الخلق.

وتدبر في هذه الآية سرًا عجيبًا، فإنه ذكر في أولها خلقه السماوات والأرض خصوصًا، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم بأمره أيضًا خصوصًا، وصرح فيهما بالفعل، وذكر في آخرها الوصف والتعميم في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فجمع بين فعله ووصفه على وجه الخصوص وعلى وجه العموم، فهذا القول الحق الموافق لما دلَّ عليه القرآن، ولما هو معقول

عند أولي الألباب.

وأما الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين فحيث كان أصل قولهم إن الفعل عين المفعول سووا بين الخلق والأمر، وهذا قول متناقض باطل مخالف للنقل وللمعلوم بالعقل، فكيف يثبتون فرعًا بلا أصل، وهل هذا إلا مبطل للفرع والأصل؟

❀ ❀ ❀

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في التفريق بين الخلق والأمر

٧٢٤- ولَقد أتَى الفُرقَانُ بَينَ الخَلقِ والـ
أمـر الصَّـريح وذَاكَ فِـي الفُرقَـانِ
٧٢٥- وَكِلاَهُمَـا عِنـدَ المُنَـازِعِ وَاحِـدٌ
والكُـلُّ خَلـقٌ مَـا هُنَـا شَـيئَان
٧٢٦- والعَطفُ عندَهُمُ كعَطفِ الفَردِ مِن
نَـوعٍ عَليـهِ وَذَاكَ فِـي القُـرآنِ
٧٢٧- فيُقَـالُ هَـذَا ذُو امتنـاعٍ ظَـاهِرٍ
فِـي آيَـة التَّفريـقِ ذُو تبيـانِ
٧٢٨- فـالله بَعـدَ الخَلـقِ أخبَـرَ أنهَـا
قَـد سُـخِّرَت بـالأمرِ للجَرَيَـانِ
٧٢٩- وأبَـانَ عَـن تَسـخِيرِهَا سُبحَانَهُ
بـالأمرِ بَعـدَ الخَلـقِ بالتِّبيَـانِ
٧٣٠- والأمـرُ إمَّـا مَصدَرٌ أو كَـانَ مَفـ
ـعُولًا هُمَـا فِـي ذَاكَ مُسـتويَانِ
٧٣١- مَـأمُورُهُ هُـوَ قَابِـلٌ للأمـرِ كالـ
ـمَصنُوعِ قَابِـلِ صَـنعَةِ الـرَّحمَن
٧٣٢- فإذا انتفَى الأمرُ انتفَى المأمُورُكالـ

ـــمَخلُوقِ يُنفَــى لانتِفَــا الحــدثَانِ

٧٣٣- وانظُر إلى نَظمِ السِّياقِ تَجِد بِهِ

سِـــرًا عَجِيبًـــا وَاضِـــحَ البُرهَـــانِ

٧٣٤- ذِكْـرَ الخُصُـوصَ فعِلَـه مُتَقَـدِّمًا

والوصــفَ والتعمِـيمَ فـي ذَا الثَّـانِي

٧٣٥- فــأتى بِنَــوعَي خَلقِــه وَبِــأمرِهِ

فِعــلًا وَوصـــفًا مُــوجِزًا بِبَيَــانِ

٧٣٦- فتـدبَّر القـرآن إن رُمْـتَ الهـدى

فــالعلم تحــت تــدبر القــرآن(١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا الفصل عقَدَه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ للتفريق بين الخلق والأمر، والجهمية والمعتزلة الذين يقولون: إن كلام الله مخلوق لا يُفرِّقون بين الخلق والأمر، مع أن الله فرَّق بينهما، فقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والأمر هو القرآن؛ يعني: هو الوحي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ففرَّق الله بين الخلق والأمر، فبينهما فرق عظيم، والفرق بين الأمر والخلق يظهر به أيضًا الفرق بين المأمور وبين المخلوق، يقول المؤلف:

ولَقد أتَى الفُرقَانُ بينَ الخَلقِ والـ ... أمر الصَّريح وذَاكَ فِـي الفُرقَـانِ

---

(١) [٧٣٠: ٧٣٦] قال العلامة محمد خليل هراس:

واعلم أن الناظر في سياق الآية الكريمة يجد سرًّا عجيبًا، فإن الله عز وجل ذكر خلقه للسموات والأرض على وجه الخصوص، ثم ذكر تسخيره للشمس والقمر والنجوم بأمره على وجه الخصوص أيضًا، وصرح فيهما بالفعل، ثم أتى بعد ذلك بالخلق والأمر وصفين على جهة التعميم في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فيكون سبحانه قد جمع بين نوعي الخلق الفعلي والوصفي، وبين نوعي الأمر كذلك في أبلغ عبارة وأوجز بيان، فما أجدر طالب الهدى أن يتدبر كتاب الله عز وجل فإن العلم كله في تدبر القرآن.

الفرقان هنا بمعنى: التفريق، المراد بالفرقان الثانية: القرآن.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وكلاهما عند المُنازع واحدٌ) المراد بالمُنازِع: الذي يقول: إن كلام الله مخلوق، فالأمر والخلق عنده سواء، (والكلُّ خلقٌ) يعني: الكل مخلوق (ما هنا شيئان)، وأهل السنة والجماعة يقولون: هنا شيئان: خلق وأمر، فالأمر هو الوحي وهو صفتُه، والخلق هو مخلوقُه وهو فِعْلُه.

قال:

والعَطفُ عندَهُم كعَطفِ الفَردِ مِن ... نَـوعٍ عَلَيهِ وَذَاكَ فِـي القُـرآنِ

العطف عند المُنازِعين، كعطف الفرد من النوع على النوع، فقوله: (كعطف الفرد من نوعٍ عليه) فالضمير يعود على النوع، (وذاك في القرآن) يعني: عطف الفرد على النوع موجودٌ في القرآن، فيكون الفرد غير خارج عن النوع.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤] الروح من الملائكة، ليس مُبايِنًا لهم.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] الصلاة الوسطى من الصلوات.

فهذا عطفُ فردٍ على النوع، هم يقولون: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأمر من الخلق، لكنَّه فردٌ من أفراده، فعطفُ الأمر على الخلق عند هؤلاء المُعطِّلة من باب عطف الفرد على النوع، كقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤] الروح ملَكٌ من الملائكة، والأمرُ خلقٌ من المخلوقات، قولهم هذا فائت، ولهذا قال المؤلف:

فَيُقَالُ هَذَا ذُو امتنـاعٍ ظَاهِـرٍ ... فِـي آيـةِ التَّفريقِ ذُو تبيـانِ

التفريق؛ يعني: بين الأمر والخلق. فالله بعد الخلق أخبر أنها قد سُخِّرَت بالأمر للجريان ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ النجوم معطوفة على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهي مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ مخلوقة ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حال من ﴿ٱلنُّجُومِ﴾، ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فإذًا الأمر صار بعد الخلق، فإذا كان عندنا خلقٌ سابقٌ، وأمر لاحِق؛ هل يمكن أن نجعل الأمر من الخلق ؟ لا

يمكن، هي خُلِقَت ثم وُجِّهَت، سُخِّرَت بأمر الله، فدلَّ هذا على أن الأمر غير الخلق.

فاللــــه بَعدَ الخَلقِ أخبَرَ أنهَـــا قَد سُخِّرَت بالأمرِ للجَرَيَـــانِ
وأبَانَ عَن تَسخِيرِهَـــا سُبحَانَــهُ بالأمرِ بَعدَ الخَلقِ بالتِّبيَـــانِ

فإذًا نقول: جعْلُنا الأمر من الخلق خطأ لوقوعه بعده، فهي قد خُلِقَت وانتهت ثم أُمِرَت أمرًا جديدًا بالتسخير، سُخِّرَت بأمر الله.

ثانيًا: أن نقول: إن الأصل في العطف المُغايَرة في الذات، والجنس، والنوع، ولا يمكن أن نجعل العطف من باب عطف الفرد على النوع، أو الخاص على العام إلا بوجود دليل.

والأمرُ إمَّا مَصدَرٌ أو كَانَ مَفـ ـعُولًا هُمَـا فِـي ذَاكَ مُستويَانِ

في قول الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ الأمر هنا هل هي مصدر أو اسم مفعول ؟ يقول ابن القيم: اجعلها مصدرًا أو اجعلها اسم مفعول، كلاهما يدل على أن الأمر ليس هو الخلق، وجه ذلك: أنك إذا جعلتَ الأمر مصدرًا - وهو الأظهر - فإنه يدل على أن هذا الأمر حصل بالقول؛ يعني: خلق ثم أمر، وإن جعلتَ الأمر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول، فإنه ما من مأمور إلا وقد وُجِّه عليه أمر، فمن لازِم وجود المأمور وجود الأمر، فإذًا عاد التأويل الثاني - وهو أن تجعل الأمر اسم مفعول إلى المعنى الأول - وهو إثبات الأمر لله عز وجل، والأمر كما تقرَّر عندنا الآن هو غير الخلق.

قال: (والأمر إما مصدر) وهذا هو الأصل، (أو كان مفعولًا) وهذا رأي المُعطِّلة، يكون الأمر ما هو شيءٌ يتَّصِف به الخالق ووصفُه؛ بل الأمر بمعنى أن المأمور أي: المخلوق (هما في ذاك مستويان).

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(مأمورُه هو قابلٌ للأمر) يعني: ليس هناك مأمور إلا وقد صدر إليه الأمر فقبِلَ الأمر.

وقوله: (كالمصنوع) هل يوجد مصنوع بغير صَنعة ؟ إذًا لا يوجد مأمور بدون أمر (كالمصنوع قابل صنعة الرحمن) فإذا انتفى الأمر انتفى المأمور (كالمخلوق ينفى لانتفا الحدثان) يقول: إذا انتفى الأمر انتفى المأمور، وإذا لم يوجد مأمور لا يوجد أمر، فهما متلازمان، فإذا انتفى الأمر فلا مأمور، وإن وُجِد من يُوَجَّه إليه الأمر، لكن إذا لم يأمُره، لم يكن هو مأمورًا، كما أنه أيضًا إذا انتفى المأمور فلا أمر؛ لأنه كيف أوَجِّه الأمر إلى ما ليس

بشيء؟ إذًا عرفنا أن الأمر والمأمور متلازمان.

وانظُر إلى نَظمِ السِّياقِ تَجِد بِهِ ... سِراً عَجيبًا وَاضِحَ البُرهَانِ

نظم السياق؛ يعني: الآية التي ذكرتُها ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ما هو السر العجيب؟ قال:

ذَكَرَ الخُصُوصَ وفعلَه مُتَقَدِّمًا ... والوصفَ والتعمِيمَ في ذَا الثَّانِي

قوله: (ذكَر الخصوص) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا خاص أم عام؟ خاص، ولم يقُل: خلق كل شيء ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ خاص أيضًا ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، يقول:

ذَكَرَ الخُصُوصَ وفعلَه مُتَقَدِّمًا ... والوصفَ والتعمِيمَ في ذَا الثَّانِي

ثم ذكر بعد ذلك الوصف والتعميم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾، ولم يقُل: خلق كذا، بخلاف الأول أتى بالفعل وخصَّ المفعول، وفي الثاني عمَّم، قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ والأمر يأتي في أول الآية مُقيَّد بالنجوم ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

وقوله: (فأتى بنوعي خلقه وبأمره) ما هما النوعان؟ (فعلًا ووصفًا) الفعل هو الخاص، والوصف هو العام، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [النحل: ١٢] هذا فعل ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ وصف، ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هذا أمرٌ مُتعلِّقٌ بفعلٍ خاصٍّ.

فأتـى بِنوعي خَلقِـه وَبِأمـرِه ... فِعلًا وَوصفًـا مُوجزًا بِبَيَـانِ

مُوجَزًا، ويجوز: مُوجِزًا، وكلاهما صحيح.

فَتَدَبَّرِ القُرآنَ إن رُمـتَ الهُدَى ... فَالعِلمُ تَحتَ تَـدَبُّـرِ القُـرآنِ

يعني: إن كنتَ تُريد الهدى فتدبَّر القرآن، ولا تتسرَّع ولا تتعجَّب، ولا تغفُل، وأكثر الناس اليوم يقرأون القرآن إما للأجر بتلاوته، وإما للتبرُّكِ بها، ولكنَّ أكثرهم لا يقرأونه تدبُّرًا، ولهذا حُرِموا فائدتَه، وإلا فالقرآن عظيم، وكنوز عظيمة؛ وذلك لأنها من الله عز وجل، ولا يُحيطُ بها أحدٌ إلا الله، فهو كنزُ الكنوز في الواقع، لكن بالتدبُّر.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

في التفريق بين ما يضاف إلى الله من الأعيان والأوصاف وكذلك ما أخبر أنه منه

وحاصل ذلك أن الذي يضيفه الله إلى نفسه إما أعيان يخصها بهذه الإضافة المقتضية للاختصاص والتشريف مثل عبد الله وناقة الله وبيت الله ومثله:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان٦٣].

فهذه أعيان قائمة بأنفسها وهي من جملة المخلوقات، لكنه أضافها لنفسه تفضيلًا لها على غيرها وتعظيمًا.

وإما إضافة أوصاف كعلم الله وقدرته وإرداته، وكذلك كلامه وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها. وكذلك ما أخبر أنه منه، فإن كان أعيانًا كروح منه:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

فهذه منه خلقًا وتقديرًا. وإن كان ذلك أوصافًا كقوله:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر:١].

دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمية ونحوهم وقعوا في الأقوال الباطلة. والله أعلم.

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في التفريق بين ما يُضاف إلى الرب تعالى من الأعيان والأوصاف

٧٣٧-وَالله أخبَـرَ فِـي الكِتَـابِ بأنَّـهُ
مِنــه وَمجــرورٌ بِمِــن نَوعَــانِ
٧٣٨-عَـينٌ وَوَصـفٌ قَـائمٌ بـالعَينِ فَالـ
أعيَــانُ خَلــقُ الخَــالِقِ الــرَّحمَنِ
٧٣٩-والوَصـفُ بـالمجرُورِ قَـامَ لأنَّـه
أولَــى بِــهِ فِــي عُـرفِ كُـلِّ لِسَـانِ
٧٤٠-وَنَظِيـرُ ذَا أيضًـا سَـوَاءً مَـا يضَـا
فُ إليــهِ مِــن صِــفَةٍ وَمِــن أعيَــانِ
٧٤١-فَإضَـافَةُ الأوصَـافِ ثَابِتَـةٌ لِمَـن
قَامَــت بِــهِ كَــإرادَةِ الــرَّحمنِ
٧٤٢-وإِضَــافَةُ الأعيَــانِ ثَابِتَــةٌ لَــهُ
مُلكًــا وخَلقًــا مَــا هُمَــا سِــيَّانِ
٧٤٣-فَـانظُر إلَـى بَيـتِ الإلَـهِ وعِلمِـهِ
لَمَّــا أُضِــيفَا كَيــفَ يَفتَرِقَــانِ
٧٤٤-وَكَلامُــهُ كَحَيَاتِــهِ وكَعِلمِــهِ
فِـي هـذي الإِضَـافَةِ إذ هُمَـا وَصـفَانِ
٧٤٥-لَكِــنَّ نَاقَتَــهُ وَبَيــتَ إلهِنَــا

فكعَبْـــدِهِ أيضًـــا هُمَـــا ذَاتَـــانِ

٧٤٦- فَانظُرْ إِلَى الجَهمِيِّ لَمَّا فَاتَهُ الـ

ـــحَقُّ المُبِـــينُ وَوَاضِـــحُ الفُرقَـــانِ

٧٤٧- كَـانَ الجَمِيـعُ لَدَيـه بَابًـا واحِـدًا

والصُّـــبحُ لاَحَ لِمَـــن لَـــهُ عَينَـــانِ

الشَّرْح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

بيَّنَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الفرق بين ما يُضاف إلى الله عز وجل، وما يُضاف إلى الأوصاف والأعيان، فبيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن ما يُضافُ إلى الله إما أن يكون عَينًا قائمةً بنفسها، وإما أن يكون وَصْفًا، لا يقوم إلا بغيره، وهذا نوعان:

إما أن يُضاف إلى الله بالإضافة المعروفة، وإما أن يُضاف إليه بـ (من)، فهنا الأول مُضاف بـ (من)، والثاني مُضاف الإضافة المعروفة، وهذا المُضاف بـ (من)، أو بالإضافة المعروفة إما أن يكون عَيْنًا قائمةً بنفسها، وإما أن يكون وَصْفًا لا يقوم إلا بغيره، كل واحدٍ من هذه له حكم.

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(والله أخبر في الكتاب بأنه منه) أخبر الله في القرآن بأن القرآن منه، قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣]، وهنا أضاف القرآن إليه بـ (من)، والقرآن كلام، والكلام وصف المتكلِّم، إذًا فيكون المُضاف إلى الله بـ (من) مخلوقًا أو غير مخلوق ؟ يكون غير مخلوق؛ لأنه صفة، والصفة قائمة بالموصوف، والموصوف الرب عز وجل وهو الخالق، إذًا فيكون القرآن غير مخلوق.

قال: (ومجرور، بـ(من) نوعان: عين ووصف قائم بالغير) المجرور بـ (من) نوعان: عين، ووصف قائم بالعين، الوصف القائم بالعين هذا وصفٌ لله، والعين نفسها هذا خلق

من مخلوقات الله، قال: (فالأعيان) يعني: الأعيان المُضافة إلى الله بـ (من)، (خلق الخالق الرحمن)، (والوصف بالمجرور قام لأنه أولَى به) الوصف يعني: الوصف المجرور بـ (من) قام بالمجرور، المجرور هو الضمير، فتقول مثلًا: القرآن نازلٌ منه؛ أي: من الله، إذًا قام بالله عز وجل، فإذا كان قائمًا بالله وهو صفة لزِمَ أن يكون غير مخلوق، لكن ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

الذي في السماوات والأرض أوصاف أم أعيان ؟ أعيان، إذًا تكون مخلوقة، فالمجرور بـ (من) المُضاف إلى الله إن كان عينًا قائمةً بنفسها فهو مخلوق، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، وإن كان وصفًا لا يقوم بنفسه؛ بل بغيره، فهو صفة من صفات الله غير مخلوقة، مثل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قال: (والوصف بالمجرور قام) بالمجرور مُتعلِّق بـ (قام) لا متعلِّقًا بالوصف؛ يعني الوصف إذا جُرَّ بـ (من) فهو بالمجرور قام؛ لأنه أولى به في عُرْفِ كل لسان.

وَنَظِيرُ ذَا أيضًا سَوَاءً مَا يضَا ... فُ إليهِ مِن صِفَةٍ وَمِن أعيَانِ

نظيرُ ذا: المُشار إليه المجرور بـ (من).

فَإضَافَةُ الأوصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَن ... قَامَت بِهِ كَإرادَةِ الرَّحمنِ

إذا قلنا: إرادة الله، فالإرادة وصف أُضِيْفَت إلى الله، لما كانت وصفًا، فالوصف لا يقوم بنفسه؛ لأنه ليس عينًا، إذًا يكون صفةً لله عز وجل غير مخلوق؛ لأن صفات الله غير مخلوقة، ولهذا قال: (فإضافة الأوصاف ثابتة لمن قامت به) ثم أتى بمثال: (كإرادة الرحمن).

(وإضافة الأعيان ثابتة له ملكًا وخلقًا) إضافة الأعيان إلى الله ثابتة لله مُلكًا وخلقًا؛ يعني: هو الذي ملَكَها وخلَقَها (ما هما سِيَّان) يعني: الأوصاف والأعيان، الأوصاف صفة الله، والأعيان خلق الله، وبينهما فرق عظيم.

قال: (فانظر إلى بيت الإله وعلمه) بيت الإله، قال الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وعلمه علمُ الله، (لَمَّا أُضِيفَا) إلى الله (كيف يفترقان؟) يفترقان فرقًا عظيمًا، بيت الله مخلوق بناه إبراهيم ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أما علم الله فصفة من صفاته غير مخلوقة؛ لأن الأول عين أضيف إلى الله، والثاني

وصف أُضيف إلى الله، ومعلومٌ أن الوصف لا يقوم بنفسه بل لابد له من عين يقوم بها.

قال: (وكلامه كحياته) نقول لهؤلاء المعتزلة والجهمية: هل تقولون: إن حياة الله مخلوقة؟ يقولون: لا، نقول: كلامه كذلك غير مخلوق؛ لأن الكلام صفة، والحياة صفة، الكلام لا يقوم إلا بمُتكلِّم، والحياة لا تقوم إلا بحيٍّ.

وَكَلَامُهُ كَحَيَاتِهِ وكَعِلمِهِ ... فِي هذي الإِضافَةِ إذ هُمَا وَصفَانِ

فالكلام كالعلم، والكلام كالحياة؛ لأنهما وصفان، الكلام لا يمكن أن يقوم إلا بمُتكلِّم.

لَكِنَّ نَاقَتَهُ وَبيتَ إِلهِنَا ... فكعَبدِهِ أيضًا هُمَا ذَاتَانِ

هذه ثلاثة أمثلة؛ ناقة الله، وبيت الله، وعبد الله؛ هل نقول: إن إضافة بيت الله كإضافة علم الله ؟ لا؛ لأن البيت عين، والعلم وصف، وهل نقول: إن الناقة كالحياة ؟ لا؛ لأن الحياة وصف، والناقة عين، هل نقول: إن العبد كالإرادة ؟ لا؛ لأن الإرادة وصف، والعبد عين، إذًا هناك فرق تام، فناقة الله، وبيت الله، وعبد الله، يقول المؤلف: (هما ذاتان) يعني: ذاتان قائمتان بأنفسهما، فلا تكونان وصفًا لله، لكن قال:

فَانظُر إِلَى الجَهمِيِّ لَمَّا فَاتَهُ الـ ... ـحَقُّ المُبِينُ وَوَاضِحُ الفُرقَانِ

كَانَ الجَمِيعُ لدَيه بَابًا واحِدًا ... والصُّبحُ لاَحَ لِمَن لَـهُ عَينَانِ

الكلام والبيت كلاهما مخلوق، (والصبح لاح لمن له عينان).

إذًا خلاصة هذا الفصل: أن ما أُضيف إلى الله بطريق الإضافة المعروفة، أو بالجر بـ (من) ينقسِم إلى قسمين: إما عينٌ، وإما وصفٌ، فإن كان عينًا فهو مخلوق، وليس من صفات الله، وإن كان وصفًا، فهو من صفات الله، وهو غير مخلوق، والأمثلة ظاهرة؛ الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، أوصاف غير مخلوقة، أما البيت، والناقة، والعبد، والمسجد أعيان، فهي مخلوقة وأضيفت إلى الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

وزعم أبو محمد بن حزم الظاهري أن مسمى القرآن يطلق على أربعة أشياء: يطلق على المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويطلق على هذا الذي نقلوه، ويطلق على ما هو محفوظ في الصدور، فهذه الثلاثة عنده مخلوقة. ويطلق على المعنى القديم القائم بذاته كقيام علمه بحيث لايتعلق بمشيئته، فهذا غير مخلوق.

وهذا القول هو قول الكلابية السابق إلا أن التعبير اختلف، فأبو محمد قال: إنه مخلوق كما صرح بذلك المعتزلة والكلابية، والأشعرية قالوا عبارة وحكاية عن كلام الله كما تقدم قولهم.

والذي أوجب لابن حزم أن يقول بهذا التفصيل الذي هو من الأضاليل أنه لما رأى مراتب الوجودات أربعة: للمعينات وجود في الخارج، ووجود في اللفظ، ووجود في الرسم ،ووجود في الذهن: فوجود الشيء يطلق على كلٍ من هذه الأمور الأربعة، وأن أولاها بالقرآن عنده الوجود الخارجي وهو المعنى النفسي القديم، وخالفه أبو عبد الله الرازي فزعم أن الأولى بهذه المراتب الوجود الذهني، وكل هذا غلط فاحش وقلة فرقان، وإلا فالشيء واحد في نفسه حيثما تصرف، فالقرآن كلام الله بوجوداته الأربعة إذا تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون أو تكلم رب العالمين، فهو في كل هذه المراتب كلام الله منزل غير مخلوق، وهو حقيقة في جميع هذه المراتب، ولهذا أخبر الله عن القرآن خبرًا واحدًا في أحواله كلها فأخبر أنه تكلم به، وأنه كلامه وتنزيله، وأنه نزل منه؛ وأخبر أنه في صدور أهل العلم محفوظ، وأنه في صحف مطهرة، وأنه متلوٌّ مقروء وكل ذلك على وجه الحقيقة.

وهذا بخلاف القول في تلاوة العبد، فإن التلاوة غير المتلوّ، والقراءة غير المقروء، فالتلاوة فعل العبد وهي مخلوقة، والمتلوُّ هو كلام الله غير مخلوق، ولهذا كان الأئمة يقولون:

إن كتابة العباد وأصواتهم والرق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به هذه كلها مخلوقة، فإن جميع ما يرجع إلى ذوات العباد وأوصافهم مخلوق، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق، وهذا الفرق واضح شرعًا وعقلًا.

والتلاوةُ قد يعنى بها المتلوّ فهو كلام الله غير مخلوق، وقد يعنى بها تلاوة العباد وأصواتهم وأفعالهم فهي مخلوقة.

وهذا الفرق هو الذي قرره البخاري وغيره. وأنكر عليه بعض أهل العلم حيث لم يفهموا مراده، وجرى بينه وبين الإمام محمد ابن يحيى الذهلي محنة مشهورة، وكل منهما إمام من أهل السنة والجماعة، فمحمد بن يحيى قصد سد الباب عن تطرق الجهمية والمعتزلة؛ والبخاري فصل الحق الذي به يزول الإشكال وتستقيم به الأحوال، وكل منهما يحمد على سعيه المشكور ولكن الحق أحق أن يتبع.

فالواجب على من عرف الحقائق أن يفصلها ويميز بين الحقائق المتباينة، وعلى من عنده توقف وإشكال أن يقف حتى يتضح له الصواب. وكل من البخاري والذهلي نسب القول الذي نصره إلى الإمام أحمد، ولكن بهذا الحمل الذي ذكرناه يتضح أن كلًّا منهما وممن قال بقولهما من أئمة السلف محمود مشكور، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ورضي الله عنهم وأرضاهم.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل

٧٤٨- وأتَى ابنُ حزمٍ بَعدَ ذَاكَ فَقَالَ مَا
لِلنَّــــاسِ قُـــــرآنٌ وَلاَ اثنَـــــانِ

٧٤٩- بَـل أربَـعٌ كُـلٌّ يُسـمَّى بِـالقُرا
نِ وذَاكَ قَـــولٌ بَـــيِّنُ الـــبُطلاَنِ

٧٥٠- هَـذَا الـذِي يُتلَـى وآخـرُ ثَابِـتٌ
فِي الرَّسمِ يُدعَى المُصحَفَ العُثمَانِي

٧٥١- والثَّالِثُ المحفوظُ بَينَ صُدُورنَا
هَـــذِي الـــثَّلاَثُ خَلِيقَـــةُ الـــرَّحمَنِ

٧٥٢- والرَّابِعُ المعنَى القَـدِيمُ كعِلمِـهِ
كُـــلٌّ يُعَبَّـــرُ عَنـــهُ بِـــالقُرآنِ

٧٥٣- وأظُنُّـهُ قَـد رَامَ شَـيئًا لَـم يَجِـد
عَنـــهُ عِبَـــارَةَ نَـــاطِقٍ بِبَيَـــانِ

٧٥٤- إنَّ المُعَــيَّنَ ذُو مَرَاتِــبَ أربَــعٍ
عُقِلَـــت فَـــلاَ تَخفَـــى عَلَـــى إنسَـــانِ

٧٥٥- فِي العينِ ثمَّ الذِّهنِ ثُمَّ اللَّفظِ ثُمْ
ـــمَ الرَّسـمِ حِــينَ تَخُطُّــهُ بِبَنَـــانِ

٧٥٦- وَعَلَى الجمِيعِ الإِسمُ يُطلَقُ لَكِنِ الـ

أولَــى بِــهِ الموجُــودُ فِــي الأعيَــانِ

٧٥٧- بِخِلَافِ قَولِ ابنِ الخَطِيبِ فَإِنَّهُ
قَــدْ قَــالَ إِنَّ الوَضْــعَ لِلأَذهَــانِ[١]

٧٥٨- فَالشَّــيءُ شَــيءٌ وَاحِــدٌ لاَ أربَـعٌ
فَــدَهَى ابــنَ حَــزمٍ قِلَّــةُ العِرفَــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ابنُ حزمٍ هذا، أطنب عليه الشارح الشيخ إبراهيم بن عيسى [٢]، ومدَحَهُ مدحًا عظيمًا، ولا شك أن الرجل عنده علمٌ كثير بالآثار، وكتابه المُحلَّى من أجمع ما يكون، لكن عنده شُذُوذٌ في الرأي في مسائل كثيرة؛ فمنها: قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس للناس قرآن ولا قرآنان؛ بل أربعة قرآنات؛ كيف ؟ قال: هذا الذي يُتلَى، وآخر ثابت في الرسم، والثالث المحفوظ بين صدرونا، والرابع المعنى القديم؛ كعلمِه كلٌّ يُعبَّر عنه بالقرآن.

هذا الذي يُتلَى ـ المقروء ـ يُسمَّى قرآنًا، والثاني الثابت في الرسم إذا كتبتَه، والثالث المحفوظ بين صدورنا، وهذا الذي يكون في الذهن، فأنت الآن حافظ القرآن لكن ما نطقتَ به ولا كتبتَه، بل هو في ذهنك، يقول: (هذي الثلاث خليقة الرحمن) الذي يُتلَى، والثاني المكتوب، والثالث المحفوظ، والرابع المعنى القديم كعلمه، هذا أيضًا يُسمَّى قرآنًا، والبيت الأخير واضح أنه ذهب مذهب الأشاعرة، فقال: إن القرآن هو المعنى القديم في

---

(١) [٧٤٨: ٧٥٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
وهو في كل مرتبة من هذه المراتب يطلق عليه اسم القرآن، لكن أولاها بهذا الاسم الموجود في الأعيان، وخالفه في هذا فخر الدين الرازي فقال: إن لفظ القرآن إنما هو موضوع للموجود في الأذهان، ولا شك أن هذا الذي قاله ابن حزم هو قول الكلابية والأشعرية مع فارق بسيط، وهو أن ابن حزم يسمى هذا المتلو المحفوظ المكتوم قرآنًا، وأما الكلابية والأشعرية فيقولون إنه عبارة أو حكاية عنه كما سبق، وإن كان متفقًا معهم في القول بأنه مخلوق.

(٢) صاحب كتاب (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم).

ذات الله عز وجل، المعنى القديم كعلمه، كعلم الله، كلٌّ يُعبَّر عنه بالقرآن.

فجعل مراتب الوجود كل واحدٍ منها مُستقلًّا؛ لأن الشيء له وجود في الذهن، ووجود في الخارج، فالتبس عليه الأمر، قال:

وأظنُّهُ قَد رَامَ شَيئًا لَـم يَجِد   عَنـهُ عِبَـارَةَ نَـاطِـقٍ بِبَيَـانِ

فهذا ابن حزم يقول ابن القيم: (وأظنُّه قد رام شيئًا لم يجد عنه عبارة ناطق ببيان) يعني: أراد شيئًا لكن عجز أن يُعبِّر، ثم فصَّل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال:

إنَّ المُعَيَّنَ ذُو مَرَاتِبَ أربَعٍ   عُقِلت فَلاَ تَخفَى عَلَى إنسَـانِ
فِي العينِ ثَمَّ الذِّهنِ ثُمَّ اللَّفظِ ثُمْ   ـمَ الرَّسمِ حِيـنَ تَخُطُّـهُ بِبَنَـانِ

الشيء المُعيَّن له أربع مراتب:

الأول: يقول: في العين؛ يعني: وجودًا عينيًا، وهذا بالنسبة للكلام هو الذي يصدر من أول ناطق به، أنا إذا قلتُ خطبة، فقد وُجِدَت هذه الخطبة بالعين، وتلوتُها أي: أوجدتُها بالعين، هذا يُسمَّى الوجود العيني.

ثانيًا: في الذهن، أنتم إذا سمعتُم الخطبة انطبَعت في أذهانكم.

ثالثًا: اللفظ، تلفظون بها.

رابعًا: الرسم، هذا بالنسبة للسامع.

وكذلك هو بالنسبة لموجِد الكلام، لكن موجِد الكلام يبدأ الكلام في الذهن أولًا، ثم اللفظ، ثم الرسم، وهو إذا وُجِدَ في اللفظ وُجِدَ عينًا، لا ذهنًا.

ففي الحقيقة أن الوجود عن الكلام، إن كان بالنسبة للمُتكلِّم، فالترتيب كما يلي: الذهن، ثم اللفظ وبه يأتي كل عين، ثم الرسم، بالنسبة لغيره: أولًا العين، أي: وجوده من المُتكلِّم، ثم انطباعُه في الذهن، ثم نقلُه وإبلاغُه باللفظ أو بالرسم.

إذا تأمَّلتَ الكلام وجدتَه لا يخرج عن هذه المراتب، لكن هذه المراتب تستلزم تعدُّد العين، أم هي عين واحدة؟ هي عين واحدة، لكن لها مراتب، فابن حزم ظنَّ أن اختلاف هذه المراتب كاختلاف الأعيان، وأن كل مرتبة تجعل الشيء عينًا مستقلة عن المرتبة التي قبلها، ولكن الصواب أن المراتب لا تُخرِجَ الواحدَ المُعيَّن عن كونه واحدًا، لكن يترتَّب وجوده.

فبالنسبة للمُتكلِّم نقول: الذهن، ثم اللفظ، ثم الرسم، واللفظ تقوم به العين؛ يعني: عين الحروف التي تتكلَّم بها هي عين وجوده، بالنسبة للسامع تبدأ العين، ثم الذهن، ثم اللفظ، ثم الرسم..

القرآن الكريم تكلَّم الله عز وجل به، فهذا وجودُه عينًا، ثم سمعه جبريل، ونقله إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وبلَّغَه محمد، هذا وجودُه لفظًا، ثم الناس الذين سمعوه أيضًا حفِظوه، فكان هذا وجودًا ذهنيًا، ثم تلَوه، فكان وجودًا لفظيًّا أو رسموه في المصاحف، فصار موجودًا رسمًا، ولكن هذا الانتقال أو الأطوار التي تكون للكلام لا تستلزم أن يكون الكلام متعدِّدًا، والإنسان قد يُعْجَبُ إذا رأى مثل هذا الكلام من ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن ابن حزم قد يقول قائل بالاعتذار عنه: إنه يريد أن يُبيِّن ما هو المخلوق من هذا الشيء من غير المخلوق.

فنقول: قوله: وآخر ثابت في الرسم، والذي في الصدور، والذي يُتلَى، قوله: إن هذه مخلوقة فيه نظرٌ ظاهر؛ لأن المحفوظ في الصدور، والمرسوم في المصحف، والذي يُتلَى المتلو باللسان ليس بمخلوق إلا على رأي الأشاعرة، والرابع المعنى القديم، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ ذهب مذهب الأشاعرة لكن خالفهم في بعض النصوص، اتفق مع الأشاعرة في أن المعنى القديم قائمٌ بالله غير مخلوق، وأن المحفوظ والمقروء والمرسوم مخلوق، وهذا تمامًا هو مذهب الأشاعرة، لكن الأشاعرة سبق أنهم يقولون: إن هناك قرآنين فقط؛ وهما: المعنى واللفظ، وهو يقول: إنها أربعة: المعنى القديم، واللفظ، والكتابة، والحفظ، ولكن نقول لابن حزم ولغير ابن حزم: المقروء غير مخلوق، والقراءة مخلوقة، الملفوظ به غير مخلوق، واللفظ مخلوق، والمكتوب غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، هذا هو الصواب، وهذا هو الواقع.

وعلى الجميع الاسم يطلق لكن الأولى به الموجود في الأعيان وهو القول به أولَى الموجود في الأعيان.

ثم قال المؤلف:

بِخِلَافِ قَولِ ابنِ الخَطِيبِ فَإِنَّـهُ ... قَد قَـالَ إنَّ الوَضعَ لِلأذهَـانِ

فَالشَّيءُ شَيءٌ وَاحِدٌ لاَ أربَـعٌ ... فَدَهَى ابنَ حَزمٍ قِلَّـةُ العِرفَـانِ

ابن الخطيب مذهبه مذهب الأشاعرة يقول: إن الشيء شيءٌ واحد؛ وهو اللفظ، سواءٌ

قرئ، أو كُتِب، أو حُفِظ، فهو شيء واحد مخلوق، والمعنى القائم بالنفس غير مخلوق.

فَالشَّيءُ شَيءٌ وَاحِدٌ لاَ أَربَعٌ فَدَهَى ابنَ حَزمٍ قِلَّةُ العِرفَانِ

دهاه يعني: أصابه بداهية، أنه لم يعرف الفرق بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، والحفظ والمحفوظ، ما عرف الفرق، فلذلك فرَّق جعل الجميع أربعة؛ ثلاثة مخلوقة، وواحد غير مخلوق.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٥٩- والله أخبَرَ أنَّهُ سُبحَانَهُ
مُتَكَلِّمٌ بِالوَحيِ والفُرقَانِ

٧٦٠- وَكَذَاكَ أخبَرَنَا بِأنَّ كَلامَهُ
بِصُدُورِ أهلِ العِلمِ والإِيمَانِ

٧٦١- وكذَاكَ أخبَرَ أنهُ المكتُوبُ فِي
صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الرَّحمنِ

٧٦٢- وكَذَاكَ أخبَرَ أنهُ المتلُوُّ والـ
ـمَقروءُ عِندَ تِلاَوَةِ الإِنسَانِ

٧٦٣- والكُلُّ شَيءٌ وَاحِدٌ لاَ أَنَّهُ
هُوَ أربَعٌ وَثَلاَثَةٌ واثنَانِ[1]

---

(١) [٧٥٩: ٧٦٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

يرد المؤلف على سخافة ابن حزم في قوله بتعدد القرآن تبعًا لتعدد المحال التي يوجد فيها وموافقته للكلابية والمعتزلة في أن القرآن اللفظي المقروء بالألسنة والمكتوب في المصاحف والمحفوظ في الصدور مخلوق، يرد عليه بأن القرآن في نفسه شيء واحد، وهو ما تكلم الله عز وجل به بصوت نفسه، وسمعه منه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فإذا أداه جبريل بعد ذلك إلى محمد ﷺ ثم أداه محمد إلى أمته وأمر بكتابته في المصاحف وحفظه في صدور أهل الحفظ من أصحابه لم يخرج في هذه الأحوال كلها عن كونه كلام الله عز وجل فإن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا، فالقرآن كلام الله على أي نحو كان من

٧٦٤- وَتِــلاَوَةُ القُــرآنِ أفعَــالٌ لَنَــا
وَكَــذَا الكِتَابَــةُ فَهــيَ خَــطُّ بَنَــانِ

٧٦٥- لَكِنَّمَـا المتلُـوُّ والمكتُـوبُ والــ
ــمَحفُوظُ قَــولُ الواحِــدِ المنَّــانِ

٧٦٦- والعبــدُ يقــرَؤهُ بصَــوتٍ طَيِّــبٍ
وَبِضِــدِّهِ فَهُمَــا لَــهُ صَــوْتَانِ

٧٦٧- وَكَــذَاكَ يَكْتُبُــه بخَــطٍّ جَيِّــدٍ
وبِضِــدِّهِ فهُمَــا لَــهُ خَطَّــانِ

٧٦٨- أصــوَاتُنَا وَمِــدَادُنَا وأدَاتُنَــا
والــرَّقُّ ثُــمَّ كِتَابَــةُ القُــرآنِ

٧٦٩- [ولَقَد أتَى فِي نَظمِهِ مَن قَالَ قَو
لَ الحَــقِّ فيــه وَهــوَ غيــرَ جَبَــانِ

٧٧٠- (إنَّ الذِي هُوَ فِي المَصَاحِفِ مُثبَتٌ
بأنَامِــلِ الأشــيَاخِ والشُّــبَّانِ

٧٧١- هُــوَ قَــولُ رَبِّــي آيُــهُ وحُرُوفُــهُ

أنحاء الوجود ومراتبه، فمهما تلاه القارئون أو حفظه الحفظة أو رقمه الكاتبون، فهو كلام الله على الحقيقة، منزل غير مخلوق، ليس المتلو قرآنًا آخر غير ما تكلم الله به، ولا المحفوظ غير المتلو، ولا المرقوم غير المحفوظ، بل هو هو بعينه في جميع ذلك، وهذا أمر ظاهر لا تجوز فيه المكابرة، ولهذا أخبر الله عن القرآن خبرًا واحدًا في أحواله لها، فأخبر أنه كلامه وتنزيله، وأنه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وأنه مكتوب في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، وأخبر أنه هو المقروء المتلو عند تلاوة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلخ الآيات. والكل شيء واحد لا هو أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان، وإنما أتى ابن حزم من جهله بالتفرقة بين المتلو والتلاوة، وبين المكتوب والكتابة، فقال ما قال مما يبرأ منه أهل الإيمان.

وَمِـــدَادُنَا والــرَّقُّ مَخلُوقَـــانِ)

٧٧٢- فَشَفَى وَفَرَّقَ بَينَ مَتلُوٍّ وَمَصـ

ـــــنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَــةُ العِرفَـــانِ]

٧٧٣- الكُلُّ مَخلُوقٌ وَلَيسَ كَلامَهُ الـ

ـــــمَتلُوُّ مَخلُوقًـــا هُمَـــا شَـيئَانِ

٧٧٤- فعلَيكَ بالتَّفصِيلِ والتَّمييزِ فالـ

إطـــلاقُ والإجمَـــالُ دُونَ بَيَـــانِ

٧٧٥- قَد أَفْسَدَ هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الْـ

أَذْهَـــانَ والآرَاءَ كُـــلَّ زمَـــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأبيات من كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يُبيِّنُ فيها أن الله سبحانه وتعالى أخبر بأنه مُتكلِّمٌ بالوحي والفرقان، فقال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وكذلك أخبر بأن كلامه بصدور أهل العلم والإيمان، فقال جل وعلا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وكذلك أخبر بأنه متلُوٌّ في الصحف المُطهَّرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، وكذلك أخبر أنه المتلو والمقروء، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، وكذلك أخبر بأنه يُقرأ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩]، المتلو والمكتوب كله شيء واحد، لا أنه أربع أو ثلاث، أو اثنان، كما ذهب إليه ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، أما التلاوة والكتابة فإنها أفعال، عندما آخذ ورقة وأكتُب فيها آيةً من كتاب الله، فهذا فعل، عندما أتكلَّم بالقرآن هذا أيضًا فعل، فهناك شيء مكتوب، وهناك شيء مقروء، وهناك كتابة وقراءة.

الكتابة والقراءة مخلوقة، والمكتوب والمقروء غير مخلوق، والدليل على هذا أن القرآن كله كامل من كل وجه، ومع ذلك يقرأه شخصٌ ردِيء الصوت، فلا تلتذُّ بقراءته، ويكتبه شخص رديء الخط فلا تكاد تقرؤه، فالذي كان رديئًا هنا هل هو القرآن نفسه أو الصوت؟ لا شك أنه الصوت، وهل هو القرآن نفسه أو الكتابة ؟ لا شك أنه الكتابة، إذًا هناك فرق بين الكتابة والمكتوب، وبين القراءة والمقروء، فيقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أصواتنا ومِدادنا وأداتنا والرَّقُّ ثم كتابة القرآن

هذه كلها مخلوقة، صوتي مخلوق، المِداد الذي هو الحبر مخلوق، الأداء مخلوق، الرَّقُّ مخلوق، وقرئت «أداؤنا» لكن هذه أحسن؛ لأن المراد بها القلم الذي يُكتَبُ به، ثم كتابة القرآن هذه كلها مخلوقة، ثم أثنى على من قال هذا القول الحق، وهو القحطاني[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيته القحطانية المشهورة».

إنَّ الذِي هُوَ فِي المَصَاحِفِ مُثبَتٌ بأنَامِلِ الأشيَاخِ والشُّبَّانِ
هُوَ قَولُ رَبِّي آيُهُ وحُرُوفُهُ وَمِدَادُنَا والرَّقُّ مَخلُوقَانِ

والكتابة تحتاج إلى يد، وقلم، ومِداد، وورق، ومكتوب، هذه خمسة أشياء، الأربعة الأولى مخلوقة، والخامس وهو المكتوب غير مخلوق إذا كان هو القرآن.

فَشفَى وَفرَّقَ بَينَ مَتلُوٍّ وَمَصـ ـنُوعٍ وَذَاكَ حَقِيقَـةُ العِرفَـانِ
الكُلُّ مَخلُوقٌ وَلَيسَ كَلَامَهُ الـ مَتلُوُّ مَخلُوقًـا هُمَـا شَيئَـانِ

لو قال قائل: هل لفظي بالقرآن مخلوق ؟

نقول هذا يحتاج إلى تفصيل:

إن قصدتَ لفظي الملفوظ فهو غير مخلوق، وإن أردتَ لفظي؛ أي: تلفُّظي فهو مخلوق، إنما قلنا في الأول لفظي لأن لفظي مصدر، والمصدر يجيء بمعناه، ويجيء بمعنى اسم المفعول، فإذا كان لفظي بمعنى: ملفوظي فهو غير مخلوق، وإذا كان لفظي بمعنى تلفُّظي فهو مخلوق، قال:

فعلَيكَ بالتَّفصِيلِ والتَّميِيزِ فالـ إطلاقُ والإِجمَـالُ دُونَ بَيَـانِ

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي .

قَد أفسَدَا هَذَا الوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ أذهَـانَ والآراءَ كُـلَّ زَمَـانِ

أحيانًا يأتي الإجمال والإبهام فيُفسِدا، انظر إلى أهل البدع قرَّروا نفْيَ صفات الله عز وجل بناءً على أن إثباتِها يستلزمُ التجسيم، والجسم في حق الله - عندهم - ممنوع، هذا فيه إبهام، ما الجسم الذي يكون ممنوعًا عندكم؟ لابد أن تُفصِّلوا، إن أردتُم بالجسم: الجسم المُكوَّن بعضُه إلى بعض الذي قام بعضُه ببعض، ولا يبقى بعضه مع فناء البعض الآخر، هذا ممتنع عن الله، وإن أردتُم بالجسم: ما يتَّصِف بالصفات اللائقة به، فهذا غير مستحيل.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٧٦- وَتِـلاَوَةُ القُـرآن فِـي تَعرِيفِهَـا
بـاللام قَـد يُعنَـى بِهَـا شَـيئَانِ

٧٧٧- يُعنَـى بِهَـا المتلُـوُّ فَهُـو كَلاَمُـهُ
هُـو غَيـرُ مَخلُـوقٍ كـذِي الأكـوَانِ

٧٧٨- وَيُـرادُ أفعَـالُ العِبَـادِ كصَـوتِهِم
وأدَائِهِـم وكِلاَهُمَـا خَلْقَـانِ

٧٧٩- هَذَا الذِي نَصَّت عَلَيهِ أئمَّةُ الـ
إسـلاَمِ أهـلُ العِلـمِ والعِرفَـانِ

٧٨٠- وَهُوَ الذِي قَصَد البُخَارِيُّ الرِّضَى
لَكِـن تَقَاصَـرَ قَاصِـرُ الأذهَـانِ

٧٨١- عَن فَهمِهِ كَتَقَاصُرِ الأفهَامِ عَن
قَـولِ الإمَـامِ الأعظَـمِ الشَّـيبَانِي

٧٨٢- في اللَّفظِ لَمَّا أن نَفَى الضِّدَّينِ عَنـ
ـهُ واهتَـدَى للنَّفـيِ ذُو عِرفَـانِ

٧٨٣- فاللَّفظُ يَصلُحُ مَصدَرًا هُوَ فِعلُنَا
كَتَلَفُّظٍ بِتِلاَوَةِ القُرآنِ

٧٨٤- وَكَذَاكَ يَصلُحُ نَفسَ مَلفوظٍ بِهِ
وَهُوَ القُرانُ فَذَانِ مُحتَمَلاَنِ

٧٨٥- فَلِذَاكَ أنكَرَ أحمَدُ الإِطلاَقَ فِي
نَفيٍ وإثبَاتٍ بِلاَ فُرقَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُبيِّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا في هذه الأبيات أن: إن تلاوة القرآن في تعريفها باللام (التلاوة) يُرادُ بها: المتلو، والفعل فعل التالي، إن أردتَ بها فعل التالي فهي مخلوقة، وإن أردتَ بها المتلو فهي غير مخلوقة، هذه التلاوة المُعرَّفة بـ(ال)، أما إذا قيل: تلاوة القرآن، فهي غير ما أراده ابن القيم هنا، إذا قيل: تلاوة القرآن فإنها تنقسم إلى قسمين إما أن يُرادُ بتلاوته: قراءتُه؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١١٣]، أو يُرادُ بتلاوته: اتباعُه، كما تقول: تَلَا فلانٌ فلانًا؛ أي: تابَعَه وأتى تاليًا له، فعندنا الآن تلاوة القرآن، وعندنا التلاوة.

والتلاوة لها معنيان:

أ ـ تلاوة بمعنى المتلُوِّ، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول، فيكون المراد بها القرآن وهو غير مخلوق.

ب ـ تلاوة بمعنى: فعل التالي، وحينئذٍ تكون مخلوقة؛ لأن الإنسان وأفعاله مخلوقة.

أما تلاوة القرآن بالإضافة، وهي غير مُحلَّاة بـ(ال) فيُرادُ بها معنيان:

قراءة القرآن، والمعنى الثاني: اتباع القرآن.

وَتِلاَوَةُ القُرآن فِي تَعرِيفِهَا ... باللام قَد يُعنَى بِهَا شَيئَانِ
يُعنَى بِهَا المتلُوُّ فَهُو كَلاَمُهُ ... هُو غَيرُ مَخلُوقٍ كذِي الأكوَانِ

هنا التمثيل في قوله: (كذي الأكوان) للمنفي؛ لأن الأكوان مخلوقة، والقرآن غير مخلوق،

فقوله: (غير مخلوق كذي الأكوان) هذا تمثيل للمخلوق؛ يعني: للمنفي لا للنفي.

(ويُرادُ أفعال العباد كصوتهم) يُراد بالتلاوة، (كصوتهم وأدائهم وكلاهما خلقان) الصوت معروف ما يُسمَع، والأداء حسن القراءة، هذا يكون كله مخلوق.

هَذَا الذِي نَصَّت عَلَيهِ أئمَّةُ الـ ... إسلامِ أهــلُ العِلــمِ والعِرفَــانِ

وَهُوَ الذِي قَصَد البُخَارِيُّ الرِّضَا ... لَكِن تَقَاصَرَ قَــاصِــرُ الأذهَــانِ

البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ حصل بينه وبين محمد بن يحيى الذُّهْلي مناظرة كبيرة عظيمة في اللفظ، في قول الإنسان: اللفظ بالقرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فصَّل كالتفصيل الذي قلناه آنفًا، وهو أنه إن قُصِد باللفظ: الملفوظ به فهو غير مخلوق، وإن قُصِد باللفظ التلفُّظ فهو مخلوق.

عَن فَهمِهِ كَتَقَاصُرِ الأفهَامِ عَن ... قَــولِ الإمَامِ الأعظَمِ الشَّيبَــانِي

والإمام الشيباني هو أحمد بن حنبل رحمه الله.

(في اللفظ لَمَّا أن نفى الضِّدَّين عنه) يعني: قال: لا تقل: مخلوق، ولا غير مخلوق، لا تقل: لفظي بالقرآن مخلوق، ولا تقل: غير مخلوق، فنفى عنه الضِّدَّين، وقال: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مُبتدِع، إذًا معناه أو مُقتضَى هذا الكلام ألا أقول: مخلوق، ولا غير مخلوق؛ لأنه مشكلة، إن قلتُ: مخلوق صِرْتُ جهميًّا، وإن قلتُ: غير مخلوق صِرْتُ مبتدعًا، إذًا اسكُت، يقول:

عَن فَهمِهِ كَتَقَاصُرِ الأفهَامِ عَن ... قَولِ الإمَــامِ الأعظَــمِ الشَّيبَانِي

في اللَّفظِ لَمَّا أن نَفَى الضِّدَّينِ عَنـ ... ـهُ واهتَدَى للنَّفـيِ ذُو عِرفَــانِ

فاللَّفظُ يَصلُحُ مَصدَرًا هُوَ فِعلُنَــا ... كَتَـلَفُّـظٍ بِـتِــلاوَةِ القُــرآنِ

يعني: اللفظ قد يُرادُ به المصدر الذي هو فِعْلُنا؛ يعني: التلفُّظ (كتلفُّظٍ بتلاوة القرآن).

(وكذاك يصلح نفس ملفوظ به وهو القران) وعلى هذا يكون اللفظ بمعنى: الملفوظ به، وهو القرآن (فذان مُحتمَلان)، إذن أنتَ إذا قلتَ: لفظي بالقرآن مخلوق، قد يفهمُ السامعُ أنك تُريدُ باللفظ: اسم المفعول، وحينئذٍ يأخذ برأي الجهمية؛ لأن الجهمية يقولون: الملفوظ به مخلوق، فهو محتمل لهذا المعنى الفاسد.

وكذا محتمل لمعنى صحيح، وهو تلفُّظي بالقرآن مخلوق، وهذا صحيح، لكن الإمام أحمد قال: إنه بدعة؛ لأن السلف ما تكلَّموا به، فليس في كلام الصحابة والتابعين أن أحدهم قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فلهذا قال: إنه بدعة، فلا تُطلق، لكن عند التفصيل يزول الإشكال، فنقول للقائل: ماذا تُريد بقولك: لفظي بالقرآن مخلوق؟ فإن قال: أريد ما يُلفظ به، فهو جهمي، وإن قال: أريدُ بلفظي بالقرآن مخلوق صوتي تلفُّظي بالشيء، وحركاتي، نقول: قولك هذا صحيح، ولكن لا تُطلِق؛ لأنك إذا أطلقتَ أوهمتَ معنىً فاسدًا، ولهذا منع الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا ومن هذا، قال:

فَلِذَاكَ أنكَرَ أحمَدُ الإطلاَقَ فِـي ... نَفـيٍ وإثبَاتٍ بِـلاَ فُرقَـانِ

❁ ❁ ❁

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فصل

في مقالات الفلاسفة والقرامطة في كلام الربّ، جل جلاله

أصل معنى «الفلاسفة» كلمة يونانية، فالفيلسوف، معناه عندهم محب الحكمة، وقدماء اليونان لهم اعتناء بالفلسفة، وهم أصناف مصنفة، فكثير منهم أو أكثرهم لم يرتضوا برأي أرستطاليس الذي يقال له أرسطو في قوله بقدم العالم وإنكار رب العالمين والبعث والجزاء الأخروي، ولكن فلسفة أرسطو الملحد الذي حقيقة قوله تعطيل رب العالمين وإنكار الرسل والبعث بعد الموت هي التي راجت وروّجها المتفلسفة المنتسبون للإسلام ،والإسلام منهم بريء كالفارابي وابن سينا ونحوه ممن أرادوا الجمع بين الانتساب للإسلام والبقاء على عقيدة التعطيل نفاقًا منهم وزورًا وبهرجة، وقد فصل أهل العلم مقالات الفلاسفة والمتفلسفة وبيَّنوا حقائقها وما تحتوي عليه من الطامَّات الكبرى، وأن حقيقة قول هؤلاء أن الطبيعة هي المحدثة للأعيان والأفعال والأوصاف، وقد بيَّنوا فساد أقوالهم نقلًا وعقلًا، وأنهم قد فسدت عقولهم التي بها يفتخرون، وظهر من جهلهم وضلالهم وتناقض أقوالهم ما يُعلم به أنهم أبعد الطوائف الضالة عن الحق.

ولازال مذهبم الباطل يظهر في أساليب متنوعة، فملاحدة القرامطة على مذهبهم، وفلاسفة الاتحادية على مذهبهم، والإسماعيلية والباطنية على مذهبهم، والشيوعية التي تفاقمت وفي هذه الأوقات فروعهم على مذهبهم، فهم في وادٍ ورسل الله في واد، فجاء المتفلسفون المنتسبون للإسلام وبنوا على أصولهم الباطلة قولهم في القرآن، فلما كان من أصولهم القول بقدم العالم، وأن العقل الفعَّال ـ وهو فلك القمر أو غيره من الأفلاك التي

يعينونها ـ هوالمحدث لكل ما تحته، وأن هذا العقل دائم الفيض على ما تحته على المحال المستعدة بحسب قابليتها، فيفيض الوجودات وأوصافها وأفعالها وأقوالها وآثارها، فيفسرون كلام الله على هذا الأصل الباطل فيقولون: لما كان محمد قد اجتمعت فيه القوى الكاملة من الزكاء والذكاء، والقوة العملية، فاض عليه من هذا العقل ما يناسب حاله وهو الكلام الراقي، فتلقاه وأتى به للعباد ألفاظًا وخطابة ومواعظ خالية من البراهين لم تصرح بالحق بل رمزت إليه وأشارت إليه من بعيد، وأن الأنبياء على زعمهم الفاسد لا يمكنهم مخاطبة الجمهور إلا بهذه الطريقة طريقة التخييل والمثال لأنها أصلح للناس، ولذلك يحرّمون تأويل النصوص لأنها تخالف ما قصده الرسل من التخييل والإتيان بالحقائق على صور الأمثال والرموز. وهم من جراءتهم وكبريائهم ادّعوا لأنفسهم مقامات أعلى من مقامات الأنبياء، فالنبي للعوام والفيلسوف للخواص. ومن تصور أقوالهم جزم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا يثبتون وجوده ولا يثبتون الرسالة ولا المعاد الأخروي، وعلم أن ما قالوه مع مخالفته لجميع ما جاءت به الرسل فإنه مخالف لما دلت عليه العقول الصحيحة، وأن ما ادعوه من العقليات هو في الحقيقة جهليات وخيالات، وبسط الكلام على مذهبهم يستدعي أكثر من ذلك، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لما فيه من التمويهات والتلبيس والنفاق ويصادف مع هذا قلة بصيرة. والله المستعان.

وتقدم أن الاتحادية لا يبعدون عن الفلاسفة في حقيقة عقيدتهم إلا أنهم ينتسبون إلى التأله.

❁ ❁ ❁

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مقالات الفلاسفة والقرامطة (١) في كلام الرب جل جلاله

٧٨٦- وأتَى ابنُ سِينَا القِرمطِيُّ مُصَانِعًا
لِلمُسْلِمِينَ بإفكِ ذِي بُهتَانِ

٧٨٧- فَرَآهُ فَيضًا فَاضَ مِن عَقلٍ هُوَ الـ
ـفَعَّالُ عِلَّةُ هَذِهِ الأكوَانِ

٧٨٨- حَتَّى تَلَقَّاهُ زَكِيٌّ فَاضِلٌ
حَسَنُ التَّخيُّلِ جَيِّدُ التِّبيَانِ

٧٨٩- فأتَى بِهِ لِلعَالَمِينَ خِطَابَةً
وَمَوَاعِظًا عَرِيَت عَنِ البُرهَانِ

٧٩٠- مَا صَرَّحَت أخبَارُهُ بِالحَقِّ بَل

---

(١) كان ظهور هذه الطائفة سنة ١٧٦ هـ بظهور ميمون بن ديصان الذى نصب للمسلمين الحبائل وكان يبطن المجوسية ويظهر الإسلام ، وكان يجعل لكل آية تفسيرًا ولكل حديث تأويلًا ، وجعل الفرائض والسنة رموزًا وإشارات ، وكان يخدم إسماعيل بن جعفر ، وظهر أيام حمدان قرمط فاجتمعا و تساعدا على نشر هذا المذهب الشنيع ، فسموا بالقرامطة وهذان الشخصان هما المؤسسان لأصل هذا المذهب ثم ظهر بعدهما بالدعوة الجنابي وهو أبو سعيد البهرامي الجنابي وهو من أتباع حمدان قرمط وقد طالت أيامهم ، وعظمت شوكتهم وأخافوا السبيل واستولوا على بلاد كثيرة وأخبارهم مستقصاة في التاريخ وميمون بن ديصان كان مجوسيًا من سبي الأهواز، وحمدان قرمط كان من الصابئة الحرانية، والمنسوب إليهم قرمطي بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم، وأصل القرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض ، يقال: خط مقرمط ومشي مقرمط . «معجم ألفاظ العقيدة» (٣١٩).

رَمَـــزَت إلَيـــهِ إشَـــارَةً لِمَعَـــانِ(١)

٧٩١- وخِطَابُ هَذَا الخَلقِ والجُمهُورِ بالـ
ـــحَقِّ الصَّـــرِيحِ فَغَيـــرُ ذِي إمَكَـــانِ

٧٩٢- لاَ يَقبَلُـــونَ حَقَـــائِقَ المعْقُـــولِ إلْ
لّا فِـــي مِثَـــالِ الحِـــسِّ والأعيَـــانِ

٧٩٣- وَمَشَـــارِبُ العُقَـــلاَءِ لاَ يَرِدُونَهَـــا
إلاَّ إذَا وُضِـــعَت لَهُـــم بـــأَوَانِ

٧٩٤- مِن جِنسِ مَا أَلِفَت طِبَاعُهُمُ مِنَ الـ
ـــمَحسُوسِ فِـــي ذَا العَـــالَمِ الجُثمَـــانِي

٧٩٥- فَـــأَتوا بِتَشـــبِيهٍ وتَمثِيـــلٍ وتَجـــ
ـــسِيمٍ وتخييـــلٍ إلَـــى الأذهَـــانِ

٧٩٦- ولِـــذَاكَ يَحـــرُمُ عِنـــدَهُم تأوِيلُـــهُ
لَكِنَّـــهُ حِـــلٌّ لِـــذِي العِرفَـــانِ

٧٩٧- فَـــإِذَا تَأَوَّلنَـــاهُ كَـــانَ جِنَايَـــةً

---

(١) [٧٨٦: ٧٩٠] قال العلامة محمد خليل هراس:
ولم يضع فلاسفة المسلمين فلسفة جديدة، ولكنهم كانوا يؤمنون بالفلسفة اليونانية إيمانًا عميقًا، وينزلونها من نفوسهم منزلة الوحي المعصوم، ولما كانت هذه الفلسفة تناقض قواعد الشريعة مناقضة صريحة فقد تظاهر هؤلاء الفلاسفة بأن غرضهم هو التوفيق بين الفلسفة والدين؛ لأن كلًّا منهما حق في زعمهم والحق لا يتناقض، ولكنهم في حقيقة أمرهم كانوا زنادقة ملحدين ولهذا تراهم يجعلون مبادئ الفلسفة هي الأصل ويحاولون أن يجروا الدين إليها ويخضعوه لقواعدها، وإذا هم أظهروا شيئًا من الاحترام للنصوص، فإنما يفعلون ذلك مصانعة للمسلمين، ويدلك على مبلغ زندقة هؤلاء الفلاسفة وبعدهم عن الدين ما ذهب إليه مقدمهم وحامل لوائهم وهو ابن سينا القرمطي في كلام الله عز وجل فهو يرى أنه فيض من العقل الفعال الذي هو العقل العاشر عندهم، ويسمونه عقل القمر وينسبون إليه جميع الحوادث في عالم العناصر، فهو الذي يفيض الصور على الموجودات، ويهب الحياة للأحياء ويفيض العلوم والمعارف على العقول الإنسانية.

مِنَّــا وَخَــرقَ سِــيَاجِ ذَا البُســتَانِ

٧٩٨-لَكِـن حَقِيقَـةُ قَولِـهِ أن قَـد أَتَـوْا

بِالكِـذْبِ فيـه مَصَـالِحُ الإنسـانِ

٧٩٩-وَالفَيلَسُـوفُ وَذَا الرَّسُـولُ لَـدَيهِمُ

مُتَفَاوِتَـانِ وَمَـا هُمَـا عِـدْلاَنِ

٨٠٠-أَمَّـا الرَّسُـولُ فَفيلَسُـوفُ عَـوَامِّهِم

وَالفَيلَسُـوفُ نَبِـيُّ ذِي البُرهَـانِ

٨٠١-والحَـقُّ عِنـدَهُم فَفِيمَـا قَالَـهُ

أتبَـاعُ صَـاحِبِ مَنطِـقِ اليُونَـانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذه الأبيات حكى فيها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قولَ الفلاسفة والقرامطة في كلام الربِّ جل جلاله، والفلاسفة جمع فيلسوف، وهي كلمة يونانية مأخوذة من (فَيْل) و(سوف) وفَيْل بمعنى: مُحب، وسوف بمعنى: الحكمة؛ أي: مُحب الحكمة، أما القرامطة فهم أتباعُ القُرمُطي المشهور بالإلحاد.

وهؤلاء يقولون: إن كلام الله عز وجل هو فَيضٌ يفيضُه العقل الفعَّال، والعقلُ الفعَّال عندهم هو عِلَّة الموجودات كلها؛ لأنهم، يقولون: هذه الموجودات لها عِلَّة فاعلة، وهي عِلَّة معقولة لا محسوسة، هذه العلة فاض منها فيض على نفسٍ زكيَّة قابلة لهذا الفَيْض، فانطبع هذا الفائض من هذا العقل الفعَّال في قلب هذا الرجل الزكيِّ، وإنما قالوا هذا كما يقول ابن القيم؛ مُصانعةً للمسلمين؛ لأنهم يدَّعون الإسلام، وليسوا كذلك، وقد صرَّح شيخ الإسلام وابن القيم بأن ابن سينا[1] كافر، ليس من المسلمين، وإن كان مُقدَّسًا عند القوميِّين

(١) الفيلسوف المشهور، نعوذ بالله من الخذلان.

العرب ممن لا يُقيمون للدين وزنًا، ولا للعقيدة اعتبارًا، حتى إنهم قد يُسمُّون بعض المدارس باسم هذا الرجل (ابن سينا)، مع أنه كافر، والكافر لا يجوز أن يُنوَّه باسمه إطلاقًا، بل يُدفَن ويُقبَر، وإذا كان له من دِعاية أو نشرِ كتبٍ مُضلِّة، فيُذكَر على سبيل الذَّمِّ لا على سبيل المدح.

فَرَآهُ فَيضًا فَاضَ مِن عَقلٍ هُوَ الـ ـفَعَّالُ عِلَّـــةُ هَـــذِهِ الأكـوَانِ

العقل الفعَّال الذي هو عِلَّةُ هذه الأكوان؛ يعني: العلة التي بها حدثت الأكوان، وليس هناك رب – والعياذ بالله –، بل هذه الأكوان حدثت بعِلَّة.

حَتَّى تَلَقَّـــاهُ زَكِيٌّ فَـاضِـــلٌ حَسَنُ التَّخيُّـلِ جَيِّدُ التِّبيَـــانِ

يعني به: الرسول النبي تلقَّى هذا الفَيْض زكي فاضل، صفي العقيدة، حسن التخيُّل، جيد التبيان، يستطيعُ أن يُعبِّر ببيان جيد، فيقول: هذا كلام رب العالمين.

فأتَى بِـــهِ للعَالَمِينَ خَطَابَــــةً وَمَوَاعِظًـــا عَرِيَت عَـــنِ البُرهَانِ

ما لها بُرهان، ولا أصل إلا هذا الفَيْض الذي فاض من هذا العقل كما يدَّعون، ثم قال:

مَا صَرَّحَت أخبَارُهُ بالحَقِّ بَــل رَمــزَت إلَيــهِ إشَارَةً لِمَعَـــانِ

قال أيضًا: هذا الكلام الذي أتى به هذا الزكي لا يُريد بالقرآن ظاهره، بل المراد به إشارات خفيَّة، يعجز عنها عامة الناس، ولا يعرفها إلا الخواص، يقول:

وخِطَابُ هَذَا الخَلقِ والجُمهُورِ بالـ ـحَقِّ الصَّرِيحِ فَغيرُ ذِي إمَكَانِ

يقول: لو أنهم خُوطِبوا وأُريدَ بالخطاب: صريحُ ما يدلُّ عليه فإن هذا ممتنع؛ لماذا ؟ قال: لأنهم:

لاَ يَقبَلُونَ حَقَـائِقَ المعْقُولِ إلاَّ فِـي مِثَـالِ الحِسِّ والأعيَـانِ

يقول: هذا القرآن الذي فاضه العقل على نفس هذا الزكي، هذا له معان ظاهرة، ومعانٍ باطنة مُشارٌ إليها إشارة، لا يفهمها الخلق والعوام؛ لأن الخلق والعوام هؤلاء لا يفهمون إلا الشيء المحسوس، أما الشيء المعقول فإنهم لا يُدرِكونه، ومُحالٌ أن يُدرِكوه، فالعوام لا يُدرِكون إلا المحسوس، ولهذا قال:

وَمَشَارِبُ العُقَلاَءِ لاَ يَرِدُونَهَـــا إلاَّ إذَا وُضِعَت لَهُـم بــأوَانِ

يعني: إلا إذا جُعِل على صورة شيء محسوس، فالجنة، والنار، وما فيهما من عذاب ونعيم، كل هذا غير مراد، لكن صُوِّر للعامة من أجل أن يقبلوه ويفهموه، لكن المراد بالجنة والنار هذا شيء آخر، كل هذا تخييل وليس بحقيقة.

(ومشارب العقلاء لا يرِدونها) مَن الذين لا يرِدونها ؟ عامة الخلق؛ لأن مشارب العقلاء للعقلاء، أما العامة الهمَج الرعاع فهؤلاء لا يمكن أن يُدرِكوا هذا، فتُضربُ لهم الأمثال المحسوسة إلى أمور معقولة (إلا إذا وُضِعَت بأوان) سبحان الله ! تمثيل عجيب؛ يعني: ما يستطيع أن يشرب من الحوض والنهر، لكن يجيء فيأخذ الماء في آنية، فيقول: إن المعقول الذي ترمُز إليه هذه الكلمات لا يرِدُها العوام، إنما يرِدُ العوام الأشياء المحسوسة التي يُدرِكونها بحِسٍّ.

مِن جِنسِ مَا أَلِفَت طِبَاعُهُم مِنَ الـ ... ـمَحسُوسِ فِي ذَا العَالَمِ الجُثمَانِ
فأَتَوا بِتَشبِيهٍ وتَمثِيلٍ وتَجـ ... ـسِيمٍ وتخييلٍ إِلَى الأذهَانِ

يعني: هذا الذي جاءت به الرسل من كلام الله ما هو إلا تخييل للأذهان من أجل تقريبه على العامة، وإلا فحقيقته غير ما يدلُّ عليه اللفظ.

قال: (ولذاك يحرم عندهم تأويله) يعني: لا يجوز أن يُفسَّر للعامة بالمعاني المعقولة المُراد؛ لأن العامة لا يستطيعون أن يقبلوا هذا، ولا يقبلون إلا ما شهِد به الحِسُّ (لكنَّه حِلٌّ لذي العِرْفان) من ذو العِرْفان ؟ علماؤهم الفلاسفة، هؤلاء فسِّره لهم بالمعنى المراد.

الحج هو قصدُ مكة لأداء المناسك، هم قالوا: لا، الحج أن تقصُد المشايخ والأولياء تطلب منهم المغفرة، ومسحةً يمسحونك بها تكون سعيدًا إلى يوم القيامة.

الصيام التعبُّد لله بالإمساك عن المُفطِّرات من طلوع الشمس إلى غروب الشمس، قالوا: لا، الصيام أن تكتم أسرارنا، ولا تُخبِر بها وراءنا؛ لأن الصيام مُشتقٌّ من الإمساك، صُم عن هذا الكلام، لا تُخبِر به أحدًا.

الصلاة هي عبادة ذات ركوع وسجود، مُفتتحة بالتكبير ومُختتمة بالتسليم، هذه الصلاة عند المسلمين، قالوا: لا، الصلاة أن تعرف أسرارنا؛ لأن الصلاة من الصلة، فهي أن تكون ذا صلة بنا، وتعلم أسرارنا، فالصلاة بداية والصلاة نهاية، صلِّ؛ يعني: تعلَّم أسرارنا، صُم؛

يعني: أُكتُمها.

فَإِذَا تَأَوَّلنَاهُ كَـانَ جِنَايَـةً ... مِنَّا وَخَرقَ سِيَاجِ ذَا البُستَانِ

يعني: إذا تأوَّلناه عند العامة كان هذا جِناية؛ لأن من شروط التنسُّك عندهم أن تكتُم أسرارهم، ولهذا العبادة عندهم على عشر مراحل، ينزلها الإنسان مرحلة مرحلة حتى يصِل إلى الغاية، ثم قال:

لَكِن حَقِيقَةُ قَولِـهِ أن قَـد أَتَوا ... بِالكِذبِ عِندَ مَصَالِحِ الإِنسَـانِ

يعني: قيل لهم: إذا كان الأمر كما قلتُم، فما تقولون فيما جاء به الرسل، فالرسل جاءوا للناس، وقالوا: هذا الصلاة، وهذا الصيام، وهذا الحج، وقالوا: هناك جنة، ونار، وعذاب، ونعيم.

قالوا: هذا كذِب، كله كذب، ما يوجد جنة، ولا نار، ولا نعيم، ولا عذاب، ولا شيء أبدًا، لكن هذا كذِب كذَبَ به الرسل من أجل المصلحة - نعوذ بالله -؛ لأن الناس إذا قيل لهم: افعلوا كذا، قد لا يستجيبون، إذا قيل: لا تفعلوا كذا، قد لا ينتهون، لكن إذا قيل لهم: إن فعلتُم كذا أسكنَّاكم جنة فيها من النعيم المُقيم ما لا يخطر على البال، يفعلون، وإذا قيل لهم: إن خالفتم أسكنَّاكم نارًا فيها من العذاب كذا وكذا، فالرسل كذبوا من أجل المصلحة، فهذا - والعياذ بالله - رأيُهم في الرسل، كذَبوا عند مصالح الإنسان.

وَالفَيلَسُوفُ وَذَا الرَّسُولُ لَدَيهِمُ ... مُتَفَاوِتَانِ وَمَـا هُمَـا عِـدلاَنِ

الفيلسوف والرسول مُتفاوِتان، بينهما فرق عظيم، وما هما عِدلان.

أَمَّا الرَّسُولُ فَفَيلَسُوفُ عَوَامِّهِم ... وَالفَيلَسُوفُ نَبِيُّ ذِي البُرهَـانِ

يقولون: الرسل هؤلاء رسل العوام، أما الفيلسوف الذي هو فيلسوف عندهم فهو نبي ذي البرهان، هذا هو النبي الحقيقي، أما ذاك فهو رسول العوام، وهذا أكفَر من كفر اليهود والنصارى.

إذا كانوا يقولون: الرسل؛ محمد عليه الصلاة والسلام، وإبراهيم، وموسى، وعيسى هؤلاء رسل عوام كذَّابين ما صدقوا، والفلاسفة عندنا هم الأنبياء، هم الذين يتلقَّون من العقل الفعَّال، ويأتون بما فيه الخير.

والحَقُّ عِندَهُم فَفِيمَا قَالَـهُ ... أَتبَاعُ صَاحِبِ مَنطِقِ اليُونَـانِ

يعني: لا فيما جاء به الرسول ﷺ.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨٠١- والحَـقُّ عِنـدَهُم فَفِيمَـا قَالَـهُ
أتبَـاعُ صَـاحِبِ مَنطِـقِ اليُونَـانِ

٨٠٢- وَمَضَـى عَلَى هَـذِي المَقَالَـةِ أمَّـةٌ
خَلْـفَ ابـنِ سِـينَا فاغتَـذُوا بِلِبَـانِ

٨٠٣- مِنهُم نَصِيرُ الكُفرِ فِي أصحَابِهِ
النَّاصِـرِينَ لِمِلَّـةِ الشَّـيطَانِ

٨٠٤- فاسـأل بِهِـم ذَا خِبـرَةٍ تَلقَـاهُمُ
أعـدَاءَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ رَبَّـانِي

٨٠٥- [واسـأل بِهِـم ذَا خِبـرَةٍ تَلقَـاهُم
أعـدَاء رُسـلِ الله والقُـرآنِ[1]]

٨٠٦- صُوفِيُّهُم عَبَدُ الوُجُودَ المطلَقَ الـ
ـمَعدُومَ عِنـدَ العَقـلِ فِـي الأعيَـانِ

٨٠٧- أو مُلحِـدٌ بِالاتحَـادِ يَـدِينُ لاَ التَّـ

(١) [٨٠١: ٨٠٥] قال العلامة محمد خليل هراس:
ومن كفرهم أيضًا أنهم يجعلون الفيلسوف فوق منزلة الرسول، ويقولون: أن الرسل إنما بعثوا للعامة، فهم فلاسفة العوام، ولكن الفيلسوف هو نبي أصحاب العقول من الخاصة الذين يطلبون الحقائق بالبراهين، والحق عندهم فيما قاله أرسطو صاحب المنطق وأتباعه من المشائين، لا فيما قاله رسل رب العالمين.
هذا ما قاله ابن سينا، ذلك الفيلسوف الملحد، ومضت عليه أمة من بعده اغتذت بلبانه، منهم ذلك المارق المسمى بالخواجة نصير الدين الطوسي، وما كان إلا ناصر الكفر والإلحاد، وكذلك أصحابه من أنصار ملة الشيطان، فاسأل بهؤلاء خبيرًا ينبيك عن عداوتهم لأهل التوحيد ولرسل الله والقرآن.

تَــــوحِيدِ مُنسَــــلخٌ مِــــنَ الأديَــــانِ

٨٠٨- مَعبُــودُهُ مَوطُــوءُهُ فِيــهِ يَــرَى

وَصــفَ الجَمَــالِ وَمَظهَــرَ الإحسَــانِ

٨٠٩- الله أكبَرُ كَم عَلى ذَا المذهَبِ الــ

مَلعُــونِ بَــينَ النَّــاسِ مِــن شِــيخَانِ

٨١٠- يَبغُــونَ مِــنهُم دَعــوَةً ويقَبِّلُــو

نَ أيَادِيًــا مِــنهُم رَجَــا الغُفــرَانِ

٨١١- وَلَو أنَّهُم عَرَفُوا حقِيقَةَ أمرِهِم

رَجَمُــــوهُمُ لاَ شَــــكَّ بالصَّــــوَّانِ

٨١٢- فابذُر لَهُم إن كُنتَ تَبغِي كَشفَهُم

وَافــرِش عَلَــيهِم كَفًّــا مِــنَ الأتبَــانِ

٨١٣- وَاظهَـر بمَظهَـرِ قَابِـلٍ مِنهُم ولاَ

تَظهَــر بِمَظهَــرِ صَــاحِبِ النُّكــرَانِ

٨١٤- وَانظُـر إلَـى أنهَـارِ كُفـرٍ فُجِّـرَت

وَتَهُــمُّ لَــوْلَا السَّــيفُ بِالجَرَيَــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المقطوعة: إنه مضى على هذه المقالة أمة خلف ابن سينا، واغتَذَوا بِلِبانه؛ يعني: أن ابن سينا - والعياذ بالله - كان قائدًا إلى النار؛ لأنه مضى على مقالته أمة اغتَذَوا بلبان وبئس اللبان، فإنه لبان أنتن من لبان الحمير.

مِنهُم نَصِيرُ الكُفرِ فِي أصحَابِــهِ النَّاصِرِينَ لِملَّــةِ الشَّيطَــانِ

نصيرُ الكفر هذا هو نصيرُ الدين الطوسي[1] الذي كان وزيرًا لهولاكو ملك التتار، الذي

(١) محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر نصير الدين الطوسي، فيلسوف، كان رأسًا في العلوم العقلية،

قتل الخليفة العباسي، وقتَّل من العلماء أممًا لا يُحصِيهم إلا الله، وهذا الخبيث يُسمَّى نصير الدين، ولكن ابن القيم وصَفَه بما هو أهلُه، فقال: نصير الكفر، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، نصير الكفر على مذهب ابن سينا وأتباعه (الناصرين لملة الشيطان) لا لمِلَّة محمد ﷺ.

فاسأل بِهِم ذَا خِبرَةٍ تَلقَاهُمُ   أعداءَ كُلِّ مُوَحِّدٍ رَبَّانِي

ومن أهل الخبرة بمذهبهم ابن القيم، فإنه درَس الملل والنِّحَل والمذاهب وعرَفَها، كما درَسَها قبلَه شيخُه ابن تيمية رحمهم الله جميعًا.

واسأل بِهِم ذَا خِبرَةٍ تَلقَاهُم   أعدَاء رُسلِ اللهِ والقُرآنِ

إذًا هم أعداء التوحيد وأعداء الرسالة.

صُوفِيُّهُم عَبَدُ الوُجُودَ المطلَقَ الـ   ـمَعدُومَ عِندَ العَقلِ فِي الأعيَانِ

صوفيُّهم؛ يعني: الصوفي منهم من عبَدَ الوجودَ المطلق؛ لأنهم يرَون أن الله عز وجل هو الوجود المُطلق بشرط الإطلاق، ومعنى الوجود المُطلق بشرط الإطلاق أنه لا يمكن أن يُوصَف بصفة، لا تقول: موجود، ولا معدوم، لو قيل لهم: من إلهكم، مَن ربكم ؟ قالوا: ربنا لا موجود، ولا معدوم، ولا حي، ولا ميت، ولا سميع، ولا أصم، ولا بصير، ولا أعمى، لا يمكن أن يُوصَف بصفة، هل هذا يمكن أن يكون ربًّا ؟ لا، ولا يمكن أن يوجد هذا إلا في الأذهان فقط؛ يعني: الذهن قد يفرِض ذاتًا ليس لها صفة، أما الوجود في الخارج فلا، ولهذا قال: (عَبَدَ الوجودَ المطلقَ المعدومَ عند العقل) هذا معدوم، إذا قلنا: إن الرب الموجود لا موجود، ولا معدوم، ولا حي، ولا ميت، ولا سميع، ولا أصم، ولا بصير، ولا أعمى، ولا عالم، ولا جاهل، يكون عدَمًا، هم يعبدون هذا، يعبدون مَن لا يُوصَف بسمعٍ ولا بصرٍ ولا حياةٍ ولا موت، وغير ذلك، بل ولا وجود ولا عدم، لولا أنها مذاهب كُتِبَت، ونقلها الثقات، لقلنا: هذا لا يمكن أن يتصوَّرَه مُتصوِّر، فضلًا عن أن يجعله مُعتقَدَه،

علامة بالأرصاد، والمجسطي، والرياضيات. ساهم في إدخال التتار في بغداد، وعلت منزلته عند «هولاكو» فكان يطيعه فيما يشير عليه. ولد بطوس قرب نيسابور سنة (٥٩٧)، وابتنى بمراغة قبة ورصدًا عظيمًا، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد، والشام، والجزيرة، وكان هولاكو يمده بالأموال. وصنف كتبًا منها «شكل القطاع» يُقال له «تربيع الدائرة»، و«تحرير أصول إقليدس»، و«تجريد العقائد»، توفي ببغداد سنة (٦٧٢).

ويطمئن إليه إلى أن يلقى الله، لكن نسأل الله العافية.

أو مُلحِدٌ بِالإتحَادِ يَدِينُ لاَ التَّـ ـتَوحِيدِ مُنسَلِخٌ مِـنَ الأديَـانِ

يدين بالاتحاد لا التوحيد، وهناك فرق بين الاتحاد والتوحيد، التوحيد: توحيد الخالق، والاتحاد: جعل الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا، هذا مذهبهم، يقولون: الخلق والمخلوق شيءٌ واحد، يقولون ذلك: لأن الخالق اتَّحد في المخلوق، فصارا شيئًا واحدًا، هؤلاء عَبَدوا الكون كله، ولهذا يقول:

أو مُلحِدٌ بِالاتحَادِ يَدِينُ لاَ التَّـ ـوحِيدِ مُنسَلِخٌ مِـنَ الأديَـانِ

(معبُودُه موطوءه) يعني: زوجته التي يطأها هي معبُوده (فيه يرى وصف الجمال ومظهر الإحسان) قال ابن القيم: (الله أكبر) هذه الكلمة مثل قولنا: الله حسيبُك؛ يعني: أنني أُقابلُك بكبرياء الله وعظمته، كما تقول: الله أكبر عليك، ويحتمل أنه لا يُريدُ هذا؛ يعني: لا يريد موافقتهم على ما هم عليه، وإنما يُريد تعظيم الله وأنه أعظم مما وصفوه به (كم على ذا المذهب الملعون بين الناس من شِيخَان) كم هذه تكثيرية؛ يعني: هذا المذهب الملعون – وهو أدنى أوصافه أن يكون ملعونًات –، كم عليه بين الناس من شِيخَان ؟ جمع شيخ (يبغون منهم دعوة) أي: الناس يبغون (منهم) يعود على الشِيخَان.

يَبغُونَ مِنهُـم دَعـوَةً ويقَبِّلُـو نَ أيَادِيًا مِنهُـم رَجَـا الغُفـرَانِ

فالشِّيخَان الفلاسفة والملاحدة والاتِّحادية، هؤلاء ينسُبون أنفسهم أولياء، والعامة الهَمَج الرِّعَاع يقولون لهم: سيدي العارف بالله، ولي الله، وهات من الألفاظ، يُهِيلون عليهم هذه الألفاظ، يقول ابن القيم (يبغُون منهم دعوة) وما أبعد إجابة الدعوة لهؤلاء (ويُقبِّلون أياديًا منهم رجا الغفران) وربما يمُدُّ الشيخ يدَه حين يُقبِلُ العامِّي لأجل أن يُقبِّلَها والتعظيم، وربما ينحنون له ويركعون ويسجدون، ولا يهمُّه هذا، قال ابن القيم:

وَلَو أنَّهُم عَرَفُوا حقِيقَةَ أمرِهِـم رَجَمُوهُـمُ لاَ شَكَّ بـالصَّـوَّانِ

قوله: (لو أنهم) الضمير يعود على الناس، عرفوا حقيقة أمر من ؟ الشِّيْخان، (رجموهم لا شك بالصوَّان) لو عرفوا أن هؤلاء القوم لا يعبدون أحدًا ولا يعتقدون وجود ربٍّ إلا هذا الكون رجموهم بالصوَّان، والصوَّان: الحجر القوي، وهم مُستحِقُّون لأكثر من هذا،

ولهذا يقول:

فابذُر لَهُم إن كُنتَ تَبغِي كَشفَهُم وَافرِش عَلَيهِم كَفًّا مِنَ الأتبَـانِ

يعني: إذا كنتَ تريد أن تكشِف حال هؤلاء لا تُجادِلهم تُعنِّف، إن عنَّفتَ فهم في مقامٍ عند أنفسهم رفيع، يُخاطِبونك من منطق الاستعلاء والقوة؛ لأن العامة كلهم معهم، لكن يقول: (افرش لهم كفًّا من الأتبان)؛ يعني: الشيء السهل الهيِّن، واستدرجهم، كأنك تُريد أن تفهَمَ مذهبَهم، وهذه من الأساليب الجيدة إذا أردتَ أن تستخدمها، لكن فلا تُنكِر عليه.

المهم أن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أعطانا هذه الطريقة وهي جيدة، يقول: (بادِرْهُم إن كنتَ تبغي كشفَهم) باللِّين، فمهِّد له الأمر.

وَاظهَر بمَظهَرِ قَابِلٍ مِنهُم ولاَ تَظهَر بِمَظهَرِ صَاحِبِ النُّكرَانِ

لأنك لو تظهر بمظهر صاحب النُّكران، إن كان يرى أنه في مكان أعلى منك زجَرَكَ ونَهَرَكَ، حتى تُبعِد، وإن كان له أتباع أَشَّب[1] بك أتباعَه، وإن كان لا يرى ذلك فإنه يكتُمُه ولا يُخبِّرُه.

وقوله: (وانظر إلى أنهار كفرٍ فُجِّرَت) متى تنظر إليها ؟ إذا تمكَّنتَ، ولا تتمكَّن إلا بالطريقة التي ذكَرَها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (وتهم لولا السيف بالجريان) يعني: لولا أنهم يخشَون سيف الولاة ـ هؤلاء الفلاسفة ـ لجَرَت أنهارُ الكفر من أفواههم، وكتبهم، لكنهم يتستَّرون ويتعاملون مع الزمن، إن وَجَدوا فرصة لإظهار باطلهم أظهروها، وإن لم يرَوا فرصة كتَمُوها، هذا هو مذهب ابن سينا وأتباعه والاتحاديِّين، هوالكفر البواح الذي هو أكفر من كفر اليهود والنصارى.

❁ ❁ ❁

---

(1) أَشَّب: أي حرَّش.

تمهيد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مقالات طوائف
الاتحادية في كلام الربّ جلّ جلاله

لما كان قولهم إن الوجود جميعه واحد، وإنه ما ثم خالق ومخلوق، وإن الرب عين العبد والعبد عين الرب تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، بنوا عليه أن كلام الموجودات كلها من الإنس والجن والملائكة وغيرهم من المخلوقات هو كلام الله حقه وباطله محموده ومذمومه. وحسبك بقول بلغ هذا المبلغ فسادًا وبطلانًا.فهذه المقالات في هذه الفصول هي مقالات الطوائف في كلام الله، وكلهم منحرف عن الصراط المستقيم، ويتفاوتون في هذا كما تقدمت حكاية أقوالهم، والحق الذي لا شك فيه من هذه الأقوال هو مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله ألفاظه ومعانيه، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه مع اتصافه به فهو من صفات فعله المتعلقة بقدرته ومشيئته. والله أعلم.

ثم عطف المؤلف على الجهمية بنقض وإبطال ما قالوه في نفي صفات الرب العظيم، وأن قولهم مناقض للعقل والنقل واللغة، فإنه من المعلوم عقلًا ونقلًا ولغة وعرفًا أنه لا يصح وصف الشيء بوصف مشتق منه وهو منفي عنه وثابت لغيره فلا يقال عالم وقادر وحيّ وسميع وبصير ونحوها، والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر وصف لغيره فلا تقال هذه الأسماء ونحوها إلا لمن اتصف بمعانيها ففي قولهم هذا محذوران: نفي الصفات لمن أثبتته له النصوص، وإثباتها لمن لم تقم به؛ فإن هذا من باب قلب الحقائق ومكابرة الأمور المعلومة ببداهة العقول. ونظير هذا في المكابرة إذا كان أخوان واحد منهما مبصر والثاني أعمى ووصف كل منهما بوصف أخيه، وإذا قالت الجهمية إن هذا ثابت في الأفعال فإن الله

يسمى الخالق وخلقه بغيره لأنه لو قام به لكان محلًا للحوادث وذلك محال فكذلك الكلام هو فاعل للكلام وخالق له والكلام قائم بغيره، وأيدوا هذا الإيراد بردّهم لمذهب الاقترانية الذين يقولون إن كلامه قديم، والكلمات والحروف مقترن بعضها ببعض، وردّهم أيضًا لمذهب الكلابية والأشعرية القائلين إنه معنى واحد أو خمسة معان قديمة قائمة بالله، وأنه ليس للقرآن كل ولا بعض ولا فيه تعدد، وأن الأمر عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وأن قيام الكلام بذات المتكلم كقيام الحياة فإن هذين المذهبين باطلان مخالفان للعقل والنقل كما تقدم، وأنه بمجرد تصورها يجزم بفسادها. قالوا: وأما نحن فقد قلنا قولًا يوافق العقل، فإننا قلنا إن كلامه كلمات وحروف مرتبة، وإنه متعلق بمشيئته، وإرادته بمنزلة فعله. قالوا: فلأي شيء ينكر علينا ويرجح المرجح أحد المذهبين: مذهب الاقترانية والكلابية، فنحن أحق بالعقل والنقل منهما، وإذا كان لابد من الترجيح فرجحوا بالدليل والفرقان لا بمجرد الدعاوى فإنها لا تسمن ولا تغني من جوع، هذا مضمون إيرادهم.

وحاصل الجواب عن هذا الإيراد أن الخلاف مبني على أصلين تكرر ذكرهما في كلام المصنف وهما: هل الفعل غير المفعول أو الفعل عين المفعول. وهل هو قائم بذاته أو منفصل عنه. وتقدم أن الكتاب والسنة والعقل دلت على أن الفعل وصف الفاعل والمفعول مفعوله وأثره، فالفعل غير المفعول. وأما الجهمية والمنحرفون من أهل الكلام فتوهموا أن الفعل هو المفعول، وأنه إذا كان غيره لزم حلول الحوادث بالله. وهذا الوهم باطل وخطأ وضلال واضح، فإن الله لم يزل فعالًا لما يريد، ولم يزل يفعله: يفعل الأشياء ويحدث الحوادث شيئًا بعد شيء، ولا يلزم من هذاحلول الحوادث في ذاته، وإنما الحوادث منفصلة عنه، والفعل الذي هو الوصف قديم النوع، ولكنه لا يزال يفعل ما يريد.

وبهذا الأصل العظيم الذي دل عليه الكتاب والسنة وقبله العقل الصريح يندفع كل إيراد يورده المبطلون على نفي ما أثبته الله ورسوله من أوصافه المقدسة، وبذلك يمكن قمع الفلاسفة الدهريين وبطلان قولهم بقدم العالم، وبه علم بطلان قول الجهمية الذين قالوا الفعل هو المفعول، فعلى قولهم بأي شيء حدثت الحوادث أعيانها وأفعالها وصفاتها فتعطيلهم لفعله تعطيل في الحقيقة للمفعولات. فالقائلون بأن الفعل غير المفعول طائفتان:

إحداهما: أهل السنة المتقدم شرح قولهم، والثانية: قول الحنفية التابعين لأبي منصور الماتريدي القائلين إن تكوين الله قديم قائم بذاته كفاء قدرته متعلق بكل مكوَّنٍ مخلوق. وبقي على هؤلاء بقية وهي أن الفعل مع قيامه بالله فهو متعلق بمشيئته وقدرته. ومذهب الكرامية أن الفعل غير المفعول، ولكن له ابتداء وافتتاح حذر التسلسل كما تقدم، وليس له غاية، وتقدم صواب القول في ذلك أن الله لم يزل ولا يزال يقول ويفعل ما يشاء، والفعل من لوازم الحياة فلا توجد الحياة بدون الفعل، فمن لم يثبت لله أفعالًا تقوم به لزمه نفي حياته تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن الرب لم يزل على كل شيء قديرًا ولم يزل نافذ الإرادة ولم يزل محسنًا عفوًّا رحيمًا، فلأيِّ شيء تمتنع هذه الأفعال عن الله في وقت من الأوقات، أليس إثبات فعله المذكور من أعظم الكمال ونفيه من أرذل النقص، أليس الخلق مفطورين باللهج بقولهم: يا دائم المعروف والإحسان، يا قديم الجود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل يرون هذا من أعظم ما يقرِّبهم إلى الله ويتوسلون به لقضاء حوائجهم، أليس الفعل من لوازم الكمال، فالله كملَ ففعل، وخلقه للمخلوقات أعيانها وأوصافها كمال حصل بكماله، وقد خالف العقل والنقل من زعم أن الفعل ممتنع عليه في الأزل، ثم انتقل من هذا المحال إلى الإمكان فما الذي تجدَّد له من الكمال حتى تمكن من الفعل الذي كان ممتنعًا، فإن الله غير معطل عن فعله كل وقت، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمور ويحدث ما تقتضيه حكمته.

ومن المعلوم المتقرر أنه لو فرض وجود القدرة على الكلام والتكوين وعدم القدرة على ذلك لكان الأول هو الكمال، وإذا كان هو الكمال فكيف يتخلف التأثير بعد وجود موجبه وسببه ومقتضيه. وأيضًا إذا كان الله لم يزل موصوفًا بتمام القدرة ونفوذ المشيئة والحياة الكاملة والعلم المحيط، فإنها أوصاف ذاتية لله تعالى، فمع وجودها يمتنع امتناع الفعل، لأن تمام الفعل بوجودها فلأي شيء قد تأخر فعله مع وجود سببه التام، والله تعالى قد عاب آلهة المشركين بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تفعل ولا تكلم، وعاب من عبد من هذه صفته وبين أنها لا تستحق من الإلهية شيئًا، وأما الباري تعالى فلم يزل هو الإله ا لحق، فهل يمكن أن

يسلب عنه الفعل والتكليم، فإذا كان لم يزل إلهًا فإنه لم يزل فاعلًا متكلمًا، وليس في العقول ما ينافي هذا القول الحق، بل ليس فيه إلا ما يطابقه ويؤيده.

والله تعالى الأول ليس قبله شيء، السابق لكل شيء فليس شيء من مفعولاته مقارنًا له كما يقوله زنادقة الدهرية من الفلاسفة فإنهم صرحوا بقدم العالم، وأتى بعدهم ابن سينا المتفلسف وهو موافق لهم على هذا القول، لكنه لما كان منتسبًا للإسلام وهو منه بريء فرأى أن مصانعة المسلمين بالعبارات الموهمة التي ليست صريحة أولى به من التصريح المحض، فتلطف بتقريب قولهم فزعم أن العالم ممكن، والممكن عنده هو المعلول لعلة تامة تقتضي مقارنتها لمعلولها بحيث لا يتأخر معلولها عنها، وهذا هو القول بقدم العالم، لكن زوَّره وبهرجه ليقرِّب المذهب الدهري إلى الدين الإسلامي، وهذا من العجائب الغرائب أن يسعى في التقريب بين مذهبين متباينين غاية التباين: مذهب الرسل الذي هو دين الإسلام والمسلمين من الأوَّلين والآخرين الرسل وأتباعهم المبني على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتوحيد العلمي الاعتقادي، والتوحيد العملي وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف بانفراد الرب بالخلق والتدبير والملك والسلطان والربوبية.

ومذهب الفلاسفة الدهرية المباين لمذهب الرسل في جميع هذه ا لأصوال من غير استثناء والحرب لم تزل بين الأنبياء وأتباعهم وبين أهل هذا المذهب الخبيث، فيستحيل غاية الاستحالة التقريب بينهما فضلًا عن الجمع بينهما، وجرى خلف ابن سينا والقرامطة والملاحدة والباطنية والنصيرية والدروز ونحوهم من كل معطل لرب العالمين جاحد لرسله وكتبه ودينه، ومن أعظم من نصر مذهب ابن سينا الملحد النصير الطوسي الذي كان كالوزير لملك التتار لما خرجوا على المسلمين وقتلوا ملوكهم وخلفاءهم وعلماءهم، وقد ذكروا أنه هو الذي أشار على التتار بقتل المذكورين وإبقاء أهل الصنائع والحرف والعملة، وعمَّر المدارس لتعليم الإلحاد والفلسفة، وصرف لها الأوقاف الإسلامية، وأراد أن يجعل «إشارات» ابن سينا موضع القرآن، وأن يقرر القواعد والنواميس المشيدة للإلحاد الهادمة للدين الإسلامي، وعرف أنه لا يتم له مقصوده حتى يستأصل رؤساء الدين، فأشار على

التتار بوضع السيف فيهم، فجرى على الإسلام بذلك من المصائب والرزايا ما يفجع القلوب، ولولا حفظ الله لدينه لجرى عليه ما جرى على الأديان السابقة من الذهاب والاضمحلال.

واعلم أن أدلة الخلق وحدوث هذا العالم المشاهد ظاهرة جلية عقلية ونقلية، من أعظمها جميع الأدلة والبراهين الدالة على توحد الله وتفرده بصفات الكمال وبديع الأفعال، فكلها تدل على حدوث كل ما سواه، فلو كان معه شيء قديم للزم أن يساوي الله في غناه ووحدانيته، فمحال أن يكون ربان متكافئان متمانعان مستقلان، فإن استقلال أحدهما ينافي استقلال الآخر، وذلك أنهما إما أن يستقلا فيحصل التمانع والتساقط وهذا محال باطل، وإما أن يذهب كل واحد بما خلقه ويستقل بتدبير ما هو مالك له ويبقى الأمر هكذا فهذا أيضًا باطل، لأنه يلزم من ذلك المغالبة وأن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون الرب واحدًا قاهرًا لكل شيء والكل مقهور بقهره داخل تحت نفوذه وتدبيره وهذا هو الحق.

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

ولذلك أخبر تعالى أنه الواحد القهار في عدة آيات، لأن الوحدة والقهر متلازمان فلا يكون منفردًا بالوحدانية حتى يكون منفردًا بالقهر، ومن انفرد بالقهر للأشياء كلها فقد تفرد بالوحدانية، فمحال أن توجد الصفتان وتجتمعا في ذاتين، وإنما هما لله الواحد القهار.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فصل
في مقالات طوائف الاتِّحادِيَّة في كلامِ الرَّبِّ جلَّ جلَالُه

٨١٥- وَأَتَــت طَوَائِــفُ الاتِّحــادِ بِمِلَّــةٍ
طَمَّــت عَلَــى مَــا قَــالَ كُــلُّ لِسَــانِ

٨١٦- قَــالُوا كَــلامُ اللهِ كُــلُّ كــلام هَــ
ــذا الخَلــقِ مِــن جِــنٍّ وَمِــن إنسَــانِ

٨١٧- نَظْمًــا وَنَثــرًا زُورُهُ وَصَــحِيحُهُ
صِــدقًا وَكِــذْبًا وَاضِــحَ الــبُطلاَنِ

٨١٨- فالسَّبُّ والشَّتمُ القَبِيحُ وَقَذفُهُم
لِلمُحصَــنَاتِ وَكُــلُّ نَــوعِ أغَــانِ

٨١٩- وَالنَّوحُ والتَّعزِيمُ والسِّحرُ المُبِيـ
ــنُ وَسَــائِرُ البُهتَــانِ والهَــذَيَانِ

٨٢٠- هُـوَ عَـينُ قَـولِ اللهِ جَـلَّ جَلاَلُـهُ
وَكَلاَمُــــهُ حَقًّــــا بِــــلاَ نُكــــرَانِ

٨٢١- هَـذَا الـذِي أدَّى إليـهِ أصـلُهُم
وَعَلَيــهِ قَــامَ مُكَسَّــحُ البُنيَــانِ[1]

(١) [٨١٥: ٨٢١] قال العلامة محمد خليل هراس:
وحسبك من مذهبة قبحًا وشناعة أن يجعل الله عز وجل هو المتكلم بكلام سائر الخلق من جن وإنس وغيرهما، مع اشتمال هذا الكلام على أنواع من القبائح والمنكرات لا يعقل صدورها عن الحق جل شأنه، كالزور والكذب، والشتم والسب، وقذف المحصنات، وأنواع الأغاني بما فيها من فحش

٨٢٢- إذ أصــلُهُم أنَّ الإلــهَ حَقِيقَــةً
عَــينُ الوُجُــودِ وَعَــينُ ذِي الأكْــوَانِ
٨٢٣- فَكَلامُهَــا وَصِــفَاتُهَا هُــوَ قَولُــهُ
وَصِــفَاتُهُ مَــا هَــا هُنَــا قَــولاَنِ
٨٢٤- وَكَذَاكَ قَالُوا إنَّهُ الموصُوفُ بالضِّـ
ـــدَّينِ مِــن قُــبحٍ وَمِــن إحسَــانِ
٨٢٥- وَكَذَاكَ قَد وَصفُوهُ ايضًا بالكَمَا
لِ وَضِـــدِّهِ مِـــن سَـــائِرِ النُّقصَـــانِ
٨٢٦- هَــذِي مَقَــالاَتُ الطَّوَائِـفِ كُلِّهَـا
حُمِلَــت إليــكَ رَخِيصَــةَ الأثمَــانِ
٨٢٧- وأظُنُّ لَو فَتَّشتَ كُتبَ النَّاسِ مَا
ألفَيتَهَـــا أبـــدًا بِـــذَا التِّبيَـــانِ[1]
٨٢٨- زُفَّت إلَيكَ فإن يَكُن لَكَ نَاظِرٌ
أبصَــرتَ ذَات الحُســنِ والإحسَــانِ

الشَرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأبيات من كلام المؤلف يُبيِّن بها المذهب الأخير في مذاهب الناس في كلام الله،

وخلاعة، والنياحة ورقى السحر وتعازيمه، وما إلى ذلك من البهتان والهذيان، أفيقول عاقل أن هذا الكلام الباطل صادر عن الله؟ وهو الذي لا يأمر بالفحشاء، وهو الذي تمت كلماته صدقًا وعدلًا لا مبدل لكلامه، وهو الذي قوله الحق وله الملك، ولكن هؤلاء الزنادقة من الاتحادية يلزمهم أن يقولوا ذلك بناء على أصلهم الخبيث الذي أقاموا عليه بناءهم المكسح المنهار.

(١) [٨٢٢: ٨٢٧] قال العلامة محمد خليل هراس:
فما أشنع ما رضي هؤلاء لربهم ، الذي يزعمون كذبًا وزورًا أنهم أهل معرفته وولايته، وما أقبح ما رضوا لأنفسهم من الارتماء في أحضان الجهل والحماقة.

وهو مذهب أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود، وأن الرب عين المربوب، والخالق عين المخلوق، قالوا: فإذا كان الرب عين المربوب، والخالق عينَ المخلوق لزِمَ أن يكون كلام المخلوق هو كلام الخالق، فجعلوا كلام الله كلام المخلوقين، فكلامي وكلام زيد وعمرو هو كلام الله؛ لأني أنا وأنتَ وزيد وغيره كلنا الله، ما يوجد فرق بين الخالق والمخلوق، قالوا: إن المخلوق اتَّحَد بالخالق فصارا واحدًا، فكلام الله إذا قيل: كلام الله، فهو كلام كل ذي كلام، يقول: (وأتت طوائف الاتحاد) يعني: اتِّحاد الخالق بالمخلوق، وأنهما شيء واحد (بمِلَّةٍ طمَّت على ما قال كل لسان).

قَالُوا كَلَامُ اللـــه كُـلُّ كلام هَـ ـذا الخَلقِ مِن جِنٍّ وَمِن إنسَانِ

هذا كلام الله، وكلام الخلق هو كلام الله، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (نظمًا ونثرًا) النظم كلام الله، والنثر كلام الله، (زورُه وصحيحُه) الباطل والصحيح كله كلام الله، و(صدقًا وكذِبًا) فالصدق والكذِب كله كلام الله.

فالسَّبُّ والشَّتمُ القَبيحُ وَقَذفُهُم لِلمُحصَنَاتِ وَكُلُّ نَـوعِ أغَـانِ
وَالنَّوحُ والتَّعزِيمُ والسِّحرُ المُبِيـ ـنُ وَسَائِرُ البُهتَانِ والهَذَيَـانِ

كل هذا (هو عين قول الله جل جلاله)؛ قذْفُ المُحصَنات هو كلام الله، فالرجل إذا قال لشخص: يا زانٍ، فهذه (يا زانٍ) هي كلام الله، السَّبُّ، والأغاني، والشتم، والسحر، والعزائم كلها كلام الله حقًا بلا نكران.

هَذَا الذِي أَدَّى إليـــهِ أصلُهُم وَعَلَيهِ قَـــامَ مُكَسَّحُ البُنيَـــانِ

يعني: البناء المُكسَّح الذي لا يستطيع أن يقوم، هذا قام على هذا الأصل.

إذ أصلُهُم أَنَّ الإلَـــهَ حَقِيقَةً عَينُ الوُجُودِ وَعَينُ ذِي الأكوَانِ

أن الإله سبحانه وتعالى هو عين الوجود، وعين هذه الأكوان، الشمس هي الله، والقمر، والسماء، والأرض، والإنسان، والجن، وكل شيء في الوجود فهو الله، وكلامه يكون هو كلام الله.

قال: (فكلامها وصفاتها هو قوله) يعني: كلامُها هو قولُه، وصفاتُها هي صفاتُه (ما ها هنا قولان) يعني: ما هنا صفتان؛ لأنه كله قول واحد، فكله قول الله، وما هنا صفتان؛ لأنها

كلها صفة لموصوفٍ واحدٍ.

وَكَذَاكَ قَالُوا إِنَّهُ الموصُوفُ بالضِّـ ... ـدَّينِ مِن قُبحٍ وَمِن إحسَانِ

الموجودات فيها شيءٌ قبيح، وفيها شيءٌ حسن، كلها الله، إذًا يُوصَف الله بالضِّدَّيْن؛ الحسن والقبح.

وَلَذَاكَ قَد وَصفُوهُ ايضًا بالكَمَا ... لِ وَضِدِّهِ مِن سَائِرِ النُّقصَانِ

وهذا مذهب الاتحادية القائلين بأن المخلوق والخالق شيء واحد، فكلام المخلوق هو كلام الخالق، وكلام الخالق هو كلام المخلوق.

هَذِي مَقَالاَتُ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا ... حُمِلَت إليكَ رَخِيصَةَ الأثمَانِ

وأظُنُّ لَو فَتَّشتَ كُتْبَ النَّاسِ مَا ... ألفَيتَهَا أبـدًا بـِذَا التِّبيَانِ

زُفَّت إِلَيكَ فإِن يَكُن لَكَ نَاظِرٌ ... أبصَرتَ ذَات الحُسنِ والإِحسَانِ

نقول: جزى الله المؤلف خيرًا، جمعها لنا، وزفَّها إلينا، ولو فتَّشْنا في غير هذا الكتاب فلن نجِدها مجموعة هذا الجمع، لكن هذا من نعمة الله على المؤلف، ومن نعمة الله على من انتفع بمؤلفاته، أنها جَمعَت الأقاويل وحَصرَت، ثم شرع المؤلف يرُدُّ على هذه المذاهب.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨٢٩- فَاعطِف عَلَى الجَهمِيَّةِ المغلِ الألى
خَرَقُـوا سِـيَاجَ العَقـلِ والقُـرآنِ

٨٣٠- شَرِّد بِهِم مَن خَلفَهُم واكسِرهُمُ
بَـل نَـادِ فِـي نَـادِيهُم بـأذَانِ

٨٣١- أفسَدتُم المعقُولَ المنقُولَ والـ
ـمَسمُوعَ مِـن لُغَـةٍ بِكُـلِّ لِسَانِ

٨٣٢- أيَصِحُّ وَصفُ الشَّيءِ بالمشتَقِّ للـ

ــــمَسْلُوبِ مَعنَــاهُ لِـذِي الأذهَــانِ؟

٨٣٣-أيَصِـحُّ صَـبَّارٌ وَلاَ صَـبرٌ لَـهُ

وَيَصِـحُّ شَـكَّارٌ بـلاَ شُـكرَانِ

٨٣٤-وَيَصِـحُّ عَـلَّامٌ وَلاَ عِلـمٌ لَـهُ

وَيَصِـحُّ غَفَّـارٌ بِـلا غُفـرانِ

٨٣٥-وَيُقَـالُ هَـذَا سَـامِعٌ أو مُبصِـرٌ

وَالسَّـمعُ والإبصَـارُ مَفقُـودَانِ

٨٣٦-هَذا مُحالٌ في العقول وفي النُّقو

لِ وَفِـي اللُّغَـاتِ وَغيـرُ ذِي إمكَـانِ(١)

٨٣٧-فَلَـئِن زَعَمـتُم أنَّـهُ مُـتَكَلِمٌ

لَكِـن بِقَـولٍ قَـامَ بِالإنسَـانِ

٨٣٨-أو غَيـرِه فَيُقَـالُ هَـذَا باطِـلٌ

وَعَلَـيكُمُ فِـي ذَاكَ مَحـذُورَانِ

٨٣٩-نَفيُ اشتِقَاقِ اللَّفظِ للموجُودِ مَعـ

ـنَاهُ بِـهِ وَثُبُوتُـهُ للثَّـانِي

---

(١) [٨٢٩: ٨٣٦] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهذا من شأنه أن يغري صاحب الحق بهم فيحمل عليهم حملة صادقة يشرد بها من خلفهم، ويكسر بها شرهم ويصرخ فيهم منكرًا عليهم ما ذهبوا إليه مما خالفوا فيه العقل والنقل واللغة جميعًا بنفي صفات الله عز وجل فإن العقل يثبتها لأنها صفات كمال يستحيل على الله خلوه عنها. والنقول من الكتاب والسنة مصرحة بثبوتها له، واللغات كلها متفقة على أن إطلاق المشتق على شيء يقتضي مأخذ الاشتقاق للموصوف فلا يصح وصف الشيء بالمشتق ويكون معناه مسلوبًا عنه، بل يجب أن يكون المعنى الذي هو مبدأ الاشتقاق ثابتًا له، فإذا قيل فلان صبار دل هذا الإطلاق على ثبوت الصبر له، فلا يصح صبار لا صبر له فإنه تناقض، وكذلك لا يقال شكَّار إلا لموصوف بالشكر وعلام غفار إلا لموصوف بالعلم والغفران، وكذلك لا يقال سامع أو مبصر وهو فاقد للسمع والإبصار، وهذا مما اتفق على استحالته العقل والنقل وسائر اللغات وهو غير ممكن بحال من الأحوال.

٨٤٠-أعنِـي الَّـذِي مَـا قَـامَ مَعنَـاهُ بِـهِ
قَلْــبُ الحَقَــائِقِ أقْــبَحُ البُهتَــانِ

٨٤١-وَنَظِيــرُ ذَا أخَــوَانِ هَــذَا مُبصِــرٌ
وَأخُـــوهُ مَعـــدُودٌ مِـــنَ العُميَـــانِ

٨٤٢-سَـمَّيتُمُ الأعمَـى بَصِـيرًا إذ أخُـو
هُ مُبصِـــرٌ وَبِعكسِـــهِ فِـــي الثَّـــانِي

٨٤٣-فَلَـئِن زَعَمـتُم أنَّ ذَلِـكَ ثَابِـتٌ
فِـــي فِعلِـــهِ كَـــالخَلقِ لِلأكْـــوَانِ

٨٤٤-وَالفِعـلُ لَـيسَ بِقَـائِمٍ بِإِلَهِنَـا
إذ لاَ يَكُـــونُ مَحَـــلُ ذِي حِـــدثَانِ

٨٤٥-وَيَصِـحُ أن يَشـتَقُ مِنـهُ خَـالِقٌ
فَكَـــذَلِكَ المُـــتَكَلِّمُ الوَحـــدَانِي

٨٤٦-هُــوَ فَاعِــلٌ لِكَلاَمِــهِ وَكِتَابِــهِ
لَــيسَ الكَــلاَمُ لَــهُ بِوَصــفِ مَعَــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

في هذه الأبيات شَرَعَ يرُدُّ على هؤلاء المنحرفين في عقيدتهم في كلام الله، فبدأ أولًا بالجهمية، وهم أتباع الجهم بن صفوان، أول من قال بالتعطيل، حينما قال: إن الله لم يتَّخِذ إبراهيم خليلًا، ولم يُكلِّم موسى تكليمًا.

مذهب الجهمية يقولون: إن الله مُتكلِّم؛ أي: خالقٌ للكلام في غيره، أما هو نفسه فليس بمتكلِّم، لكن يخلق الكلام فيُضيفُه إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا، كما خلق الناقة وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا، وكما خلق البيت، وأضافه إلى نفسه فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]

تشريفًا وتكريمًا، وكما أضاف محل عبادته إلى نفسه وهي المساجد، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤]، إذًا كلام الله هو كلام مخلوق خلقه في غيره، لكن أضافه إلى نفسه من باب التشريف، أما الله نفسه فلا يمكن أن يتكلَّم.

إذًا الكلام عندهم: كلام مخلوق في غيره، وأُضيف إلى نفسه على وجه التشريف والتعظيم، أما الله فلا يمكن له ذلك لا يمكن أن يقول الله مثلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، لا يمكن أن يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] لكن خلق كلامًا في هذه الظروف، سمعه جبريل، فنزل به إلى محمد، فليس الله هو الذي قال لموسى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه:١٤] خلقه في شيءٍ إما في الهواء، وإما في الشجر، وإما في كذا وكذا، وسمعه موسى، أما الله فلم يتكلَّم.

أراد أن يرُدَّ عليهم، فقال: (فاعطف على الجهمية المُغْلِ الأُلَى) المُغْلِ يعني: المغول، وهم التتار الذين خرجوا على المسلمين، فأفسدوا الدنيا والدين، وأصل طامة المغول من الجهمية؛ لأن كل تعطيل أصله من الجهمية، كما أن كل خروجٍ على الأئمة فأصلُه من الخوارج، وكما أن كل غلُوٍّ في آل البيت فأصلُه من الرافضة، فأصول البدع كلها معروفة، الجهمية هم أصل التعطيل، وكان على مذهبهم هؤلاء المغول الذين أفسدوا الدنيا والدين.

قال: (خرقوا سياج العقل والقرآن) سِيَاج الشيء: ما أحاط به من سور، فهم خرقوا سِيَاج العقل والنقل.

قال: (شرِّدْ بهم مَنْ خلفهم واكسرهم) يعني: نكِّل بهم نكالًا يهرب به مَن خلفَهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧]، فمعنى التشريد لمن خلفهم: أن يُنكِّل بهم حتى يشرَّد من خلفهم من شدَّة ما يُرى بالتنكيل بهم، يخشى أن يُصيبَه ما أصابهم.

قال: (شرِّدْ بهم مَنْ خلفهم واكسرهم بل ناد في ناديهم بأذان) ناديهم: مجتمعهم، بأذان؛ أي: بإعلان.

قل:

أفسَدتُم المعقُولَ المنقُـــولَ والـــ ـــمَسمُوعَ مِن لُغَةٍ بِكُلِّ لِسَـــانِ

يعني: كلامكم هذا أفسَدَ المعقول والمنقول والمسموع من اللغة، إذن أفسد العقل والنقل واللغة، ثم بيَّن بعد هذا قال:

أيَصِحُّ وَصفُ الشَّيءِ بالمشتَقِّ للـ ـمَسلُوبِ مَعنَاهُ لِذِي الأذهَانِ

كيف يصحُّ أن تصف الشيء بمُشتق وهو لا يتضمَّن معناه؟ هل يصحُّ أن تقول للقاعد: أنتَ قائم؟ لا؛ لأنك لو قلتَ للقاعد: قائم، وصفتَ هذا القاعد بوصفٍ مسلوبٍ منه، منتفيًا عنه.

قال: (أيصحُّ صبَّار ولا صبر له) يعني: هل يصحُّ أن يوصف الشيء بالمُشتق وليس فيه ذلك المُشتق، فضلًا عن أن يكون فيه غيره؟

أيَصِحُّ صَبَّارٌ وَلاَ صَبرٌ لَـهُ وَيَصِحُّ شَكَّارٌ بِـلاَ شُكـرَانِ
وَيَصِحُّ عَلاَّمٌ وَلاَ عِلـمٌ لَـهُ وَيَصِحُّ غَفَّارٌ بِـلا غُفـرانِ
وَيُقَالُ هَذَا سَامِـعٌ أو مُبصِـرٌ وَالسَّمعُ والإبصَـارُ مَفقُـودَانِ

هل يصحُّ أن يُقال: هذا مُبصِرٌ، والبصر مفقودٌ منه؟ لا، ولهذا قال:

هَذا مُحالٌ في العقول وفي النُّقو لِ وَفِي اللُّغَاتِ وَغيرُ ذِي إمكَانِ
فَلَئِن زَعَمتُم أنَّـهُ مُتَكَلِـمٌ لَكِن بِقُـولٍ قَـامَ بِالإنسَانِ

فإذا قالوا: إن الله متكلِّم بكلام قام بالإنسان، أو قام بغير الإنسان؛ كجبريل، الشجرة، الهواء ـ المهم: أن يقول إن الله مُتكلِّم، لكن بكلامٍ قام بغيره ـ فإن هذا لا يصح يعني: لو قيَّد فقال: متكلِّم هو نفسه بكلامٍ قام بغيره، فيقال: هذا باطل، لأنه لا يمكن أن نقول: إنه متكلِّم بكلامٍ قام بغيره، قال: (وعليكم في ذاك محذوران) يعني: أنكم إذا قلتُم: إنه مُتكلِّمٌ بكلامٍ قام بغيره فإن عليكم في ذاك محذورين:

المحذور الأول: أنكم نفيتُم الكلام عن الله مع أنه هو الموصوف به.

الثاني: أنكم أثبتُّم الكلام لغير الله وهو لم يتكلَّم به.

فأخطأوا في الأمرَين.

نَفيُ اشتِقَاقِ اللَّفظِ للموجُودِ مَعـ ـنَاهُ بِـهِ وَثُبُوتُـهُ للثَّانِـي
أعنِي الَّذِي مَـا قَامَ مَعنَـاهُ بِـهِ قَلبُ الحَقَائِقِ أقبَـحُ البُهتَـانِ

وهذه قاعدة مفيدة، قلبُ الحقائق أقبح البُهتان، وهذا الكلام الذي قاله الجهمية قلبٌ للحقائق؛ وقلبُ الحقائق أقبحُ البُهتان، وما أكثر قلبَ الحقائق في إذاعات العرب اليوم، يقولون أشياء ليس لها أصل، يقلِبون الحقائق ـ حقائق تُشاهَد ـ إلى أمورٍ مُخالفة للمُشاهِد، لكن هذه القاعدة تُفيدُهم (قلب الحقائق أقبح البهتان)، ولهذا يحكي مَن يستشهِد بهذا الشطر على إذاعات كثيرٍ من العرب اليوم، فتقول: (قلب الحقائق أقبح البهتان).

يقول: (ونظير ذا) أراد المؤلف أن يُمثِّل المعقول بالمحسوس.

وَنَظِيرُ ذَا أَخَـوَانِ هَـذَا مُبصِرٌ … وَأخُوهُ مَعدُودٌ مِـنَ العُميَـانِ

وأخوه إذا كان معدودًا من العُمْيان يكون أعمى.

سَمَّيتُم الأعمَى بَصِيرًا إذ أخُو … هُ مُبصِرٌ وَبِعكسِهِ فِـي الثَّانِـي

يوجد أخَوَان، أحدهما أعمى، والثاني مُبصِر، فقلنا للأعمى: هنَّأَك الله بالبصر القوي، وقلنا للبصير: جَبَرَ الله مُصيبتك بالعمَى، وصَفنا البصير بأنه أعمى.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول: هل هذا معقول أن تُسمِّي الأعمى بصيرًا، والبصير أعمى؟ وأنتم الآن تقولون: إن الله مُتكلِّم، والكلام من غيره، وصف مُتكلِّم لمن قام به الكلام، فإذا كان يتكلَّم غير الله، فالله ما يتكلَّم، وإذا كان الله هو الذي يتكلَّم فغيرُه لا يتكلَّم، أما أن يقول: الله متكلِّم، وقلنا أين كلامه؟ قال: وما سُمِع من جبريل، وما سُمِع من الشجرة، ما سُمِعَ في الهواء، أما ذات الله فلا.

يقول:

فَلَئِن زَعَمتُم أنَّ ذَلِكَ ثَـابِـتٌ … فِي فِعلِهِ كَالخَلـقِ لِلأكـوَانِ

وَالفِعلُ لَيسَ بِقَائِمٍ بِـإلهِنَـا … إذ لاَ يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدثَـانِ

هم قالوا: أنتم تقولون: لا يمكن أن يُوصَف بالكلام الذي كان قائمًا بغيره، ولكننا لا نُسلِّم بهذا، وعندنا الدليل: الخلق فعل قائم بالغير، قائم بالمخلوق.

فهم يقولون – عندهم قاعدة -: أن الحوادث لا تقوم بالله، فكل شيء حادِث لا يمكن أن يقوم بالله؛ يعني: لا يمكن أن يتَّصِف به الله بكل شيء حادِث، والكلام عندهم حادِث.

يقولون: الخلق لا يقوم بالله، والكلام لا يقوم بالله، والاستواء على العرش لا يقوم بالله،

كل شيء يتضمَّن الحدوث فإنه لا يقوم بالله؛ لأن ما قام به الحادِث فهو حادِث.

فإذا قلتم بقيام الحوادث بالله، لزِمَ أن يكون الله حادِثًا، ولكن هذه القاعدة باطلة من الأصل.

الحوادِث: فعل المُحدِث، والفاعل لابد أن يتقدَّم على الفعل، والفعل لابد أن يتقدَّم على المفعول، أو على الأقل يكون مُقابلًا له، أما أن نقول: كل ما قام به حادِث فهو حادِث، فهذا ليس بصحيح؛ وعندنا أيضًا دليل من أنفسنا: رجل به شلل وهو مخلوق منذ عشرين سنة، قام الآن الساعة ٧:١٥؛ هل يلزم أن يكون حادِثًا الساعة ٧:١٥ هو ؟ هو منذ عشرين سنة، فصحَّ أن الفاعل يسبق الفعل، وأنه لا يلزم من حدوث الفعل أن يكون الفاعل حادِثًا، فهذا الإنسان قديم بالنسبة لفعله، له عشرون سنة، والفعل لم يحدث إلا في هذا الشهر شهر جُمادى في عام ألف وأربعمائة وإحدى عشر؟ إذًا ما يلزم من حدوث الشيء أن يكون ما حدث به الشيء حادثًا، بل يتقدَّم عليه بزمان، فالله عز وجل تقوم به الحوادث بمعنى: أنه يفعل ما يشاء فعلًا متجدِّدًا حادِثًا بعد أن لم يكن، ومع ذلك هو بنفسه قديم أزلي.

وَالفِعلُ لَيسَ بِقَائِمٍ بِإِلَهِنَا ... إذ لاَ يَكُونُ مَحَلَّ ذِي حِدثَانِ

القائل هي الجهمية.

وَيَصِحُّ أن يُشتَقَّ مِنهُ خَالِقٌ ... فَكَذَلِكَ المُتَكَلِّمُ الوَحدَانِي

يعني: الفعل الخلق متعلِّق بالمخلوق، ويصحُّ أن يُشتقَّ منه خالق مع أن الفعل قائم بغيره؛ إذ أن المخلوق منفصل عن الله.

هُوَ فَاعِلٌ لِكَلاَمِهِ وَكِتَابِهِ ... لَيسَ الكَلاَمُ لَهُ بِوَصفِ مَعَانِ

سيدَّعون أنه إذا قيل: متكلِّم؛ يعني: خالق للكلام، كما إذا قيل: خالق، فالمخلوق منفصل، ونحن نُجيبُهم على هذا بأن الخلق غير المخلوق، الخلق فعل الخالق، والمخلوق مفعول الخالق، لكن لمَّا كان الكلام لا يتعدَّى، الخلق يتعدَّى، يقال: خلق كذا، الكلام صفة لازمة لا تتعدَّى، صار لا يتعلَّق به مفعول، مع أنه يمكن أن نقول: إنه قد يتعلَّق بالمفعول، فيُقال: إن الله مُتكلِّم، والرسول مُكلَّم، كما جاء في الحديث عن آدم أنه «نبيٌّ مُكَلَّمٌ» (١)،

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٧٧) برقم (٤٧٢١)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»

وحينئذٍ مُكلَّم على وزن مخلوق.

فعندنا: متكلِّم وهو الله، الكلام وهو فِعْلُه، مُكلَّم وهم المخلوقون، ولا فرق بين الخلق وبين الكلام.

❁ ❁ ❁

* **قوله** رَحِمَهُ اللهُ:

٨٤٧- وَمُخَالِفُ المَعقُولِ وَالمَنقُولِ وَالـ
ـــفِطرَاتِ والمَســـمُوعِ لِلإِنسَـــانِ

٨٤٨- مَــن قَــالَ إنَّ كَلاَمَــهُ سُــبحَانَهُ
وَصــــفٌ قَـــدِيمٌ أحرُفًـــا ومَعَـــانِي

٨٤٩- وَالسِّينُ عند البَاءِ لَيسَت بَعدَهَا
لَكِـــن هُمَـــا حَرفَـــانِ مُقتَرِنَـــانِ

٨٥٠- أو قَـــالَ إنَّ كَلاَمَـــهُ سُـــبحَانَهُ
مَعنَـــى قَـــدِيمٌ قَـــامَ بِـــالرَّحمَنِ

٨٥١- مَا إن لَهُ كُل ولاَ بَعضٌ وَلاَ الـ
ـــعَرَبِي حَقِيقَتُـــهُ وَلاَ العِبرَانِـــي

٨٥٢- وَالأمـرُ عَـينُ النَّهـيِ وَاستِفهَامُهُ
هُـــوَ عَـــينُ إخبَـــارٍ بِـــلاَ فُرقَـــانِ

٨٥٣- وَكَلاَمُـهُ كَحَيَاتِـهِ مَـا ذَاكَ مَقـ
ـــدُورا لَـــهُ بَـــل لاَزِمُ الـــرَّحمَنِ

٨٥٤- هذَا الذِي قَد خَالَفَ المَعقُولَ وَالـ
ـــمَنقُولَ والفِطـــرَاتِ للإِنسَـــانِ

(٥٧٣٧).

٨٥٥- أَمَّـا الـذِي قَـد قَـالَ إنَّ كَلاَمَـهُ
ذُو أحـــرُفٍ قَـــد رُتِّبَـــت بِبيَـــانِ

٨٥٦- وَكَلاَمُـــــهُ بِمَشِـــيئَةٍ وَإِرَادَةٍ
كَالفِعـــلِ مِنـــهُ كِلاَهُمَـــا سِـــيَّانِ

٨٥٧- فَهوَ الذِي قَد قَالَ قَولًا يَعلَمُ الـ
ـــعُقَلاَءُ صِـــحَّتَهُ بِـــلاَ نُكْـــرَانِ

٨٥٨- فَـلأَيِّ شَـيءٍ كَـانَ مَـا قَـد قُلتُم
أولَـــى وأَقـــرَبَ مِنـــهُ لِلبُرهَـــانِ

٨٥٩- وَلأيِّ شَـــيءٍ دَائمًـــا كَفَّـــرتُمُ
أصـــحَابَ هَـــذَا القَـــولِ بِالعُـــدوَانِ

٨٦٠- فَدَعُوا الدَّعَاوِي وَابحَثُوا مَعَنا بتَحـ
ـــقِيقٍ وَإِنصَـــافٍ بِـــلاَ عُـــدوَانِ

٨٦١- وَارْفَـوا مَـذَاهِبَكُم وَسُدُّوا خَرقَهَا
إن كَـــانَ ذَاكَ الرَّفـــوُ فِـــي الإمكَـــانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه الأبيات لَمَّا بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن كلام الجهمية مخالف للمعقول والمنقول والفطرة، ذكر أن الجهمية قالوا: ليس كلامنا بالمخالف للفطرة، والمخالف للفطرة: من قال: إن كلامه سبحانه وصفٌ قديم، قال المؤلف:

وَمُخَالِفُ المَعقُولِ وَالمَنقُولِ وَالـ ـفِطرَاتِ والمَسمُوعِ لِلإنسَـــانِ
مَن قَالَ إنَّ كَلاَمَـــهُ سُبحَانَـــهُ وَصفٌ قَديمٌ أحرُفًـــا ومَعَـانِـي

المعقول واضح، والمنقول: الكتاب والسنة وإجماع السلف، الفِطْرات: الفطرة التي فُطِر

الإنسان عليها، وهي ما يحتكم الإنسان بها إلى الأمور البَدَهِيَّة، المسموع للإنسان؛ يعني: اللغة؛ لأن اللغة ألفاظ تُنقل وتُسمَع.

أما المخالف في هذه الأشياء الأربعة:

مَن قَالَ إنَّ كَلامَهُ سُبحَانَهُ ... وَصفٌ قَديمٌ أحرُفٌ ومَعَانِ

وَالسِّينُ عند البَاءِ لَيسَت بَعدَهَا ... لَكِن هُمَا حَرفَانِ مُقتَرنَانِ

يُشير إلى مذهب الاقترانية الذين قالوا: إن كلام الله وصفٌ قديم لا يتعلَّق بمشيئته ولا بإرادته، ولكنَّه أحرف ومعانٍ، لكنَّ الأحرف مُقترنة، السين عند الباء، وهذا يعني: في قول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، السين عند الباء مُقارنةٌ لها، ليست بعدها، لكن هما حرفان مقترنان، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كلٌّ يعرف أن السين بعد الباء، هم يقولون: لا، السين والباء واحدة، وهذا غير ممكن لا في العقل، ولا في النقل، ولا في اللغة كلها.

القول الثاني الذي خالف المعقول والمنقول والفِطْرات، والكلام للجهمية الذين يريدون أن ينكروا على الاقترانية، وعلى الطائفة الثانية وهم الأشاعرة.

أو قَالَ إنَّ كَلامَهُ سُبحَانَهُ ... مَعنَى قَدِيمٌ قَامَ بِالرَّحمَنِ

هؤلاء هم الأشاعرة، يقولون: كلام الله معنىً قديم قام به، ككقيام الحياة والعلم، الحياة والعلم معنى قديم، لم يزل حيًّا عليمًا، هم يقولون: الكلام معنى قديم، ليس بحرف، ما تكلَّم الله بحروفٍ إطلاقًا، ولا تكلَّم بكلامٍ يُسمَع إطلاقًا، إنما كلامُه هو المعنى القديم القائم بنفسه، أما أنه المسموع بالآذان فكلا، أما أنه الحروف المتتابعة فكلا.

حقيقة الأمر: أنهم فسَّروا الكلام بالعلم، هذا هو حقيقة مذهبهم؛ لأنه إذا كان الكلام هو المعنى القائم بنفسه؛ يعني: المعنى الذي علِمَ الله أنه سيتكلَّم في يوم كذا، فهذا هو العلم حقيقة، وهذا من أخطر ما يكون: قول الأشاعرة في كلام الله؛ لأن هذا ليس بكلام.

مَا إن لَهُ كُلٌ ولاَ بَعضٌ وَلاَ الـ ... ـعَرَبِيُّ حَقِيقَتُهُ وَلاَ العِبرَانِي

قوله: (ما إن له كل ولا بعض) لا يقال قرأتُ كل الفاتحة، قرأتُ بعض الفاتحة على أنها كلام الله، مستحيل، كلام الله لا يتبعَّض، ليس له كل، وليس له بعض؛ لأنه معنى قائم بالنفس، وصف هو متكلِّم لكن بدون كلامٍ يتجزَّأ أو يتبعَّض أو يُسمَع (ولا العربي حقيقته

ولا العبراني) أيضًا العربي وهو الذي نزل على محمد ﷺ، والعبراني هو التوراة، يقول: ما نقول: كلام الله عربي، ولا كلام الله عبراني؛ لأن وصف العربي والعبراني إنما هو للمسموع، وكلام الله لا يُسمَع.

(والأمر عين النهي): ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، و﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ هما شيء واحد، إذا قرأتَ القرآن والتوراة فهما شيءٌ واحد.

وَالأمرُ عَينُ النَّهيِ وَاستِفهَامُـــهُ   هُوَ عَينُ إخبَارٍ بِـــلاَ فُرقَـــانِ

هذه أربعة أشياء: الأمر، والنهي، والاستفهام، والخبر كلها شيء واحد.

وَكَلاَمُهُ كَحَيَاتِـــهِ مَـــا ذَاكَ مَقـ   ـدُورا لَـــهُ بَـــل لاَزِم الرَّحمَنِ

حياة الله عز وجل لازمة، وقول المؤلف: (ما ذاك مقدورٌ له) لأن الشيء المستحيل لا تتعلَّق به القدرة، فهل يمكن أن يكون الله عز وجل حيًّا ميِّتًا؟ لا، لأن الموت مستحيل عليه؛ بل هو الحي الذي لا يموت، والكلام مثل الحياة، لا يمكن أن لا يكون متكلِّمًا؛ لأنه وصف لازم، لا يتعلَّق بمشيئته، ليس إن شاء تكلَّم، وإن شاء لم يتكلَّم، إن كنتَ تقول: إن شاء صار حيًّا، وإن شاء صار ميِّتًا.

هذَا الذِي قَد خَالَفَ المَعقُولَ وَالـ   ـمَنقُولَ والـفِطـرَاتِ للإنسَـانِ

الجهمية يقولون: كيف تقولون كلامًا مخالفًا للمعقول، والمنقول، والفِطْرات، واللغات، هذا هو المخالف، وصدقوا في هذا، نحن مع الجهمية في أن هذا الذي ذهب إليه الأشاعرة لا يُسمَّى كلامًا، والمعنى القائم بالنفس لا يُسمَّى كلامًا.

مسألة: هل نوافق الجهمية ؟

الجواب: نعم؛ لأن الحق يجب أن يُقبَل ممن قاله، لو كان كافرًا مشركًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ شيئان: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فكذَّب قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، لأنه باطل، وأقرَّهم على قولهم: ﴿وجدنا عليها آباءنا﴾، إذًا الحق يُقبل ولو من كافر، والباطل يُردُّ ولو من مؤمن، هذا هو العدل.

فقولُ الجهمية للأشاعرة: إن قولهم خالف المعقول، والمنقول، والفِطْرات للإنسان هو

قول حق؛ لأن هذا الذي ذهبوا إليه غير معقول، ولا منقول، ولا الفطرة تهتدي إليه، ولا اللغة تُقِرُّه.

أَمَّا الذِي قَدْ قَالَ إنَّ كَلَامَهُ ... ذُو أحرُفٍ قَدْ رُتِبَت بِبَيَانِ

هم الجهمية، يقولون: كلامه ذو أحرف مُرتبة، قوله: (قد رُتِّبَت) ردٌّ على الاقترانية.

وَكَلَامُهُ بِمَشِيئَةٍ وَإرَادَةٍ ... كَالفِعلِ مِنهُ كِلَاهُمَا سِيَّانِ

هذا ردٌّ على الأشاعرة، يقولون: كلامه ليس بإرادة ومشيئة منه كالفعل؛ بل هو مثل الحياة والعلم، لا تتعلَّق بهما المشيئة، لكن الكلام تتعلَّق به المشيئة، أما الأشاعرة يقولون: إن الكلام لا تتعلَّق به المشيئة.

فَهوَ الذِي قَد قَالَ قَولًا يَعلَمُ الـ ... ـعُقَلَاءُ صِحَّتَهُ بِلَا نُكرَانِ

وهؤلاء هم الجهمية القائلون بأن كلامه ذو أحرف قد رُتِّبَت، لكن كيف نُقِرُّهم على أنهم قد قالوا قولًا يعلم العقلاء صحته؟ نعم، نحن نوافقهم على أن كلام الله يتعلَّق بمشيئته، وأنه مُرتَّب، لكن نخالفهم في قولهم: مخلوق، هذا باطل، لأن الكلام الذي يخلقه الله ليس كلام الله، بل كلام من تكلَّم به.

فَلأَيِّ شَيءٍ كَانَ مَا قَد قُلتُم ... أولَى وأَقرَبَ مِنهُ لِلبُرهَانِ

يقول لهؤلاء: الأشاعرة والاقترانية هذا الكلام وهو استفهام للإنكار؛ يعني: ما قلتُم ليس أقرب منه للبُرهان.

وَلأيِّ شَيءٍ دَائمًا كَفَّرتُم ... أصحَابَ هَذَا القَولِ بِالعُدوَانِ

لأن الأشاعرة يرَون الجهمية كفَرة في قولهم في كتاب الله.

فَدَعُوا الدَّعَاوِي وَابحَثُوا مَعَنا بِتَحـ ... ـقِيقٍ وَإنصَافٍ بِلَا عُدوَانِ

هذا البيت حق، أن الإنسان يدَع الدعاوي، ويبحث بالتحقيق والإنصاف، أما أن يقول: الصواب معي، قولي هو التحقيق، قولي هو الإجماع، دعوى بلا دليل، ابحث بإنصاف وعدل.

وَارفوا مَذَاهِبَكُم وَسُدُّوا خَرقَهَا ... إن كَانَ ذَاكَ الرَّفوُ فِي الإمكَانِ

وارفُوا؛ يعني: رقِّعوها، وسُدُّوا الخَرق (إن كان ذاك الرَّفو في الإمكان) يعني: الترقيع في

الإمكان، وأنتم الآن هل تقولون: إن الترقيع في الإمكان ؟ لا، ما داموا يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، أو: إن الكلام هو المعنى المتعلِّق بالمشيئة ولكنه مُقترِن، لا يسبق بعضه بعضًا، هذا قول لا يمكن أن يُرفَأ أبدًا.

انتهى ـ بفضل الله ـ المجلد الأول

ويليه ـ إن شاء الله ـ المجلد الثاني

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع	الصفحة
القسم الأول (المقدمات)	٦
مقدمة..	٧
خطة العمل في شرح القصيدة النونية....................	١٨
تمهيد ومسائل متعلقة بـ«المنظومة النونية»................	١٤
نُبْذَةٌ مختصرة في تاريخ الفرق والعقائد والمؤلفات في ذلك..........	٢٨
مباحث حول أهل الفرق والأهواء، وأهم ملامحهم وسماتهم ومنهجهم، وأسباب نشأتهم وتاريخها وغير ذلك من مباحث وأمور..........	٣٧
أهم أسباب وقوع طوائف من الأمَةِ في الأهواء والفُرْقَة..........	٤٩
أول أصل افترقت به الفِرَقُ الأولى....................	٤٩
البدع الاعتقادية والقولية أسبق من البدع العملية............	٥٠
الفِرَقُ الكُبْرى أو (أمّهات الفرق)	٥١
الفرق والمذاهب والاتجاهات المعاصرة..................	٥٥
خصائص الفرق وسماتها..........................	٥٥
جماع أصول الفرق ومناهجها......................	٥٧
الملامح العامة لمناهج أهل الأهواء وأصولهم وسماتهم..........	٥٩
منهج أهل السنة في النظر والاستدلال بشيء من التفصيل........	٦٣

منهج أهل الأهواء والبدع في النظر والاستدلال بشيء من التفصيل...... ٦٧
* أهم الملامح الخاصة لأهل البدع والأهواء المتعلقة بموضوع الكتاب بشيء من التفصيل.............................. ٧٠
* الأصول الكبرى التي خالف فيها أهل الأهواء السُّنَّة............. ٨٠
الأصل في مناهج أهل الأهواء الباطل وإن وجد عندهم شيء من الحق.. ٨٢
أهل البدع والأهواء والافتراق قد ينتسبون للسنة.......... ٨٢
قاعدة في التمييز بين أهل السنة وأهل الأهواء.......... ٨٣
جماعة المسلمين أسماؤها وسماتها عند السلف........... ٨٤
أهم سمات جماعة المسلمين.......................... ٨٨
ما من بدعة تظهر إلا يقيض الله من يتصدى لها.......... ٩٣
موقف أهل البدع من الكتاب.......................... ٩٥
بيان لمنهج الشُّرَّاح الذين أفدنا منهم في هذا العمل وترجمة لكل واحدٍ منهم: ١١٠
أولًا: شرح الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى - عرض وتقويم -........ ١١٠
التعريف بالمؤلف............................. ١١٠
التعريف بالكتاب............................. ١١٠
طريقة المؤلف في الكتاب ١١٠
مميزات الكتاب وعرض منهج المؤلف فيه................ ١١١
الملحوظات على الكتاب......................... ١١٤
ثانيًا: شرح الشيخ محمد خليل هراس - عرض وتقويم- ١١٨
التعريف بالمؤلف............................. ١١٨
التعريف بالكتاب............................. ١١٩

طريقة المؤلف في الكتاب........ ١١٩
مميزات الكتاب وعرض منهج المؤلف فيه........ ١١٩
الملحوظات على الكتاب........ ١٢٢
ثالثًا: شرحان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي........ ١٢٩
رابعًا: شرح الشيخ ابن عثيمين وبيان شيءٍ من منهجه فيه وترجمته........ ١٣٠
ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين........ ١٣٠
منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه........ ١٣٤
كلمة العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي........ ١٣٧
مقدمة........ ١٣٧
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ١٣٩
فصل........ ١٥٧
فصل........ ١٦١
القسم الثاني متن القصيدة النونية وشروحها........ ١٨١
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ١٨٢
فصل........ ٢٠٥
فصل........ ٢١١
فصل........ ٢١٧
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٢٨
فصل........ ٢٣٠
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٤١
فصلٌ في مقدمةٍ نافعة قبل التحكيم........ ٢٤٤
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٦٥

فصل وهذا أوَّل عقد مجلس التَّحْكِيمِ.. ٢٦٨
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٨٠
فصل في قدوم ركبٍ آخر.. ٢٨١
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٨٤
فصلٌ في قدوم ركب آخر.. ٢٨٥
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٢٩١
فصل في قُدُومِ رَكْبٍ آخر.. ٢٩٣
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٣٢٨
فصل في قُدوم ركْبِ الإيمان وعسكر القرآن.. ٣٣٣
فصل.. ٣٣٩
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٣٦٢
فصل في مجامع طرق أهل الأرض واختلافهم في القرآن........................ ٣٦٤
فصل في مذهب الاقترانية ٣٦٩
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٣٧٥
فصل في مذاهب القائلين بأنه متعلِّقٌ بالمشيئة والإرادة........................ ٣٧٧
فصل في مذهب الكرامية.. ٣٨٢
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٣٨٧
فصل في ذكر مذهب أهل الحديث.. ٣٨٩
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٠٢
فصل في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا انتفت صفة الكلام........................ ٤٠٣
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٠٦
فصل في إلزامهم التشبيه للرب بالجماد الناقص إذا انتفت صفة الكلام.... ٤٠٧

تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤١٠
فصل في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق، حقه وباطله، هو عين كلام الله سبحانه.. ٤١١
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤١٦
فصل في التفريق بين الخلق والأمر.................................. ٤١٨
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٢٣
فصل في التفريق بين ما يُضاف إلى الرب تعالى من الأعيان والأوصاف... ٤٢٤
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٢٨
فصل.. ٤٣٠
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٤٢
فصل في مقالات الفلاسفة والقرامطة في كلام الرب جل جلاله........ ٤٤٤
تمهيد بين يدي الفصل (شرح السعدي رحمه الله) ٤٥٥
فصل في مقالات طوائف الاتحادِيَّة في كَلامِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ........ ٤٦٠
الفهرس.. ٤٧٦